





جمهورية السودان
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامـــــــــــــعة
شـــــــــــــــــندي
كلية الدراسات العليا والبحث العلمي

العلاقات بين المماليك وايلخانات مغول فارس واثرها على مصر وبلاد الشام

648 -741 هـ /1250 -1341م

بحث مقدم لنيل درجة دكتوراه الفلسفة في التاريخ

إعداد /الطالبة جليلة حسن محمد احمد

إشراف/ البروفسير سيف الاسلام بدوى بشير

1440هـ - 2018م


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٦٠ ۞وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦١

صدق الله العظيم

سورة الانفال الايات (60 -61)

الإهــــــــــداء

إلى أصل البدايات وأصل النهايات

إلى من أجلهم تهون الحياة

إلى من أجلهم تستحق الحياة

إلى من سكن حبهم في القلب فكانوا الهواء والنبض

إلى أمي وأبي

وأخواتي

وأخواني

تاج السر ، ومحمد ، وعلاء وأبنائهم

إليهم جميعاً أهدي هذا الجهد المتواضع

شكر وعرفان

قال رسول الله (ﷺ) (من صنع إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافئوه به فأدعوا له حتى تروا أنكم كافئمتوه)

الشكر أولاً لله العلي القدير الذي أنعم علي بنعمة العقل والدين القائل في محكم التنزيل (وفوق كل ذي علم عليم) .

وفاءاً وتقديراً واعترافاً مني بالجميل أتقدم بجزيل شكري للبروفسيور سيف الإسلام بدوي بشير صاحب الفضل في توجيهي ومساعدتي فجزاه الله خيراً .

كما أشكر جامعة شندي ممثلة في كلية الدراسات العليا وكلية الآداب وكما أشكر أمانة المكتبات بجامعة شندي وجامعة النيلين وجامعة أم درمان الإسلامية وجامعة أفريقيا العالمية التي فتحت أمامي أبوابها للإستفادة من مقتنياتها

واتقدم بالشكر للأستاذين الجليلين عضوي لجنة المناقشة ، البروفسير/السر سيد أحمد العراقي و الدكتور /ناصر محمد عثمان عبد الرحمن لملاحظاتهما وتوجيهاتهما

والشكر أجزله لأسرتي الكريمة فقد كانت لي عوناً وسنداً على دوام

وأثني ثناءً حسناً على كل من مد لي يد العون والمساعدة لإخراج هذا البحث

ووقفة خاصة للأخوات **هاجر سيد أحمد وأميمة فاروق الحسين** لمساهمتها في تنسيق وإخراج هذه الدراسة

وجزاهم الله عني خيراً

المستخلص

تناول هذا البحث موضوع العلاقات بين المماليك والمغول الايلخانيين وأثرها على العالم الإسلامي 648 -741 هـ / 1250 - 1341م ، وهى فترة دولة المماليك البحرية في مصر وبلاد الشام وابلخانات فارس حتى الايلخان أبوسعيد . وهذه الفترة تعد جزءاً مهماً من تاريخ العالم الإسلامي لما شهدته من تطورات كبيرة كسقوط الخلافة العباسية والحملات الصليبية والمغولية على مصر والشام.

يهدف البحث إلى إبراز الدور الجهادي للماليك في صد الخطر المغولي على الشرق العربي الإسلامي وإبراز دور الحضارة الإسلامية في تهذيب سلوكيات المغول ومقدرتها الفائقة على صهرهم داخل بوتقة المجتمع الإسلامي، وإظهار الجوانب الحضارية للمسلمين والمغول ودورهم في التاريخ الإسلامي وإثراء المكتبة التاريخية في مجالات الدراسات الإسلامية.

بنيت الدراسة على المنهج التاريخي الوصفي التحليلي وإحتوى البحث على مقدمة وتمهيد وخمسة فصول وخاتمة وملاحق.

إعتمد البحث على المصادر والمراجع العربية والأجنبية بالإضافة إلى الرسائل الجامعية والدوريات.

إنتهى البحث لعدة نتائج أهمها:

أولاً: الإنتصار الذي حققه المماليك في عين جالوت وما أعقبه من طرد المغول نهائياً من بلاد الشام و مصر يعتبر من الحوادث الحاسمة ليس في تاريخ الشام ومصر فحسب ولا في تاريخ الأمم الإسلامية وإنما في تاريخ العالم بأسره.

ثانياً: إتبع المماليك في جهادهم ضد المغول أساليب متنوعة دلت على خبرتهم بقنوات القتال مع مراعاتهم إلى إختيار الزمان والمكان المناسبين للاشتباك مع عدوهم.

ثالثاً: ساهمت دولة المماليك لدور فعال في مجال إدخال الإسلام ونشره بين المغول حتى صار الإسلام الدين الرسمي للدولة الإلخانية.

رابعاً: إن إنتشار الإسلامبين إلخانات المغول لم يوقف الصراع مع المماليك بل ساءت العلاقات المملوكية المغولية وإذدادت حدة العداء إلى حد كبير.

Abstract

This research was aimed to study the relationship between the Mamluks and the Mongols and their impact on the Muslim world 648-741 /1250 – 1341, the period of the Mamluk state in Egypt, the Levant and the Abablanat Faris to the ilkhan of the Aposteid. This period is an important part of the history of the Islamic world because of the great developments that have taken place, such as the fall of the Abbasid Caliphate and the Crusades and Mongol campaigns on Egypt and the Levant.The aim of the research is to highlight the jihadist role of Malik in repelling the Mongol threat to the Islamic Arab East and to highlight the role of Islamic civilization in the refinement of the Mongol behaviors and its extraordinary ability to melt them within the crucible of Islamic society, and to show the civilizational aspects of Muslims and Mongols and their role in history and enrich the historical library in the fields of Islamic studies.

The study was based on the historical descriptive analytical curriculum and contained the research on an introduction, preface, five chapters, conclusion and appendices. The research was based on Arab and foreign sources and references, as well as university letters and periodicals. The search ended with several results, the most important of which are: First: The victory of the Mamluks in EinJalut and the subsequent expulsion of the Mongols from the Levant and Egypt is one of the decisive events not only in the history of Sham and Egypt, nor in the history of the Islamic nations but in the history of the entire world. Second: In their jihad against the Mongols, the Mamluks followed a variety of tactics that demonstrated their experience of fighting channels while taking into account the choice of time and place to engage with their enemy.

Thirdly, the Mamluk state contributed to an active role in the field of the introduction of Islam and its dissemination among the Mongols until Islam became the official religion of the Alkhaniyya state.Fourthly, the spread of Islamism between the Mongols did not stop the conflict with the Mamluks, but the Mamluk and Mongol relations Wazedadt the intensity of hostility to a large extent.

الفهرس

المقدمة:

لم يكد المسلمون يصلون بالصراع مع القوى الصليبية في الشرق الاسلامى إلى قرب نهايته ، في القرن السابع الهجري ، الثالث عشر الميلادي ، حتى فوجئوا بحركة أخرى اشد هولا ، هي حملات المغول على الدول الإسلامية ، الذين استغلوا ذلك التفكك والانقسام الذي حل بالعالم الاسلامى في تلك الفترة ، فاتخذوا من الشرق الاسلامى مجالا لتوسعهم ، فتقدموا من الشرق إلى الغرب ، حتى دخلوا مدينة بغداد، واستطاعوا إسقاط الخلافة العباسية ، ثم تقدموا غربا إلى الشام، ولم يقف أمامهم سوى دولة المماليك المسلمين في مصر ، التي أنزلت بهم هزيمة مروعة في معركة عين جالوت ، وهي أول هزيمة يتلقاها المغول في تاريخهم الصاخب الطويل منذ أيام جنكيز خان، وأوقفت تقدمهم وغيرت موازين القوى ، حتى تحقق لها تطهير بلاد الشام من نير الاحتلال المغولي والصليبي معا .

ومما يسترعي النظر أن الخطر المغولي لا يقل خطورة عن الحملات الصليبية، فقد كانت حملات المغول على مراكز الحضارة الإسلامية ، وقيام دولتهم الكبرى التي كانت تضم الصين وفارس وما بين النهرين واسيا الصغرى وشرق أوربا أهم حوادث التاريخ في القرنين السابع والثامن الهجريين ، والثالث عشر والرابع عشر الميلاديين ، ومع أن غارات البدو على البلاد المتحضرة أمر مألوف إلا انه ليس هناك قوم آخرين غير المغول قد استطاعوا ان يغزو في مدة قصيرة مثل هذه الأقطار التي كانت قد بلغت أوج حضارتها ومدنيتها .

وحدث في الشرق الاسلامى في ذلك الوقت من أسباب التشاحن والتخاصم والتصادم بين القوى الإسلامية ، ما سهل من مهمة المغول في الشرق الاسلامى وجعلهم يقهرون القوى الإسلامية الواحدة تلو الأخرى ، ولا شك أن استيلاء المغول على هذه المنطقة الفسيحة من العالم نتيجة ضروب من القسوة البالغة التي أدت إلى انقراض دول وذهاب عروش ، وقتل ألاف عديدة من السكان ، وتخريب أمهات المدن.

أسباب إختيار الموضوع:

لان تاريخ المغول يعد جزءاً مهماً من تاريخ عالمنا الاسلامى ولم يحظ بالدراسة الكافية كغيره من تاريخ الشعوب الاخرى ، وتسليط الضوء على الجهود الجبارة التي بذلها سلاطين المماليك في سبيل توحيد القوى الاسلامية في الشام ومصر ، للوقوف في وجه اعداء الاسلام ، والتى اثمرت طرد المغول من بلاد الشام وليثبتوا بذلك العمل الجليل اركان دولتهم الفتية التي تعتبر بحق دولة جهادية استحقت عن جدارة زعامة العالم الاسلامى انذاك .

أهداف البحث :

1. توضيح العلاقات بين المماليك ومغول فارس فى تلك الفترة في النواحي السياسية والعسكرية وما ترتب على ذلك من التأثيرات على أوضاع المنطقة بوجه عام.
2. ابراز الدور الجهادي للمماليك فى صد الخطر المغولي على المشرق العربي الإسلامي.
3. البحث في التاريخ الإسلامي .
4. دراسة الجوانب الحضارية للمسلمين وإبراز دور الحضارة الإسلامية في تهذيب سلوكيات المغول ومقدرتها الفائقة على صهرهم داخل بوتقة المجتمع الإسلامي.
5. إثراء المكتبة التاريخية في مجالات الدراسات الإسلامية.

أهمية البحث :-

تناول الدراسة العلاقات بين المماليك والمغول الايلخانين(ومغول فارس):648– 741 / 1250 – 1341 وهي فترة دولة المماليك البحرية وايلخانات المغول حتى الايلخان أبوسعيد 736هـ –1336م وهذه الفترة تعد جزءاً مهماً من تاريخ العالم الإسلامي ، حيث شهدت تطورت كبيرة في العالم الإسلامي كسقوط الخلافة والحملات الصليبية والمغولية.

مشكلة البحث :

إندفاع موجات المغول نحو العالم الإسلامي والصراع السياسي والعسكري الذي قام بين الدولة الايلخانية في بلاد فارس والدولة المملوكية في مصر وبلاد الشام كان له آثار كبيرة على مختلف الأصعدة السياسية والعسكرية وشكل نقطة تحول كبيرة في تاريخ هذه المجموعات.

منهج البحث :

المنهج التاريخي الوصفي التحليلي.

حدود البحث و نطاقه:

الرمانية : – 648 – 741 هـ 1250 – 1341م

المكانية : – مصر وبلاد الشام

الموضوعية :– دراسة تاريخية وثائقية

الدراسات السابقة :

1. جليلة حسن محمد احمد : الصراع الأيوبي الصليبي وأثره في سقوط الدولة الأيوبية 589 – 650هـ – 1193 – 1252م – رسالة ماجستير كلية الآداب جامعة شندي 2010م

   استفاد منها الباحث في جوانب عديدة لهذه الدراسة .

2. عبد الله سعيد محمد الغامدي ، جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين ، رسالة دكتوراه منشورة في التاريخ الإسلامي ، جامعة أم القرى 1407هـ – 1986م.

   استفاد منها الباحث في كل فصول البحث.

استعراض أهم مصادر ومراجع البحث :

من أهم المصادر التي استفاد منها الباحث :

- ابو الفداء الحافظ بن كثير : البداية والنهاية، الطبعة الخامسة ، تحقيق أحمد عبد الوهاب فتيح دار الحديث القاهرة 1418هـ – 1998م
- تقي الدين أحمد بن علي المقريزي : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، نشر محمد مصطفي زيادة، لجنة التأليف والترجمة القاهرة 1980م

- جمال الدين ابو المحاسن ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهر ، دار الكتب المصرية القاهرة 1963 م
- شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري : نهاية الإرب في فنون الأدب ، الطبعة الأولي منشورات محمد علي بيضون الكتب العلمية لبنان 2004م
- أفادت هذه المصادر الدراسة في معالجة موضوعات كل فصول البحث بما أوفرت من معلومات تاريخية مفيدة
- وهناك مصادر استفاد منها الباحث في فصول الدراسة مثل :
- عماد الدين إسماعيل ابو الفداء المختصر في أخبار البشر الجزء الثالث
- جمال الدين محمد بن سالم بن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب الجزء الثاني تحقيق جمال الشيال – دار العلم القاهرة 1957م

هناك مصادر استفاد منها الباحث في كل فصوب البحث بما حوت من معلومات تاريخيه مفيدة مثل

- أحمد مختار ألعبادي : في تاريخ الأيوبي والمملوكي دار المعرفة الجامعية 1998م
- محمد سهيل طقوش : تاريخ المغول العظام والايلخانين الطبعة الأولي دار النفايس بيرون 2007م
- قاسم عبده قاسم وعلي السيد علي :الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري ، عين في الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية القاهرة 1996م

وهناك مراجع إفادة الباحث في فصول معينة مثل :

- محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون في مصر ، دار الفكر العربي 1947م

هذا المرجع أفاد في أحداث الفصل الثالث والرابع

- راغب السرجاني : قصة التتر من البداية إلي عين جالوت ، مؤسسة أقرا للنشر القاهرة 2006م

- رجب محمد عبد الحليم: انتشار الإسلام بين المغول دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت 1986م
- فايد حماد محمد عاشور: العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية ترجمة وتحقيق جوزيف نسيم ، دار المعارف مصر 1974م

صعوبات البحث :

من الصعوبات التي واجهت الباحث قلة المصادر والمراجع التي تتناول تاريخ المغول وعلاقتهم بالعالم الإسلامي في الفترة الزمنية التي تناولها البحث ، كما أن المصادر التي تناولت المعلومات عن المغول كتبت باللغة الصينية والفارسية والتركية وأيضا صعوبة التعامل مع المراجع الأجنبية والبعد عن المدن التي تتوفر فيها المكتبات ولقد تغلب الباحث علي كل هذه المشكلات بفضل الله وعونه.

خطة البحث وهيكله:

المقدمة:

التمهيد :

الفصل الأول: قيام الدولة الإيلخانية في بلاد فارس

- المبحث الأول: الخلفية الجغرافية والتاريخية لمنطقة البحث ممثلة في المغول
- المبحث الثاني: ظهور المغول في بلاد فارس
- المبحث الثالث: احوال القوى الاسلامية في المشرق الاسلامى ابان الغزو المغولى

الفصل الثانى :قيام دولة المماليك البحرية (648 -741 هـ /1250 -1341 م)

المبحث الاول: المماليك الأصل والنشأة

المبحث الثانى: التطورات السياسية في دولة المماليك منذ وفاة عز الدين ايبك وحتى ولاية سيف الدين قطز

المبحث الثالث : العلاقات بين المماليك والمغول في عهد سيف الدين قطز

(657 –658 هـ /1259 –1260 م) موقعة عين جالوت واثارها

الفصل الثالث :العلاقات بين المماليك والمغول في عهد الظاهر بيبرس 658 – 676 هـ / 1260 – 1277م

وتتضمن أهم النتائج التي توصلت إليها من نتائج علمية وأي إضافات جديدة للبحث في مجال التاريخ.

المصادر والمراجع

الملاحق

أسأل الله التوفيق في تحقيق الهدف الذي قصدته من كتابة هذا البحث ، وما التوفيق إلا من عند الله

التمهيد:

تعتبر إغارة المغول على بلاد فارس في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ، إحدى الغارات التي أثرت تأثيرا عظيما في تاريخ الأمم والبلاد الواقعة في أواسط آسيا وجنوب شرقي أوربا ، والتي اكتسحها المغول بجحافلهم وانزلوا بها من الويلات ما يفوق حد التصور .

ويعتبر الغزو المغولي للعالم الاسلامى من اشد الأخطار التي كادت أن تقصف بكيان الأمة الإسلامية ، وكان هدف موجات الزحف المغولي إلحاق الدمار والخراب وتدمير التراث الفكري والحضاري وإعادة المنطقة العربية كما كانت قبل الإسلام تحت حكم الروم والفرس ، فالمغول الرعاة الذين عاشوا حياة تعسة وذاقوا مرارة الفقر والحرمان فقست قلوبهم وخشنت طباعهم لم يرحموا صغيرا ولا كبيرا في العالم الاسلامى وانطلقوا يدمرون كل شيء في طريقهم حتى انتشر الفزع والهلع في كل مكان .

وقد مثلت الدولة الايلخانية أي مغول فارس ، العدو الرئيسي للمماليك واستمر الصدام بينهم وتكرر حتى بعد إسلامهم وان لم يصل إلي معارك حاسمة ومصيرية مثل عين جالوت. كذلك تعاون مغول فارس مع الصليبيين ومع الممالك الصليبية ضد المماليك . ولكن المماليك تمكنوا من صد تيار الغزو المغولي وان يستنقذوا بلاد الشام من براثنهم رغم أن الغزو المغولي لبلاد الشام قد استمر فترة طويلة، وعلى شكل موجات متتابعة تفصلها فترات زمنية .

ولقد واجه المماليك وحدهم المغول الايلخانيين حتى تمكنوا من أنزال الضربة الأولي و الموجعة التي زعزعت أسطورة المغول في عين جالوت التي شكلت انعطافة ايجابية في تاريخ المنطقة من واقع وقف الزحف المغولي الجارف بقيادة السلطان قطز، ومن ثم تولت دولة المماليك مهمتها التاريخية لتصفية الوجود الصليبي في الشرق الإسلامي من ناحية ، والتصدي للمغول وكسر شوكتهم من ناحية آخري ، وتابعوا انتصاراتهم المتواصلة حتى انهارت دولة المغول بعد أكثر من ثلاثة أرباع قرن من نشأتها .

الفصل الأول

قيام الدولة الإيلخانية في بلاد فارس

المبحث الأول:الخلفية الجغرافية والتاريخية لمنطقة البحث

المبحث الثاني: ظهور المغول في بلاد فارس

المبحث الثالث: احوال القوى الاسلامية في المشرق الاسلامى ابان الغزو المغولى

المبحث الأول
الخلفية الجغرافية والتاريخية لمنطقة البحث

البيئة الجغرافية لبلاد المغـــول :

الموقع:

للدراسة الجغرافية أهميتها القصوى في معرفة التأثيرات البيئية على الشعوب والمجتمعات ، حيث أنها تتدخل يشكل مباشر في الصفات والمكونات الجسدية ، والاتصال الخارجي ، والثقافات ، لذا كان لزاما علينا قبل الخوض في الحديث عن العلاقات بين المماليك والمغول أن نلقى الضوء على ابرز ما ميز بيئتهم الجغرافية وموطنهم منذ بداية ظهورهم .

تعتبر منطقة هضبة منغوليا شمالي صحراء جوبي الموطن الاول لظهور المغول في القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى . وهي أراضي واسعة تنعدم المياه في بعض نواحيها ، وهي ممتدة في أواسط آسيا جنوبي سيبيريا وشمالي التبت وغربي منشوريا و شرقي لتركستان بين جبال ألتاي غربا وجبال جيحان شرقا، وتشمل جغرافيتها عددا من خطوط الطول والعرض وتختلف فيها البيئة وأنواع المناخ والتضاريس وتغلب علبها الصفة السهوبية ذات المراعي المتغيرة . وهم شعب أشبه بالترك في اللغة و المظهر العام وعاشوا في بلادهم في شظف من العيش يعملون بالصيد و الرعي في حياة كلها ترحال وتجوال حتى تبدو حركاتهم وراء الرزق زحفا حربيا سريعا. [1]

عاشت القبائل المغولية في المنطقة في وسط آسيا بين نهري (سيحون وجيحون) من الغرب حتى حدود الصين الجبلية من جهة الشرق ، ممتدة حتى أقصي الشمال الشرقي لآسيا ، وتوسع البعض في حدودها حتى امتد إلي البحر الادرياتيكي. وتعتبر هضبة منغوليا وسلاسل جبال (تيان شان) وجبال (ألتاي) و ما بينها من سهول و صحراء جوبي وحول بحيرة بإيكال وضفاف الأنهار الموجودة في تلك المنطقة الموطن الرئيسي لهذه القبائل التي كانت تستقر في السهول الواقعة بين

---

[1] ريتيه غروسيه، جنكيز خان قاهر العالم ، تعريب أسعد خالد عيسي ، دار حسان دمشق ، 1982م ، ص 13

سلاسل الجبال و مناطقها الدافئة شتاء ، ويستقرون في المرتفعات وأعالي الجبال صيفا حيث تكون المنطقة باردة وتتوفر فيها المياه والمراعي. [1]

ولو أردنا أن نحدد إقليما جغرافيا كموطن أصلي للمغول لاستقر رأينا علي منغوليا التي تمتد في أوسط آسيا جنوب سيبريا وشمال التبت وغرب منشوريا وشرق تركستان بين جبال ألتاي غربا وجبال جيحان شرقا . [2]

وفي هذه البيئة القاسية كانت هذه القبائل تعيش علي الصيد والرعي تجري وراء المياه القليلة في صحراء جوبي وفي السهول بين الجبال وتعتلي المرتفعات وراء العشب والمرعي . وكلما قلت الأعشاب انتقلوا الي ارض أخري ، وهذا الارتحال والتنقل هو القاعدة الطبيعية لحياتهم . [3]

وبشكل عام اصبح انتشار المغول فى المناطق الممتدة من سور الصين العظيم جنوبا الى بحيرة بايكال شمالا ، وفى الجنوب الشرقى لهضبة منغوليا حيث تقع صحراء جوبى ، وهى عبارة عن سهل متسع مسطح ومتموج، تغطيه طبقة من الحصباء شديدة الصلابة ، اذ جردتها الرياح الشديدة من التربة والرمال ، ومعظم الأراضي التي عاش فيها المغول أراضي حمراء غير صالحة للزراعة حيث لم تشاهد الا فى اماكن قليلة ومتفرقة ، هذا مع تعقد طبيعتها الجغرافية مما كان له أكبر الأثر في تحول المغول إلي سكان برابرة عرف عنهم الشر والغدر والبحث المستمر عن العيش والتنقل من مكان إلى أخر وراءه . وشكل المغول عدة قبائل مختلفة انتشر بعضها على شواطئ بحر قزوين ، وأقاموا حول هذه الشواطئ مهاجرين من ارض التبت سعيا وراء الرزق ، ونزل آخرون إلى بقاع أخرى في الشمال ما بين منغوليا وجبال ارال . [4]

---

[1] السيد الباز العريني ، المغول ، دار النهضة العربية بيروت ، 1406هـ / 1986م ، ص 5 – 8

[2] مصطفي طه بدر ، محنة الاسلام الكبري أو زوال الخلافة العباسية من بغداد علي ايدي المغول الهئية المصرية العامة للكتاب 1999م ، ص 75

[3] محمد علي الصلابي ، المغول التتر بين الانتشار والانكسار ، الطبعة الاولي الاندلس الجديدة القاهرة ، 2009م ، ص29

[4] أحمد مختار العبادي وإبراهيم محمد علي مرجونة ، المغول والحضارة الإسلامية ، رحلة المغول من الاستكبار الي الانصهار ، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية ،2010م ،ص 34

ومع أواخر القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ظهر شخص يدعى (بسوغاى) وهو سليل عائلة نبيلة من المغول ، كان قائدا على فئة صغيرة من الجنود ، وقضى حياته في دفاع مستمر عن أملاكه ، وبعد وفاته ترك عدة أبناء كان أكبرهم (تيموجين) في العاشرة من عمره وطبقا للعادات المغولية فقد اضطر هذا الصبي بسبب وفاة والده أن يظل دائم التنقل منذ صغره لتامين حقوقه الوراثية . وراودته فكرة الزعامة منذ الصغر فجمع حوله المؤيدين وبدا في السيطرة على القبائل التترية والمغولية الموجودة آنذاك ، ومنها قبيلة الميركيت والمانجول ، ثم تلقب بلقب جنكيزخان ، وواصل سياسته التوسعية ، وصارت أعمال جنكيزخان ومجهوداته تحقق نجاحات كبيرة في إسقاط القبائل والمدن المجاورة له واضحي قريبا من تأسيس إمبراطورية مترامية الأطراف ، وساعدته الظروف في تحقيق هدفه حيث وجد مؤيدين مخلصين يثق فيهم ، وأغدق عليهم العطايا ، يضاف إلى ذلك الانحلال السياسي والاجتماعي الذي كانت عليه القبائل المغولية والتترية بجانب حنكته العسكرية ومهارته الحربية . [1]

وعلى هذا الأساس بدأت حدود الإمبراطورية المغولية تتسع ، وضمت إلى أقاليمها عديدا من بلاد الصين ، ومنذ ذلك الحين أصبحت لفظة مغول أوسع انتشارا من لفظة التتار ، ولكن هذا الأمر لم يستمر كثيرا إذ أصبحت لفظة التتار هي الأكثر شيوعا ولا سيما في المصادر العربية ثم صار التعبير بلفظ المغول أو التتار يعنى شيئا واحدا ، وهو إمبراطورية جنكيزخان ، وتوزع المغول في المناطق الممتدة من سور الصين العظيم جنوبا إلى بحيرة بإيكال شمالا ، وفى الجنوب الشرقى لهضبة منغوليا ، وكان مستواهم الحضاري على درجات متفاوتة وحسب مناطق سكناهم . [2]

الإمتداد الجغرافي للمغول:

برز المغول كقوة عالمية ذات شهرة دولية واسعة النطاق خارج موطنهم الأصلي منغوليا في خلال العقدين الأول و الثاني من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي. وقد استطاعوا أن يؤسسوا لهم اكبر إمبراطورية عالمية عرفها تاريخ

---

[1] المرجع نفسه ، ص 36

[2] احمد العبادى وابراهيم مرجونة ، مرحع سابق ، ص 36

البشرية في اقصر مدة حيث تكونت إمبراطوريتهم الواسعة الإرجاء و المترامية الأطراف في خلال الثلاثة عقود الاخري بدءا من الجزر اليابانية و المحيط الهادي شرقا إلي قلب القارة الأوربية غربا ومن سيبيريا وبحر البلطيق شمالا إلي الحدود الشمالية للجزيرة العربية و بلاد الشام وفلسطين جنوبا(*) (1)

بدأت أسرة كبت التي تسيطر على منشوريا وشمالي الصين تشعر بضغط المغول بعد إن امتد سلطانهم ألي الشمال الغربي من منغوليا ، فسعي الإمبراطور الصيني ألتأن خان لإثارة العداء بينهم وبين التتار . والمعروف أن العداء بين الطرفين يتمحور حول السيادة . (2)

وقد اشترك بسكاي بن برطام والد جنكيز خان في هذه الحروب التي نشبت بين الطرفين ، وقتل في احد المعارك سنة 550هـ / 1155م ، احد زعماء التتار ويدعي تيمور جين فسمي ابنه بهذا الاسم تخليدا لهذا الانتصار وهو الذي عرف فيما بعد باسم (جنكيزخان(*)) (3)

وعندما بلغ تيمو جين السابعة عشرة من عمره بدأ نجمه يسطع في سماء منغوليا واستطاع بذكائه أن يستقطب كبار رجال القبائل من أتباع أبيه ، كما انضوت عشيرته تحت لوائه وسلطانه وقد اظهر من قوة البأس ومضاء العزيمة وظل يناضل حتى تمكن السيطرة على قبائل المغول وقضي على كل الحركات التي تهدف إلي عرقلة جهوده فاختاروه خانا على المغول . وكان ذلك في مطلع القرن السابع للهجرة /

(*) ملحق رقم (1)

(1) محمد سهيل طقوس تاريخ المغول العظام والايلخانين، دار النفايس بيروت – الطبعة الاولي ، 1428هـ / 2007م ص 19

(2) رينيه غروسيه ، مرجع سابق ، ص 27

(*) جنكيزخان : أن كلمة جنكيز مشتقة من اللفظة الصينية المغولية تشينغ ومعناها القوي أنها لفظة مكونة من مقطعين الأول جنك بمعني قوي و الثاني جيز بمعني جبار فيكون معني اللفظة الكلي الشديد القوي او الجبار . طقوس ، مرجع سابق ، ص 32

(3) السيد الباز العريني ، المغول ، ص 39 ، أو هارولد لامب ، جنكزخان وجحافل المغول ، ترجمة متزي أمين، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1962م ، ص 4.

الثالث عشر للميلاد ، فأحيا بذلك اسم أسرة المغول الذي كان قد اندثر في منغوليا نفسها .[1]

لم يفكر مطلقا في بداية حياته السياسية تأسيس دولة للمغول إنما دفعته الإحداث والتطورات السياسية و العسكرية إلي التوسع على حساب جيرانه ، واضعا بذلك نواة لقيام دولة مغولية في القارتين الأسيوية و الأوربية بقي بعضها حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي فكان له الفضل الأكبر في جعل وحدة الأمم المغولية أمرا واقعا .[2]

وفي عام 602هـ /1206م جمع تيمور جين القوريلتاي – وهو مجمع رؤساء القبائل و القادة – عند منابع نهر اوتون لاتخاذ القرار بشأن الخلافة فمنحه الشاهان – وهو الكاهن الأعظم– لقب جنكيزخان ومعناها أعظم الحكام أو إمبراطور كل البشر، ووافقه المجتمعون على ذلك فملكوه عليهم وقرروا أن يكون حكمه خلفا لأبيه ، وان تكون الخانية أرثا في أولاده من بعده، واتخذ من حصن قراقورم مقرا له واخضع بسلطانه كل صحراء جوبي ، كما تمكن من وضع نظام عام تخضع له القبائل يسمي (إلباسا) يعد بمثابة دستور اجتماعي وحربي.[3]

وبعد أن وحد جنكيزخان منغوليا بما تحويه من قبائل مختلفة تحت سلطانه نودي به خانا أعظم ، وبدأ في التوسع على حساب الدول المتحضرة ، وبدأ بالصين الشمالية ثم اتجه غربا ضد القراخطاي و خوارزم وسيطر على كل مناطق ما وراء النهر وأفغانستان و القسم الأكبر من إيران ، وأرسل اثنين من قادته إلي مناطق قزوين فاجتاحا الكرك وأذربيجان واحرقا مدينة همذان و اصطدما بالقيجاق[*] و الروس.

---

[1] بارتولد شيولر ، العالم الإسلامي في العصر المغولي ، تعريب خالد أسعد عيسي ، الطبعة الأولي ، دار حسان دمشق ، 1986م ، ص 545

[2] عصام عبد الرؤوف ألفقي، الدولة الإسلامية المستقلة في الشرق، دار الفكر العربي القاهرة، 1987م، ص439

[3] السيد طه أبو سديرة ، تاريخ الإسلام في شبه القارة الهندية من الفتح العربي إلي الغزو التيموري المغولي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 2009م ، ص 82

[*] القيجاق غرع من الترك مساكنهم الأصلية حوض نهر ارتش وقد تنقلوا حتي استقروا بحوض نهر الفولجا في جنوبي روسيا الحالية . المغريزي الجزء الأول القسم الثالث ، ص 663

وأسس جنكيزخان المغولي في اقل من عشرين عاما إمبراطورية شاسعة امتدت من بكين إلي القولجا[1]

وقد استولي جنكيز خان على بلاد ما وراء النهر و خوارزم وملتان وافني أهلها وقتل من كان فيها و قضي على ما تعب العرب المسلمون بإيجاده ستة قرون في نيسابور وشيراز وبخاري وسمرقند وغيرها من البلدان وكانت من أعظم عواصم العلم وحواضر الإسلام وممن قام فيها من العلماء ، وكم من خزائن كتب أحرقت ومن مدارس علم قوضت ومن مراصد فلكية دمرت ، وكان سببا في فقدان أكثر ما إلفه علماء المسلمين وحكامهم من التصنيف ما أتاه جنكيز خان وأولاده . [2]

و تمكن جنكيزخان من إنشاء إمبراطورية شاسعة مترامية الإطراف تبدأ شرقا من بلاد الصين وتنتهي غربا إلي العراق وبحر الخرز وبلاد الروس وجنوبا ببلاد الهند[*] ، كما تمكن من إنشاء كثيرا من الطرق الواسعة في بلاد الجبل بآسيا الوسطي فشابه بذلك نابليون كما شابهه في أشياء أخرى كثيرة . [3]

وعلى ضوء ما سبق نخلص إلى نتيجة مهمة وهى أن جنكيزخان كان بمثابة طفرة في تاريخ المغول ، فقد احدث نقلة لهذا المجتمع على أعلى المستويات، وحقق انجازات عسكرية تعد بمثابة معجزات عند المغول من خلال الدقة والتنظيمات واكتساب مهارات من القوى المحيطة والمجاورة لهم ، ولكن على المستوى العام فهو لم يبدع إبداعا خاصا ولم يأت بجديد فكل هذه التنظيمات والتكتيكات عرفتها الجيوش الإسلامية منذ فجر الإسلام ومع بداية غزواتها في بدر عام 2هـ استخدمت الجواسيس ونظم الكر والفر والخداع والميمنة والميسرة والقلب .

---

[1] الشيخ محمد الخضري ، محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية الدولة العباسية ، الطبعة الأولي ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية بيروت ، 1419هـ / 1998م ، ص 135

[2] محمد علي كرد ، الإسلام و الحضارة العربية الجزء الأول ، الطبعة الثانية ، لجنة التأليف و الترجمة و النشر القاهرة ، 1950م ، ص 321

[*] ملحق رقم (2)

[3] ادم متز ، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، تعريب محمد عبد الوهاب أبو ريدة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ، 2008م ، ص 270

ثم جاء من بعد جنكيزخان ابنه الثالث اوكتاي فتابع بدوره توسيع رقعة الدولة وواصل سيرة ذلك الفتح المدهشة، وقد بلغت جيوشه درجة عالية من الكفاية و النظام، وتولي استعادة غربي إيران التي كان قد انتزعها جلال الدين متكبرتي وريث الدولة الخوارزمية . وبلغ بعض قادته الكرج و ارمينيا وأرسل إلي أوربا وشهدت بلغاريا وروسيا و أوكرانيا و بولندا و كرواتيا حتى شواطئ البحر الادرياتيكي إعمالهم الوحشية . [1]

عمل المغول على توسيع إمبراطوريتهم حتى أبواب أوربا الوسطي ، ثم تركزت جهودهم على السيطرة على الشرق الاقصي ، ووطد قوبيلاي السيادة المغولية على كوريا وحاول الاستيلاء على اليابان ولكنه عدل عن مشروعه ، وبلغت الإمبراطورية المغولية حدودها في عهده وأضحت بكين عاصمة إمبراطورية شاسعة امتدت حتى الدانوب والفرات وبقيت هذه الإمبراطورية تحت سلطان الخان الكبير الذي يقيم في الصين ، ولكن الحكم المباشر في كل ولاية اسند إلي خان أيضا. وقد أدت هذه الوحدة المغولية إلي إقامة علاقات اقتصادية مباشرة على جميع أرجاء آسيا. [2]

ثم بدأ هولاكو الإعداد لغزو الشام وحاصر ميافارقين حتى سقطت بعد أن دافعت حاميتها دفاعا باسلا لم يشهد المغول مثله ، واستشهد صاحبها الملك الكامل محمد الأيوبي الذي رفض قبول السيادة المغولية ، بل مضي إلي ما هو ابعد من ذلك فأمر بقتل قسيس قدم لزيارته مبعوثا من قبل هولاكو . [3]

وتحرك هولاكو واحتل نصبين و الرها و البيرة واقترب من حلب ، وأصبح واضحا أن هولاكو لن يهدأ حتى يسقط الشام بكامله ، وبعد الشام لابد أن تكون الخطوة التالية هي مصر [4]

و بدأت موجات أخرى للمغول بعد غزو العراق و الاستيلاء على بغداد ، فبلغت جيوشه بيت المقدس وامتلك أنطاكية ، وزحف على آسيا الصغرى إلي أن وصل إلي أزمير وأصبح على مسيرة أسبوع واحد من القسطنطينية . [1]

---

[1] هـ . ج. ويلز، مجز تاريخ العالم، ترجمة عبد العزيز توفيق، مكتبة النهضة المصرية ، بدون تاريخ، ص 237

[2] محمد سهيل طقوش ، المغول العظام ، ص 8

[3] ستيفن رانسمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، الجزء الثالث ، تعريب السيد ألباز العرين ، دار الثقافة بيروت لبنان ، 1417هـ/ 1997م ، 523

[4] عباس العزاوي، تاريخ العراق بين الاصلاتين وحكومة المغول، الجزء الأول، مطبعة بغداد، 1935م، ص 187

وبعد غزو العراق قرر هولاكو مهاجمة بلاد الشام ، وأرسل إثناء حصار بغداد فرقة عسكرية بقيادة أريق نوين استولت على أربل ، ومن ثم اشرف المغول على بلاد الشام . وقد حرص هولاكو أن تقوي سيطرة المغول على إقليم الجزيرة وهو الطريق المؤدي إلي حلب هدفه الأول ، وان يخضع الأمير الأيوبي الكامل محمد بن المظفر غازي صاحب ميافارقين الذي رفض قبول السيادة المغولية . وقد ابدي الكامل الأيوبي ضروبا من الشجاعة في مواجهة الحملة المغولية . مما أدي إلي إطالة الحصار لمدة عامين تمكن المغول خلالها من الاستيلاء على نصبين وحران و الرها حتى بلغوا البيرة ، ثم عبروا الفرات واستولوا على سروج واستباحوا منبج . [2]

وواصل المغول تقدمهم في بلاد الشام فسقطت قلعة حارم قرب إنطاكية وحماة و المعرة وحمص . وسيطر على الجزيرة وديار بكر وواصل زحفه حتى استولي على حلب في سنة 1260م بعد أن غدر بأهلها، وقد كانت حلب ضحية المغول ألكبري بعد بغداد حيث سقط من سكانها خمسون ألفا وخرب المغول أسوارها وقلعتها وهي المدينة التي طالما قاومت البيزنطيين في القرن العاشر و الصليبيين في القرن الثاني عشر . وقد أدي سقوط حلب إلي إثارة الذعر في جميع بلدان الشام الإسلامية وأسرع كثير من حكام المسلمين إلي الاستسلام للمغول و الدخول في طاعة هولاكو. [3]

لقد نجح هولاكو في السيطرة على ممالك إيران و العراق واسيا الصغرى وبلاد الشام ثم اتجه نحو مصر في محاولة لاحتلالها حتى يسهل عليه تثبيت إقدامه في بلاد الشام ، كما فعل الصليبيون من قبل لولا أن نجح سلاطين المماليك في إيقاف المغول عند حدهم بعد أن انزل بهم السلطان قطز الهزيمة في موقعة عين جالوت سنة 1260م ،وفي الوقت نفسه بسط هولاكو سيطرته على سلاجقة الروم الذين أصبحوا مجرد نواب عن ايلخانات فارس في حكم أسيا الصغرى[*] . [1]

---

[1] ثروت عكاشة، إعصار من الشرق جنكيز خان، الطبعة الخامسة، دار الشروق بيروت، 1992م ، ص 244

[2] الحسن بن علي بن الأثير، الكامل في التاريخ، الجزء الثاني عشر، دار صادر، بيروت، 1402 هـ / 1982، ص 501

[3] سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطي ، الجزء الثاني الطبعة الأولي ، مكتبة الانجلو المصرية ، 1963م ، ص 892

[*] ملحق رقم (3)

مما تقدم يمكن أن نقول أن مساحة منطقة البحث قد شملت ممالك إيران والعراق واسيا الصغرى وبلاد الشام ومصر، ويشكل عام أصبح انتشار المغول في المناطق الممتدة من سور الصين العظيم جنوبا إلى بحيرة بايكال شمالا ، وفى الجنوب الشرقي لهضبة منغوليا حيث تقع صحراء جوبي. [2]

ولم يتوقف المد المغولي عند هذا الحد ، بل خرج إلى مناطق أخرى في آسيا الوسطى من النهر الأصفر شرق آسيا إلى حدود أوربا الشرقية اى ما بين الصين ومنغوليا وإيران وأرمينيا وروسيا ، ويمعنى آخر يمكننا أن نقول إن الإمبراطورية المغولية عشية وفاة جنكيزخان سنة 624هـ/ 1227م كانت تمتد من النهر الأصفر قي الصين ، والمحيط الهادي شرقا إلى العراق العجمي غربا ، ومن نهر السند وجبال الهملايا جنوبا إلى سبيريا شمالا ، وما أن شارف النصف الأول من الفرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي على النهاية ، حتى وصل المغول في فتوحاتهم إلى قلب أوربا ، واسيا الصغرى في الغرب ، وتوغلوا في أراضى الصين الجنوبية في حملة بقيادة (قوبيلاى خان بن تولوى بن جنكيزخان)، والأخرى بقيادة هولاكو الذي استطاع أن يصل إلى أراضى الشام بحلول عام 657 هـ/ 1259 م بعد أن قوض قوة الإسماعيلية الحشاشين الشيعة بإيران ، وقضى على الخلافة العباسية في بغداد . [3]

ولقد سكن المغول في مناطق شتى من إطراف الصين إلى أواسط آسيا ، وكانت جغرافية تلك المناطق تتضمن عددا كبيرا من خطوط الطول ودوائر العرض ، ولذا اختلفت بيئتها ، وتنوع مناخها وتضاريسها ، وغلب عليها الصفة السهولية ذات المراعى المتغيرة . [4]

---

[1] سعيد عبد الفتاح عاشور ، أوربا العصور الوسطي الجزء الأول التاريخ السياسي ، الطبعة الرابعة ، مكتبة الانجلو المصرية ، 1966م ، ص 616

[2] احمد العبادى وابراهيم مرجونة ، مرجع سابق ، ص 38

[3] ثروت محمود عكاشة ، جنكيزخان ، الأمبراطور الدموي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1951م ، ص 87

[4] عبد الحميد العبادى ومحمد مصطفى زيادة و ابراهيو العدوى ،الدولة الاسلامية تاريخها وحضارتها ، دار النهضة المصرية للطباعة والنشر ، ص 141

وقد أقام المغول في ابرلن والني كانت تعرف ببلاد فارس ، دولة مغول فارس المعروفة بالدولة الايلخانية (656 –735 هـ/ 1258 – 1335 م)[*] واتخذت من تبريز بأذربيجان عاصمة لها ، بعد توقف مد المغول على اثر هزيمتهم من المماليك بمصر بقيادة قطز (658 هـ/ 1260م) ، وكان جيش هولاكو بقيادة كتبغا ، وأرادوا قصد البلاد المصرية والاستيلاء عليها ، فتصدى لهم المماليك ، ودارت معركة عين جالوت سنة 658هـ /1260م ، وحقق المماليك فيها نصرا كبيرا . [1]

الأصل والتركيبة السكانية:

اختلف التتار عن المغول وغم كونهما من اصل واحد (الاصل التركى) حيث كان التتار اسبق في الظهور من المغول ، ةمصطلح التتار هو اسم مشتق من (تات) بمعنى الجبل و (ار) بمعنى ساكن ، اى ساكن الجبل ، وقيل كذلك كلمة فارسية بمعنى انسان ، وكلمة ترتر في الاساطير الاغريقية تعنى عالم الغيب او الجحيم ، وقد عرفت اوربا هذا الشعب باسم (ترتر) ، ويروى الكثيرون إن اسم التتار مشتق من اللغة الصينية ، اذ كانت هناك قبيلة يطلق عليها (تاتا) او (دادا) او (تاتان) تسكن منطقة منشوريا وشمال شرق منعوليا في القرن الخامس الميلادى، وقد قيل إن اسم التتار يعنى رامى السهم ، هذا وقد اطلق عليهم العديد من الاسماء الاخلرى ، منها الططر والتتر والتتار وهى كلها مسميات لشعب واحد هم التتار . [2]

عن الأصول التترية والمغولية فقد اجمعت معظم آراء المؤرخين على إرجاع نسب التتار والمغول إلى الجنس التركي وأنهما يعودون إلى أرومة واحدة ، وهذا ليس فقط لكونهم من أصل واحد ، وهو الأصل التركي ، بل لاشتراكهم في خصائص ثقافية ثابتة وواحدة ، وام يتوقف الأمر عند هذا الحد ، بل قيل أن التتار والمغول فرعان من فروع الأمة التركية . [3]

---

[*] ملحق رقم (4)

[1] ركن الدين بيبرس ، الدوادار المنصوري ، التحفة المملوكية في الدولة التركية ، نشر عبد الحميد صالح ، الطبعة الأولى ، الدار المصرية للكتب ، 1987م ، ص 44.

[2] العبادى وابراهيم نرجونة ، مرجع سابق ، ص 22

[3] المرجع نفسه ، ص 28

ويروى علماء الاجناس ووصف الانسان إن الترك والمغول والمماليك واهل النبت تظهر عليهم صفات متشابهة من حيث الجلود المصفرة ، والوجه والعيون والشعور ولونها ، الجميع من اصل واحد ، وحتى عندما اجتاح المغول العالم الاسلامى لم يقو على التصدى لهم إلا المماليك من بنى جلدتهم . [1]

وذهبت بعض الآراء إلى أن أصولهم لم تكن تركية خالصة ، بل هم قاموا بطرد الأقوام التركية من منغوليا وحلوا محلهم ، وبعد التعايش والتزاوج حدث نوع من اختلاط الأنساب ، فأصبحوا ذوى أصول مختلطة ، وهناك زعم أيضا أن الترك شاركوا العرب فى أنسابهم ، وهم من العرب متقاربون غير متباعدين ، وقيل أن أكثر أمم العالم فرقتان هما : العرب والترك . [2]

اما بالنسبة لمزاعم الاصول العربية ، فهذا كان حال اغلب الامم فارسية كانت ام تركية ، ولم يتوقف الامر عند هذا الحد بل تعدى إلى الغرب الاسلامى وظهرت هذه المزاعم عند البربر ، فقد حاول الجميع إن يربط نسبه بنسب العرب لينال بعضا مما كان عليه العرب من افضلية نسب . [3]

المغول شعب بدوى ينقسم إلى عدد من الطوائف والقبائل العديدة تسكن إقليم منغوليا الذي هو جزء من هضبة آسيا المركزية والشرقية ، وكانت هذه القبائل البدوية لا تعرف معنى الحضارة ، ولشدة بداوتهم كانت كل قبيلة من تلك القبائل تكون وحدة متماسكة من ناحية الجنس واللغة ، ويرأسها رئيس يحمل لقب (نويان) تطيعه وتأتمر بأمره ، ولذلك كانت حياتهم فطرية بدائية بسيطة لا يتسرب إليها التعقيد ، وكانوا يقضون معظم أوقاتهم في المنازعات القبلية وفى البحث عن منابت العشب والكلا. [4]

يحيط الغموض بالتاريخ المبكر للمغول، و المعروف أن هذه اللفظة من كلمة مونغ الصينية وهي بمعني باسل و شجاع ، و عندما ظهر المغول في مطلع القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي عرفوا باسم التتار *، و الحقيقة أن قبائل

---

[1] جمال الدين ابو المحاسن ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهر ، دار الكتب المصرية القاهرة 1963 م ، ج 7 ، ص 28

[2] ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج7 ، ص 28

[3] العبادى وابراهيم مرجونة : مرجع سابق ، ص 29

[4] عبد السلام عبد العزيز فهمى ، تاريخ الدولة المغولية فى ايران ، دار المعارف القاهرة ، 1981م ، ص 9

التتار ظهرت في التاريخ منذ القرن السادس الهجري وعاشوا غرب بحيرة بإيكال حتى نهر كير ولين ، وانقسموا ثلاثة أقسام التتار البيض الذين ينزلون خارج سور الصين فتأثروا بالحضارة الصينية ، و التتار السود في شمال صحراء جوبي يمارسون حياة البداوة و التنقل ، وتتار الغابة على الروافد العليا لنهري اوتون وكير ولين حيث يمارسون حياة الصيد . (1)

وظل التتار هم المسيطرون على زمام الامور اصحاب شدة الباس والجبروت، ومع ذلك كانت تنشب بينهم الحروب لاتفه الاسباب وقد تستمر معاركهم عدة سنوات، فذاع صيتهم وانتشرت شهرتهم، وزادت شهرتهم من غيرهم من القبائل. (2)

وقد تنوعت عناصر السكان فكان المجتمع المغولي في بدايته قاصرا على المغول البيض الأكثر تحضرا و الذين عاشوا شمال الصين ، والمغول السود الأقل تحضرا و الذين عاشوا إلى الشمال منهم ، والمغول المتوحشون وهم سكان الغابات والبراري وقامت حياتهم على الصيد ، واتحد التتار والمغول فيما بينهم وأصبحوا يمثلون عنصرا سكانيا واحدا ولا سيما أن أصلهم واحد وهو الأصل التركي . (3)

أما المغول فقد تفرعوا من الامة التركية ، ومنها تتفرع معظم البطون ، وهم قبائل مستقلة عن التتار كانوا يعيشون بجوارهم في الجزء الشرقي من أسيا الوسطي و في الشمال الغربي من الصين على انهار كيرولين و ارخون . و لان شهرة التتار سبقت شهرة المغول بأكثر من ستة قرون فقد كان لهم من السلطان ما جعل المغول يحملون اسمهم لدي ظهورهم في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي . ويعتبر ظهورهم بالغ الأهمية لما حدث في أسيا من تطورات أخري ، وأول هذه التطورات و أجدرها بالصدارة ما جري من توحيد . (4)

---

(1) عصام شيارو ، تاريخ المشرق العربي الإسلامي منذ دخول السلاجقة بغداد وحتى دخول العثمانيين القاهرة ، دار الفكر اللبناني (بدون تاريخ) ، ص 243

(2) فؤاد عبد المعطى الصياد ، المغول في التاريخ ، ج1 ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1970م ، ص 26

(3) احمد مختار العبادى وابراهيم مرجونة ، مرجع سابق ، ص 257

(4) عصام شبارو ، مرجع سابق ، ص 243

و يمكننا أن نقول في إيجاز دقيق أن المغول جزء من شعوب التتار(*)(4) ، وان جنكيز خان – وهو ابرز قائد في جماعة المغول – استطاع أن يرغم جماعات التتار على الاعتراف بسلطانه. ومن هنا برز اسم المغول حتى أصبح مرادفا لكلمة تتار . وأصبح أكثر التتار ينسبون أنفسهم للمغول مما يجعل من الممكن أن تتحدث عن المغول أو التتار دون أي خلاف . (3)

كان المغول يعيشون حياتهم التي كان طابعها العنف والصراع ضد بعضهم البعض وضد من حولهم ، وكانت تعيش بجوارهم حضارات و ممالك لها شأن في التاريخ . وكان المغول يهاجمون هذه الممالك كلما استطاعوا ذلك ثم يعودون أدراجهم دون التفكير في احتلال هذه الممالك أو القضاء عليها ، كما لم ترغب في الاستقرار، أو بناء المدن الكبيرة وغير ذلك من مظاهر الحضارة المستقرة، بل أخذت تضرب في الأرض بين إطراف الصين و منشوريا إلي بحيرة بإيكال القريبة من تركستان الإسلامية حتى ظهر جنكيزخان فغير من أهداف المغول و من حياتهم تغييرا كبيرا وجعل من الكتل المغولية و قبائلها دولة مغولية واحدة رهيبة لها عاصمة في قراقورم.(4)

قامت عدة محاولات تمهيدية قبل خضوعهم لإرادة جنكيز خان لتوحيد القبائل المغولية غير أنها لم تنجح . فمنذ القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي تحرر

(*) التتار من الأقوام غير التركية التي ورد ذكرها في نقوش ارخون ، وهم من اشد قبائل الجيش الأصفر بطشا و جبروتا في أقاليم آسيا الشمالية ويتشعبون الي شعب كثيرة وقد اخضعوا اغلب القبائل المجاورة لهم بحيث أن قبائل الأتراك على اختلاف مراتبهم وطبقاتهم سموا باسمهم قاطعين على الجميع اسم تتار .وعرف مغول جنكيز خان في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي باسم التتار ، ولم تلبث هذه اللفظة أن أطلقت على أسلافه من الشعوب التي خضعت له على الرغم من أن التتار كانوا قبيلة مستقلة عن المغول . وبعد ظهوره غلب اسم المغول على جميع الشعوب الخاضعة له فاشتهروا في التاريخ بهذين الاسمين . محمد سهيل طقوس ، تاريخ المغول العظام الايلخانين ، الطبعة الأولي ، دار النفائس بيروت ، 2007م ، ص 25

(4) إبراهيم أحمد العدوى ، التاريخ الإسلامي أفاقه السياسية و إبعاده الحضارية، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص 38

(3) أحمد شلبي ، موسوعة التاريخ الإسلامي و الحضارة الإسلامية ، الطبعة الثانية ، مكتبة النهضة ، 1982م ، ص 556

(4) إبراهيم أحمد العدوى ، مرجع سابق، ص 38

المغول من الوصاية التركية بفضل تغلب القراخطاي(*) على الأتراك القيرغير التي فرضت عليهم منذ سقوط الجوان جوان(*) في منغوليا ، أضف إلي ذلك أن تأسيس دولة القراخطاي في الربع الأول من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي قد مثل – على الرغم من ضعف زعمائها – موجة الغزوات البدوية الظافرة قبل مائة عام من ميلادها ، فهي الإمبراطورية المغولية الأولي التي قامت بعيدا عن موطنها الأصلي . ولكن كانت قبائل مختلفة تتنازع على البلاد المغولية آنذاك في مساحة غير محددة مثل الكرايت(*) و التايمان(*) . [1]

استطاع جد المغول بودانستار الذي ينتمي إليه جنكيزخان أن يخضع قبيلة تعيش في الجهات المجاورة له على الشاطئ الشرقي لبحيرة بإيكال ثم خلفه ابنه قايدو فاستقطب القبائل المجاورة في خطوة للاتحاد و التوسع على الأرض فتزايد عدد رعاياه واتخذ لقب خان أي ملك . وأسس الدولة المغولية الأولي وبني المدن على ضفاف نهر أتون وربطها بجسر فوق هذا النهر ، وبهذا يعد المؤسس الحقيقي لقوة المغول ، وعندما توفي كان له ثلاثة أبناء احدهم باسنقر الذي خلفه على زعامة المغول . وهو جد أسرة قيات التي ينتمي إليها جنكيزخان . وعندما توفي باسنقر خلفه ابنه تومة خان الذي أنجب كابل خان وقد خلفه على عرش المغول وهو جد جنكيزخان . [2]

(*) القراخطاي : هم خليط من المغول و التاتغون تقع منازلهم في أقصي الشرق في شمالي الصين وجنوبي منشوريا . سهل طقوس ، المغول العظام ، ص 21

(*) الجوان جوان : شعب مغولي أسس في القرن الخامس دولة مترامية الأطراف امتدت من سهول منشوريا مرورا بالصين وحتى أقاصي تركستان غربا و يلقب حكامها بالخاقانات – محمد سهيل طقوش ، تاريخ المغول ، ص 19

(*) الكرايت : قبيلة مغولية غير ان كثيرا من زعمائها كانوا اتراكا مما أدي إلي التباس المؤرخين بشأن أصلهم المغولي او التركي . استوطنت هذه القبيلة الواحات الشرقية الداخلة في صحراء جوبي وجنوب بحيرة بإيكال حتى سور الصين العظيم واعتنق إفرادها الديانة النصرانية على المذهب النسطوري . طقوس ، تاريخ المغول ، ص 23

(*) التايمان : من قبيلة تركية غلب على إفرادها الطابع المغولي تقع منازلها في الحوض الاعلي لنهر ارخون و منحدرات جبال ألتاي . طقوش ، تاريخ المغول ، ص 23

[1] محمد سهيل طقوش ، مرجع سابق ، ص 23

[2] فاسيلي فلاديميروشن بارتولد ، تركستان من الفتح العربي الي الغزو المغولي ، تعريب صلاح الدين عثمان، الكويت 1981م ، ص 545

دخل المغول في عهد كابل خان في غمرة السياسة العالمية وأصبحوا قوة لا يستهان بها وبلغت الملكية الأولي ذروتها في عهد كابل خاصة بعد أن توطدت العلاقات بينه وبين أسرة كيت التي تحكم شمال الصين (498- 658 هـ / 1105- 1260م) غير أن هذه العلاقة لم تستمر طويلا بفضل تقلبات السياسة الصينية التي كانت تنتهج سياسة تأليب القبائل المختلفة ضد بعضها البعض لاتقاء خطرها . وسرعان ما تحولت هذه العلاقة الطيبة إلي عداء و حرب وحلت الهزيمة بالجيش الصيني في سنة 533هـ / 1239م . ويعد هذا التاريخ بداية لنهوض المغول . [1]

وبعد انفتاح المغول على العالم الخارجي من خلال التوسعات على حساب أراضى الصين حدث تغيير في التركيب السكاني بتواجد المغول داخل الصين والتزاوج بين المغول والصينيين ، مما اوجد عناصر سكانية جديدة وهم معول الصين ، فكونوا بذلك عنصرا سكانيا جديدا دخل على المجتمع المغولي ، وعندما أقام هولاكو الدولة الايلخانية (مغول فارس) بإيران بداية من سنة 654 هـ /1256 م ، كانت منطقة فارس تشهد عديدا من مناطق السكان وهم العرب والفرس ، وكانت لهم لغة فارسية خاصة بهم ، وكانت ضمن عناصر السكان في بلاد فارس إبان حكم مغول فارس حوالي ثلاثة في المائة من المسيحيين التبشيريين ، وقلت هذه النسبة بعد اعتناق المغول للإسلام في عهد غازان محمود (964 -703 هـ /1295 -1304 م). [2]

واسهم أيضا في تشكيل النسيج السكاني بفارس أهل الذمة من المسيحيين واليهود والمجوس من مختلف الأجناس ، ومارسوا أعمالا تناسب خبراتهم فكان منهم الأطباء والمهندسون والتجار والصيادلة ، وتدرجوا في تلك الوظائف حتى اعلي المناصب ، وتأثر بهم المغول في نواح عديدة بعدما أصبحوا عنصرا من عناصر السكان بفارس مع قيام دولتهم بها وتحول النظام الطبقي إلى مغول سادة يحتلون المكانة العليا المرموقة ، يليهم أتباعهم من الوزراء والمستشارين وهم من المسلمين في اغلب الأحيان وعامة المجتمع وقع عليهم عبء خدمة المغول وتنفيذ أوامرهم ودفع

---

[1] رينيه غروسيه ، مرجع سابق ، ص 21

[2] احمد العبادى وابراهيم مرجونه ، مرجع سابق ،ص 258

الضرائب لهم ، والطبقة الدنيا من الجواري والرقيق تكفلت بخدمة المغول دون أن يكون لهم أية حقوق . [1]

هكذا حدث امتزاج وتزاوج بين المغول وطبقاتهم وعناصر سكانهم وبين أهل فارس مما احدث نقلة في حياة المغول وزاد من المؤثرات الإسلامية عليهم.

يضاف إلي ذلك أن الطائفة الإسلامية قد لعبت جانبا في هذا الصراع ، وهكذا انشغل الحكام المسلمون فيما بينهم ولم يقدروا خطورة المغول إلا بعد أن اتجهوا إلي الغرب حيث الدولة الخوارزمية ، ثم إلي آسيا ألصغري . ثم إلي صوب روسيا واروبا الشرقية حني هنغارية وبولندا وأخيرا إلي سواحل البحر الادرياتكي . [2]

العقيدة الدينية:

كان المغول كغيرهم من الأقوام الأقدمين وثنيين وكانت ديانتهم الرسمية تسمي (الشامانزم) وهى نوع من الديانة الوثنية ، وتتمثل في عبادة مظاهر الطبيعة وخاصة الشمس . كما تتمثل أيضا في عبادة كل ما يخشونه ويرهبونه ، فلهم آلهة في النهر والجبل والشمس ، وهم يتقربون إلى هذه الآلهة دفعا لشرها وأذاها ، وإبعاد غضبها وجلب رضاها ، وفضلا عن ذلك ، كان أتباع هذه الديانة يعبدون أرواح أجدادهم القدامى ، لاعتقادهم أن لهذه الأرواح سلطانا كبيرا على حياتهم ، وتمتاز بشدة الطاعة لكهنتها ، ولم تستطع تعاليمها الصمود أمام الديانات الاخري التي احتك بها المغول الأمر الذي أدي إلي ذوبانها وتحول المغول عنها إلى البوذية في الصين و الإسلام في البلاد الإسلامية و المسيحية في روسيا. [3]

وقد احتفظ المغول بديانتهم وعاداتهم الأولى التي هي من أهم مميزاتهم البارزة، فقد كانت حياتهم رعوية ونظامهم قبليا ، ولم تكن ديانتهم معدودة ضمن تلك الأديان التي تستطيع أن تقاوم جهود الأديان الكثيرة الإتباع والأنصار ذات اللاهوت المنظمة

---

[1] عصام الفقى ، مرجع سابق ، ص 275

[2] محمد سعيد عمران المغول واروبا ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية 1997م ص13

[3] محمد سعيد عمران المغول والاروبيون والصليبين وقضية القدس ، دار المعرفة الجامعية، 2009م ، ص 32

الذي يملك قوة الإقناع وسد حاجات العقل ، وذات الهيئات المنظمة للمعلمين الدين ،تلك التي كانت تحيط بالمغول من اليهودية والمسيحية والإسلام . [1]

ومن عموم مذاهبهم الإقرار بوحدانية الله تعالى وانه خلق السموات والأرض وانه على كل نشئ قدير ، ومنهم من اعتنق اليهودية ومنهم من اعتنق النصرانية ، ومنهم من اتبع الذي كان عليه جنكيزخان في التدين وجرى عليه سلفه من بعده منهاج الياسا التي قررها ، وهى قوانين وضعها ورتب فيها أحكاما وحدد فيها حدودا وافق القليل منها الشريعة الإسلامية وأكثرها مخالف لذلك سماها الياسا الكبرى ، وقد أمر أن تحفظ في خزائنه تتوارث عنه في أعقابه وان يتعلمها صغار أهل بيته. [2]

والواقع لم يكن للمغول دينا محددا في تلك المرحلة يعتنقونه ويجمعون عليه، بل كانت طوائفهم تتنازع الديانات المختلفة من شامانية وبوذية ومسيحية وإسلام ، وعلى الرغم من هذا فأنهم بصفة عامة كانوا بعيدين عن التعصب لمذهب دون آخر، وقد تعاملوا مع كافة الأديان بسياسة التسامح ، فأعفوا رجال الدين منهم من الضرائب، كما منحوهم الحرية التامة في إقامة شعائرهم الدينية يرجح أن المغول قد اشتهروا بالتسامح الديني على أن ما جرى من تعليل ذلك التسامح ، أنه يرجع إلى ما اشتهر به المغول من عدم الاكتراث بالدين ، يعتبر حكما لا يستند إلى أساس متين ، والراجح أن هذا التسامح لم يكن المقصود منه سوى الإفادة من الأشخاص الأكفاء مهما اختلفت دياناتهم . [3]

ولعل منكو خان سنة (1251 – 1260) خير من عبر عن حقيقة معتقدات المغول في لقائه وحديثه إلى بعض القسس والذي يتمثل فيه هذا التأثير بقوله : (نحن المغول تعتقد بان هناك إلها واحدا له نحيا وله نموت وعندنا قلب يخفق بحبه، لكن الله أعطى اليد أصابع مختلفة ، كذلك أعطى الناس طرقا مختلفة ، فقد أعطاكم

---

[1] حسن ابراهيم حسن ، التاريخ الاسلامي السياسي والديني والثاقفي والاجتماعي ، مكتبة النهضة القاهرة ، 1991م ، ص128

[2] أحمد علي القلقشندي ، صبح الاعشي في صناعة الانشاء ، الجزء الرابع تحقيق محمد حسن سمش الدين الطبعة الاولي دار الكتب العلمية بيروت ، 1997م ص 314

[3] محمد علي الصلابي ، المغول بين الإنتشار والإنكسار ، ص 27

الكتاب المقدس ، لكن المسيحيين لم يحافظوا علبه ، وقد أعطانا الشماناس . يقصد رجال الدين المغولي ، ونحن نفعل ما يأمروننا به ونعيش بسلام) . [1]

ولقد قامت منافسة حامية بين المبشرين والدعاة من أتباع هذه الديانات لاكتساب المغول إلى دينهم ، وكان رجال الدين المسلمون والمسيحيون والبوذيون يقومون بمناظرات دينية مع بعضهم البعض في حضرة هؤلاء الخانات وقادتهم ، لدرجة أن أتباع كل ديانة كانوا يعتقدون إن هذا الخان أو ذاك قد اعتنق عقيدتهم أو انه على وشك التحول إليها ، ومصداقا لذلك فان قوبيلاى خان (1259 –1294م) كان يحتفل مع المسيحيين بعيدي الميلاد والقيامة في عاصمتهم بكين ، وانه كان يفعل نفس الشئ في أعياد المسلمين واليهود والوثنيين . [2]

وفضلا عن ذلك كان أتباع هذه الديانة يعبدون أرواح أجدادهم ، لاعتقادهم أن لهذه الأرواح سلطانا كبيرا على حياتهم ، كما كانوا يدرسون العلاقات بين الأرواح التي يحضرونها ، ويحصلون بواسطتها على كشف الغيب ، والتنبؤ بالمستقبل. [3]

ويقال أن جنكيزخان كان على دين الشامان أسلافه الأقدمين ، ولكنه في الوقت نفسه لم يكن يتعصب لدين بعينه ، بل كان يحترم جميع الأديان ويحضر الحفلات الدينية التي يقيمها الرعايا كل على مقتضى شريعته ، وان أولاده مالوا مع رغباتهم ، فمنهم من مال إلى الإسلام ، ومنهم من مال إلى المسيحية ، وآخرون إلى عبادة الأصنام ، وغيرهم حسب قاعدة الآباء والأجداد. [4]

كذلك استطاعت المسيحية أن تجد لها مجالا خصبا بين هؤلاء المغول ، وقد كانت قبيلة كرايت تدين بالمسيحية ، وكانت هناك كثير من العلاقات التي بين حكام المغول من أبناء جنكيزخان ، وبين الدول المسيحية على اختلافها ، ولما غزا خلفاء جنكيزخان أوربا ، وأوقعوا بالأوربيين كثيرا من النكبات ، هلع المسيحيون وأصبحوا

---

[1] محمد صالح داؤود القزاز ، الحياة السياسية فى العراق فى عهد السيطرة المغولية ، مطبعة القضاء ، النجف ، 1970م ، ص 21

[2] عادل هلال ، العلاقات بين المغول وأوربا وأثرها على العالم الإسلامي ، منظمة عين للبحوث والدراسات الإنسانية والإجتماعية ، 1997م ، ص 167

[3] فؤاد الصياد ، المغول فى التاريخ ، ص 335

[4] فؤاد الصياد ، المغول في التاريخ ، ص 335

ينظرون إلى المغول نظرة خوف وفزع ، ولكن أخبار الرحالة المسيحيين في الاراضى المغولية ، وما لاقوه من عطف ورعاية على ايدى المغول كانت قد أعادت الثقة والطمأنينة إلى نفوس المسيحيين في أوربا ، فبدأت نظرتهم تتغير نحو المغول ، وفكروا في الاستفادة منهم ، وصاروا يعملون على استمالتهم إلى جانبهم ، واضعين نصب أعينهم أن يدخلوا هؤلاء الغزاة في الدين المسيحي ، وان يتحالفوا معهم في سبيل القضاء على المسلمين والاستيلاء على أراضيهم ، ولكن هذه المحاولات منيت جميعها بالفشل ، وتم النصر في النهاية للإسلام فقد اعتنق بركة خان القبيلة الذهبية (654 –666 هـ /1256 –1267 م) الديانة الإسلامية ، فكان هذا أول نصر حقيقي للمسلمين ، لا سيما بعد ان اسلم اغلب رعيته ، وقد نتج عن ذلك توطيد العلاقة بين (بركة) و (الظاهر بيبرس) في مصر ، وتحالف الفريقان ضد عدوهما المشترك الذي يتمثل في أسرة هولاكو في إيران . [1]

ولما كان سكان البلاد في غربي آسيا وهي البلاد التي فتحها المغول يسودها الإسلام لذلك أصبحت الديانة الإسلامية هي الغالبة علي المجتمعات التي أصبحت تحت السيادة المغولية . وقد اعتنق المغول الإسلام في النهاية ولعل ذلك يرجع إلي أن أحمد توكودار بن هولاكو (1282 – 1284م) قد اعتنق الإسلام بأمل أن تنتهي الحروب التي دارت بين المغول والمماليك فثار عليه المغول . وقتلوه ، واكن غازان (1295–1304م) قد اعتنق الديانة الإسلامية دون خطر او مشاكل وقد سار على نهجه كل خلفائه . [2]

لقد كانت هناك أسبابا عديدة لاعتناق المغول للإسلام ، أو بمعني آخر انتشار الإسلام بين المغول ولقد كان المحيط الديني الإسلامي الذي وجد بداخله المغول عاملا كبيرا ولكن يجب الا نقالي في أهمية هذا العامل لان الأقلية المنتصرة من

---

[1] المرجع نفسه ، ص 337

[2] محمود سعيد عمران ، المغول والاروبيون والصليبيون ، ص423

العرب مع ظهور الإسلام لم يعتنقوا ديانة الأغلبية المهزومة. وإنما يمكن القول أن ذالك يرجع إلي التفوق الروحي للإسلام . [1]

أدت الوحدة المغولية إلى إقامة علاقات اقتصادية مباشرة مع جميع أرجاء آسيا، وان التسامح الديني والسياسي الذي اشتهرت به هذه الإمبراطورية مكن لعدد من المرسلين من رهبلنيات الدومينيكان والفرنسيسكان أن يتوغلوا بعيدا في جوف آسيا، وان يقيموا لهم مراكز للتبشير تناثرت من شواطئ البحر الأسود حتى مشارف بحر الصين حتى أن قوافل من التجار الايطاليين انضموا لأول مرة في التاريخ إلى القوافل الأسيوية التي كانت تجوب أقطار الهند والصين وتم تبادل الممثلين السياسيين بين بلاط المغول والدول النصرانية في الغرب . وقد نتج من ذلك اتساع الأفق أمام الاتصالات التبشيرية. [2]

وأقام الإسلام في البلدان التي وقعت تحت السيطرة المغولية نشاطات متنوعة وهؤلاء المغول الذين تناغموا مع جميع الأديان في بداية أمرهم اخذوا منذ أواخر القرن السابع لهجري – الثالث عشر الميلادي يعتنقون الإسلام بتأثير مزدوج من النسبة العالية للسكان المسلمين الذين خضعوا له ، وبدافع الأتراك الذين تمازجوا معهم وانصهروا في بوتقتهم ، وقد برهنوا عن تساهل كبير أمام جميع الأديان والمعتقدات دون أن يفرقوا عند اعتناقهم الإسلام بين المذاهب الإسلامية . [3]

أما في مصر وبلاد الشام فلم يكن هناك من الأقليات الدينية فى زمن المماليك سوى المسيحيين واليهود. [4]

---

[1] احمد بن على القلقشندى، صبح الاعشي في صناعة الانشاء ، الجزء الرابع ، دار الكتب العلمية بيروت ، 1997م ،ص325

[2] محمد سهيل طقوش ، تاريخ المغول العظام ، ص 7

[3] محمد سهيل طقوش ، المرجع نفسه ، ص 9

[4]قاسم عبده قاسم ، عصر سلاطين المماليك ، دار الشروق القاهرة ، 1994 م ، ص78

النشاط البشرى:

الرعي :

أتت حرفة الرعي في مقدمة الأعمال التي قام بها المغولي حيث تميزت الاراضى المغولية بكثرة السهول ذات الحشائش ، وكانت عبارة عن مراع بلا أشجار ولم تكن تلك الاراضى صالحة للزراعة .

كان المغول الأصليون –أجداد جنكيزخان –يشتغلون بالرعي ويعيشون على الصيد لان منازلهم كانت تقع بين السهول والغابات ، ويفصل نهر سيحون بين العالم التركي المغولي والعالم الاسلامى ، لهذا السبب ظل المغول محافظين على تقاليد عنصرهم ، والمغول بصفة عامة قبائل رعوية ذات حضارة فطرية بدائية ، وان اشتهروا بالهمجية والوحشية ، واتهم يعيشون في الأرض فسادا ، ويتلقب حاكمهم بقان أو خان .

أن قسوة مناخ منغوليا هي السبب في فقر الحياة النباتية بها . ففي المنطقة الشمالية الغربية المرتفعة تنمو الغابات السيبرية على سفوح الجبال وتقل كلما سرنا من الشمال إلى الجنوب ، وحيث لا تنمو الغابات ينمو العشب وتصبح المنطقة لها صفات المراعى الالبية ، وفى أواسط جوبي لا تنمو إلا حشائش جافة قليلة وبعض النباتات الملحية ، ولا توجد في بلاد المغول إلا الحيوانات التي تسكن الصحارى عادة. [1]

الصيد :

تلي حرفة الرعي من حيث الأهمية حرفة الصيد ، ويعتبر الصيد من الممارسات المغولية المهمة التي أتقنها هذا المجتمع لأنها متعددة الفوائد حيث اعتبر وسيلة للحصول على الغذاء . [2]

والصيد واجب على كل فرد من المغول ، وعلى الجند التدريب على أعمال الفروسية وتحمل المشاق ، وموعد الصيد في أول الشتاء ، ولا في رحلة صيد إلا عشرة جنود فقط ، حتى لا يخلو الميدان من المقاتلين . [3]

---

[1] مصطفي طه بد ، مرجع سابق ، ص75

[2] احمد العبادي وابراهيم مرجونة ، مرجع سابق ، ص 260

[3] عصام الفقى ، مرجع سايق ، ص 170.

الزراعة :

إن الظروف الجغرافية في هضبة منغوليا شمال صحراء جوبي قد جعلت منه إقليما قفرا فان الجبال المحيطة بهذه الهضبة تمنع عنها الرياح الدافئة الممطرة في فصل الصيف ، وأما في فصل الشتاء فنرى مناخها شديد البرودة ، وكان من اثر ذلك أن انعدمت الزراعة في أكثر جهاتها ، بحيث لم تشاهد إلا في أماكن متفرقة ، فالأرض غير مهيأة أو صالحة لذلك ، والأمطار متقلبة ، والطبيعة الجغرافية معقدة ، وهكذا نرى أن ظروف البيئة تملى على سكان هذه البلاد أن يعيشوا عيشة رعوية ، وان ينتقلوا من مكان إلى آخر سعيا وراء الرزق لذلك كثرت بينهم الصراعات والمنازعات ، فالهجرة من مكان إلى آخر وعدم الاستقرار في مكان معين ، قد أصبحتا من أهم الصفات التي يمتاز بها الشعب المغولي ، ونتيجة لذلك نرى المغولي يكره الزراعة كرها شديدا ، وعلى الرغم من أن المغول كانوا يحتلون بعض السهول الخصبة أحيانا ، فإنهم لم يحاولوا زراعتها، بل يهاجرون من السهول إلى الجبال في فصل الصيف ولا يتركون هذه الجبال إلا إذا انعدم العشب فيها ، وأصبح من المتعذر عليهم البقاء مع ماشيتهم . [1]

ومع ذلك كانت توجد مناطق آهلة بالسكان حيث كانت تقوم الزراعة على أطرافها ، ويسكنها طوائف بدوية وأخرى حضرية تسكن القرى ولذلك كان مستوى المغول الحضاري على درجات متفاوتة . [2]

التجارة :

تاقت نفوس المغول إلى تجارة المسلمين فبعد أن اخضعوا الصين سنة 1214/611م رأوا ما هم عليه من نشاط تجارى وعلاقات مع المسلمين حيث كانت تربطهما علاقات تجارية منذ القدم ونتيجة لازدهار النشاط الاقتصادي فى تلك الدول توجه جنكيز خان بنظره صوب تلك البلاد وأراد الاستحواذ على ذلك النشاط . وبما أن الطرق التجارية تمثل عصب التجارة والشريان الاقتصادي للعالم آنذاك فأراد جنكيز خان السيطرة علي الطرق التجارية وأهمها الطريق الذي يربط الصين بالعالم

---

[1] حافظ احمد حمدى ، الدولة الخوارزمية والمغول ، غزو جنكيز خان للعالم الإسلامي وأثاره السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية ، دار الفكر العربي ، 1994م ، ص 127.

[2] عبد السلام فهمى ، مرجع سابق ، ص 12.

الإسلامي وصولا إلي البحر المتوسط وهو الطريق الذي ربط جنوب شرق آسيا والصين واروبا الشرقية . وبعد هذا الخط أكثر الخطوط الإستراتيجية أهمية في العصور الوسطي .[1]

وعمل المغول بالتجارة وازدهرت حياتهم الاقتصادية خاصة بعد قيام كياناتهم ودولتهم في آسيا الإسلامية مثل الدولة الايلخانية التي أبدت منذ تأسيسها اهتماما كبيرا فى التجارة ، حيث كان للتجارة اثر كبير في التبادل الثقافي بينهم وبين الشعوب الأخرى ، حيث استطاع النساطرة نشر الدين المسيحي بين المغول عن طريق تجارتهم معهم ، وأما التجار المسلمون فقد استطاعوا رفع المستوى الحضاري في منغوليا ، حتى أن المصطلحات التجارية المغولية فقد كانت من التجار المسلمين الإيرانيين ، وكان الاهتمام بالتجارة إلى حد كبير امرأ مألوفا عند شعوب الرعاة ، وتحقق ذلك بما قام به المغول من فتوحات شاسعة ، فسيطروا على طرق التجارة وأهمها على الاطلا ق طريق التجارة العالمي وهو طريق الحرير جسر التواصل بين الشرق والغرب وانتظمت الرحلات التجارية فيه ، وحدث نوع من الاتصال الفكري والثقافي بين الشعوب عن طريق رحلات التجارة ، وأصبح أمر هذا الطريق موكلا إلى المغول ، واهم المدن التي كانت تقع على هذا الطريق ويسيطر عليها المغول كانت (الري ، بخارى ، سمرقند ، بلخ ونيسابور) وقد انتعشت هذه المدن بانتظام الحركة التجارية في طريق الحرير ، وكانت هذه المدن ضمن ممتلكات الدولة الايلخانية بفارس .[2]

وتحسنت أوضاع المغول الاجتماعية بعد العمل بهذه المهنة ، وامتلكوا المواشي والأبقار والجمال والخيول وأصبحوا يتغذون على اللحوم والألبان ولم يطرق الجوع لهم بابا .

وبعد أن أصبح للمغول إمبراطورية واسعة ، بدؤوا في تشجيع التجار على أن يرتادوا الطريق البرى القديم القادم من الصين ويجتاز كردستان ثم إلى شمال بحر

---

[1] عباس عبد الستار عبد القادر الزهاوي التعاون الصليبي المغولي ضد العالم الاسلامي 651-722هـ/ 1253-1322م ، مجلة التراث العلمي العربي ، العدد الاول 2014م ، ص 143

[2] عصام الفقى ، مرجع سابق ، ص 27

قزوين إلى موانئ البحر الأسود ،أما الطريق الآخر فقد بدا من الصين ثم إلى بلاد فارس ثم إلى سواحل البحر الأسود الجنوبية مثل طرابيزون أو إلى مدينة إياس الواقعة في الجنوب الشرقي لآسيا الصغرى ، وقد شجع التجار على أعادة استخدام مثل هذه الطرق ، ما فرضه المغول من الأمن والنظام حتى أصبح الطريق البرى أفضل من طريق البحر الطويل لمروره بالهند ، وما به من أخطار وكوارث طبيعية ، كما ترتب على سيطرة المغول على بلاد العراق أن جانبا من تجارة الشرق الأقصى وصلت إلى بغداد عبر الخليج ومنها إلى دمشق أو حلب ثم المدن الساحلية الشامية التي كانت في ايدى الفرنج الصليبين لبعض الوقت ، ومنها إلي مدن البحر المتوسط. (1)

وشهدت الدولة الايلخانية حركة تجارية نشطة على الطرق التجارية القديمة إلا أنه عجزت عن أن تعيد إلي نشاطها السابق الحركة التجارية في المحيط الهندي بعد أن أخذت مصر تسيطر عليها تدريجيا إلي جانب مرفأ طرابزون علي لساحل الجنوبي للبحر الأسود نشأ ألان مرفأ إياس الواقع علي البحر الأبيض المتوسط في أزمنيا الصغري الخاضعة آنذاك للمغول . ومن بين الطرق التي فتحت أبوابها للتجارة الطريق الذي يصل بين البحر الأسود والصين الذي يجتاز شمال بحر قزوين والتركستان مارا بالأقطار الخاضعة للقبيلة الذهبية. (2)

وكانت المنافسة بين تلك الطرق علي أشدها تماما كما كانت بين الممالك المغولية نفسها التي تسيطر عليها . وحالت هذه المنافسات من دون حصول المماليك في مصر علي ما يرغبون فيه من الرق من أسواق القوقاز . ولذا صاروا يحاولون الاتصال مباشرة بالبحر الأسود وما يقع حوله من الأقطار عن طريق المضايق بالاتفاق مع بيزنطة ، وعلي أساس من التفاهم والتعامل مع الجاليات التجارية الايطالية المقيمة في شبه جزيرة القرم . (3)

---

(1) محمد سعيد عمران ، المغول والأوربيون والصليبيون ، ص 81.

(2) محمد سهيل طقوش تاريخ المغول العظام ، ص 10

(3) محمد سهيل طقوش المرجع نفسه ، ص11

ورغم ما قام بين المغول والمماليك من حروب بعد سقوط الأمارات الصليبية فإن ذلك لم يعرقل مسيرة التجارة كثيرا ، وتقدمت القوافل من بلاد فارس إلي العراق ثم إلي سواحل بلاد الشام . [1]

---

[1] محمد سعيد عمران ، مرجع سابق ، ص82

المبحث الثاني
ظهور المغول في بلاد فارس

في منتصف القرن الثاني عشر للميلاد ، وفى شمال منشوريا ومنغوليا وتركستان انتشرت قبائل شبه متبربرة تعيش على الرعي وتنتقل من مكان إلى آخر، وتنتمي إلى ثلاث مجموعات : تركية ، منغولية وتونغوزية . [1]

ويحد بلادهم شرقا ولاية الخطا ، وغربا ولاية الاويغور ، وشمالا القرغيز ، وجنوبا قبائل التبت ،كما عاشوا حياة البداوة بما فيها من رعى وغزو وقتال ، وتاريخهم حافل بالغارات والاعتداءات والآخذ بالثار ، كل قبيلة أو أكثر لها رئيس ، وكانت هذه القبائل في صراع مع بعضها البعض وكانوا يعيشون على الصيد ، ومن عاداتهم السرقة والعنف والفجور ، يدينون بالولاء لملك الخطا ، أتقنوا ركوب الخيل وأساليب الفروسية . [2]

وليس من الممكن أن يستقر الكيان السياسي فى هذه البلاد ، وهى على هذه الحال من الفوضى السياسية والاضطراب الاجتماعي ، وكانت الحالة هناك تستلزم ظهور شخصية قوية توحد القبائل المغولية أولا ، وتسيطر على سائر القبائل المبعثرة هنا وهناك ثانيا . [3]

ظلت هذه القبائل المغولية تعيش في حروب ومنازعات حتى ظهر منهم تيموجين وكان أبوه خانا لبعض قبائل المغول ، وقد تطلع تيموحين إلى استعادة ملك أبيه ، والسيادة على قبائل المغول وتوحيدها تحت قيادته ، حتى إذا ما بلغ السابعة عشرة ، استطاع بفضل ذكائه وحنكته أن يجتذب إليه كبار رحال المغول من أتباع أبيه ، حتى إذا ما اقنع أفراد عشيرته بالانضواء تحت لوائه ، التفت إلى إخضاع القبائل المنتشرة في صحراء جوبي ، ولما شعر بتقدير القبائل المغولية، دعا زعماء القبائل في مجلس لاختيار خان لهم ،فوقع اختيارهم عليه ، وبعد أن تم له ذلك اتخذ اسم جنكيزخان اى فاتح العالم ، أو أعظم الحكام أو إمبراطور البشر ، واتخذ مدينة

---

[1] عصام شبارو ،تاريخ المشرق العربى الاسلامى منذ دخول السلاجقة بغداد ختى دخول العباسيين القاهرة ، دار الفكر اللبنانى ، دون تاريخ ، ص 242

[2] عصام غبد الرؤوف الفقى ،الدول المستقلة فى المشرق الاسلامى ،دار الفكر الاسلامى ،1999م ،ص 168

[3] حافظ احمد حمدى ،الدولة الخوارزمية ،ص 127

قراقورم عاصمة لملكه ، وبذلك ألقى على عاتقه توحيد القبائل المغولية تحت زعامته ، ورسم لنفسه سياسة واضحة ترمى إلى التوسع في الجنوب على حساب البلاد لصينية، ثم التوسع في الغرب لإخضاع بعض أعدائه الذين فروا من وجهه ، وشن غارات متعددة على الاراضى الشاسعة المجاورة حتى وصل فرسانه إلى الاويغور ووجد فيهم علماء ومفكرين ، وتطلع هؤلاء البرابرة إلى الاستفادة من خبراتهم في بناء دولتهم واعدوا سجلات ودفاتر الدولة ، ووضعوا الدواوين الإدارية والمالية ،فضلا عن وضع دستور وقوانين الدولة المسماة بالياسا. [1]

وقد نجح تيموجين في بناء إمبراطورية مترامية الأطراف امتدت حدودها من شواطئ بلاد الصين شرقا حتى منطقة البحر الأسود وبحر قزوين غربا ، وبرز اسم هذا القائد المغولي للمرة الأولى حين قاتل التتار على رأس كتيبة جمعها من ارستقراطية الرعاة وانتصر عليهم ، ثم أعلن جنوده زعيمهم تيموجين خاقانا ، وبذلك أحيا اسم أسرة المغول الذي كان قد اندثر في منغوليا نفسها . [2]

وواصل تيموجين سيطرته على قبائل المغول حتى ضم إليه كل بدو صحراء جوبي اتخذ من حصن قراقورم مقرا له ، ونظم أمور دولته ووضع لقومه دستورا يسمى الياسا يتضمن مبادئ وشرائع تنظم أحوال مجتمعه ، كما وضع نظاما حربيا صارما واصل به سياسته التي تهدف إلى إخضاع أقاليم آسيا الشرقية ، وفرض سلطانه على أعدائه الذين فروا من وجهه ناحية الغرب ، فأدى هذا إلى الاصطدام بالعالم الاسلامى حيث هدمت معاول المغول حضارة المسلمين. [3]

ولا شك أن حملات المغول الذين انطلقوا من منغوليا في جوف آسيا ، علي مراكز الحضارة في الصين وإيران والعراق واسيا ألصغري وبلاد الشام ، تمثل مراحل هامة في تاريخ البشرية ، ذلك أن هذا الشعب ظهر في تاريخ العالم مثل شرارة حارقة وعندما خرج من بلاده تحت قيادة جنكيز خان ليتوجه جنوبا نحو الصين وغربا نحو

---

[1] عصام الفقي ، مرجع سابق ، ص 168

[2] فاسيلى فلاديميروفتش بارتولد ، تركستان من الفتح العربى الى الغزو النغولى ، تعريب صلاح الدين هاشم ، الكويت 1981 م ، ص 545

[3] حافظ احمد حمدى ، مرجع سابق ، ص 129

منطقة غرب آسيا على دفعات فى فترات زمنية متقاربة ومتباعدة ، تنشر الرعب والفزع بين الشعوب التي قهرها ودمر بلادها ، وشغلت حملاته علي تلك المناطق حيزا هاما في تاريخ القرنين السابع والثامن الهجريين ، الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين . وكان لها أثرها القريب والبعيد في النواحي السياسية والاقتصادية والثقافية والدينية . [1]

وقد ظل المغول حتى القرن الثاني عشر لا يمثلون سوى مكانة ضئيلة في التاريخ العام باعتبارهم قوما رعاة رحل يقطنون منغوليا بعيدا عن التيارات الحضارية الكبرى في العالم حتى ظهر جنكيزخان فجمع شملهم ونظم جموعهم وكثر أنصاره ، فبسط نفوذه في الشرق و الغرب وأصبح أشهر قواد التاريخ وأعظم الفاتحين . [2]

ومن الخطأ أن نرجع انتصارات جنكيزخان إلي كثرة رجاله فحسب، دون أن نعمل حسابا لمهارة المغول في الفروسية واستخدام الخيل في الحرب فضلا عن براعتهم في التكتيك الحربي واستعمال العدد الحربية بطريقة لم تعرفها بقية الجيوش التي اصطدم بها المغول في ذلك العصر. [3]

قوي ساعد المغول ، فاندفعوا في موجة عاتية كسرت الخط الفاصل بينها وبين عالم الحضارة تدفعهم قوة باطشة نشيطة لجنكيزخان حتى اقتحموا كل سد وتخطوا كل عقبة ، و ما زالت تدفعها القوي الإسلامية بقيادة ملوك خوارزم ثم ابنه جلال الدين متكبرتي تصدهم حينا و تتراجع أمامهم أحيانا ، وهي في كل مرة تحاول أن تكسر من حدتها حتى عجزت عن الصمود فانساب في منطقة إيران كلها ، وحين وصلت إلي فلسطين في عين جالوت استطاع المماليك أن يقفوا سدا منيعا إمامها حطموا موجتها لأول مرة ليحموا العالم الإسلامي . [4]

---

[1] محمد سهيل طقوش ، تاريخ المماليك ، ص 61

[2] حسن خليفة، الدولة العباسية قيامها وسقوطها، الطبعة الأولي، المكتبة الحديثة القاهرة، دون تاريخ، ص 239

[3] سعيد عبد الفتاح عاشور ، تاريخ أوربا العصور الوسطي ، الجزء الأول التاريخ السياسي ، الطبعة الرابعة ، مكتبة الانجلو المصرية ، 1966م ، ص 616 .

[4] حسن أحمد محمود و أحمد إبراهيم الشريف ، العالم الإسلامي في العصر العباسي ، دار الفكر العربي الإسلامي القاهرة ، 1995م ، ص 485

كان أول صدام بين المغول و العالم الإسلامي في سنة 616هـ / 1219م عندما أغاروا على بلاد السلطان علاء الدين محمد بن خوارزم شاه ، واتبع جنكيزخان وسائل وحشية مغولية في حروبه في بلاد الدولة الخوارزمية ، ولقيت بخاري و غيرها من المراكز الإسلامية أشنع ألوان الدمار إذ اتخذ المغول من مساجدها إسطبلات لخيولهم . [1]

ومن الخطأ إن نعتقد إن جنكيزخان سار إلى هذه البلاد على غير خطة رسمها لنفسه ، بل الواقع أن نظامه الحربي كان من أهم الأمور التي وضعها نصب عينيه فاستطاع بهذا النظام وبفضل خططه الهجومية على البلاد الإسلامية أن يحرز ما أحرزه من نجاح ، قد استولى أولا على كل البلاد الواقعة بين نهرى سيحون وجيحون ، ثم وزع أمر الاستيلاء على أقاليم الدولة الخوارزمية المختلفة بين أبنائه وقواده ، فبينما كان جنكيزخان يتم إذلال المدن الواقعة في اعالى نهرى سيحون وجيحون ويمهد للاستيلاء على إقليم غزنة ، وفى الوقت نفسه كان قواد المغول . الذين طاردوا علاء الدين خوارزم شاه والجأوه إلى الفرار إلى إحدى جزر بحر قزوين حيث مات . يعيشون في أقاليم العراق العجمي وأذربيجان وجورجيا . [2]

وبعد ذلك بخمس سنوات وصلت قواتهم إلي مدن (قم) و (قاشان) و (همذان) في فارس ، ولكن السلطان جلال الدين خوارزم شاه – الذي كان قد اعتلي عرش بلاده آنذاك – استطاع أن يسترد منهم هذه المناطق . [3]

مهد انقسام الحكام المسلمين الطريق أمام المغول للانفراد بالسلطان جلال الدين متكبرتي الذي كان يسيطر على سلطنة واسعة فتمكنوا من القضاء عليها تماما، وكان سقوط هذه المملكة نذيرا بالخطر المحدق بالخلافة العباسية نفسها . و أرسل الخليفة المستنصر بالله العباسي يستنجد بملوك بني أيوب في مصر و الشام ، كما بعث رسائله يطلب نجدة القبائل العربية . وفي ذلك الحين كانت جحافل التتر قد

---

[1] ابراهيم أحمد العدوي التاريخ الاسلامي افاقه السياسية وابعاده الحضارية ، مكتبة الانجلوا المصرية القاهرة دون تاريخ ، ص382

[2] حافظ احمد حمدى ، الدولة الخوارزمية ، ص 137

[3] قاسم عبده قاسم و علي السيد علي ، الأيوبيون و المماليك التاريخ السياسي و العسكري ، عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية ، القاهرة ، 1996م ، ص 134

وصلت إلي أعالي العراق واستولت على بعض الأقاليم التابعة لدولة الخلافة . ولما كانت الجيوش المغولية أداة عسكرية ضخمة بالمقارنة بالجيوش الصغيرة لحكام المنطقة كان طبيعيا أن تطوي بلدان الشرق بسرعة هائلة . [1]

وبعد أن قوض جنكيزخان معالم المدن في آسيا و فارس و ما حولها إلي صحراء قاحلة عاد إلي وطنه حيث توفي سنة 625هـ / 1228م . [2]

وفي سنة 649هـ / 1251م اجتمع رؤساء التتار في العاصمة قراقورم وانتخبوا منكوخان بن جنكيزخان ليكون الخان الأعظم ، في السنة التالية أرسل منكو خان حملتين أحداهما توجهت إلي الصين، و الثانية توجهت غربا صوب الأراضي الإسلامية ، وكانت هذه الحملة تهدف إلي تحقيق هدفين رئيسيين القضاء على طائفة الإسماعيلية و تدمير الخلافة العباسية في بغداد . والسيطرة على ما تبقى من العالم الاسلامى حتى مصر . [3]

عهد منكوخان إلي أخيه الأصغر هولاكو قيادة الجيش الذاهب إلي منطقة غرب آسيا لفتح إيران و الشام و مصر وبلاد الروم و الأرمن ، وأوصاه بالمحافظة على تقاليد جنكيزخان وقوانينه في الكليات و الجزئيات ، و استطاع هولاكو أن يفتح فارس و روسيا وان يكون دولة قوية للمغول في فارس وقدم له زعماء فارس و الاتابكه و الحكام المحليون فروض الولاء و الطاعة ، ولم يعد يعكر صفاءه إلا الإسماعيلية الحشاشين فحطم هولاكو قلاعهم واستطاع أن يستولي عليها واحدة تلو الأخرى حتى انتهي عن أخر قلاعهم قلعة الموت في أواخر 654هـ/ 1253م. [4]

---

[1] قاسم عبده وعلي السيد ، مرجع سابق ، ص 134 – 135

[2] سيد أمير علي ، مختصر تاريخ العرب و التمدن الإسلامي ، ترجمة رياض رأفت ، الطبعة الأولي ، دار الأفاق العربية ، 2001م ، ص 339

[3] قاسم عبده و علي السيد ، مرجع سابق ، ص 135

[4] محمد علي الصلابي ، المغول التتار بين الانتشار و الانكسار ، الطبعة الأولي ، الأندلس الجديدة ، القاهرة ، 1430هـ/ 2009م ، ص 190

وفي مناطق ديار بكر وميافارقين ارتكب التتار مذابح مهولة راح ضحيتها ألاف من السكان ثم خرج هولاكو في سنة 655هـ / 1253م من العاصمة قراقورم حتى وصل إيران و استطاع أن يخضعها لسلطانه . [1]

كان لاندحار الحشيشية صدي ايجابي في العالم الإسلامي على الرغم مما كان يعانيه المسلمون على أيدي المغول ، وذلك لان هذه الطائفة قاومت في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي جهود السلاجقة في القضاء عليها ، كما أنها كانت سببا من أسباب الفساد المعنوي و التفرق في العالم الإسلامي . [2]

ولما فرغ هولاكو من محاربة الحشاشين ودحرهم قصد همذان في سنة 660هـ / 1258م وأرسل من هناك رسولا يحمل رسالة إلي الخليفة العباسي المستعصم أخر الخلفاء العباسيين تحمل عباراتها التهديد و الوعيد لعدم وقوفه معه في القضاء على طائفة الإسماعيلية الحشاشين ، ولم يكن هذا الاحتجاج في الواقع إلا ذريعة للمطالبة بالسلطة الزمنية التي سبق أن منحت في بغداد للأمراء البويهيين ثم لسلاطين السلاجقة ، كما دعاه إلي تسليم نفسه و عاصمته بغداد إلي التتار وإلا فان الحكم للسيف . فرد الخليفة على رسالة هولاكو برسالة مماثلة إن لم تفوقها تهديدا. [3]

وبعد أن حقق هولاكو هدفه الأول وهو القضاء على الحشيشية التفت إلي القضاء على الخلافة العباسية التي كانت ظلا باهتا لا يمت بصلة لأيام المجد الأولي

كما أن الدول الإسلامية الأخرى كانت إخفاقا متكررا . وكانت الدولة تمر بمراحل شيخوختها بعد أن تطاول عليها الزمن و أوهنتها الصراعات السياسية و المذهبية ، وبدأت عليها مظاهر الانهيار التي تعود بجذورها إلي ابعد من ذلك في المدى الزمني بسبب التنافس على عرش الخلافة وسيطرة العنصر الأعجمي من أتراك وبويهيين و سلاجقة على مقدراتها منذ العصر العباسي الثاني الذي ابتدأ في 232هـ/ 847 م في ظل تراجع العنصر العربي . [4]

---

[1] صبحي عبد المنعم، المغول و المماليك السياسة والصراع، العربي للنشر و التوزيع، القاهرة، 2001م،ص 15

[2] حافظ احمد حمدى نالدولة الخوارزمية والمعول ،غزو جنكيزخان للعالم الاسلامى واثاره السياسيه والدينيه والاقتصاديه والثقافيه ،دار االفكر العربى ن1994،ص273

[3] محمود السيد، تاريخ عرب الشام في العصر المملوكي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2006م،ص136

[4] قاسم عبده قاسم و علي السيد ، مرجع سابق ، ص 135

وقام هولاكو بالجهود الدبلوماسية التترية ، وهي أنهم تعاونوا مع ملوك أرمينيا و الكرج و إنطاكية و التزموا الحياد إلي جانب حكام الإمارات الصليبية بالشام وأقاموا تحالفات سرية مع نصارى الشام و العراق ، وكذلك تحالفوا مع بعض أمراء المسلمين، ولاشك أن هذه الجهود كان لها دور ملموس في إنجاح الخطة التترية لإسقاط الخلافة العباسية .

ومن ناحية أخرى كانت الجيوش المغولية أداة عسكرية ضخمة بالمقارنة بالجيوش الصغيرة التي يمتلكها حكام المنطقة العربية ، وكان طبيعيا أن تطوى بلدان المشرق الاسلامى في سرعة هائلة ، ويرجع السر في تفوق المغول إلى سرعتهم وقدرتهم على شن الهجمات الخاطفة ، وتطور فنون القتال والأسلحة ، فضلا عن تنظيم الجيش نفسه. [1]

وقد بدأ هولاكو بان طلب من الخليفة العباسي الاعتراف بسيادة المغول ، ولكن الخليفة العباسي رفض ذلك بشدة ، كما أرسل إلي وزيره مؤيد الين بن العلقمي ليجعل منه طابورا خامسا وأعقب هولاكو تهديده بحصار بغداد واعتمد على ما أحدثه ابن العلقمي من إهمال الاستعداد اللازم . [2]

سير هولاكو قواته للاستيلاء على بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية ، وحاصرت القوات المغولية بغداد في سنة 656هـ / 1258م وكانت القوات خلال ذلك يضربون المدينة حتى هلك في نحو أربعين يوما ثمانون إلفا من سكان بغداد ، واضمر هولاكو الغدر للخليفة و مدينته ، فأمر بإخراج الجند خارج بغداد بحجة إحصاء عددهم ثم انزل بهم القتل جميعا . وفي صباح اليوم التالي أباح هولاكو بغداد لجنوده، وظلت الإعمال الوحشية أربعة أيام بلياليها حتى امتلأت خيام المغول بالمغانم فضلا عن رؤوس القتلى التي عمد الجنود إلي اللهو بها على شواطئ دجلة.[3]

---

[1] احمد مختار العبادى ، قيام دولة المماليك ، ص 146 – 147

[2] جلال الدين السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، الطبعة الأولي ، مكتبة الإيمان المنصورة ، 2003م ، ص 455

[3] إبراهيم أحمد ألعدوي ، مرجع سابق، مكتبة الانجلو المصرية ، دون تاريخ ، ص 383

وأخيرا أمر هولاكو بقتل الخليفة المستعصم وزالت الخلافة العباسية . وباستشهاد الخليفة المستعصم وابنه أصبح العراق الإسلامي تابعا للمغول سنة 656هـ / 1258م . وانتهت دولة الخلافة العباسية . [1]

كان لسقوط بغداد صدي هائل وعميق في مختلف إنحاء العالم الإسلامي ، إذ فقدت مكانتها الكبيرة في القيادة والتوجيه وتحولت إلى مدينة ثانوية بالنسبة للحكم الجديد حيث أصبحت مركزاً لإحدى الوحدات الإدارية التي شملت ما يسمى بالعراق العربي. [2]

وكان الغزو المغولي لحاضرة الخلافة العباسية وسقوطها نقطة تحول هامة في توزيع القوى الإسلامية في نظام العلاقات الدولية ، ولقد جرت عملية التحول خلال العقود الأخيرة من القرن السابع الهجري حتى اتضحت ملامح نظام جديد للدول الإسلامية ، ففي الوقت الذي بدأ فيه ظهور وتدعيم قوة المماليك في مصر و الشام من خلال تصديهم للغزو المغولي ودأبهم على تصفية الإمارات الصليبية في الشام ، كانت السمة العامة لهذه المرحلة أي معظم النصف الثاني من القرن السابع الهجري الثاني عشر الميلادي هي التفتيت و التجزئة . [3]

كما أن سقوط بغداد على يد هولاكو شكل ضربة قوية للحضارة والثقافة ، فقد كانت هذه المدينة مركزا هاما للعلوم و الآداب و الفنون وغنية بعلمائها وأدبائها وفلاسفتها فلما حلت بها النكبة قتل ألاف من العلماء و الشعراء على أيدي المغول ، وكانت وان فقدت قوتها المادية لما أصاب الخلافة من ضعف وانحلال لا تزال تحمل احترام جميع المسلمين ، كما أن نفوذها المعنوي كان لا يزال ينتشر في جميع الإرجاء الإسلامية . [4]

---

[1] أبو الفداء الحافظ بن كثير ، البداية و النهاية ، الطبعة الخامسة ، تحقيق أحمد عبد الوهاب فتيح ، دار الحديث ، القاهرة ، 1998م ، الجزء 13 ، ص 229

[2] الشيخ محمد الحضري ، مرجع سابق ، ص 443

[3] نادية محمود مصطفي ، العصر المملوكي من تصفية الوجود الصليبي إلي بداية الهجمة الأوربية الثانية ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، القاهرة ، 1417هـ/ 1996م ، ص 17

[4] مصطفي طه بدر ، محنة الإسلام الكبرى او زوال الخلافة العباسية من بغداد على أيدي المغول ، الطبعة الثانية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1999م ، ص 219

اثار استيلاء المغول على بغداد وقتلهم للخليفة العباسي ، موجة شاملة من الذعر و الآسي في العالم الإسلامي ، وبدأ الناس في مصر و الشام يحسون أن دورهم قريب وان الموقف يتطلب الاتحاد لمواجهة تلك الأزمة التي لم يشهد المسلمون مثلها حتى ذلك الوقت ولكن ملوك الأيوبيين بالشام رأوا أن يتخذوا في مبدأ الأمر سياسة مداهنة للمغول لعل ذلك ينقذهم ، فبعث الملك الناصر صاحب حلب ودمشق إلي هولاكو يخطب وده ، و يسأله أن يعينه على اخذ مصر من أيدي المماليك ، ولكن هولاكو رد عليه ردا جافا يأمره فيه بالخضوع و التبعية دون قيد أو شرط . [1]

وقد كان الناصر يوسف اقوي الأمراء الأيوبيين ، قد أوجس خيفة من التقدم المغولي لذلك رفض تقديم المساعدة لصاحب ميافارقين بناء على طلبه لمقاومة المغول . كما أرسل ابنه إلي هولاكو يحمل التحف و الهدايا و يقدم الخضوع و الولاء، مما عرضه لاستنكار الأمراء المسلمين بسبب تقربه من المغول ، لذلك اظهر الناصر العداء لهولاكو وغادر دمشق إلي الكرك و الشوبك . [2]

ابتهج المسيحيون في كل مكان بسقوط بغداد ، ووضحت صورة التعاون وضوحا كاملا بين هولاكو وبين المسيحيين في غرب أسيا أثناء غزوه بلاد العراق ، فقد كانت جيوشه تتضمن وحدات عسكرية من الأرمن و الكرج المسيحيين . واستمر هذا التعاون أثناء غزو هولاكو بلاد الشام . [3]

وبسقوط بغداد زحف المغول تجاه بلاد الشام ليستولوا على المدن الشامية الواحدة تلو الأخرى ، إلي أن سقطت معظم بلاد الشام في قبضة هولاكو فكون منها الدولة الايلخانية ثم أسرع يطرق أبواب مصر في محاولة لاحتلالها حني يسهل عليها تثبيت إقدامه في بلاد الشام وقد كانت بلاد الشام آنذاك تحت سيادة ثلاث قوى ، هي قوة المسلمين المتمثلة في الملوك و الأمراء الأيوبيين ، قوة الصليبيين ، قوة الأرمن في فليقيا . أما الملوك و الأمراء المسلمون فقد حكموا مدن ميافارقين ونصين وكيفا و

---

[1] محمد سعيد عمران ، المغول وأوربا ، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ، 1997م ، ص 62

[2] قرغريوس الملطي المعروف ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، الطبعة الأولي ، دار الأفاق العربية ، 1427هـ/ 2001م ، ص 277

[3] رجب محمد عبد الحليم ، انتشار الإسلام بين المغول ، دار النهضة العربية للطباعة و النشر بيروت ، 1986م ، ص 44

الكرك وحلب وحماة و حمص ودمشق ولكنهم افتقروا إلي رابطة اتحادية ، فكل أمير يعمل مستقلا عن الأخر ، مما اضعف قوتهم أمام المغول ، ووقف الصليبيون موقف المتردد مع المغول ، وحالفهم الأرمن في فليقيا وشجعوهم على القضاء على الخلافة العباسية وعلى الأيوبيين في بلاد الشام واشتركوا معهم في قتال المسلمين[1]

ثم امتدت غارات المغول إلي ماردين التي كان هولاكو حريصا على أن يظل أميرها تابعا له ، فلما خرج عليه أبناء بدر الدين لؤلؤ حكام الموصل وسنجار واستنجدوا بالسلطان بيبرس سلطان المماليك في مصر ، خشي أن يحذو الملك المظفر أمير ماردين حذوهم ، لذلك عهد إليه بحكم نصبين بالإضافة إلي ماردين. [2]

كان هولاكو بعد انتصاراته الكبيرة في المشرق يضم إلى ملكه الشاسع العريض إيران والعراق ، وكانت الدولة المغولية قي إيران تضم الاراضى الممتدة بين نهر جيحون إلى المحيط الهندي ، ومن السند إلى الفرات وبعض أراضى آسيا الصغرى ، وقد حكم اباقا إيران بعد وفاة والده سنة 663هـ ، وكان حكام إيران يحملون لقب ايلخان للدلالة على تبعيتهم للخاقان الأعظم في الصين ، وتعاقب على حكم إيران الايلخانات حتى سنة 756 هـ /1355م حيث زالت دولتهم . [3]

وكانت كلمة ايلخان تطلق على خان القبيلة ، وتدل على أن حاملها داخل في الولاء والطاعة للخاقانات ومدين لهم بالطاعة ، وكان هولاكو ومن خلفه حتى غازان يحكمون باسم الخاقانات من بكين ، وسمى هولاكو بالخاقان الكبير ،وحكمت أسرة هولاكو حكما مستقلا في إيران زهاء قرن من الزمان . [4]

ومما دفع المغول إلي غزو بلاد الشام أنها تعد الطريق المؤدي إلي مصر ومنها إلي ساحل شمال أوربا ثم المحيط الأطلسي ، وكان على الغزاة أن يحكموا قبضتهم على بلاد الشام بأسرها سواء في الداخل أو على الساحل الشرقي للبحر

---

[1] جمال الدين محمد بن سالم بن واصل ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، الجزء الثالث ، تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ، 1376هـ/ 1957م ، ص 394

[2] محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي المعروف باسم ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الإسفار ، الطبعة الأولي الشركة العلمية للكتاب ، 1991م ، ص 169

[3] عصام الفقى ، مرجع سابق ، ص 205

[4] المرجع نفسه ، ص 205

المتوسط حتى يسهل عليهم السيطرة على مصر ، ومن يسيطر على مصر و بلاد الشام معا يتمكن من السيطرة على الشرق العربي الإسلامي ، ويفتح إمامه أبواب المغرب العربي ثم الأندلس التي تعد بوابة غرب أوربا[1]

جاءت سيطرة المغول شديدة الوطأة على المسلمين في بلاد الشام ،إذ أنهم بادروا قبل كل شي إلي تدمير الاستحكامات و الأسوار و القلاع في البلاد التي خضعت لهم مثل حلب ودمشق وبعلبك وبانياس وغيرها، وحققوا بذلك ما لم يستطع تحقيقه الصليبيون من قبل. [2]

كان الغزو المغولي للعالم الاسلامى عنيفا كل العنف ، فقد خرب المغول كل شيء ونكلوا بالمسلمين وتفننوا في تعذيبهم بشتى الوسائل والأساليب ، حتي ابن الأثير عمدة مؤرخي المسلمين نفسه كان يقلع عن سرد حوادث هذا الغزو كما يتبين ذلك من هذه العبارة ، (لقد بقيت سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها ، كارها لذكرها ، فانا أقدم رجلا وأؤخر أخرى ، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعى الإسلام، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك ، فياليت امى لم تلدني وياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ، ثم رأيت أن اترك ذلك لا يجدي نفعا ، هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى ، فلو قال قائل أن العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى ادم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا ، فان التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها). [3]

شكل هذا الوضع التاريخي عامل إغراء للغرب الأوربي لمحاولة تكوين حلف مغولي نصراني لتطويق العالم الإسلامي الشرقي وإنهاء الوجود الحضاري و السياسي للأمة الإسلامية لكن مشروعات التحالف باءت بالفشل ، لأنه في الوقت الذي كان المغول يستقلون نصارى الغرب للقضاء على الدولة الإسلامية ، كانوا يقومون بمذابح جماعية هائلة ضد شعوب روسيا وشرقي أوربا ووسطها . [4]

---

[1] صبحي عبد المنعم ، مرجع سابق ، ص 17 – 18

[2] السيد الباز العريني ، المغول ، ص 248

[3] ابن الاثير ، الكامل ، ج 12 ، ص 250

[4] سهيل طقوش ، تاريخ المغول ، ص 8

واجه المماليك التحالف المغولي المسيحي وحدهم وتمكنوا من التصدي للمغول و الحيلولة دون تحقيق أهدافهم ، وانزلوا بالمغول هزيمة ساحقة في عين جالوت في سنة 658هـ / 1260م . [1]

لقد خلق الغزو المغولي فراغاً في تاريخ الشرق الإسلامي الذي استسلم للغزاة باستثناء مصر التي تطلع المغول إلي الزحف إليها ، ليتموا بذلك السيطرة على بلاد الشرق الإسلامي وليقضوا على أخر قوة إسلامية في الشرق في استطاعتها التصدي لهم . [2]

وبسقوط بغداد تأسست دولة مغول إيران ليحكمها هولاكو وأبناؤه من بعده ، بعد أن اختار مدينة مراغه في أذربيجان عاصمة له ، وسميت بالدولة الايلخانية وصارت أملاكها تجاور أملاك سلاطين المماليك في مصر و الشام ، فكان لابد أن يقع الاحتكاك و الصدام بين الطرفين خاصة أن الايلخانين اخذوا يهددون المماليك بعد فتح بغداد . [3]

تكونت الدولة الايلخانية [*] المغولية في أواسط القرن الثالث عشر الميلادي تحت إشراف الخان الأعظم في الصين ، وسيطرت على المناطق الخصبة الواقعة إلي الغرب الشمالي من إيران ، وأصبح لها أملاك واسعة وممالك متعددة بعد أن ورثت أملاك كل من الدولتين الخوارزمية والإسماعيلية إضافة لأملاك الدولة العباسية وبدأت تلعب دوراً خطيراً في تسيير الأحداث في فارس وبلاد غرب آسيا. وحرصت على تحسين علاقاتها مع الدول الأوربية خاصة ، وفرنسا التي ساءت علاقاتها مع المماليك في مصر بسبب حملاتها الصليبية عليهم ، وأجبرت العوامل الجغرافية

---

[1] صبحي عبد المنعم ، مرجع سابق ، ص 20

[2] عصام الدين عبد الرؤوف الفقي ، مرجع سابق ، ص 316

[3] صبحي عبد المنعم ، مرجع سابق ، ص 17

[*] يعود إطلاق اسم الايلخانين على هذه الدولة الي كلمة (ايل) المغولية وهي بمعني خاضع او مطيع وبذلك تكون كلمة ايلخان معناها المطيع للخاقان أو تابع الخان الأعظم وهو الذي يمثله ويدين له بالولاء ، صبحي عبد المنعم ، مرجع سابق ، ص 17

الايلخانين على الدفاع عن تلك المخاطر من القوقاز ومن منطقة جيحون ومناطق الفرات واسيا الصغرى . [1]

وهكذا تحمل الايلخانيون مسئوليات ضخمة أذا أن الاندفاع استحوذ على الغزاة بعد استيلائهم على تلك المناطق ، و الانشقاق الذي حدث بينهم و المد الشاسع الذي بلغته موجة الغزو . كل هذا أتاح للمماليك متنفسا ومجالا للعمل على استرداد بلاد الشام وتنظيمها . [2]

وكغيرها من الدول المغولية الأخرى باستثناء القبيلة الذهبية ومغول الهند التي عمرت وقتا طويلا، لم تتجاوز الدولة الايلخانية القرن الرابع عشر الميلادي ، فالي جانب الانقسامات الداخلية التي وقعت في الدولة و التي عطلت كل نشاط فيها ، وشلت كل حركة عجزت عن صهر القبائل المغولية في بوتقة واحدة ، بعد أن قل عددها فعادت حياة البداوة في بعض الولايات من دون الإبقاء على إدارة مالية صحيحة تؤمن جباية الضرائب و الرسوم المفروضة على المرافق الزراعية ، واكتسبت القبائل التركمانية والكردية نفوذا فاق بكثير النفوذ الذي تمتع به المغول . فا ينما حل المغول بنسبة اقل برزت المطالب القومية في الولايات يغذيها فريق من ذوي الإطماع. وهكذا لم تلبث الدولة الايلخانية أن انقسمت إلي دويلات وإمارات حكم قسما منها أبناء البلاد كما حكم أمراء التركمان أو المغول القسم الأخر . [3]

وقد تعاقب على عرش ايلخانية إيران بعد وفاة هولاكو مؤسس هذه الأسرة أبناؤه وأحفاده وغيرهم من غير سلالته[*] ، لكن أفراد هذه الأسرة عجزوا عن مد نفوذهم إلي المناطق الجنوبية الغربية ، إذ تعرضوا لهزائم متكررة على يد المماليك الذين أدركوا أن لا سبيل إلي صد الغزاة ، والتغلب عليهم إلا بالتآزر و الاتحاد وجمع الكلمة، هذا في الوقت الذي تعرضت فيه الأسرة الايلخانية لانشقاق داخلي صدع كيانها، مما أتاح للجيوش المملوكية أن تسترد بلاد الشام . وقامت الحدود نتيجة لذلك

---

[1] عصام الفقي ، مرجع سابق ، ص 316

[2] سهيل طقوش ، تاريخ المغول ، ص 178

[3] كلود كامان ، تاريخ العرب و الشعوب الإسلامية منذ ظهور الإسلام وحتى بداية الإمبراطورية العثمانية ، الطبعة الثالثة ، دار الحقيقة بيروت ، 1983م ، ص 283

[*] ملحق رقم (6)

بين العالم الإسلامي و المغولي انطلاقا من أرمينية الصغرى في فيلقيا و التي قاطعت عند منتصفها مع الطرق المؤدية إلي الهلال الخصيب عند أعالي دجلة و الفرات الأوسط ، وكان من نتاج ذلك أن أصيبت جميع بلدان الشرق الادني الواقعة على طرفي هذه التخوم بهزة زعزعت أركانها ، فالعراق الذي ضمن الإمبراطورية المغولية أضحي منذ ذلك الحين نقطة فاصلة بين قطبي العالم الإسلامي إذ ذاك تبريز والقاهرة. وقد حمل الغزاة معهم الخراب و الدمار بحيث كان السلام المغولي اعجز من أن يزيل معالم هذا الدمار الشامل .

المبحث الثالث

أحوال القوى الإسلامية في المشرق الاسلامى إبان الغزو المغولي

تعرض العالم الاسلامى لفترات عصيبة في القرن السابع الهجري /الثالث عشر الميلادي ، من جراء الغزو المغولي إذ دمرت الجيوش المغولية مدن المسلمين واتت على كثير من المسلمين قتلا أو أسرا ، وقوضت معالم المدنية بكل مكان في غير شفقة أو رحمة وكانت أحوال المشرق الاسلامى في غاية السوء بضمه مناطق تسودها الفتن والدسائس ، وتتنازعها الأهواء والإغراض ، وتصطرع فيها المذاهب والآراء ، ويسيطر عليها حكام متنازعون متباغضون ، ولم يوجد في آسيا في ذلك الوقت قوة تستطيع مواجهة مثل ذلك الغزو العنيف الذي قاده جنكيزخان وأولاده وأحفاده ، فالخلافة العباسية تسير في الاضمحلال ، ودولة السلاجقة في بغداد تبدو كأنها اثر بعد عين ، إما في غرب بغداد وتوجد دولة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى وهى الأخرى آخذة في الضعف والتدهور ، ثم الدولة المملوكية الناشئة بمصر والشام ، ولم تبلغ من العمر سوى بضع سنين ، وكيانها لا يزال فى كفة الميزان ، وأخطار حداثتها لا تزال محدقة بها من كل جانب داخلي وخارجي ، هذا بجانب الدولة الخوارزمية وغيرها من القوى الإسلامية الأخرى المستقلة والمنفصلة عن بعضها . [1]

ويرجع السر في انتصارات المغول إلى كثرتهم العددية وتفوقهم في الأسلحة والى سرعة إطباقهم على العدو ، ثم إلى سرعة الرماية وإحكامها ، فأعمالهم الحربية قائمة على السرعة والقدرة على السبق وهى المعبر عنها اليوم بالحرب الخاطفة ، ومعظم أسلحتهم هي النبال ذات الأطراف الفولاذية او العظمية ، وكانت سيوف المغول مدببة حادة أصلح للطعن منها للضرب . [2]

وقد كانت أهم الدول التي تمثل الشرق الاسلامى في ذلك الوقت موزعة في نطاقها الجغرافي بين إيران والعراق والشام ومصر ، ونجحت هذه الدول في تحقيق الاستقلال عن الخلافة العباسية بسبب حالة الضعف والتردي التي أصابت تلك الخلافة حتى أضحت لا حول لها ولا قوة . [3]

---

[1] احمد مختار العبادى ، قيام دولة المماليك ، ص 145

[2] المرجع نفسه ، ص 146

[3] فؤاد عبد المعطى الصياد ، المغول فى التاريخ ،ص ،61

فقد كان العالم الاسلامى وما أصابه من تدهور تدريجي بطيء من اكبر العوامل التي ساعدت المغول على نجاحهم في غزوه ، ونقصد بالشرق الاسلامى بلاد العراق وفارس ومصر وبلاد الشام ، واصبحت حالة القوى الإسلامية تنذر بالسقوط ، وإمكانية السيطرة عليها من القوى الخارجية وشيكة الحدوث ، لتتفرغ قوى الإسلام للتصارع على أتفه الأسباب ، وسادت الفتن والدسائس وسيطر على حكام المسلمين التنازع والتخاصم والتباغض وأصبحوا يزثرون مصالحهم الشخصية على مصالح رعيتهم وشئون بلادهم . [1]

ثم زحف هولاكو حفيد جنكيزخان غربا نحو فارس في فبراير سنة 1254م ، فقضى على قلاع الشيعة الإسماعيلية الباطنية ثم قضى على الخلافة العباسية وجميع ولايات عرب آسيا ، ولم يبق أمامه سوى الدولة المملوكية بمصر والشام.

الخلافة العباسية :

كانت الدولة العباسية حينذاك تشمل جزء من بلاد العراق يمتد من تكريت إلى الفاو ، ومن حلوان إلى عانة واقتصرت سلطة الخليفة في خارج هذه الحدود على المظهر الديني .

وفى بغداد نفسها كانت الخلافة العباسية قبيل حملة هولاكو قد ظهرت عليها علامات الانهيار علما بان جذور هذا الضعف قد امتدت إليها قبل ذلك بمدة طويلة نتيجة لسيطرة الفرس ثم الأتراك والبويهيين حيث استأثر هؤلاء بالسلطة وطغى نفوذهم على الخلفاء ، ةقد ترتب على تهاون الخلفاء وفقدان هيبتهم أن تجرا الولاة على الاستقلال بولاياتهم والاكتفاء بالولاء الاسمي للخليفة ، وبذلك تمزقت الروابط القوية التي كانت تربط الخلافة بالأمصار ، هذا بالإضافة إلى فساد الإدارة وقيام الاضطرابات والاستئثار بالنفوذ دون الخليفة . [2]

والى جانب ذلك فان ثورات العلويين المتتابعة عملت على استنزاف قوى الدولة، وكذلك عوامل الاضطرابات وفقدان الاستقرار ونقض العهود والتنافس على عرش الخلافة وتردى الأوضاع الاجتماعية بسبب الانغماس في الترف ، كل ذلك

---

[1] احمد العبادى وابراهيم مرجونة ، مرجع سابق ، ص 89

[2] فؤاد الصياد ، المغول فى التاريخ ، ص 155

كان من شانه أن يساعد على اضطراب الأمور ، وان يشيع الفساد في الدولة مما ترتب عليه ضعفها . [1]

وهكذا انفصلت أقاليم الدولة عن الدولة الأم ، حتى لم يبق سوى إقليم العراق وخوزستان ، وأصبحت هذه الدولة عاجزة عن مواجهة قوات المغول المتقدمة من جهة الشرق .

وفى هذا الوقت كان الخليفة هو المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين (640- 656 هـ) ، رجلا مستضعف الراى ، ومع ضعفه فقد كان يعتقد انه قادر على الصمود أمام المغول كما فعل من سبقه من الخلفاء مع البويهيين والسلاجقة والخوارزمية ، إذ كان هؤلاء يستسلمون لأمرائهم في حالة ضعفهم ، وعندما يروا في أنفسهم القوة كانوا يتدخلون في إنهاء سيطرة هؤلاء الأمراء ، فكانت الخلافة ابقي من هؤلاء الحكام . [2]

ولم تكن الأمور في بغداد بيد رجل واحد ، وإنما كانت هناك سلطات متعارضة كل منها يتدخل في عملها ، يتنازعون وكل منهم ينقم على الأخر ، فقد اشتد النزاع بين مؤيد الدين العلقمى وزير المستعصم وبين مجاهد الدين أيبك الداودار الصغير فقد عمل هذا على تهديد الأمن ودبر المؤامرات لخلع الخليفة ، غير لن الخليفة لم يعمل معه شيئا عندما علم بالمؤامرة ، بل أمر بذكر اسم هذا الأمير في الخطبة بعد اسم الخليفة ، وهذا الموقف يدل على سوء الأوضاع التي وصلت اليها الخلافة في ذلك العهد. [3]

كما تفاقمت العداوة والبغضاء بين السنة والشيعة حول المسائل الدينية، والسياسية أيضا، مما أثار مؤيد الدين احد كبار الشيعة فكاتب المغول وحثهم على غزو بغداد وأطمعهم فيها بان كان يطلعهم على ضعف الخليفة ويهون لهم من شانه.[4]

دولة السلاجقة 429 -590 هـ /1038 -1194م

---

[1] احمد عودات وجميل بيضون ، مرجع سابق ، ص 10

[2] فؤاد الصياد ، المغول في التاريخ ، ص 158

[3] احمد عودات وجميل بيضون ، مرجع سابق ، ص 11

[4] ابو الفداء ، المختصر فى اخبار البشر ، ج 3 ، ص 202

يرجع أصل السلاجقة إلى القبائل التركية المعروفة بالاغوز التي كونت إمبراطورية في القرن السادس للميلاد تمتد من الصين إلى البحر الأسود ، وتعرضوا لهجمات من قبل الصينيين وعرفوا بلاد الإسلام عن طريق التجارة واعتنقوا الديانة الإسلامية ، وترجع تسميتهم بالسلاجقة إلى جدهم سلجوق بن دقماق. [1]

وبلغت الدولة السلجوقية أقصى اتساعها في عهد السلطان ملكشاه السلجوقي (465 –485 هـ /1073 –1092م) وتمتعت دولة السلاجقة بوحدة لم تعرفها الدولة العباسية منذ نشأتها ، ولكن الأحوال تبدلت ب وفاة ملكشاه سنة 485 هـ /1092م، وبدا الضعف يعرف طريقه إلى السلاجقة لأنهم اهتموا بالخرب والتوسع الخارجي دون وضع دستور اجتماعي ينظم حياتهم ويحكمهم ولم يضعوا نظاما لوراثة العرش ،بجانب صراعاتهم الداخلية ، التي نشبت بين أبناء ملكشاه وأحفاده من جهة وبين الخلفاء العباسيين من جهة أخرى ، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل تعدى إلى قتل وزرائهم وتهديد سلاطينهم من قبل الفدائيين الإسماعيلية ،ولم يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم أو حماية وزرائهم . [2]

كذلك ومن عوامل الضعف أيضا ، اثر العوامل الخارجية التي شغلت أذهان سلاطين السلاجقة ، ومن أهمها الحروب الصليبية وظهور الدولة الخوارزمية الفتية التي بدأت تعمل لمصلحتها على حساب الدولة السلجوقية. [3]

لم يستطع ابناء ملكشاه أن يحافظوا على إمبراطوريتهم ، فقد اعمنهم المصلحة الشخصية فانشقوا على أنفسهم ، واستهوتهم الحروب الداخلية حتى أعمتهم عن النظر في مصالح تلك الإمبراطورية التي تعب الأولون في تكوينها ، ففي فارس والعراق ، نرى أبناء ملكشاه يتنازعون فيما بينهم كل يريد السلطة لنفسه ، وفى بلاد الشام طمع تبش بن ملكشاه في مد نفوذه على مملكة أبيه ، وادي ذلك إلى قيام حروب داخلية طال أمدها ، وكان من اثر استمرار النزاع بين أبناء ملكشاه أن تفككت القوى

---

[1] احمد مختار العبادى وابراهبم مرجونة ، مرجع سابق ، ص 90

[2] العبادى وابراهيم نرجونة ، مرجع سابق ، ص 91

[3] حافظ احمد حمدى ، الدولة الخوارزمية والمغول ، ص 112

الإسلامية وتحطمت ، وساعد ذلك على نجاح القوى الخارجية الطامعة في اغتصاب ما تستطيع اغتصابه من العالم الاسلامي. [1]

وال الأمر في نهايته إلى إن استقلت كل فرقة تربطها وحدة لغة وعادات وتقاليد عن الأخرى فظهر ما يغلب عليه المسحة الفارسية القديمة ، وما لديه طابع عربي ، وحتى عهد ألب ارسلان (451هـ /1059 م) وما عرف عنه من قوة غير أن إلغاءه نظام البريد قلل من اتصالات الدولة بحاكمها وساعد على ازدياد الأمور سوءا ، ثم أعقب ذلك ازدياد في نفوذ الانابكة وضعف دولة السلاجقة . [2]

الدولة الخوارزمية :

قامت الدولة الخوارزمية في إيران وكانت من اقوي الكيانات الإسلامية إبان الغزو المغولي لبلاد المشرق الاسلامى ، وهى تنسب إلى مؤسسها (توشتكين) ، الذي كان عبدا اشتراه احد أمراء السلاجقة ، ثم شغل منصب الطشتدار ، إلى أن نصب حاكما على إقليم خوارزم ، وكان السلاجقة يعينون على إقليم خوارزم حكاما من قبلهم ، وفى عهد ملك شاه السلجوقي (465- 485هـ / 1076 -1092م) كان الوالي عليها مملوكا تركيا يدعى توشكين الذي استغل بخوارزم ولم يبق للسلاجقة إلا التبعية الاسمية وحصل على لقب خوارزم شاه عام 490 هـ /1096م وأصبح خلفاءه حكاما بالوراثة واتخذوا أيضا لأنفسهم لقب خوارزم شاه ، وكان هدفهم الاستقلال عن الدولة السلجوقية عندما شعروا بضعفها ، بل عملوا على القضاء عليها ليحلوا محلها ، وقد تم لهم ما أرادوا إذ توفى السلطان سنجر السلجوقي سنة 552هـ /1157 م فدخلت ممتلكات السلاجقة في فارس وخراسان في حوزة الدولة الخوارزمية، وأصبحت هذه الدولة تمتد من جبال اورال إلى الخليج العربي ومن جبال السند إلى حدود الفرات ، وفى سنة 590هـ زالت على أيديهم دولة السلاجقة في العراق بقتل ملكهم طغرل بن ألب ارسلان ، وبذلك سيطروا على العراق العجمي وتقلدوا حكم هذه البلاد من الخليفة العباسي . [3]

---

[1] حافظ احمد حمدى ، مرجع سابق ، ص115

[2] احمد العبادى وابراهيم مرجونة ، مرجع سابق ، ص 91

[3] فؤاد عبد المعطى الصياد ، النغول فى التاريخ ،ج 1 ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1970 ، ص 62

ومن ابرز حكام هذه الدولة السلطان علاء الدين تكش (568 –956 هـ / 1172 –1199م) ولما اعتلى عرش الخوارزميين سنحت له الفرصة أن يوطد دعائم ملكه ، ويتوسع ويضم أراضي جديدة إلى دولته على حساب السلاطين السلاجقة في العراق ، خاصة أن الخليفة العباسي الناصر لدين الله (575 –622هـ /1179 – 1225م) ، أراد أن يعيد هيبة الخلفاء العباسيين فاستنجد به للقضاء نهائيا على دولة السلاجقة ووعده أن يقطعه ما بيده من بلاد إذا أنجز هذا الأمر وقد تحقق له ما اراد.[1]

وعندما اعتلى علاء الدين محمد خوارزم شاه عرش الخوارزمية سنة 597 /1200م حقق نجاحات عديدة في مجال التوسعات الخارجية فبلغت الدولة أقصى اتساع لها ، حيث احتل معظم إقليم ما وراء النهر ، ويرجع الفضل في تحقيق كل هذه الانتصارات إلى قوة الخوارزميين في تلك الآونة هذا بجانب جهود علاء الدين محمد خوارزم شاه وما اشتهر به من الدراية العسكرية وحسن التدبير والمهارة والكفاءة الحربية ، وقد كانت لديه رغبة في التوسعات الخارجية هذا إلى جانب مطامعه في بغداد وأملاك الخلافة العباسية ، والرغبة في أن تكون له المنزلة الأولى في بغداد ، فلما عجز عن تحقيق هدفه بالطرق الودية لم يجد بدا من استعمال القوة ، فصمم على غزو بغداد ، فحاول الخليفة العباسي الناصر لدين الله التصدي له ودخل معه في عدة معارك حقق علاء الدين في معظمها انتصارات عظيمة. [2]

وكان الخليفة عندما وجد كل القوى التي اعتمد غليها في محاربة خوارزم شاه ضعيفة منحلة ، ولم تستطع أن تقف في وجه هذا العدو القوى وانه لا قبل له بمقاومته ، لم يجد مفرا من أن يلجا إلى جنكيزخان قائد المغول الأكبر ، والذي كان صيته قد ذاع وانتشر في شرق آسيا وغربها ، فرأى فيه الرجل الوحيد الذي يستطيع أن ينقذه مما هو فيه ويوقف خوارزم شاه عند حده . [3]

---

[1] حافظ احمد حمدى ، الدولة الخوارزمية والمغول (غزو جنكيزخان للعالم الاسلامى واثاره السياسية والدينية والثقافية) دار الفكر العربى ، القاهرة ، 1949م ، ص 24 0

[2] فؤاد الصياد ، المغول في التاريخ ، ص 70

[3] فواد الصياد ، المغول في التاريخ ، ص 73

واصل خوارزمشاه زحفه نحو بغداد إلا انه اضطر إلى التراجع بسبب عاصفة ثلجية أهلكت كثيرا من رجاله ودوابهم ، وبسبب تقدم المغول نحو بلاده وإلحاق الهزيمة بجيوش خوارزمشاه مما اضطره إلى الهرب إلى جهات بحر قزوين حيث مات في إحدى جزره سنة 620هـ .[1]

ومهما يكن من أمر فقد أدى النزاع بين الخوارزميين والعباسيين إلى استنزاف القوى في كلتا الدولتين ، هذا بجانب القضاء على دولة القراخطائيين ، وكان في القضاء عليهم خطا كبير لأنهم بذلك قضوا على الحاجز الذي يحجزهم عن بلاد المغول ، ولم يعد يحول بينهم وبين المغول حائل ، وبدا الضعف يتطرق إلى الخوارزميين ويزداد لدى العباسيين مما سهل الأمر على المغول في اكتساحهم فيما بعد .[2]

وعندما تعرض المغول للبلاد الإسلامية كانت الخوارزمية هي الدولة الوحيدة الباقية في هذه الجهة ، التي يجب ان تتصدى لهم ، لكنها كانت اعجز عن ذلك ، مما جعل ابن الأثير ينتقدهم مرتين بشدة ويحملهم مسؤولية انهيار البلاد عندما قال : (فان هؤلاء التتار ، إنما استقام لهم هذا الأمر لعدم المانع ، وسبب عدمه إن خوارزمشاه محمد كان قد استولى على البلاد وقتل ملوكها وأفناهم وبقى وحده سلطان البلاد جميعها ، فلما انهزم منهم لم يبق في البلاد من يمنعهم ولا من يحميها) .[3]

الإسماعيلية 483 – 653 هـ /1090 -1256م

وهى طائفة تتمذهب بالمذهب الشيعي وتقوم في الشمال الغربي بالنسبة للدولة الخوارزمية ، وتسكن إيران ، وسميت الإسماعيلية نسبة إلى إمامهم إسماعيل بن جعفر الصادق ، كما عرفوا بالباطنية لأنهم كانوا يبطنون خلاف ما يظهرون ، واشتهر الإسماعيلية عند خصومهم باسم الملاحدة لأنهم غيروا وبدلوا في أركان الدين، ودعموا آراءهم بالأقوال التي وصلت إليهم عن فلاسفة اليونان .[4]

---

[1] احمد عودات وجميل بيضون ، تاريخ المماليك والمغول من القرن السابع الهجرى حتى القرن الثالث عشر الهجرى ، دار الكندى ، اربد ، 1990م ، ص 16

[2] احمد مختار العبادى ،وابراهيم مرجونة ، مرجع سابق ، ص 94

[3] ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج 9 ، ص 330

[4] فؤاد الصياد ، المغول في التاريخ ، ص 75

كذلك أطلق عليهم أيضا لفظ الحشاشين أو الحشيشية ، لأنهم كانوا يستعينون بالحشيش في الترويج لمذهبهم ، وفى حوادث الاغتيال السياسي ، ولقد كان هناك دعاة أول ، مهدوا لهذه الدعوة ، وأعطوها الطابع المميز الذي اختصت به طائفة الإسماعيلية فيما بعد . [1]

ولقد رأى دعاة الإسماعيلية سوء الحالة الاجتماعية ، واضطراب الشئون الاقتصادية في بلاد المشرق في ذلك الوقت ، فضلا عن التباين الواضح في توزيع الثروة بين مختلف الطبقات في المجتمع الاسلامى ، فاستغل هؤلاء الدعاة تلك الفرصة ، وتكتلوا فيما بينهم وأعلنوا الثورة على طبقة الرأسماليين والحكام واتصلوا بأرباب الحرف والصناعات وغيرهم من الطبقات الكادحة واستخدموهم أداة طيعة لنظامهم ودعوتهم، يضاف إلى هذا أن القبائل العربية التي كانت تنزل على إطراف الشام والجزيرة، أقبلت هي الأخرى على اعتناق الدعوة الإسماعيلية، وذلك بعد أن فقدت في القرن التاسع الميلادي، ما كان لها من سلطان ونفوذ في الدولة الإسلامية.[2]

ولجا الأئمة الإسماعيلية إلى التخفي والستر حتى لا يتعرضوا لبطش بني العباس وكانوا يرسلون دعاتهم سرا إلى البلاد الإسلامية ونجحت الدعوة الإسماعيلية وظهر المهدي المنتظر في إفريقيا حسب زعمهم وهو عبد الله بن المهدي الذي أسس الدولة الفاطمية سنة 296 هـ /908 م ، وانتقل احد هؤلاء الأئمة إلى مصر عام 363 هـ / 973 م وهو المعز لدين الله الفاطمي ونقل حاضرة دولته إلى القاهرة ، وبذلك دخل تاريخ الإسماعيلية دورا جديدا ، وهو دور الظهور والجهر بالأفكار والآراء التي يتضمنها المذهب الاسماعيلى . [3]

وما أن أقام الفاطميون دولتهم بشمال إفريقيا سنة 297هـ/ 909 م ، حتى اخذوا يروجون للمذهب الشيعي في الشرق الاسلامى ، واضعين نصب أعينهم إضعاف الخلافة العباسية ، تمهيدا للقضاء غليها ، ولقد كان لمدارس الدعوة الشيعية

---

[1] المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

[2]المرجع نفسه ، ص 76

[3] عصام عبد الرؤوف الفقى ، مرجع سابق ، ص 191

في القاهرة اثر فعال في نشر مذهب الإسماعيلية في إيران ، إذ نجح الحسن بن الصباح في تكوين قوة هائلة عجز عن مقاومتها اقوي الحكام والسلاطين . [1]

حرص الفاطميون على نشر دعوتهم الإسماعيلية في إرجاء الدولة الإسلامية ولقيت دعوتهم نجاحا في فارس والعراق ، رغم اضطهاد العباسيين والسلاجقة لأفراد تلك الطائفة ، وازداد نفوذ الإسماعيلية في عصر السلطان السلجوقي ملكشاه ، حتى استولوا على اصبهان ونشروا فيها دعوتهم . [2]

وقد زاد هذا الاستقلال من ضعف الخلافة العباسية ، وعلى هذا النحو ظل الفاطميون يتزعمون الحزب الاسماعيلى حتى عهد الخليفة المستنصر الفاطمي (427 –487 هـ /1035 –1094م) الذي دان له الإسماعيلية جميعا بالطاعة ، واعترفوا بإمامته في الشرق والغرب ، وقد أوصى لابنه الأكبر نزار بولاية عهده ، غير انه بعد وفاته تقرر خلعه وتولية أخيه المستعلي عرش الخلافة الفاطمية ، مما احدث انقساما في الحزب ، بين طائفة تؤيد نزارا وأخرى مع المستعلي ، وكان مؤيدو نزار منتشرين في إيران ، ونجحوا في أن يمدوا نفوذهم إلى ما وراء بلاد الشام ، والت إليهم زعامة الحركة الإسماعيلية في مختلف الأقطار الإسلامية بعد سقوط الدولة الفاطمية سنة 567 هـ /1171 م . [3]

ويعتبر الحسن بن الصباح المؤسس الحقيقي لهذه الفرقة في إيران ، إذ اخذ في الاستيلاء على كثير من البلاد والقلاع المجاورة ، كانت أهمها قلعة الموت التي استولى عليها في سنة 483هـ /1090م فصارت عاصمة للإسماعيلية وقاعدة لملكهم، ولم يقف أمر ابن الصباح عند هذا الحد ، بل استطاع _ بمعاونة أتباعه _ أن يستولى على المنطقة الواقعة جنوبي بحر قزوين بأكملها . [4]

ولا شك أن استيلاء الحسن بن الصباح على قلعة الموت المحكمة ، كان بمثابة خطوة كبيرة في سبيل نجاح الدعوة الإسماعيلية في إيران ، وثباتها في وجه كل

---

[1] فؤاد الصياد ، المغول في التاريخ ، ص 77

[2] المرجع نفسه ، ص 191

[3] المرجع نفسه ، ص 77

[4] فؤاد الصياد ، المغول في التاريخ ، ص 78

محاولة خارجية للقضاء عليها ، وقد اتضحت هذه الحقيقة بصفة خاصة بعد أن عجز السلطان نفسه عن استرداد هذه القلعة المرة تلو الأخرى . [1]

عمل الحسن بن الصباح على توسيع رقعة دولته بعد وفاة السلطان ملكشاه الذي بذل كل جهد ممكن في سبيل إضعاف دولة الإسماعيلية والقضاء عليها ، واستطاع الحسن أن ينتهز فرصة ما كان عليه هذا العالم من ضعف ليقوى هو بمذهبه ، و تكوين دولة إسماعيلية قوية بعد ضعف الدولة السلجوقية وكانت النتيجة أن نشا عامل جديد من عوامل إضعاف المسلمين ، عامل عنيف أدى إلى زيادة التفكك والانحلال ، اذ كانت السياسة المرسومة إنجاح هذه الطائفة تهدف إلى تقويتها على حساب الانقسام الذي حدث في قلب الدولة اذ ذاك ،سواء كان ذلك الانقسام دينيا أو عنصريا . [2]

وقد اشتهر الإسماعيلية بأنهم قوم محاربون أشداء ، بثوا الرعب في النفوس ، وعاثوا في الأرض فسادا ، قاوموا سلاطين السلاجقة واهتزت بسببهم السلطنة والخلافة، لذا كان العداء بينهم وبين سائر المسلمين ، خاصة بعد ما ظهرت لديهم فرقة الفدائيين ، فقد كانوا بمثابة السوس الذى ينخر في عظام الدولة الإسلامية ، ويزيد من ضعف الكيانات الإسلامية السنية ويعلو في المقابل أنصار مذهب الشيعة.[3]

وظلت قوة الإسماعيلية في ازدياد مستمر و ارتفع شانها مما احدث فزعا في قلوب حكام الدولة الخوارزمية والسلجوقية ، وعجزت القوى الإسلامية عن القضاء على جماعة الإسماعيلية ، وزاد الأمر سوءا حينما ترك سنجر السلجوقي سياسة الجهاد ضدهم ، وعمل على استمالتهم والتودد لهم ، وذلك خشية باسهم وتجنبا لشرهم، والنتيجة الحتمية لهذا طغيان طائفة الإسماعيلية طغيانا لا حد له ، بحيث أنها أصبحت تتحكم في مصائر القوى الإسلامية ، وترسم الخطط التي تتفق مع أهدافها دون رقيب ، والأعجب من كل هذا أن سلاطين السلاجقة من جهة ، والخلفاء

---

[1] المرجع نفسه ، ص 79

[2] حافظ احمد حمدي ، مرجع سابق ، ص 116

[3] المرجع نفسه ، ص 85

العباسيين من جهة أخرى ، يتسابقون في خطب ود هذه الجماعة ، ويستعينون بهم للخلاص من الأشخاص المعادين لهم ، مع أنهم جميعا يعلمون تمام العلم أن الإسماعيلية هم ألد أعدائهم ، وأنهم يهدفون أولا وأخيرا إلى الإطاحة بهم جميعا . [1]

هكذا أصبحت طائفة الإسماعيلية هي الأخرى عنصرا خطرا ، و عاملا فعالا من عوامل ا ضعاف وفرقة وانقسام وتدهور العالم الاسلامى ، ومهدت الطريق أمام جحافل الجيوش المغولية عندما شرعوا في مهاجمة بلاد الإسلام حيث كان حكام المسلمين يشوبهم العجز والاستسلام .

الأيوبيون في الشام ومصر :564 -648 هـ /1169 -1250 م

إذا انتقلنا إلى مصر وبلاد الشام ، نرى أن هذا الجزء من العالم الاسلامى فد عملت فيه الأحداث التاريخية وحطمت قوته ، حتى إذا ما جاء الغزو المغولي نرى حكامه لا يستطيعون أن يمدوا المساعدة إلى إخوانهم في الشرق ، كما نرى هذا الجزء من العالم الاسلامى لا يقوى على الوقوف في وجه هولاكو عندما عزم على غزوه ، ولولا تطور الأحداث التاريخية في بلاد المغول نفسها ، تلك الأحداث التي اضطرت هولاكو إلى العودة إلى بلاده ، لحل بمصر ما حل بسائر بلاد الشرق الاسلامى في ذلك الوقت . [2]

فقد كانت بلاد الشام ومصر فى بد السلاطين الأيوبيين ، وكان هؤلاء منقسمين على أنفسهم ، ينافس بعضهم بعضا ، وفى نزاع فيما بينهم ويكيد كل منهم للأخر ، فلم يكن لهم هدف واحد يجمع كلمتهم ، وليس لهم رابطة تجمعهم ، ولا هدف يهدفون إليه ، كما كانوا في جهاد مع القوات الصليبية . [3]

تعد وحدة الصف هي الدعامة الرئيسية في مجال الحروب والاستراتيجيات العسكرية ، وقد أيقن صلاح الدين بهذا الأمر فوحد جبهته ووسع ممتلكات دولته، واستطاع أخيرا أن يكون جبهة عربية متحدة ، تمتد من برقة غربا إلى الفرات شرقا ، ومن الموصل وحلب شمالا إلى النوبة واليمن جنوبا ، وفى ظل هذه الوحدة الوطيدة ،

---

[1] عصام عبد الرءوف الفقى ، مرجع سابق ، ص 195 –196

[2] حافظ أحمد حمدى ، الدولة الخوارزمية ، ص 120

[3]عبد الله سعيد الغامدى ، جهاد المماليك ضد المجوس والصليبيين ، رسالة دكتوراة منشورة ،جامعة ام القرى، 1407هـ ، ص 17

وبهذه الروح القوية الوثابة استطاع صلاح الدين أن يحرز نصرا مؤزرا على أعدائه الصليبيين في موقعة حطين سنة 583 هـ /1187 م ، ولقد فتح هذا النصر الطريق إلى انتزاع بقية الممتلكات الصليبية ، وأخيرا توج انتصاراته الخالدة باسترداد بيت المقدس في نفس العام . [1]

ولما توفى صلاح الدين سنة 589 هـ /1193 م أدت وفاته إلى تعرض تلك الإمبراطورية للضعف والتفكك ، وان حوادث الخلف والمنازعات الداخلية بين أبناء البيت الايوبى ، حول تقسيم التركة التي خلفها صلاح الدين لتملا معظم تاريخ الدولة الأيوبية ، ويرجع ذلك الوضع إلى تطبيق مبدأ اعتبار المملكة إرثا خاصا يقسم أنصبة متساوية وغير متساوية بين أبناء البيت المالك ، كما يرجع إلى صلاح الدين نفسه ، الذي فضل أبناءه وآثرهم على أخيه العادل على الرغم من انه اقدر من أبناء صلاح الدين على امتلاك ناصية الدولة بعده ، فبينما حرص صلاح الدين على أن تكون أهم أقاليم المملكة لأبنائه ، عين أخاه العادل على أطراف مبعثرة مثل الكرك والشوبك ، على أن عوامل الانقسام والشقاق ما لبثت أن دبت بين أبناء صلاح الدين أنفسهم . [2]

وانتهز العادل (596 –615 هـ /1199 –1218 م) الفرصة ، وهو الرجل الطموح الذي كان يعمل جاهدا على إعادة توحيد الدولة الأيوبية تحت زعامته ، وحاول أن يجمع الشتات تحت إمرته ولم يتردد في فرض سلطانه على مصر إلى جانب أملاكه في الشام ، وبلاد ما بين النهرين ، وبذلك أصبح يسيطر على معظم أملاك صلاح الدين ، ما عدا الحجاز واليمن ، واعالى الشام ، حيث كانت فروع من البيت الايوبى في حلب وحمص وحماة ، واحتفظت هذه الدويلات الشامية باستقلالها مقابل الاعتراف بزعامة العادل والتعهد بتقديم المعونة الحربية إليه كلما طلب ذلك. [3]

---

[1] احمد مختار العبادى ، مرجع سابق ، ص 85

[2] فؤاد الصياد ، المغول في التاريخ ، ص 87

[3] السيد الباز العرينى ، المماليك ، دار النهضة العربية بيروت ،1967م ، ص 36 –37

وهكذا لم يمض على وفاة صلاح الدين سوى سبع سنوات حتى أقام العادل دولة موحدة وقضى على خلافات أبناء صلاح الدين ، ولم يستمر الأمر طويلا فقد انقسمت الدولة من جديد إلى سبعة أقسام رئيسية استقل بعضها استقلالا تاما عن مصر وخضع لها الأخر خضوعا اسميا ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل استعان بعضهم بالصليبيين على أعدائهم من إفراد أسرتهم الأيوبية . [1]

وظلت الأمور بداخل البيت الايوبى تسير من سيئ إلى أسوا رغم محاولات السلطان الكامل محمد (615 –635 هـ /1218 – 1238 م) ومن بعده السلطان الصالح أيوب (637 –647 هـ /1240 –1249 م) راب الصدع ولم الشمل ولكن الصراعات الداخلية والحروب الصليبية أنهكت قوة هذه الدولة الأيوبية كما لو كان مقدرا لهذه الكيانات الإسلامية ان يكون باسهم بينهم شديدا . [2]

ولم يلبث النزاع أن دب بين المماليك وتورانشاه الايوبى الذي أراد أن يحل إتباعه ومماليكه القادمين معه من الجزيرة مكان المماليك الصالحية ، وانحازت شجر الدر إلى المماليك الصالحية ولقي تورانشاه مصرعه في سنة 648 هـ /1250 م ، وبذلك سقطت الدولة الأيوبية وقامت على أنقاضها دولة المماليك . [3]

وهكذا نرى أن مصر وبلاد الشام كانتا في الفترة السابقة للغزو المغولي على يد جنكيزخان ، بل وفى أثناء هذا الغزو ، في حالة ضعف شديد نتيجة لقيام الشقاق بين حكام هذا الجزء من العالم الاسلامى ، وقد زاد الحالة سوءا ما أحدثه الصليبيون من تأثير سيىء من الناحيتين السياسية والاقتصادية في هذا المسرح التاريخي ، مما جعله يشارك بلاد العراق وفارس في ما أصابهما من ضعف ووهن ، فلم يستطع حكام مصر والشام ان يمدوا يد المساعدة للشرق الاسلامى عندما زحف المغول إلى الغرب، بل وقف حكام مصر كما وقف الخلفاء العباسيون يرقبون المعركة في غير اهتمام ولا بعد نظر ينتظرون ما سيحل بهم على يد هؤلاء الطغاة . [4]

---

[1] احمد مختار العبادى ، مرجع سابق ، ص 88

[2] احمد العبادى وابراهيم مرجونة ، مرجع سابق ، ص 98

[3] السيد الباز العرينى ، المماليك ، ص 195

[4] محمد ماهر حمادة ، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1983م ، ص 69.

ويبدو إن سقوط العالم الاسلامى أصبح شيئا حتميا ومتوقعا لما كان عليه الحكام من فساد ، والرعية من انشغال ، فالحالة العامة متردية ، ومن الطبيعي انه في مثل هذه الظروف تصير الدول الإسلامية مهددة من كل ناحية بهجوم المغيرين الأجانب ، اذ انه ليس هناك حاكم قوى يستطيع إن يجمع الشتات ويوحد الممالك الإسلامية ، لذا وجد المغول ضالتهم في العالم الاسلامى وبات من المؤكد له ليس هناك من يقوى على صد هجمات المغول البربرية . [1]

لذلك لم يكن سقوط بغداد سنة 656 هـ / 1258 م حدثا مفاجئا وإنما كان نتيجة متوقعة لضعف العالم الاسلامى وتهيئة الظروف للمغول لإرسال جيوشهم لغزو البلاد الإسلامية والذي كانت بدايته قبل سقوط بغداد بحوالي أربعين عاما .

كل هذه الأسباب مجتمعة بالإضافة إلى توتر وفساد العلاقة بين جنكيزخان والدولة الخوارزمية كانت مدعاة لمهاجمة جيوش المغول للمشرق الاسلامي .

---

[1] فؤاد الصياد ، المغول فى التاريخ ، ص 90

الفصل الثانى

الفصل الثانى :قيام دولة المماليك البحرية (648 -741 هـ /1250 -1341 م)

المبحث الأول: المماليك الأصل والنشأة

المبحث الثانى: التطورات السياسية في دولة المماليك منذ وفاة عز الدين ايبك وحتى ولاية سيف الدين قطز

المبحث الثالث : العلاقات بين المماليك والمغول في عهد سيف الدين قطز

(657 –658 هـ /1259 –1260 م) موقعة عين جالوت واثارها

المبحث الاول
المماليك الأصل والنشأة

توافد المماليك إلي مصر بشكل خاص لا ينقطع منذ العصور العباسية المتأخرة، وقد أتاحت لهم التطورات نوعا من الهيمنة العسكرية والسياسية حيث كان من العسير عليهم الا يتدخلوا في شؤون الإمارات الإسلامية ليخطوا لهم طريقا ونهجا خاصا في الحكم ، ويتركوا بصمات واضحة في تاريخ منطقة الشرق الادني بشكل عام وتاريخ مصر وبلاد الشام بشكل خاص .

المماليك مصطلح فرض نفسه على تاريخ مصر والمنطقة العربية طوال فترة تزيد على ثلاث قرون من الزمان ، لا سيما بعد إن نجح أولئك المجلوبون عبيدا في طفولتهم في بناء دولة إقليمية عظمى حكمت مصر والشام والحجاز يشكل مباشر، كما فرضت نفوذها السياسي وقيادتها للمنطقة العربية ، ومدت سطوتها إلى كافة مستويات العلاقات السياسية والدبلوماسية في عالم البحر المتوسط والبحر الأحمر وإفريقيا على السواء . [1]

المملوك جمعه (مماليك) وهو العبد الذي سبي . والعبد القن وهو الذي ملك هو وأبواه . فالمملوك عبد يباع ويشتري ، وقد كان (المماليك) من الرقيق فعلا ، بيد أنهم كانوا من نوع خاص من الرقيق ، إلا انه اصطلح إطلاقه على فئة من العبيد كان الأمراء والسلاطين يشترونهم لتكوين فرق خاصة بهم ، ولم تلبث التسمية أن اتخذت مدلولا اصطلاحيا خاصا في التاريخ الإسلامي إذ اقتصرت منذ عهد الخليفة العباسي المأمون (198 – 218هـ / 813 – 833م) ، ثم المعتصم (218 – 227 هـ/ 833 – 842م) علي فئة من الرقيق الأبيض كان الخلفاء وكبار القادة والولاة في دولة الخلافة العباسية يشتروهم من أسواق النخاسة البيضاء لاستخدامهم كفرق عسكرية خاصة في أيام السلم ، وإضافتها إلى الجيش العام أيام الحرب ، بهدف الاعتماد عليهم في تدعيم نفوذهم . [2]

---

[1] قاسم عبده قاسم ، سيف الدين قطز ، الطبعة الاولى ، دار القلم دمشق ، 1998 م ، ص 41

[2] أحمد مختار العبادي ، قيام دولة المماليك الاولي في مصر والشام ، ص 11

واضحي المملوك مع مرور الوقت الأداة العسكرية الوحيدة في بعض الدول الإسلامية مثل دولة المماليك التي قامت في مصر والشام . وكان مصدره آنذاك بلاد ماوراء النهر . واشتهرت مدن سمرقند وفر غانة وخوارزم بأنها المصادر الرئيسية لتصدير الرقيق الأبيض ذوي الأصول التركية وذلك بالشراء أو الأسر في الحروب أو الهدايا التي كان يؤديها ولاة أقاليم بلاد ما وراء النهر علي شكل رقيق إلي الخليفة . ومن ثم أضحت بلاد ما وراء النهر مصدرا هاما للرقيق التركي ، كانت اغلب جماعات المماليك الذين جلبهم الأيوبيون وسلاطين المماليك من بعدهم في مصر ، من شبه جزيرة الفرم وبلاد القوقاز واسيا ألصغري وفارس وتركستان وبلاد ما وراء النهر فكانوا خليطا من الأتراك و المغول و الصقالبة و الشراكسة و الروم و الروس و الأكراد ، وأقلية أوربية . [1]

ولم تكن تجارة الرقيق مقصورة على الشرق الأوسط ومصر بل امتد نطاقها إلى أوربا ، وكان يمارس هذه التجارة الغربيون الذين جنوا منها أرباحا وفيرة وكانوا ينافسون التجار الشرقيين في هذا النوع من التجارة في وقت سبق قيام عصر المماليك ، وكان المماليك يجلبون إلى مصر ويباعون وهم في مقتبل العمر في أسواق النخاسة ، وكان موقع خان سرور هو الساحة التي يقام فيها سوقهم في القاهرة ، كما كان للمماليك من التتار سوق قائمة بذاتها ومستمرة في الإسكندرية ، وكانت أهم الأسواق التي يشترى منها الرقيق (المماليك) واقعة على الساحل الشمالي من البحر الأسود وبحر أزوف وفى مستعمرة كافا التي كانت تتبع لجمهورية جنوه[2] .

أكثر احمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية من شراء مماليك الديلم سكان جنوب بحر قزوين ، وبلغت عدتهم أكثر من أربعة وعشرين إلف غلام من الأتراك واربعين إلف من السود وسبعة آلاف من الأحرار المرتزقة ، ثم تأسست الدولة الإخشيدية 323 – 358هـ / 935 – 969م بعد الدولة الطولونية في مصر ، وانتهجت نفس نهج الطولونيين في الاعتماد على المماليك . وقد بلغ تعداد مماليك

---

[1] علي إبراهيم حسن، تاريخ المماليك البحرية، الطبعة الثالثة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1967م،ص 24

[2] ايمان خليفة احمد ،السمات الحضارية لدولة المماليك في مصر 1250 –1517م رسالة ماجستير غير منشورة ،جامعة الخرطوم 2013م ،ص 15.

محمد بن طغج الاخشيدى ،مؤسس الدولة الإخشيدية نحو ثمانية آلاف مملوك من الأتراك والديلم ، وعندما استولي الفاطميون على مصر في سنة 358هـ/ 969م اعتمد حكامها على عناصر كان الأتراك من بينهم . وقد اهتم الفاطميون بتربية صغار مماليكهم وفق نظام خاص ، وهم أول من وضع نظاما منهجيا في نربيه المماليك قي مصر . [1]

في بداية قيام الدولة العباسية في بغداد كان للفرس مكانة كبيرة لدى الخلفاء ، فكانوا يولونهم المناصب الهامة ، بل اخذوا في سلب السلطة تدريجيا من ايدى الخلفاء العباسيين ، فلجا هؤلاء إلى البحث عن عنصر جديد يكون بعيدا عن العرب بأهوائهم السياسية المختلفة ، وبعيدا عن الفرس ذوى الطموح المتصاعد ، فلجاوا إلى العنصر التركي لاعتقادهم انه عنصر مجرد من الطموح الفارسي والعصبية التي عرف بها العرب ربداوا في استجلاب الأتراك وتوليتهم الأمور ، ومع مرور الوقت وانشغال الخلفاء بحياتهم الخاصة وانغماسهم في ملذاتهم زاد انتشار المماليك في كل الأجهزة وعلى الأخص في البلاط والجيش ، واخذوا في التدخل في شؤون الدواة حتى أمست في أيديهم يفعلون بها ما يشاءون. [2]

وبالرغم من إن نظام الرق كان معترفا به في الإسلام منذ بدئه إلا أن المماليك لم يعلو لهم شان ولم يظهر لهم اثر في أحداث الدولة الإسلامية عامة إلا في خلال الدولة العباسية ، ولعل أول خليفة عباسي اعتمد على المماليك اعتمادا كبيرا في توطيد نفوذ دولته وسلطانه الخليفة العباسي المعتصم (218 –228هـ) فهو أول خليفة اعتمد بشكل اساسى على العنصر التركي نظرا لمقدرتهم القتالية المميزة ، حتى أضحى الحرس التركي يمثل دعامة من دعائم الخلافة أيام حكمه. [3]

ومن الغريب إن المماليك عاشوا إثناء حكمهم لمصر كطائفة منفصلة عما حولها ، واحتفظوا بشخصيتهم ولم يختلطوا باى عنصر من عناصر السكان المصرية،

---

[1] راغب السرجاني،قصة التتر من البداية إلى عين جالوت ، مؤسسة إقرأ للنشر ، القاهرة ، 2006م ، ص 226

[2]ناصر الانصاري ، المجمل في تاريخ مصر النظم السياسية والادارية الطبعة الاولي دار الشروق 1413هـ/ 1993م ، ص 154.

[3] محمد سهيل طقوش ، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام ، دار النفائس ، بيروت ، 1989م، ص 16.

وتلقي هؤلاء تربية قائمة على الفروسية و النظام العسكري الصارم ما اوجد لهم بيئة اجتماعية خاصة بهم ،، وأشهر ما انفردوا به ابتعادهم وترفعهم عن الناس وانقسامهم إلي طوائف ، لكل طائفة زعيم،وهذه العزلة والترفع انفرد به المماليك حتى صاروا من اخص مميزاتهم ، و كان رجال الدين واسطة الاتصال بينهم وبين الشعب . [1]

وكان المماليك فيما بينهم ينقسمون إلى احزاب متطاحنة لا تربا بنفسها عن استعمال ادنى طرق التنكيل الواحد بالاخر ، ومع هذا فان الانقسام الداخلى لم يؤثر على وحدتهم كطائفة او مجموعة ازاء العالم الخارجى الذى كانوا يواجهونه كعصبة واحدة مما يفسر لنا سر قوتهم وانتصاراتهم الحربية ازاء عدوهم المشترك . [2]

و لم تكن الرابطة التي تربط المالك و المملوك رابطة السيد و العبد ، بل رابطة المعلم و التلميذ ، أو الأب و الابن ، وهذه كلها روابط تعتمد على الحب في الأساس لا على القهر أو المادة ، حتى أنهم كانوا يطلقون على السيد الذي يشتريهم لقب الأستاذ .وكانوا يخلصون له في السراء والضراء ويكونوا رهن إشارته يوجههم كيفما يشاء لتحقيق أهدافه ، ولم تكن رابطة الأستاذية هي الرابطة الوحيدة التي كانت تسيطر على عواطف المماليك ، فكانت بينهم رابطة تعرف بالخشداشية، اى الزمالة ،فهم جميعا زملاء واصدقاء ، وكانوا يؤمنون انهم جميعا متساوون في النشأة والأصل والحق والواجب ، وهذه الرابطة كانت لها قوة و احترام فيما بينهم. [3]

ولم يكن هناك اعتبار لنشأة المماليك أو أوطانهم الأولى ، بل كانت الجامعة الكبرى بينهم أنهم غرباء في هذا البلد الذي تطورت نظمه ، فسنحت لهم المقادير باستحالة الوصول إلى الحكم فيه ، وكان المملوك لا يصل إلى مرتبة سيده إلا بعد إن يتربى تربية عسكرية وبتثقف تثقيفا عاما في مدارس خاصة أعدت لهذا الغرض ، ثم بعد ذلك يلحق بجيش سيده ويتدرب على رمى النشاب وركوب الخيل . [4]

---

[1] محمد سهيل طقوش ، تاريخ المغول العظام ، ص 159

[2] على ايراهيم ، مرجع سابق ، ص 22

[3] حمدي عبد المنعم حسين ، مرجع سابق ، ص 155 – 156

[4] المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

وتلقى المماليك تربية متقنة في الطباق قائمة على دراسة القرآن الكريم حفظاً وتجويداً وعلى الفروسية والنظام العسكري الصارم المرتبط بالإقطاع الحربي مما خلق لهم بيئة اجتماعية خاصة بهم تختلف في مظاهرها واهداقها عن أنواع المجتمعات التي أفرزتها نظم الحكم السابقة ، وقد نتج من هذا النظام الصارم في تربية المماليك نتيجتان غاية في الأهمية من حيث تأثيرهما على طبيعة الكيان السياسي لدولة سلاطين المماليك ، اما الأولى فهي أن الجمع بين التربية الدينية والتدريب العسكري جعلا المماليك في الفترة الأولى من ذلك العصر يتميزون بالحماسة والغيرة على البلاد والمقدسات الإسلامية ، والنتيجة الثانية تمثلت في إن رابطة الخشداشية التي كانت تربط بين المماليك كانت من اقوي الروابط القائمة على الولاء الشخصي في الدولة ، وتفسير ذلك ان هؤلاء الذين جلبوا أطفالا ، ثم عزلوا عن المجتمع في معسكرات صارمة القوانين ، وعاشوا حياتهم الباكرة حتى سن الشباب سويا ، لم يكونوا يجدون الأمان والطمأنينة سوى مع بعضهم البعض ، ولهذا تميزت الفرق المملوكية بالطائفية القائمة على الولاء الشخصي ، بيد إن أهم نتائج هذه التربية المملوكية تجسدت في الإحساس المتبادل بين المماليك والرعية في مصر والشام بان المماليك أغراب يحكمون البلاد على أساس من التفويض الشرعي . [1]

وانعكس هذا التناقض على العلاقة بين الجانبين ، فقد تركزت وظائف الحكم والإدارة العليا في ايدى المماليك ، كما امتلكوا زمام السلطة السياسية ، مما جعلهم يتصرفون باعتبارهم أقلية عسكرية تحكم على أساس من القوة والغلبة ، وتنأى بنفسها عن المشاركة في حياة الرعية سوى من خلال المواكب السلطانية والأعياد والاحتفالات الدينية والعامة. [2]

لقد صار الأتراك جنسا هاما في المجتمع الاسلامى منذ أوائل العباسيين على الأقل ، وان المعتصم لم يجعل الجيش منهم تخلصا من العرب والفرس فحسب ، بل لأنه لمس أهميتهم وأدرك فيهم المقدرة على أن يكونوا جيش الخلافة العباسية ، وكان من الطبيعي أن يزداد نفوذ الترك في الخلافة العباسية بعد أن صار منهم

---

[1] قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، الطبعة الأولي، دار الشروق، القاهرة ، 1994م ، ص 150-153

[2] قاسم عبده قاسم ، السلطان سيف الدين قطز ، ص 52

الجيش والقادة ، فلما ضعف سلطان الخلافة فى الأقاليم ، وجنح عمال الأطراف إلى الاستقلال بولاياتهم ، وصار الجيش وقادته من الأتراك وسيلة الخلفاء للقضاء على الحركات الاستقلالية المختلفة ، ازداد الأتراك أهمية على أهميتهم ، وأضحى منهم الولاة والوزراء وأرباب الدولة ، غير أن الحركات الاستقلالية ما لبثت أن أغرت الأتراك أنفسهم حتى صارت معظم الدويلات الإسلامية التي نهضت في فترة الخلافة العباسية منذ أواسط القرن الثالث الهجري من الترك ، وهؤلاء جعلوا جيوشهم من جنسهم ، بل أن بعض الدويلات الغير تركية جعلت تكوين جيوشها ، أو حرس ملوكها على الأقل من المماليك الأتراك المجلوبين عن طريق الشراء . [1]

ولما انتقلت السلطة إلى الأيوبيين (567 هـ / 1171م) إتبعوا عادة شراء المماليك الترك وبذلوا الأموال الضخمة في شرائهم بغية الاعتزاز بقوتهم ، وكان أكثر السلاطين الأيوبيين استجلابا للأتراك هو الملك الايوبى الصالح نجم الدين أيوب (637 -647 هـ /1240- 1249م) وعمل على تربيتهم تربية إسلامية صحيحة ، كما عمد على إعداد المماليك إعدادا عسكريا رفيع المستوى لدرجة أن غالبية عسكره منهم ، ويعد المسئول عن ازدياد نفوذ المماليك على النحو الذي أدى إلى استيلائهم على الحكم عقب وفاته ، ذلك أن تجاربه مع الجنود المرتزقة من الخوارزمية والأكراد علمته أن الاعتماد عليهم أمر غير مأمون العاقبة ، ولهذا اشترى عددا كبيرا من المماليك الذين دربهم ليكونوا غالبية جيشه ، فاعتز بهم وبني لهم الثكنات بجزيرة الروضة ، وأطلق عليهم اسم المماليك البحرية ، واتيح لهم بعد ذلك إن يتولوا الحكم في مصر . [2]

ومع مرور الوقت بدا هؤلاء الأتراك يتجهون إلى تكوين كيان خاص بهم سواء فى كنف الخلافة أو منفصلا عنها ، كما طمع بعضهم في الاستئثار بشؤون الحكم في العاصمة حين أدركوا أن الخلافة لا يمكنها الاستغناء عن خدماتهم ،

---

[1] احمد مختار العباد ، قيام دولة المماليك الاولى ، ص 21

[2] على ابراهيم حسن ، مرجع سابق ، ص 19

ونتيجة شعورهم باهمبتهم ، اخذوا يزيدون من تدخلهم في شؤون الخلافة ، حتى تمكنوا من تثبيت أقدامهم في الحكم .[1]

والمماليك البحرية مثل غيرهم من المماليك السابقين واللاحقين لم يخجلوا من أصلهم أو فصلهم أو نشأتهم ، بل أنهم افتخروا بأنهم مماليك ،لان علاقة المملوك بسيده في الشرق عامة علاقة عائلية أكثر منها علاقة عبودية ، ولم يحل ذلك الأصل دون تربيتهم تربية طيبة، وإعدادهم أحسن إعداد لوظائف الحكومة والإدارة والجيش.[2]

وهكذا شهدت فترة السنوات الأخيرة من القرن الثاني عشر الميلادي ، والسنوات الأولى من القرن الثالث عشر الميلادي ازدياد نفوذ المماليك في مختلف الإمارات الإسلامية في الشرق الأدنى ، ومنها مصر، وسرعان ما أضحى لهم من النفوذ ما كان له تأثير قوى في مجرى الأحداث التي تعرضت لها المنطقة ، اذ لم تمض سنوات حتى دب الخلاف بين أبناء صلاح الدين ، فاستغل عمهم العادل هذه الفرصة ليعيد توحيد الدولة الأيوبية ، وكان من الطبيعي أن تزداد أعداد المماليك طيلة فترة الصراع على السلطة بينهما، وان يستمر الأيوبيون على شرائهم من بلاد وراء النهر وبلاد القفجاق، لتنمية قوتهم ، وانتسبت كل طائفة منهم إلى الملك الذي اشتراها .[3]

ومهما يكن من أمر فقدا ضحى المماليك من القوة في الدولة الأيوبية ما جعلهم يعزلون سلطانا ويولون آخر ،غير أن أهم من ذلك كله ، هو أن العنصر المماوكى قام لأول مرة في تاريخ مصر ، بدور سياسي واضحي المماليك الأداة الطيعة للملوك الأيوبيين للاحتفاظ بسلطانهم وتفوقهم ،مما أدى إلى تضخم نقودهم السياسي ، وازدادوا شعورا بأهميتهم .[4]

ومن رحم الظروف التاريخية التي أحاطت بالأيوبيين الأواخر ، خرجت دولة سلاطين المماليك التي نجحت في انتزاع الدور التاريخي من الأيوبيين ، بيد أنها واجهت مسؤولية هذا الدور التاريخي أيضا ، فقد تعين على سلاطين المماليك مواجهة

---

[1] محمد سهيل طقوش ، تاريخ المماليك ، ص 18

[2] احمد مختار العبادى ، قيام دولة المماليك ، ص 95

[3] محمد سهيل طقوش ، تاريخ المماليك ، ص 25

[4] احمد مختار العبادى ، قيام دولة المماليك ، ض 93

خطر مزدوج من جانب سادتهم السابقين من بني أيوب ، ومن الفرنج والغرب الاوربى المتربص بالعالم العربي الاسلامى . [1]

هذا وقد تعددت التفسيرات لاسم البحرية الذي أطلق على مماليك الملك الصالح أيوب ودولة المماليك الأولى ، فقد تحدث المؤرخون الإسلاميون المتأخرون مثل المقريزي وابن تغرى بردى ، بان هذه الطائفة سميت بالبحرية نسبة إلى بحر النيل الذي أحاط بثكناتهم في جزيرة الروضة ، في حين لم يشر المؤرخون المعاصرون للصالح أيوب مثل ابن واصل وأبى شامة ، إلى بحر النيل كأصل لكلمة بحرية ، وهناك رأى آخر ذهب مفسروه بعيدا حين نسبوا هذه التسمية إلى الطريق البحري الذي سلكه المماليك من أسواق النخاسة في بلادهم بالقوقاز واسيا الصفري وشواطئ البحر الأسود إلى مصر حتى الإسكندرية ودمياط . [2]

إن لفظة (المماليك البحرية) لم ترد لأول مرة في التاريخ الاسلامى والمصادر الإسلامية في عهد الصالح أيوب . فقد كان للفاطميين من قيل طائفة من الجند تعرف (بالغز البحرية) ، كذلك كان للسلطان العادل أول فرقة خاصة من المماليك اسماها (البحرية العادلية) ، وهذا يدل على أن الصالح أيوب لم يكن أول من أطلق هذه الصفة . [3]

وقد أسس المماليك دولة إسلامية شملت مصر وبلاد الشام وبسطوا هيمنتهم على الحجاز و اليمن[*] وامتد حكمهم قرنين ونصف من الزمن ابتدأ في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي وانتهى في أوائل القرن السادس عشر، تخلل هذه المدة مراحل من الجهاد الإسلامي للدفاع عن الدين و الأرض ضد الإخطار التي هددت منطقة الشرق الإسلامي ، وكانت دولة المماليك اقوي دول المسلمين في فترة وجودها وأكثرها جدية وأعظمها هيبة . [4]

---

[1] قاسم عبده قاسم ، السلطان سيف الدين قطز ، ص 14

[2] محمد سهيل طقوش ، تاريخ المماليك، ص 27

[3] سعيد عاشور ،العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص 5

[*] ملحق رقم (5)

[4] محمد سهيل طقوش ، تاريخ المغول ، ص 157

ظهورهم في مصر :

بمقتل تورانشاه ابن السلطان الصالح نجم الدين أيوب في سنة 648هـ / 1250م ينتهي عصر الدولة الأيوبية في مصر و الشام . وبتولي شجر الدر يبدأ عصر جديد هو عصر دولة سلاطين المماليك ، فأصبحوا أصحاب الحل والعقد ، وقد حكموا من خلال دولة عرفت باسم الدولة المملوكية . ولقد عرفت بهذا الاسم لأنها قامت على أكتاف فئة من الرقيق البيض أو المماليك . وأيضا لان السلاطين الذين تعاقبوا لي عرش السلطنة فيها كانت غالبيتهم من المماليك أو من أبنائهم . [1]

بدأ عنصر المماليك يتزايد في جيوش أولئك الحكام مما أدي إلي ازدياد دورهم في الحياة السياسية في مصر و الشام منذ أخريات القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي . ويعد السلطان الصالح نجم الدين أيوب 637- 647هـ/ 1240 – 1249م المسئول عن ازدياد نفوذ المماليك على النحو الذي أدي إلي استيلائهم على الحكم عقب وفاته . [2]

وبحلول القرن الثالث عشر الميلادي بلغت قوة المماليك ذروتها ، واحكموا قبضتهم على كل من مصر وسوريا ، وتواصلت دولتهم لا كثر من قرنين ونصف من الزمان ، يحددها المؤرخون بفترة مقدارها (267) سنة تعاقب عليها ما لا يقل عن (45) سلطانا من المماليك أشهرهم السلطان قلاوون . [3]

استاء الملوك الأيوبيون من إقدام المماليك على قتل توار نشاه واستئثارهم بالسلطة ، ومن الطبيعي أن يرى كل منهم في نفسه الشرعية لتولى السلطة بعد تورانشاه ، و للخروج من هذا المأزق اختار المماليك شجر الدر زوجة الصالح نجم الدين أيوب سلطانه على مصر ، وكانت بحكم أصلها الأرميني أو التركي اقرب إلي المماليك ، كما أن الصلة التي ربطتها بالصالح الأيوبي قد انتهت بموته وهي أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك. وليس كفرد من أفراد البيت الايوبى ، والواقع

---

[1] حمدي عبد المنعم حسين، دراسات في تاريخ الأيوبيين و المماليك، دار المعرفة الجامعية، 1998م، ص 153

[2] قاسم عبده قاسم ، عصر سلاطين المماليك ، الطبعة الأولي ، دار الشروق ، القاهرة ، 1994م ، ص 7

[3] نور الدين خليل ، سيف الدين قطز قاهر المغول ، الطبعة الأولي ، مؤسسة حورس الدولية ، الإسكندرية ، 2005م ، ص 21

أن الفترة التي حكمت خلالها شجر الدر الديار المصرية ،تعتبر فترة انتقالية مهدت لقيام دولة المماليك البحرية . [1]

وربما كانت وفاة الصالح نجم الدين أيوب التي حدثت في سنة 647 هـ / 1249م من أهم أحداث تلك المرحلة ، إذ أن وفاة ذلك السلطان أفسحت المجال لظهور قوة المماليك ، كما كشفت عن عجز الأيوبيين بشكل مثير . [2]

وحين لم يجد المماليك أحدا من الرؤوس الأيوبية المتوجة في بلاد الشام يستطيع كبح جماحهم ويتولى قيادتهم ، قرروا حل مشكلة العرش على طريقتهم ، وهكذا ظهر في الأفق السياسي للمنطقة مرة أخرى مبدأ (الحكم لمن غلب) الذي قال به السلطان العادل الايوبى من قبل ، وقد كانت الخطوة الأولى في هذا السبيل خطوة انتقالية ، إذ اختار المماليك الامبرة شجر الدر لكي تجلس على عرش السلطنة بعد مصرع توران شاه ، ولما كانت السيدة جارية تركية ، وقيل ارمنية ،اشتراها السلطان الراحل ثم اعتقها وتزوجها ، فقد اعتبرها بعض المؤرخين المعاصرين أولى سلاطين المماليك في مصر . [3]

ومهما يكن من أمر ، فقد بويعت السلطانة الجديدة (648 هـ/1250م) كما عهد المماليك إلى عز الدين أيبك وهو احد الأمراء الصالحية ، باتا بكية العسكر ، وقبضت شجر الدر على زمام الأمور بقوة واشتهرت بحسن السياسة ، وبدأت تتقرب إلى الخاصة و العامة من أهل الحكم والرعية ، بيد أن الرأي العام المصري ، بتراثه السياسي والاجتماعي الذي تشكل في إطار الحضارة العربية الإسلامية ، صدمته حقيقة أن امرأة تجلس على عرش البلاد ونوجه شؤون الحكم علنا وبصورة رسمية ، وهو الأمر الذي كان يناقض اتجاهات الثقافة السائدة من ناحية ، والنظرية السياسية الإسلامية من ناحية أخرى . [4]

---

[1] ابو الفداء الحافظ بن كثير ، البداية والنهاية ، ج13 ، الطبعة الخامسة ، تحقيق أحمد عبد الوهاب فتيح ، دار الحديث ، القاهرة ، 1998م ، ص 302

[2] قاسم عبده قاسم ، السلطان المظفر سيف الدين قطز ، ص 25

[3]المرجع نفسه ،ص 34

[4] محمد سهيل طقوش ، تاريخ المماليك ، ص 36

اضطربت الأحوال في الدولة المملوكية على اثر تولي شجر الدر للسلطنة فامتنع أمراء دمشق عن الحلف لها وناصرهم في ذلك الملك الناصر صلاح الدين صاحب حلب ودمشق ، وكذلك الخليفة العباسي المستعصم بالله (640–656هـ /1242– 1258م) لم يوافق أهل مصر على إقامة امرأة في السلطنة ، هذا فضلا عن الموقف الذي مرت به البلاد إذ أن الصليبيين كانوا لا يزالون يحتلون دمياط مما تطلب وجود رجل قوي في الحكم ، لذلك أسرع المماليك بتزويج شجر الدر، من الأمير عز الدين أيبك التركماني انتابك العسكر ، لم يلبث أن أعلن أيبك سلطانا في نهاية يوليو سنة 1250م ، لما اشتهر به بينهم من التدين والكرم وجودة الراى ، وتنازلت له شجر الدر عن السلطنة بعد أن حكمت البلاد ثمانين يوما، برهنت فيها على مهارة نادرة ، كفاية عالية من حسن السيرة والتدبير ، وبراعة وحكمة في تصريف الأمور . و كانت سلطنتها وليدة ظروف خاصة أحاطت بمصرفي ذلك الوقت ، ونتيجة لموافقة المماليك البحرية ، وقد زالت الظروف الآن واضحي وجود رحل على رأس السلطة امرأ اقتضته الظروف المستجدة ، وبذلك انتهى عهد شجر الدر ، وباعتلاء عز الدين أيبك عرش السلطنة قامت دولة المماليك البحرية . [1]

وهكذا قامت دولة سلاطين المماليك لتحكم قرابة ثلاثة قرون من الزمان (648 –922 هـ /1250 – 1517 م) ، ومن المهم إن نشير هنا إلى إن ظروف قيام سلطنة المماليك من جهة ، والوضع القانوني لسلاطين المماليك من جهة ثانية ، قد حددت أبعاد النظرية السياسية لتلك الدولة ، وتفسير ذلك إن المفاهيم السياسية لدولة سلاطين المماليك كانت نتاجا لظروف قيام الدولة ، كما كانت من نتائج الحقيقة القائلة بان أولئك السلاطين المماليك لم يكونوا من سلالة حاكمة ، كما إن أحدا لم ينتخبهم أو يفوض إليهم أمور الحكم ، فضلا عن أنهم قد (مسهم الرق) بحيث ينتفي عنهم شرط الحرية الذي يعتبر من أهم الشروط التي يجب إن تتوفر في الحاكم المسلم . [2]

---

[1] محمد علي الصلابي، الأيوبيون بعد صلاح الدين، الطبعة الأولي، مؤسسة اقرأ للنشر، 2008م ، ص 335

[2] قاسم عبده قاسم ، السلطان سيف الين قطز ، ص 45

هذه المفاهيم السياسية التي حكمت دواة سلاطين المماليك منذ نشأتها يمكن بلورتها في العقيدة السياسية التي جعلت أمراء المماليك يعتقدون أن عرش السلطنة حق لهم جميعا بلا تفرقة ، يفوز به أقواهم وأقدرهم على الإيقاع بالآخرين ، هذه المفاهيم السياسية ناكدت منذ البداية ، وتركت بصماتها على التاريخ السياسي طوال وجود الدولة ، فقد حكم خمسة من السلاطين قيل الظاهر بيبرس البندقدارى ، لقي ثلاثة منهم مصرعهم في مؤامرات سياسية ، ونجا الاثنان الباقيان لكونهما طفلين لا يشكلان خطرا ، لقد تأكد منذ البداية مبدأ (الحكم لمن غلب) أساسا لحكم سلاطين المماليك ، وفد أدى ذلك إلى اعتماد سلاطين المماليك في حكمهم على قوة ذات جناحين : احدهما يتمثل في القوة العسكرية للسلطان والتي يجسدها مماليكه ، وهو ما أدى إلى ازدياد أعداد المماليك باطراد طوال عصر سلاطين المماليك ، ويتمثل الجناح الثاني لقوة السلاطين في اعتمادهم على الواجهة الدينية التي حرصوا على التخفي وراءها طوال ذلك العصر ، ونتيجة لهذا كان لكل من السلطان والأمراء جيش من المماليك الذين يعتمد عليهم فى تدعيم سلطته ، او فى صراعاته ضد الآخرين. [1]

تعتبر الفترة التي امتدت من بداية سلطنة (شجر الدر) حتى نهاية سلطنة (السلطان سيف الدين قطز) الفترة الانتقالية فى عمر هذه الدولة ، كما كانت إرهاصا بالأساس السياسي الذي قامت عليه الدولة ، فقد شهدت مصرع ثلاثة من السلاطين الخمسة الذين حكموا اثناءها ، ولم ينج الاثنان الآخران من القتل سوى أنهما كانا في سن الطفولة . [2]

كان أيبك احد المماليك الصالحية ، لكنه لم يكن من طائفة المماليك البحرية ، ولا أكبرهم سنا أو أقدمهم خدمة أو أقواهم نفوذا ومراسا في ادارة شئون البلاد ، لكنه اشتهر بين المماليك بدين وكرم وجودة رأى ،اذ كان يوجد من هم اكبر وأقدم واقدر منه مثل فارس الدين اقطاى والظاهر بيبرس الذي ترقى في خدمة السلطان الصالح أيوب حتى أصبح من الأمراء ، وتولى وظيفة الجاشنكير في البلاط السلطاني وهذه

---

[1] محى الدين بن عبد الظاهر ، الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ،تحقيق عبد الغزيز الخويطر ، الطبعة الثانية ، الرياض 1976 م ص 99 –111

[2] قاسم عبده قاسم ، المظفر سيف الدين قطز ، ص 36

الحالة الاستثنائية في نظام التدرج المملوكي جعلت بعض المؤرخين مثل أبى المحاسن في كتابه النجوم الزاهرة ، يتهم أيبك بالضعف وان الأمراء لم ينتخبوه إلا لانه من اواسط الامراء مكانة وليس من اعيانهم ، و لكي يتمكنوا من عزله متى شاءوا . [1]

رغم إقرار المماليك لزعيمهم أيبك على السلطنة ، إلا أن الأحوال لم تستقر ذلك إن الأهالي لم ينسوا حق الأيوبيين الشرعي في عرش مصر فلم يرضوا عن سلطنة أيبك ، فاتفقوا على صيغة غريبة ونادرة تعتبر حلا وسطا لإرضاء جميع الإطراف ، وهي أقامة سلطانين معا في وقت واحد ، وذلك بتولية سلطان أخر من الأسرة الأيوبية هو الاشرف مظفر الدين موسي وكان عمره ست سنوات و لقبوه الملك الاشرف ، وان يكون أيبك التركماني اتابكا له . وقبل الشعب المصري بالوضع الجديد فهو – وان لم يكن مثاليا في رأيهم – إلا انه أفضل من تولي امرأة ، كما أن البديل من الأيوبيين في مصر غير موجود ، وأمراء الأيوبيين في الشام أيضا كانوا في غاية الضعف و السوء ، أثبتت الإحداث تخاذلهم و تعاونهم مع التتار و الصليبيين . [2]

ولما كان هذا الوضع الشاذ غير قابل للاستمرار فقد انتهز أيبك رسوخ إقدامه في الحكم مع ازدياد خطر التتار في الشام وتهديدهم مصر ، فا زال اسم الاشرف من الخطبة وقبض عليه وحبسه في قلعة الجبل ، وبذلك يمكن اعتبار الملك الاشرف هذا أخر سلاطين الأسرة الأيوبية في مصر ، وبعزله انتهت رسميا فترة حكمهم ، على الرغم من المحاولات التي حاولها كثير من الأيوبيين في سبيل الوصول إلى عرش مصر وإحياء الدولة الأيوبية فيها ، وبانفراد عز الدين أيبك بالسلطنة تبدأ فترة حكم المماليك البحرية لمصر سنة 1252م . [3]

---

[1] محمد سهيل طقوش ، تاريخ المماليك ، ص 45

[2] ابن تغري بردي ، جمال الدين ابي المحاسن يوسف ، النجوم الزاهرة في اخبار مصر والقاهرة ، الجزء السادس ، مطبعة دار الكتب المصرية ، 1963م ، ص 374

[3] جليلة حسن ، الصراع الأيوبي الصليبي وأثره في سقوط الدولة الأيوبية ، رسالة ماجستير جامعة شندي 2010م ، ص 160

على إن المماليك لم ينتخبوا من بينهم الأمير أيبك سلطانا لأنه كان أقواهم مراسا في إدارة شئون البلاد ، بل على العكس من ذلك دفعهم إلى هذا الاختيار انه من أواسط الأمراء مكانة وليس من أعيانهم ، حتى إذا بدا لهم إن مصلحتهم تقتضى صرفه عن العرش استطاعوا ذلك في يسر وسهولة لضعف شانه وضالة نفوذه .[1]

وهنا نرى المعز أيبك يبتكر هذه الحيلة للتخلص من منافسيه في السلطنة فيستعين بالخلافة العباسية لتحقيق أغراضه ويأمر بأن ينادي في القاهرة ومصر أن البلاد للخليفة المعتصم بالله العباسي وأن الملك المعز نائبه فيها . ومما أغلق باب أيبك أن الأمير فارس الدين اقطاي مقدم المماليك البحرية . الذي ساعد علي إقامة الناصر صلاح الدين في السلطنة مع أيبك . ظهرانذاك علي مسرح السياسة المصرية، وأخذ يعمل علي التقليل من شأن أيبك حتي كان أنه يعده من أتباعه ويسميه باسمه دون لقب السلطنة تكبرا منه كما كان يأنف من أن يتلقي أوامره لم يظهر للمماليك اثر في أحداث الدولة الإسلامية إلا في خلال عهد الدولة العباسية ، فقد كان نظامهم سائدا منذ أيام الخليفة المأمون ، ولعل أول خليفة عباسي اعتمد اعتمادا كبيرا على المماليك في توطيد نفوذه وسلطانه هو الخليفة العباسي المعتصم 227- 228هـ . الذي ضاق ذرعا بنفوذ الفرس وأراد أن يقضي عليهم ، وقرر أن يعتمد على الأتراك بدلا منهم فامتلك أعدادا كبيرة منهم وشكل حرسه الخاص و جيشه وبني لهم مدينة سامرا ، وكان من اثر ذلك أن تغلغل نفوذ المماليك الأتراك في كافة الولايات التابعة للخلافة العباسية ومن بينها مصر[2] .

ولقد جاءت دولة سلاطين المماليك استمرارا لدولة بني أيوب باعتبارها إفرازا سياسيا / عسكريا ، للواقع التاريخي الذي كان يعيشه العالم العربي الإسلامي آنذاك . فقد كان العالم الإسلامي يتعرض لضربات موجعة في الأندلس غربا ، عندما نجح المسيحيون الأسبان في تقليص المساحة العربية على خريطة اسبانيا ، وفي الشرق كانت قعقعة حوافر الخيول المغولية تقترب من بغداد عاصمة الخلافة العباسية ، وفي فلسطين كانت بقايا مستوطنات الفرنج ما تزال قائمة تهدد المنطقة العربية . كما كانت

---

[1] ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهية ، ج 7 ، ص 4

[2] حامد زقان غانم ، محاضرات في تاريخ الأيوبيين و المماليك ، دار الثقافة العربية ، دون تاريخ ، ص 81

شراذم الحملة الصليبية السابعة على ارض الدلتا تجسيدا لفشل أخر مشروعات الغرب الكاثوليكي ضد العرب و المسلمين [1].

تحققت على أيدي المماليك اجل واهم انجازات ذلك العصر من طرد الصليبيين من الشرق إلي صد الاجتياح المغولي الذي لم يقف في طريقه أي حاكم في أي بقعة من أقاصي الشرق وحتى حدود مصر ، وفي داخل أوربا إلي القارة الأسيوية بكاملها على وجه التقريب وأجزاء من شرق أوربا واستحقوا بذلك جميل الأمة الإسلامية و العربية و عرفانها .

تولية عز الدين أيبك السلطنة المملوكية :

استقر الوضع في مصر بتولية عز الدين أيبك 648هـ / 1250م و الذي يعتبر أول حاكم مملوكي في مصر ليعلن نهاية الدولة الأيوبية ، وبدأت شجر الدر تحكم من وراء الستار وهي مؤيدة بالمماليك الذين تعتبرهم سندها الفعلي و العسكري و الواقعي أمثال فارس الدين اقطاي وركن الدين بيبرس . [2]

كان المعز عز الدين أيبك على درجة من الذكاء، بحيث انه لم يصطدم بشجر الدر وزعماء المماليك البحرية في أول أمره ، بل بدأ يقوي من شأنه فاشتري المماليك الخاصة به وأعد قوة عسكرية تدين له بالولاء ، وكون ما يعرف في التاريخ المماليك المعزية . ووضع على رأس هذه القوة ابرز رجاله وأعظم أمرائه سيف الدين قطز [3]

واجهت الأمير المعز أيبك عدة مشكلات عند توليه السلطنة ، مثل تهديد الأيوبيين في الشام أصحاب الحق الشرعي في ملك مصر و الشام ، وقد تحولت تهديداتهم إلى خطر عندما زحف الملك الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق نحو مصر وحاول أن يستعين بالملك لويس التاسع المقيم في عكا ، ولكن أيبك تمكن من تحييد الملك لويس عندما هدده بقتل الأسرى الصليبيين المقيميين في مصر ، وحاول أيبك امتصاص المعارضة الأيوبية ، بإشراك الاشرف مظفر الدين موسي ونصبوه سلطانا و شريكا لأيبك في السلطة وكان في نحو السادسة من عمره ، على أن تكون

---

[1] سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطي ، ج2 ، الطبعة الأولي ، مكتبة الانجلو المصرية ، 1963م ، ص 1076

[2] ابو الفداء الحافظ بن كثير، مصدر سابق ، ص 274

[3]محمد بن اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، بدون تاريخ ، ص 78

جميع الأمور في يد المعز أيبك . ولكن هذا الإجراء لم يسكت غضب الأيوبيين في الشام ، فاضطر المعز أيبك إلي أن يعلن في جميع أنحاء البلاد أن مصر تابعة للخليفة العباسي المستعصم بالله وان المعز أيبك نائبه بها . وبهذه الحيلة حاول أيبك هدم المقاومة الأيوبية ، غير انه لم يكتف بذلك علما منه أن الناصر يوسف لن يرجع عن عزمه في سهولة ، فاخذ يستعد لمحاربته . [1]

أما الملك الناصر يوسف فقد عزم على محاربة المماليك ، وخرج بصحبة عدد من ملوك الأيوبيين بالشام في طريقه إلي مصر لمقابلة المماليك و الاستيلاء على السلطنة ، وسارع أيبك للقائهم ، ولكنه خشي في الوقت نفسه أن يقوم الصليبيون بهجوم مفاجئ على مصر ، فأمر بهدم ثغر دمياط مجازهم المفضل ، ثم التقي بهم الملك المعز أيبك في معركة عند منطقة العباسة 648هـ / 1251م بعد أربعة شهور فقط من حكمه ، وكان النصر واضحا لجيوش الناصر لكثرة عساكره ، وسرعان ما انتهي القتال لصالح المعز أيبك وفرار الملك الناصر يوسف واسر عدد كبير من ملوك الأيوبيين . وكان من نتائج هذا النصر أن أقدم المعز أيبك على عزل الاشرف موسي وانفرد باسم السلطنة في عام 650هـ / 1252م . [2]

وكان الاشرف آخر ملوك بني أيوب بمصر ، ولم تقم للأيوبيين بعد ذلك قائمة على الرغم من المحاولات التي حاولها كثير من الأيوبيين في سبيل الوصول إلى عرش مصر وإحياء الدولة الأيوبية فيها ، ألا أن ظهور الخطر المغولي في الشرق لم يجعل الصراع بين الأيوبيين و المماليك بهذا المستوي من القوة و المواجهة . فتطلب الموقف منهما أن تتوحد جهودهما لمواجهة المغول في غزوهم للعالم الإسلامي . وأرسل الخليفة العباسي المستعصم بالله رسوله نجم الدين البادرائي للقيام بالوساطة بين الطرفين ليتفقا على حرب المغول وعقد الصلح بينهما في عام 651هـ / 1253م

---

[1] ابن تغرى بردى :النجوم الزاهرة ، مصدر سابق ، ج 7 ،ص 6 .

[2] تقي الدين أحمد بن علي المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، الجزء الأول ، القسم الثاني ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، 1936م ، ص 270

على أن تكون مصر حتى الأردن للمماليك ، وإما الأيوبيين فلهم ما وراء ذلك من بلاد الشام ، وان يطلق المعز أيبك سراح من أسره من رجال الناصر يوسف. [1]

ثم حدث أيضا تطور خطير لصالح أيبك وهو اعتراف الخليفة العباسي بزعامة الملك المعز أيبك على مصر ، فأعطي هذا الاعتراف الملك المعز صيغة شرعية مهمة . يبدو أن تدخل الخليفة في ذلك الوقت كان غرضه توحيد الجهود لتكوين جبهة إسلامية أمام خطر جديد اشد من الخطر الصليبي ، وهو الخطر المغولي الذي كانت جحافله قد اجتاحت البلاد الإسلامية الشرقية بقيادة جنكيزخان وقضت على الدولة الخوارزمية التي كانت بمثابة الترس الحامي لجميع الدول الإسلامية في غرب آسيا من هجمات المغول وغيرهم . [2]

وقد مكنت الأحداث الملك المعز عز الدين أيبك من التحكم في مقاليد الأمور في مصر ولكن واجهته مشكلة خطيرة هددت ملكه ، تمثلت في بروز المماليك البحرية كقوة منافسة له في السلطة والنفوذ ، خاصة ، وأنهم تولد لديهم شعور بالاعتزاز بعد معركتي المنصورة و العباسة ، وزاد طموحهم السياسي و العسكري وخاصة فارس الدين اقطاي الذي كان يبادله كراهية معلنة . ولقد بالغ اقطاي في احتقار أيبك و الاستهانة به بحيث كان يناديه باسمه مجردا من أي ألقاب . و كان أيبك يتوجس خيفة من هذه الطائفة لعلمه بقوتها وخطرها ، فاخذ يعمل على تقوية نفسه ، فانشآ فرقة من المماليك عرفوا بالمعزية نسبة إلى لقبه (الملك المعز) كما عين مملوكه قطز نائبا للسلطنة بمصر ، قد حاول المعز السكوت عن تصرفات اقطاي ، وحاول استرضائه فأقطعه ثغر الإسكندرية ولكن الأمر لم يحل ، واخذ اقطاى يرنو علانية نحو السلطنة ، كما اخذ خشداشيته يسعون في تحقيق بغيته ،

---

[1] احمد عودات وجميل بيضون ، المغول والمماليك من القرن السابع الهجرى حتى القرن الثالث عشر الهجرى ، دار الكندى ـاربد ، 1990م ، ص 79

[2] شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، الطبعة الأولي ، الجزء 29 ، تحقيق مصطفي فواز و حكمت كتلي فواز . ، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية ، لبنان ، 2004م ، ص 275

فلقبوه فيما بينهم بالملك الجواد ، ثم صاهر اقطاي الملك المظفر الأيوبي ليجعل له انتماءا واضحا للأسرة الأيوبية التي حكمت قرابة ثمانين عاما . [1]

أدرك أيبك أن تصرفات اقطاي ما هي ألا مؤامرة لإبعاده عن الحكم ، فبادر عند ذلك بالتدبير و الاحتياط واستدرج اقطاي إلي القلعة وقتله ورمي برأسه أمام أكثر من سبعمائة من المماليك البحرية ، فخافوا وهربوا إلي الشام والتحقوا بالأمراء الأيوبيين هناك . وكان على الهاربين ركن الدين بيبرس الذي ذهب إلي الناصر يوسف صاحب حلب ودخل في طاعته . [2]

والواقع أن مقتل اقطاى قد شطر المماليك إلى حزبين مناوئين ، هما البحرية والمعزية مما عرض قيام دولة المماليك لأشد الأخطار ، إذ اخذ المماليك الهاربون يحرضون ملوك البيت الايوبى على غزو مصر ، ولم يخف ذلك على أيبك ، فعمد أولا إلى مصادرة أموال المماليك البحرية ، كما قبض على من بقى منهم في مصر، وشتت شمل من والاهم من طوائف المماليك الأخرى . [3]

وهكذا صفا الجو في مصر للمعز أيبك ، وان كان العداء بينه وبين المماليك البحرية قد أصبح معلنا وصريحا ، وكان أيبك قد تجهز للخروج بجيوشه إلى الحدود المصرية ، وعسكر بالقرب من بلدة العباسة مدة ثلاث سنوات تقريبا ، و مرة أخرى توسط الخليفة العباسي المستعصم بالله ليضمن استقرار الأوضاع في مصر و الشام ، ونجحت وساطته وتقرر الصلح بين ايبك والناصر سنة 654 هـ /1256 م ، واتفقوا على أن يعيش المماليك البحرية في فلسطين التي كانت تابعة للمعز ويبقي ملك المعز في مصر . [4]

أصبح المعز عز الدين أيبك مستقرا في عرشه ، وأصبح قائده سيف الدين قطز[*] قائدا بارزا معروفا عند الخاصة والعامة وكانت السلطنة المملوكية تستند

---

[1] النويري ، المصدر نفسه ، ص 277

[2] حمدي عبد المنعم ، مرجع سابق ، ص 160

[3] ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج 7 ، ص 34

[4] راغب السرجاني ، مرجع سابق ، ص 236

[*] سيف الدين قطز هو محمود بن ممدود وهو ابن أخت جلال الدين الخوارزمي ملك الخوارزميين المشهور قد استرقه التتار وأطلقوا ليه اسما مغوليا هو قطز وتعني الكلب الشرس . وباه التتار في أسواق الرقيق في دمشق

إلى القوة الحربية وتأييد الخلافة العباسية تأييدا يدل على شيء من التبعية . واستمر الحال على ذلك إلى سنة 655هـ /1257م حتى ساءت العلاقة بينه وبين زوجته شجر الدر ، وأراد المعز أن يوطد حكمه ويثبت إقدامه على العرش بصورة اكبر ، بل تزايدت أطماعه في المناطق المجاورة له في فلسطين والشام ، كذلك أراد أن يقيم حلفا مع احد الأمراء الكبار في المنطقة يساعده على ذلك ، فاختار حاكم الموصل بدر الدين لؤلؤ وتزوج بنته . فدبت الغيرة والحقد في نفسها فأرسلت في طلبه وحرضت عليه من قتلوه ، وهكذا اثبت أيبك قدرة فائقة في صراع السلطة وانتصر على المماليك البحرية ، ولكن متاعبه لم تنتهي إلا بمصرعه في مؤامرة دبرتها له شجر الدر سنة 655هـ / 1257م لينتهي حكم المعز بعد سبع سنوات من الجلوس على عرش مصر. وبدأت شجر الدر توثق علاقاتها بالمماليك البحرية سواء من بقي منهم في مصر ، أو من ظل مقيما في منفاه الاختياري ببلاد الشام . [1]

انتقلت السلطنة بعد مقتل المعز أيبك إلى ابنه نور الدين علی ، وعمره احدى عشرة سنة ،على إن يلقب بالمنصور ويعين الأمير سيف الدين قطز اتابكا له . ولم يكن اعتلاء على عرش السلطنة احتراما لمبدأ الوراثة ، فقد كان المبدأ غريبا عن عقلية المماليك ، بل لان أتباع أبيه المماليك المعزية رأوا الاحتفاظ بالعرش في بيته انتقاما من قتلته ، وقد بدا هذا السلطان الشاب عهده بالانتقام لأبيه أيبك من شجر الدر ، إذ أوعز إلى بعض الجواري فقتلنها وهكذا بدت الدولة وسلطانها صبى وهى لم تزل في دور التكوين ، ولم تكن بحاجة إلى ما يترتب على قيام الصغار من منافسات ومؤامرات داخلية ، فضلا عما خفي وقتذاك من عوامل الخطر الخارجي مما كان ادهي وأعظم ، وهو الخطر المغولي. [2]

وبذلك يمكن القول أن دولة سلاطين المماليك كانت قد شهدت تطورات داخلية سريعة في السنوات الأولي من قيامها .

فاشتراه احد الأيوبيين وجاء به الي مصر وانتقل من سيد إلي أخر حتى وصل الي المعز عز الدين أيبك فأصبح اكبر قواده . النويري ، مصدر سابق ، ج 29 ، ص 306

[1] النويري ، مصدر سابق ، ج 29 ، ص 293

[2] احمد مختار العبادي ، قيام دولة المماليك ، ص 141

المبحث الثاني

التطورات السياسية في دولة المماليك منذ وفاة عز الدين أيبك وحتى ولاية سيف قطز

أدت وفاة عز الدين أيبك إلي إحداث فراغ في السلطنة المملوكية ، وصراع بين المتنافسين على الحكم ، فقرر المماليك تنصيب نور الدين علي ابن أيبك سلطانا وكان في الخامسة من عمره ولقبوه بالملك المنصور ، على أن يكون سيف الدين قطز قائد الجيش اتابكا له . ولعله قد وضع وهو في هذا العمر لكي يوقف النزاع المتوقع بين زعماء المماليك على الحكم ، في حين حاول الأمراء في بلاد الشام الاتصال بالملك المغيث صاحب الكرك لغزو مصر ، واستجاب لهم و خرجت الحملة نحو مصر ، ولكن قطز تصدي لهم و الحق هزيمة منكرة بهم . [1]

ويذكر أن المماليك لم يتبنوا مبدأ الوراثة هذا لاعتقادهم بصحته من حيث تامين المصلحة الخاصة لكل أمير ، إنما جعلوا منصب السلطنة هدفا يتنافس عليه كبار أمرائهم عقب وفاة كل سلطان ، دون الأخذ بعين الاعتبار المصلحة العامة للدولة ، وهو حل مؤقت إلى أن يتضح الموقف ، ويبرز الأمير القوى الذي يستطيع إن يثبت تفوقه على بقية الأمراء ، ثم يعتلى السلطنة بعد عزل أو قتل المتبوا على العرش من سلالة السلطان الراحل . [2]

وهكذا كان الموقف بعد اغتيال المعز أيبك ،اذ اجتمع كبار الأمراء المتنافسين فبما بينهم على منصب السلطنة ، واختاروا ابنه نور الدين على ، وسرعان ما ظهر التنافس واضحا بينهم ، فقبض المماليك المعزية على الأمير سنجر الحلبي وسجنوه في القلعة ، وقد أثار موقف المعزية استياء بعض الطوائف الأخرى مثل المماليك الاشرفية ، ونتج عن هذا التنافس بين الأمراء الفوضى التي عمت البلاد أن تعرضت البلاد لضغط ايوبى متزايد ، ذلك أن المماليك البحرية الصالحية الذين التجاوا إلى الكرك ، حرضوا المغيث عمر الايوبى على غزو مصر ، وقد تزعم هذه المجموعة من المماليك بيبرس البندقدارى . [3]

---

[1] النويري ، مصدر سابق ، ج 29 ، ص 293

[2] سعيد عاشور ، العصر المماليكي ، ص 22 –23

[3] سهيل طقوش ، تاريخ المماليك ، ص 59

وفعلا خرج المغيث عمر على رأس الحملة العسكرية ، للاستيلاء على مصر، وحاول ذلك مرتين ، ولكن الفشل كان من نصيبه ، وتعيد الكرة نفسها حين خرج الأمير قطز وتصدى للمهاجمين عند الصالحية وانزل بهم هزيمة قاسية في (656 هـ / 1258 م) ففر المغيث عمر إلى الكرك في حين اتجه البحرية إلى الطور حيث اتصلوا بالأكراد الفارين من وجه المغول . [1]

كانت هذه الاضطرابات فرصة لظهور نجم الأمير سيف الدين قطز ، فقد قام بالقبض على سنجر الحلبي وحبسه بقلعة الحبل ، لأنه كان يطمع في السلطنة بعد مقتل المعز أيبك ، ولانه كان يتحين الفرصة للوثوب على العرش ، وخلا الجو لقطز فصار نائب السلطان ،وصار مدبر دولة الملك المنصور على. [2]

كان جلوس السلطان الصبي على العرش مسالة قصد بها كسب الوقت حتى يمكن لواحد من كبار المماليك الطامعين في عرش السلطنة أن يحسم الصراع لصالحه ، وكان هذا مشهدا تكرر كثيرا طوال عصر سلاطين المماليك بل أن هذه كانت ممارسة سياسية حظيت باعتراف الجميع طوال ذلك العصر ، ومن المهم أن نشير إلى أن المماليك لم يؤمنوا بنظام وراثة العرش ، إذ أن طبيعتهم العسكرية من ناحية ، وشعورهم بأنهم جميعا سواء من ناحية أخرى ، جعل كبار أمرائهم يعتقدون أنهم جميعا يستحقون العرش الذي يفوز به أقواهم وأقدرهم على الإيقاع بالآخرين ، تحقيقا لمبدأ (الحكم لمن غلب). [3]

وهكذا بدت الدولة في ظل حكم صبى قاصر ، وهى لم تزل في دور التكوين ، في الوقت الذي اشتد فيه الخطر المغولي بزعامة هولاكو بعد أن وصل إلى بلاد الشام عقب إسقاطه الخلافة العباسية ، فعم الاضطراب والقلق إرجاء مصر ، خلقت هذه الظروف الخارجية وضعا حرجا يتطلب وجود رجل قوى على رأس السلطنة ، فوجد قطز الفرصة سانحة ليتبوأ عرش مصر ،فإتخذ قراره الجرئ فعزل المنصور نور الدين

---

[1] ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج7 ، ص 46

[2] المصدر نفسه ، ص 42

[3] قاسم عبده قاسم ، سيف الدين قطز ، ص 81

على سنة (657 هـ/1259 م) بمساعدة الأعيان والأمراء المعزية ، ثم قبض عليه وعلى أخيه وأمهما وسجنهم في برج السلسلة بثغر دمياط .[1]

وبينما كان النزاع حول السلطان الصبي قائما ، كان صدي طبول الحرب التي شنها المغول على شرق العالم الإسلامي يتردد على حدود السلطنة المملوكية ، ولم يكن بوسع السلطان الصبي أن يفعل شيئا إزاء هذا الخطر الداهم . واقترب الخطر عندما كانت الجحافل المغولية قد اقتحمت بغداد عاصمة الخلافة العباسية سنة 656هـ / 1258م وقتلوا الخليفة العباسي المستعصم بالله ومارسوا القتل و الحرق و التدمير الحضاري ، وأصبح الخطر على أبواب الشام مع تطلع المغول في الزحف شمالا وغربا ، فأثار ذلك موجة شاملة من الذعر و الآسي في العالم الإسلامي ، وبدأ الناس في مصر و الشام يحسون أن دورهم قريب ، وان الموقف يتطلب الاتحاد لمواجهة تلك الأزمة التي لم يشهد المسلمون مثلها من قبل . وهاهي رسلهم تصل إلي القاهرة تحمل رسالة[*] تفيض وقاحة وتهديدا من هولاكو .[2]

كانت الأحوال على هذا القدر من التردي والتمزق عندما تعين على الأمير سيف الدين قطز نائب السلطنة أن يخطو الخطوة الأخيرة نحو العرش من ناحية ، وتدعيم نفوذه السياسي الداخلي من ناحية ثانية ، والاستعداد لمواجهة التتار من ناحية ثالثة .[3]

وفى بلاد الشام كانت الأمور تزداد سوءا بسبب ضعف الأيوبيين الصغار ، وكان المماليك البحرية بزعامة بيبرس يواصلون الهرب من مكان إلى مكان آخر ، وأرسل الأمير ركن الدين بيبرس إلى الملك الناصر صلاح الدين حاكم دمشق يلتمس منه الأمان ، قم جاء بالفعل ومعه عدد من الأمراء حيث أكرمه الناصر وأعطاه إمرة مائة فارس ، واقطعه نصف نابلس وجنين ، وعبثا حاول بيبرس إقناع الناصر بالصمود أمام أخطار التتار ، ثم جاء الملك العزيز ابن الناصر من عند هولاكو ومعه

---

[1] النويرى ، مصدر سابق ، ص 468

[*] انظر نص رسالة هولاكو الى سلطان مصر في تقي الدين احمد بن علي المقريزي كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك الجزء الأول القسم الثاني ص 427 – 428

[2] قاسم عبده قاسم و علي السيد علي ، مرجع سابق ، ص 134

[3] قاسم عبده قاسم ، سيف الدين قطز ، ص 84

رسالة تكشف طرفا من الحرب النفسية التي كان التتار يشنونها ضد أعدائهم من ناحية ، كما تكشف عن فداحة الخطر الذي كان على سيف الدين قطز أن يستعد لمواجهته من ناحية أخرى . [1]

رأي ملوك الأيوبيين بالشام أن يتخذوا في مبدأ الأمر سياسة مداهنة للمغول ، لعل ذلك ينقذهم من إذاهم ، فبعث الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق بابنه العزيز محمد إلي هولاكو يخطب وده ويحمل التحف و الهدايا ويقدم الخضوع و الولاء ، ويطلب مساعدته لاستعادة مصر من أيدي المماليك . ولكن يبدو أن هولاكو قد شك في إخلاص الناصر لذلك رد عليه ردا جافا يأمره فيه بضرورة المجئ إليه وتقديم الولاء دون قيد أو شرط ، وكان حريا بهولاكو أن يقبل الطلب لو أن أمير دمشق أحاطه بشي من العناية و الأهمية ، وذهب بنفسه يطلب حلف الايلخان المغولي ويعرض ولاءه و تبعيته . و الراجح أن الناصر لم يكن مستعدا للذهاب ابعد من ذلك أو الارتباط بعهد وثيق مع المغول لأنه تعرض لاستنكار شديد من الأمراء المسلمين سبب تقربه من المغول ، لذلك اظهر العداء لهولاكو وغادر دمشق إلي الكرك و الشوبك . [2]

قاد هولاكو جيشه في سنة 657هـ/ 1259م باتجاه حلب للاستيلاء عليها ، ولما كان الطريق إليها يمر بديار الجزيرة فانه أرسل قسما من جيشه بقيادة ابنه بشموط إلي ميافارقين فحاصرها واستولي عليها، بعد أن دافعت حاميتها دفاعا مستميتا لم يشهد المغول مثله ، واستشهد صاحبها الكامل الأيوبي ، استولي هولاكو على البلاد الشامية وديار بكر مثل ماردين ونصين وحران و الرها و البيرة وحارم ، ثم تابع المغول سيرهم إلي الشام حتى وصلوا حلب في سنة 658هـ/ 1260م ورفضت حاميتها الاستسلام ، لذلك تقرر اقتحامها بعد سبعة أيام مروعة من السفك والتخريب.[3]

---

[1] المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

[2]قرغريوس الملطي المعروف ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، الطبعة الأولي ، دار الأفاق العربية ، 1427هـ/ 2001م ، ص 276 – 177

[3] رشيد فضل الله الهمذاني ، تاريخ المغول الايلخانيون ، تاريخ هولاكو ، المجلد الثاني الجزء الأول ، تعريب فؤاد عبد المعطي الصياد و صادق نشأت ، دار أحياء الكتب العربية ، ص 306

نتيجة لهذه الانتصارات الحاسمة و السريعة و ما صاحبها من قتل وتشريد وتدمير ، عم الرعب كل بلاد الشام وأدرك الناصر يوسف أن الطريق إلي دمشق بات مفتوحا أمام المغول ، وانه عاجز عن مواجهتهم منفردا ، فقرر أن يطلب المساعدة من المماليك في مصر لوقف سيل المغيرين ، وكان سلطان مصر في ذلك الوقت الملك المظفر سيف الدين قطز ، وعلى الرغم من سوء العلاقات بين قطز و الناصر، فان خطورة الموقف جعلت السلطان المملوكي يتناسى الأحقاد ويقبل طلبه الخاص بإرسال نجدات عسكرية إليه . [1]

يبدو أن قطز قد هاله الزحف المغولي السريع ، فأراد إيجاد حليف يقوى به الجبهة الإسلامية غير أن الراجح انه أراد أن يخدع الملك الايوبى ليستولى على أملاكه ، بدليل انه لم يتعجل إرسال النجدة ، كما حاول استقطاب أتباعه عندما توجهوا نحو مصر كما سنرى .

كان قطز من الخوارزمية ، وتروى المصادر التاريخية أن اسمه (محمود بن ممدود)، وانه ابن أخت جلال الدين خوارزم شاه الذي قضى التتار على مملكته ، وكان قطز من بين الأطفال الذين حملهم التتار إلى دمشق وباعوهم إلى تجار الرقيق، ومر بالمراحل التي كان يمر اى مملوك في تلك الفترة الباكرة من تاريخ دولة سلاطين المماليك و قد ترقى قي الخدمة حتى صار اكبر مماليك الملك المعز أيبك التركماني، وبعد ذلك بدا قطز يشق طريقه على الطريقة المملوكية صوب العرش الذي جلس عليه سيده عزا لدين أيبك. [2]

كان مقتل فارس الدين اقطاى بمثابة علامة البداية لمسيرة قطز نحو عرش السلطنة من ناحية ، كما كان إيذانا بانقسام المماليك إلى حزبين مناوئين من ناحية أخرى ، هذان الحزبان هما المماليك البحرية والمماليك المعزية ، مما عرض الدولة الناشئة إلى خطر شديد ، فقد هرب زعماء البحرية طلبا لحماية أمراء الأيوبيين

---

[1] الحافظ بن كثير ، مصدر سابق ، الجزء 13، ص 247

[2] ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج 7 ، ص 84

وملوكهم في بلاد الشام وحماية سلاجقة الروم ، واخذ المماليك الهاربون يحرضون ملوك البيت الايوبى على غزو مصر . [1]

بدأ قطز في ترتيب أوضاع السلطنة بعد أن بارك كبار الأمراء هذه الخطوة ، لإدراكهم إن قتال المغول لا يصلح بغير سلطان قوي ، وصارحهم قطز بأن الأمر سيؤول إليهم لاختيار من يريدونه بعد تحقيق النصر على العدو . وهكذا تولي سيف الدين قطز سلطنة مصر كي يتمكن من إعداد البلاد للتصدي لهذا العدو الذي اجتاح آسيا وشرق أوربا . [2]

والواقع أن قطز تولى السلطنة في ظروف لا يحسد عليها حاكم ، إذ كان مطلوبا منه أن يستعد لصد الخطر الذي لم تستطع قوة في الشرق الأدنى الصمود في وجهه، وفى سبيل تحقيق هذا الهدف ، كان عليه أن يعمل على لم الشمل وجمع الكلمة واتحاد الصفوف بين العرب فى الشام ومصر ، ويبذل الجهود الجبارة لكي يحول دون اتصال أمراء الشام بالتتار ، خاصة بعد أن علم بأنباء هؤلاء المستضعفين من أبناء الأسرة الأيوبية الين ذهبوا في ذلة ومهانة ، يقدمون فروض الخضوع والطاعة لهولاكو. [3]

والواقع أن قطز كان سياسيا حكيما كما كان قائدا بارعا ،حرص بمجرد أن تولى الحكم على رفع الروح المعنوية لهؤلاء الحكام ، وتأمينهم على أنفسهم ، ودعوتهم إلى التضامن والتآزر في سبيل القضاء على العدو المشترك ، ويظهر دهاء قطز بوضوح في الرسالة التي أرسلها إلى ألملك الناصر بعد أن ورد الخبر بقدوم نجدة إليه من عند هولاكو ، فهو في هذه الرسالة يقسم بالأيمان انه لا ينازعه في الملك ، ولا يقاومه وانه نائب عنه بديار مصر ومتى حل بها أقعده على كرسي السلطنة ، كما يعرض عليه أن يفد م إليه مع جيشه ، وإذا كان لا يطمئن إلى حضوره ، فانه على استعداد لان يسير إليه الجيش بصحبة من يختاره : (وان اخترتني خدمتك ، وان اخترت قدمت ومن معي من العسكر نجدة لك على القادم عليك ، فان كنت لا ثامن حضوري ،

---

[1] قاسم عبده قاسم ، سيف الدين قطز ، ص 75

[2] ابن تغري بردي ، مصدر سابق ، الجزء السابع ، ص 55

[3] فؤاد الصياد ، المغول فى التاريخ ، ص 301

سيرت إليك العساكر صحبة من تختاره) ولقد كان خطاب المظفر الذى وصل إلى الناصر ابلغ الاثر في نفسه ، فاطمأن الملك الناصر وكذلك يظهر واضحا إلى اى مدى كان قطز حريصا على سلامة العالم الاسلامى ووحدته مضحيا في سبيل ذلك بمصلحته واطماعه الشخصية . (1)

وهكذا نجح قطز في الجولة الأولى قبل أن يخوض المعركة ضد المغول ، في خلق تعاون وثيق بين الشام ومصر ، وتوحيد جيوشهما لصد العدوان المغولي ، وقد سارعت البقية الباقية من أمراء الشام ممن أبت عليهم وطنيتهم أن يستسلموا للمغول ، فاتجهوا إلى مصر يتطلعون إليها ، وينتظرون على يديها الخلاص ، ويبدون استعدادهم للوقوف صفا واحدا في وجه العدو المشترك لإنقاذ الشرق العربي من خطرهم .

---

(1) تقى الدين المقريزى ، السلوك ، الجزء الاول ، القسم الثانى ، ص 418

المبحث الثالث

العلاقات بين المماليك والمغول في عهد سيف الدين قطز

657 -658 هـ /1259 – 1260م

موقعة عين جالوت:

أضحت فلول الممالك الإسلامية في الشرق الاسلامى التي تعرضت للغزو المغولي ، على يقين تام بان دولة المماليك الفتية في مصر هي الدولة الوحيدة القادرة على حمل لواء الجهاد للنهوض بالعالم الاسلامى وانتشاله من وهدته العميقة، وذلك لتوفر العنصر البشرى ، فضلا عن مواردها الطبيعية الضخمة ، وابتعاد من بها من الحكام عن الأثرة وحب الذات ، هذا بالإضافة إلى ما سبق أن ذكرناه من مسير الملك المنصور صاحب حماة بعد وصول قوات المغول إلى نابلس ، ومعه جموع كثيرة من عساكر الشام التي فضلت . على ما يبدو . مرافقة الملك المنصور في الوقت الذي امتنع فيه الملك الناصر يوسف على الدخول إلى مصر لمقابلة المظفر قطز إلى أن ظفر به المغول وحملوه إلى هولاكو . [1]

كان الوضع في مصر متأزما عندما بدأ التتار في اجتياح الشام و الاقتراب من مصر ، فالمسرح السياسي الداخلي كان يموج بالاضطرابات و الأزمات ، وكانت الفتن الناتجة عن الصراع على كرسي الحكم عنيفة ، وقد استقرت الأوضاع عند تولي عز الدين أيبك السلطة لسبع سنوات متصلة ثم عادت من جديد للاشتعال بمقتل شجر الدر ثم ولاية نور الدين علي ، هذا بالإضافة إلي الفتنة التي ما زالت دائرة بين المماليك البحرية الصالحية و المماليك المعزية ، وقد اضعف هذا الانقسام القوة العسكرية في دولة المماليك لان المماليك البحرية كانوا أساس الجيش المصري في ذلك الوقت .

وفي ظل هذا الوضع السياسي و العسكري داخل مصر ، كان هولاكو قد اندفع بجيوشه فاستولي على حلب ودمشق ، فاضطر الملك الناصر يوسف إلي الانسحاب إلي غزة حيث استمر جنده ينفضون من حوله وانضم بعضهم إلي المماليك

---

[1] احمد عودات وجمبل بيضون ، مرجع سابق ، ص 106

فاتجه إلي فطيا الواقعة على حدود مصر ولكن المغول بعثوا ببعض رجالهم فأسروه.[1]

عقب استيلاء المغول على دمشق أتموا احتلال بلاد الشام وتقدموا نحو فلسطين دون ان يلقوا مقاومة باستثناء ما وجدوه من قبل حامية نابلس لأنها قاومتهم ، كما استسلمت لهم حامية عجلون وأغاروا على الجليل فقتلوا الرجال وسبوا النساء ولكنهم لم يطأوا بيت المقدس . [2]

وفي ذلك الوقت دانت للمغول بلاد الشام الإسلامية ولم يبق خارج حكمهم في الجانب الشرقي إلا مصر و الحجاز و اليمن . وكان هولاكو قد أرسل وهو في بلاد الشام إنذارا إلي السلطان قطز يطلب منه الخضوع للسيادة المغولية والإعتراف بطاعته ، ويذكره بان المغول استولوا على كافة البلاد ،ولن تستطيع قوة الوقوف في وجههم ، وكانت تلك السفارة بداية الإحتكاك بدولة المماليك في مصر وبلاد الشام ومغول بلاد فارس. وأجاب قطز الخوارزمي الأصل إجابة غير منتظرة إذ قتل السفراء المغول الذين حملوا الرسالة إلى مصر توسيطا ، انتقاما لما أحدثه جنكيزخان بالدولة الخوارزمية ، وعلق رؤوسهم على باب زويله ، ونودي في القاهرة وسائر الأقاليم بالخروج إلي الجهاد. [3]

والواقع أن الملك المظفر قطز بات هو الأخر يدرك تماما أن بقاء دولته الفتية يتوقف على اجتياز ذلك الامتحان الصعب المتمثل في الغزو المغولي للممالك الإسلامية الذي استشرى خطره ، وان يثبت انه بحق أهل الثقة التي أولاها إياه الأمراء في مصر بعد إجماعهم على عزل الملك المنصور على بن المعز أيبك وتنصيبه سلطانا على دولة المماليك ، لذلك شرع قطز في إعداد العدة وتوفرت الأموال اللازمة لجيش قوي ، ولحرب ضروس وعملا بالآية الكريمة (وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ

---

[1] حمدي عبد المنعم حسين ، دراسات في تاريخ الأيوبيين و المماليك ، ص 162

[2] شهاب الدين أحمد النويري ، مصدر سابق ، ج 29 ، ص 302

[3] بدر الدين محمد العيني ، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، تحقيق محمد أمين ، الجزء الأول ، الهيئة المصرية للكتاب القاهرة ، 1985- 1991م ، ص 332

يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ)[1] ولم يشأ قطز بعد ذلك أن ينتظر مجئ المغول إلي مصر ، وإنما استرشد بالآية الكريمة (وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ) [2][3]

والحقيقة فقد كانت تواجه الملك المظفر معضلة افتقار الشرق الاسلامي آنذاك إلى الخلافة الشرعية بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد ، اذ لو كانت الخلافة قائمة لكان من السهل عليه الاتصال بها ، والحصول على تقليد من الخليفة يخوله تزعم ما تبقى من الشرق الاسلامى ويسبغ على دولته صفة الشرعية الكاملة ، لذا كان على قطز ان يراعى ذلك النقص المتمثل في شغور منصب الخلافة ، وان يتولى بنفسه وبأساليب مختلفة حشد اكبر عدد من عساكر المسلمين عنده لإنقاذ دولته وما تبقى من العالم الاسلامى من خطر المغول المدمر ، كما قام فى الوقت نفسه بالاتصال بالأمراء الأيوبيين في بلاد الشام الذين انضووا تحت لواء المغول ، طالبا منهم التخلي عن تبعيتهم للمغول الذين زعزعوا كيان المسلمين ، فكتب إلى الاشرف موسى صاحب حمص يلومه على ميله إلى المغول وانحيازه إليهم ، وتفضيلهم على المسلمين ، ويعده انه متى ترك المغول ومال إليه بشرط ألا يقاتل معهم إذا كان بينه وبينهم مصافا ، ابقي عليه ما في يده من البلاد ، فأجابه الاشرف إلى ذلك . [4]

أما هولاكو فقد غادر الشام قبل إتمام ما عزم عليه ، إذ توفي أخوه الخاقان مانجو خان (655 هـ /1257 م) وتتطلب ذلك رحيله إلي قراقورم لمواجهة الأحداث الجديدة للمشاركة في انتخابات الخاقان الأعظم الجديد، وليكون قريبا من مجرى الحوادث فى منغوليا ، ليسهل عليه التحرك إلى منغوليا إذا دعته الظروف إلى ذلك ، فأراد أن ينافس على الزعامة المغولية معتقدا انه سوف ينتخب خانا أعظم نظرا لأهمية توسعاته ، فتحرك متجهاً إلى العاصمة المغولية قراقورم ومعه جموع من الجيش المغولي تاركا خلفه في المنطقة عشرة ألاف مقاتل ، وغادر أيضا لان أملاكه

---

[1] سورة الأنفال الآية (60)

[2] سورة الأنفال الآية (58)

[3] نور الدين خليل ، مرجع سابق ، ص 127

[4] سعيد الغامدى ، مرجع سابق ، ص 107 –108

في أذربيجان قد تعرضت لضغط شديد من قبل ابن عمه بركة خان زعيم القبيلة الذهبية(*) وحاكم القيجاق . خاصة انه قد اعتنق الإسلام واخذ يتوعد هولاكو ويهدده، بسبب ما اقترف من مذابح في ألاف المسلمين ، ولأنه تجرأ على الخلافة العباسية وقتل الخليفة المستعصم ، لذلك كثيرا ما وقع الاحتكاك بينهما عند جبال القوقاز التي تفصل بين نفوذهما ، بل ذهب بركة خان إلى ما هو ابعد من ذلك ، حيث قام باضطهاد القبائل المسيحية التي كانت تسكن تلك المناطق وذلك ردا على ما سلكه هولاكو من سياسة تعسفية تجاه المسلمين بقصد إذلالهم ، ويبدو أن هولاكو أراد ان يضع حدا لتصرفات التهكم والانتقام التي مارسها بركة ضده ، فحاول أن يغرض سلطانه على الجانب الشمالي لجبال القوقاز ، ولكن بركة اعد لذلك الأمر عدته ، واسنطاعت جيوشه أن تنزل بجيوش هولاكو هزيمة ساحقة ، وكان لهذا الموقف أثره إذ اضعف من قوى المغول أمام المماليك في عين جالوت . [1]

ويمكن القول أن هناك أسباب أخرى أجبرت هولاكو على العودة ، منها أن هولاكو الذي بات محاذيا لممتلكات الصليبيين على الساحل الشامي وكان يطمح إلى تحالفهم معه ضد المسلمين أدرك انه لا جدوى من قيام ذلك الحلف لأنه وثنيا يدين بالديانة البوذية ، وعليه فانه لا يستبعد انه فكر في طريقة أخرى ملتوية يستميل بها هؤلاء الصليبيين إلى صفه ، فوجد أن الطريق لضمان ذلك هو جعل صراعه ضد المسلمين صراعا مسيحيا بحتا ، لعله بذلك يكسب عطف المتحمسين للدين المسيحي من الصليبيين الغربيين ، فيتناسون ما بينهم من خلافات مذهبية مع المسيحيين الشرقيين ، ويوحدون صفوفهم لمحاربة المسلمين ، ولعل اختيار هولاكو لقائده كتبغا الذي كان يدين بالمسيحية ليخلفه على بلاد الشام ، وتفضيله على غيره من أمراء المغول الكبار الذين كانت لهم اليد الطولي في تدمير قلاع الاسماعيلية واقتحام بغداد، ومدن إقليم الجزيرة والشام ، خير دليل على ذلك ، كما يمكن أن نضيف إلى ذلك أن هولاكو ادر ك أن تدهور الوضع في منغوليا وتطوره سيؤدى إلى خلاف حول ولاية العرش داخل قراقورم ،سينعكس ذلك على القوات التي تعمل تحت يده مما قد

(*) سميت بالقبيلة الذهبية نسبة للون الذهبي الذي امتازت به محمياتهم

(1) ابن العبري ، مصدر سابق ، ص 280

يعرض هولاكو لخسارة جسيمة أمام المماليك المسلمين في مصر ، الأمر الذي يفقده مكانته العالية بين المغول بعد تلك الانتصارات العظيمة التي حققها ضد المسلمين ابتداء من إيران حتى بلاد الشام ، لذا فضل العودة إلى المشرق وترك الأمر لغيره هناك لكي يكسب إحدى الحسنيين ، أما النصر على المماليك فيزيد ذلك من رصيده بحكم أن هذه القوات تعمل باسمه ، أو الاحتفاظ في حالة الخسارة بمكانته تلك ، لأنه بعيدا عن مسرح الحوادث . [1]

ومهما يكن من أسباب عودة هولاكو إلى عاصمته بالمشرق ، فإن الذي يهمنا هو أن ذلك الحدث المفاجئ كان تحولا خطيرا ، غير مجرى سياسة المغول التوسعية التي كانت تتم على حساب العالم الاسلامى ، اذ المعروف أن هولاكو لم يعد إلى فارس بمفرده ، بل عاد ومعه جموع من عساكره ولعل ذلك كان لتبرير فراره ، بأنه يريد مواجهة تفاقم تهديد خانات القبيلة الذهبية (القبجاق) له، كما أن خطة هولاكو التي قضت بان يخلفه على بلاد الشام القائد كتبغا المسيحي ، لصبغ ذلك الصراع بالصبغة المسيحية ، لم ينجح فى استمالة الجموع الصليبية في ساحل بلاد الشام إليهم لتكوين حلف صليبي مغولي ضد المسلمين ، ذلك أن بارونات عكا ظلوا ينظرون إلى المغول على أنهم برابرة لا يمكن الاطمئنان إليهم ، كما أنهم في الوقت نفسه كانوا يدركون بان المغول لن يسمحوا لهم بإقامة إمارة صليبية مستقلة ، وإنما يريدونهم تابعين للخان الكبير . [2]

دخلت العلاقات بين المماليك والمغول في مرحلة حرجة عندما أرسل هولاكو – قبيل رجوعه إلى قراقورم – إنذارا إلى المماليك في مصر جاء فيه :(من ملك الملوك شرقا وغربا القان الأعظم ، باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء ، يعلم الملك المظفر قطز ، الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم يتنعمون بإنعامه ، ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك ، يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالدبار المصرية وما حولها من الإعمال إنا نحن جند الله في أرضه ، خلقنا من سخطه ، وسلطنا على من حل به غضبه ، فلكم بجميع

---

[1] سعيد الغامدى ، مرجع سابق ، 113 – 114

[2] المرجع نفسه ، ص 114

البلاد معتبر وعن عزمنا مزدجر ، فاتعظوا بغيركم واسلموا إلينا أمركم ، قبل أن ينكشف الغطاء ، فتندموا ويعود عليكم الخطا ، فنحن ما نرحم من بكى ، ولا نرفق لمن شكي ، قد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد ، وقتلنا معظم العباد ، فعليكم بالهرب ، وعلينا الطلب ، فاى ارض تاويكم ، واى طريق تنجيكم ، واى بلاد تحميكم ، فما من سيوفنا خلاص ، ولامن مهابتنا مناص ، فخيولنا سوابق ، وسهامنا خوارق ، وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال ، وعددنا كالرمال ، والحصون لدينا لا تمنع والعساكر لقتالنا لا تنفع ، ودعاؤكم علينا لا يسمع ، فإنكم أكلتم الحرام ، ولا تعفون عن الكلام ، وخنتم العهود والإيمان ، وفشا فيكم العقوق والعصيان فابشروا بالمذلة والهوان ، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون ، وسيعلم الذين ظلموا اى منقلب ينقلبون ، فمن طلب حربنا ندم ومن قصد أماننا سلم ، فان انتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم ، فلكم ما لنا ، وعليكم ما علينا ، وان خلفتم هلكتم ، فلا تهلكوا أنفسكم بأيديكم ، فقد حذر من انذر ، وقد ثبت عندكم أن نحن الكفرة ، وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة ، وقد سلطنا عليكم من له الأمور المقدرة والأحكام المدبرة ، فكثيركم عندنا قليل ، وعزيزكم عندنا ذليل ، وبغير الاهانة ما لملوككم عندنا سبيل ، فلا تطيلوا الخطاب ، وأسرعوا برد الجواب قبل أن تضرم الحرب نارها ، وترمى نحوكم شرارها ، فلا تجدون منا جاها ولا عزا ، ولا كافيا ولا حرازا ، وتدهون منا بأعظم داهية ، وتصبح بلادكم منكم خالية فد أنصفناكم إذ راسلناكم ، وأيقظناكم اذ حذرناكم ، فما بقى لنا مقصد سواكم ، والسلام علينا وعليكم وعلى من أطاع الهدى وخشي عواقب الردى ، وأطاع الملك الأعلى .

ألا قل لمصر ها هلا وون قد أتى — بحد سيوف تقضى وبواتر

يصير اعز القوم منها أذلة — ويلحق أطفالا لهم بالأكابر [1]

ولما تسلم قطز هذه الرسالة ، احضر الأمراء واستشارهم في الأمر وقال : (لقد توجه هولاكو خان من توران إلى إيران بجيش جرار ، ولم يكن لاى مخلوق من الخلفاء والسلاطين والملوك طاقة على مقاومته واستولى على جميع البلاد ، ثم جاء إلى دمشق ، ولو لم يبلغه نعى أخيه ، لألحق مصر بالبلاد الأخرى ، ومع هذا فقد

---

[1] تقى الدين المقريزى ، السلوك ، ج 1 ، القسم الثاني ، ص 427 – 428

ترك في هذه النواحي كتبغا الذي هو كالأسد الهصور ، وإذا قصد مصر ، فلن يكون لأحد قدرة على مقاومته ، فيجب تدبر الأمر قبل فوات الفرصة). [1]

ظل كتبقا يحكم بلاد الشام بقوة قليلة مما أتاح بصيصا من الأمل للمماليك الذين أثارهم توغل المغول في فلسطين وغزة ، يضاف إلي ذلك أن كتبقا أدرك أيضا مدى أهمية قيام تحالف مغولي – نصراني في الشرق الأدنى يقف في وجه الإسلام و المسلمين . وعلى الرغم من أن بوهيمند السادس أمير أنطاكية كان يشارك كتبقا هذا الشعور ، إلا أن الصليبيين في عكا ظلوا ينظرون إلي المغول كبرابرة ، وقد أدركوا أنهم لن يسمحوا لهم بإقامة إمارات مستقلة ، وإنما يريدونهم تابعين للخان الكبير لذلك اثروا المسلمين عليهم ، فكان هذا إيذانا بانتهاء الحلف الصريح أو الضمني بين المغول و الصليبيين . [2]

ونتيجة لتلك الأوضاع أدرك قطز أن الفرصة أصبحت مواتية ، ليس للوقوف في وجه المغول فحسب ، بل الانتصار عليهم أيضا . كذلك رأي المماليك ضرورة المقاومة ، ووضع قطز الذي اشتهر بالبراعة السياسية خطة عسكرية تقوم على تدعيم الجبهة الداخلية وتعبئة الرأي العام ، استعدادا لخوض المعركة و الاستعدادات العسكرية بمحاولة استقطاب الأمراء، الأيوبيين و المماليك البحرية لهدف توحيد الصف الإسلامي في مصر و الشام تحت قيادة واحدة ، وتمكن قطز من استقطاب وحدات جيش الملك الناصر يوسف الأيوبي من الناصرية و الشهرورزية عندما وصلوا إلي غزة ، كما ضم إلي قواته من تبقي من القوات الخوارزمية وقوات أمير الكرك الأيوبي حتى أصبحت القوات الإسلامية تفوق أعداد القوات المغولية التي تؤيدها بعض النجدات الأرمنية والكرجية. وخلق قطز جو من التجانس والوئام بين عناصر جيشه المختلفة ، وغرس فى نفوس رجاله روحا جهادية خالصة لمواجهة العدوان المغولي المرتقب . [3]

---

[1] سعيد الغامدى ، مرجع سابق ، ص 118

[2] سهيل طقوش ، تاريخ المماليك ، ص 161 – 162

[3] المرجع نفسه ، ص 162

بدأ أمراء المماليك البحرية الذين هربوا من القاهرة أيام أيبك إلي بلاد الشام يفدون إلي القاهرة ، بعد أن انتشر المغول بأكبر مدن الشام ، و هددوا آسيا الصغرى نفسها . وكان على رأسهم بيبرس البندقداري متجاوزين مخاوفهم من السلطة لتحريضهم الأمراء الأيوبيين على غزو مصر ، فرحب قطز بمقدمهم ومنحهم الإقطاعيات الواسعة ، فصار المماليك بذلك جماعة واحدة متحدة ، وتلك الظاهرة تتكرر كثيرا في صفوف المماليك إبان الأزمات التي تعرضت لها دولتهم في تاريخها الطويل. [1]

بدأ قطز يعمل على حشد الجيوش وجمع الأموال اللازمة للإنفاق بغرض ضرائب جديدة مختلفة على سكان مصر و القاهرة ، ولقي قطز معارضة من جانب القضاة ورجال الدين في جباية تلك الضرائب ، كما لقي صعوبة في إقناع كثير من الأمراء بوجوب الرحيل معه لملاقاة المغول ، فاخذ يعمل على إثارة نخوتهم واستنهاض همتهم بقوله : (يا أمراء المسلمين لكم زمان تأكلون أموال بيت المال وانتم للغزاة كارهون ، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد فليصبحني ومن لم يختر ذلك يرجع إلي بيته ، فان الله مطلع عليه ، وخطيئة المسلمين في رقاب المتأخرين) وكان لهذه الخطبة أثرها في تقوية روحهم المنهارة ، وبالترغيب في الجنة ويعظم أجر الشهادة في سبيل الله فتحالفوا جميعا على الجهاد في قتال العدو ودفعه عن البلاد.[2]

صار قطز في موقف يتحدي المغول ، فكسب الجولة الأولي قبل أن يخوض المعركة . ووضع خطة عسكرية محكمة تقضي بان يتقدم قائده بيبرس البندقداري على رأس قوة استطلاعية لتقصي أخبار المغول ، ودراسة مواقفهم وخططهم . وهذا تفكير متقدم في السياسة العسكرية وإستراتيجية جديدة اتبعها قطز فى هذه المواجهة الحاسمة ، إذ كان أمراء المدن يكتفون بتقوية دفاعات الحصون عندما تصل إليهم تهديدات المغول ويؤثرون الدفاع من وراء الأسوار . وقد كشفت خطة قطز عن فهمه لفنون الحرب ، إذ كان يرى أن الهجوم خير من الدفاع في مقاتلة الأعداء . [3]

---

[1] أحمد مختار العبادي، في التاريخ الأيوبي و المملوكي، مؤسسة شباب الجامعة، مصر، 2010م، ص 149

[2] العبادي ، المرجع نفسه ، ص 150 – 151

[3] فؤاد الصياد المغول فى التاريخ ، ص 306

وعليه يمكن القول أن السلطان المظفر قطز استطاع أن يتغلب على كل الصعاب التي واجهت دولة المماليك الفتية المسلمة والمتمثلة في شغور منصب الخلافة الذي أدى إلى افتقار دولته إلى صفة الشرعية الكاملة ، فضلا عن العداء المتأصل ضد دولته من جانب أمراء البيت الايوبى،هذا بالإضافة إلى ما حل بالجموع الإسلامية الهاربة الى الاراضى المصرية من وجه المغول من الخوف والفزع ، بسبب ما شاهدوه من الأهوال، وما نزل بمدنهم من الخراب والتي تمكن السلطان قطز بفضل ما يملكه من براعة في مبادين السياسة والحرب من النجاح في إعادة الثقة إلى نفوسها ، واحي في هذه الجموع المسلمة روح الجهاد الاسلامى ، وكون منها جيشا وفير العدد كامل العدة ضمن له . بعد اتصاله بالصليبيين والتزامهم مبدأ الحياد . القتال في جبهة واحدة . [1]

سار الأمير بيبرس البندقداري على رأس الفرقة الاستطلاعية في سنة 658هـ/ 1260م قاصدا غزة ، واقام بها يوما ، وكان كتبقا قد أقام فيها حامية مغولية تحت قيادة بيدرا ، بينما عسكر كتبقا بالقرب من بعلبك ، فأرسل إليه بيدرا رسالة يخبره فيها بتقدم قوات المماليك ويطلب من نجدة على وجه السرعة . [2]

اصطدم بيبرس بالقوات المغولية ، والحق بها هزيمة كانت الأولي في تاريخ المغول غير أنها لم تكن حاسمة ، بيد أنها كانت كافية لدفعهم إلى الرحيل من غزة ، واخذ يناوش العدو ويراوغه ليخفي عنه تحركات الجيش الرئيسي بقيادة قطز . فاضطرت إلي الانسحاب ، واستولي بيبرس على غزة ، وعندما بلغت كتبقا تحركات المماليك تجهز للمسير إلي وادي الأردن على أن ما حدث من نشوب ثورة في دمشق ضد المغول أخر تقدمه ، مما أعطي الفرصة للمماليك ببدء التحرك . [3]

وبالرغم من أن معركة غزة هذه قد بدأت بمعركة تكتيكية بين مقدمة الجيش المملوكي والحرس الامامى لجيش التتار ، إلا أنها حققت بالفعل المفاجأة التكتيكية

---

[1] سعيد العامدى ، مرجع سابق ، ص 111

[2] رشيد فضل الله الهمذاني ، جامع التواريخ ، تاريخ خلفاء جنكيزخان ، تعريب مراد عبد المعطي الصياد ، الطبعة الأولي ، دار النهضة العربية بيروت ، 1983م ، ص 313

[3] احمد مختار العبادي ، قيام دولة المماليك ، ص 151

غير المتوقعة وذلك بالانتصار لأول مرة على الجيش التتارى الذي لا يهزم ، وبجانب ذلك حققت أيضا أهداف المبادأة الإستراتيجية وهى التي وضع أساسها قرار قطز للتجهيز القتالي في التحرك لملاقاة الجيش التتارى ، فقد كانت كل الجيوش غير المماليك التي واجهت جيش التتار تقوم بتجهيز قتالي الغرض منه الدفاع فقط ، ولكن المفاجأة التكتيكية والمبادأة الإستراتيجية تعتبر في تاريخ الحرب أول مرة يقوم بها جيش بالتجهيز القتالي للتحرك والتقدم والهجوم حتى حقق الانتصار على جيش التتار، وكان اخذ موقع غزة على يد المماليك له وقع قوى عند المسلمين في كافة مدن الشام، اذ وجدوا في ذلك النصر بادرة أمل وتشجعوا على مقاومة التتار ، وهو مبدأ الروح المعنوية وتحويلها من الروح الانهزامية في الشام إلى الروح الهجومية . [1]

ويبدو أن ذلك الانتصار قد خلق مزيدا من الخوف والفزع لدى الصليبيين ، وقضى على آمالهم في ضرب المسلمين بالمغول لإنهاك كلا القوتين لضمان بقائهم في ساحل بلاد الشام ، يؤيد هذا ما حدث من مسارعة المظفر قطز عقب هذه المعركة بإرسال سفارة إلى عكا للتفاوض مع الصليبيين في ذلك الأمر ، كما أن هذا العمل دل في الوقت نفسه على ما كان قطز وقائده ركن الدين بيبرس من حنكة سياسية وبراعة حربية ، إذ إنهما قصدا بذلك العمل الوصول إلى منطقة العمق في فلسطين ، ومن ثم قطع الاتصال بين القائد المغولي كتبغا الذي كان في ذلك الوقت في بعلبك ، وبين القوات المغولية التي كانت تعمل في أقصى جنوب فلسطين تحت إمرة الأمير بايدو. [2]

يبدو أن الملك المظفر أراد قيل الشروع في مواجهة المغول أن يختبر الصليبيين على ساحل بلاد الشام ، لمعرفة موقفهم من ذلك الصراع الذي أصبح محاذيا لهم ، لتخوفه من انضمام هؤلاء الصليبيين إلى المغول عند نشوب الحرب ،

---

[1] محمود فهيم نديم ،الفن الحربى فى العصر المملوكى(648هـ – 783هـ / 1250 – 1283م) ، النهضة المصرية العامة للكتاب ، 1983م ، ص 138

[2] سعيد الغامدى ، مرجع سابق ، ص 122

وبناء عليه توجهت سفارة مصرية إلى عكا تطلب من الصليبيين السماح للجيوش الإسلامية باجتياز بلادهم وبشراء ما تحتاجه من المؤن. [1]

سار بيبرس متوجها إلي فلسطين متخذا الطريق الساحلي المار بعكا بعد أن إذن له صليبي هذه المدينة بالمرور في أراضيهم ، متوجها نحو الشمال ليقطع الطريق على كتبقا إذا حاول الزحف جنوبا لنجدة بيدرا ، وكان الفرنج قد عرضوا على قطز أن يمدوه بقوات من عندهم ، ولكنه اكتفي بأن طلب منهم الالتزام بالحياد التام في هذا الصراع وإلا قاتلهم قبل أن يلقي التتار ، غير أن أحوال الصليبيين ببلاد الشام في ذلك الوقت بلغت من الضعف و السوء بحيث لا يسمح لهم بالاشتراك في مساعدة السلطان قطز أو المغول . [2]

وهنا نرى أن المماليك قد اظهروا كياسة وبعد نظر ، فلم يحاولوا استثارة الصليبيين وحرصوا على مسالمتهم حتى لا يحاربوا خصمين في وقت واحد في تلك اللحظات الحرجة ، وهى ارقي أنواع التجهيز لخلق أفضل ظروف للقتال أو ما يسمى بالتحالف الاستراتيجي ، بمعنى عدم محاربة عدوين في وقت واحد ، بجانب ذلك فانه يظهر منهم ارقي الاستخدام التكتيكي في الحرب باستخدام القوات حيث يقابلون الأعداء واحدا بعد الآخر ، وبعد الانتهاء من الجبهة الأولى يتحولون إلى الجبهة الثانية . [3]

ولا شك أن التخطيط في التجهيز القتالي والذي ظهر في ذلك التحالف الاستراتيجي لجيش المماليك والذي أدى إلى السماح للجيش المملوكي المصري باتخاذ الطريق الساحلي الذي كان في ايدى الصليبيين بجانب حشد هذا الجيش بفضل تمويل صليبيي عكا له ، والذي أدى إلى اكتساب الجيش المصري ميزة تكتيكية كبيرة تمتع بها ، حيث أتاحت لهم فرصة ذهبية للقاء العدو وهم على أتم الاستعداد، فضلا عن كثرتهم العددية بالقياس إلى جيش المغول . [4]

---

[1] سعيد الغامدى ، مرجع سابق ، ص 108

[2] أحمد مختار العبادي ، مرجع سابق ، ص 152

[3] محمود نديم ، مرجع سابق ، ص 138 – 139

[4] محمود نديم ، مرجع سابق ، ص 139

علم قطز وهو في عكا أن القائد المغولي عبر نهر الأردن باتجاه الجنوب الشرقي مجتازا الناصرة مدعما بقوات أرمينية وكرجية ، ووصل إلي عين جالوت ، فعقد بيبرس مجلسا حربيا حضره قادة الفرق العسكرية لتحديد خطة بخصوص المعركة المرتقبة ، واستغل قطز هذا الاجتماع فبدأ ينشر الحماس في نفوس الحاضرين ، ويذكرهم بأهمية الموقعة التي سيخوضونها وما يترتب عليها من إزالة ما علق بنفوس المسلمين من أعمال المغول الوحشية والتدميرية . ويحثهم على عدم التهاون في محاربتهم حتى لا يصيبهم ما أصاب سكان البلاد الإسلامية الأخرى من القتل والسبي، وحذرهم من عقاب الله إذا تخاذلوا عند اللقاء ، فهيأهم للمعركة الوشيكة ضد عدو لم يذق طعم الهزيمة . (1)

كان تقدم المماليك بقيادة قطز لملاقاة المغول بالشام قد قوبل بترحيب من القوى الصليبية في عكا ،لأنه سيخلصهم من الخطر المغولي في الوقت الذي لن يكلفهم شيئا خاصة إن أحدا من الغرب الاوربى لم يتحرك لنجدتهم. (2)

تحرك جيش المماليك باتجاه نهر الأردن وتقدم بيبرس فسبق الجيش ووصل إلي عين جالوت قرب مدينة بيسان في 658هـ/ 1260م ، ووجد بيبرس سهل عين جالوت منطقة مناسبة للمعركة المرتقبة . فهو عبارة عن سهل منبسط تحيط به التلال المتوسطة من كل جوانبه ، إلا الجانب الشمالي فهو مفتوح ، كما يعلو هذه التلال الأشجار و الأحراش مما يوفر مخبأ مناسبا للجيش المملوكي ، فيسهل عمل الكمائن الكثيرة على جوانبه . (3)

اختار قطز أن ينازل المغول قبل وصولهم إلي الأراضي المصرية ، واختار عين جالوت بفلسطين ، لأنها منطقة فسيحة يعلوها جبل ، الأمر الذي سيمكن قواته من مواجهة العدو في كل الظروف ، ففي حالة الاشتباك المباشر مع العدو في معارك مكشوفة يكون القتال في منطقة منبسطة ، وفى حالة مناوشته من بعيد يكون

---

(1) نور الدين خليل ، مرجع سابق ، ص 133

(2) فؤاد الصياد ، المغول فى التاريخ ، ص 307

(3) الأمام محمد عبد الله بن سعد اليافعي ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، الجزء الرابع ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية بيروت ، ص 113

الجبل مساعدا للرماة لأداء واجبهم على الوجه الأكمل ، كما أن اختيار عين جالوت في بلاد الشام لمنازلتهم يعطي في حد ذاته دفعة قوية لتلك الجموع الشامية الهاربة إلي مصر ، و التي انضمت إلي جيش المماليك للاستبسال و التفاني في الجهاد ، وطمعا في العودة مرة أخرى إلي بلادها ، خاصة أن هناك أمراء أيوبيين في ركاب هذه الجيوش ، كان الملك المظفر قطز وعدهم بإعادتهم إلي إماراتهم بعد طرد المغول من بلاد الشام . كما اختار قطز لهذه المعركة الفاصلة شهر أغسطس الذي تكون فيه الحرارة مرتفعة ، للتأثير على تلك الجموع المغولية القادمة من صحارى منغوليا الباردة ، للتقليل من نشاطهم القتالي لأنهم لم يعتادوا على المناخ الحار الذي عادة ما يسود مناطق فلسطين في ذلك الوقت. [1]

بدأ بيبرس يناوش الجيش المغولي ويراوغه حتى لحق به قطز ، وكان مدركا لتفوق جيشه في العدد ، فوقف قطز في المقدمة و على الميسرة الظاهر بيبرس وعلى الميمنة وزيره علي الرفيع ، وكان قطز قد لجأ إلي خدعة حربية ناضجة فاخفي قواته الرئيسية بين الأحراش و الأشجار المحيطة بعين جالوت ، وترك مقدمة الجيش فقط بقيادة بيبرس ، ثم ابتدأ بقراءة القران الكريم و الجنود معه يقرؤون وإذا القلب الذي يعمر بالقران يعمر بالثبات . [2]

وفي تلك الإثناء كان كتبقا قد وصل وكأنه بحر من اللهب بسبب الغيرة و الغضب وبدأت قوات المماليك تنساب من فوق التل إلي داخل السهل ، ولم تنزل دفعة واحدة إنما نزلت على مراحل ، وفي صورة عجيبة وتتابعت الكتائب الإسلامية بألوانها الرائعة المختلفة ، وهذه أول مرة يري فيها كتبقا جيش المسلمين على هذه الصورة ، لقد كان معتادا أن يراهم وراء الحصون و القلاع يرجفون ، أو يراهم يسارعون إلي الهروب فزعا من جيش التتار .

بدأ الصراع المرير في واحدة من اشد المعارك التي وقعت في التاريخ . حرب بشعة اخرج التتار فيها كل إمكانياتهم ، وبداوا يقاتلون بحمية بالغة ، وسرعان ما

---

[1] محمد علي الصلابي ، المغول التتار بين الانتشار و الانكسار ، ص 358

[2] إبراهيم سليمان عيسي ، رمضان شهر المعارك الظافرة ، مجلة منار الإسلام ، العدد التاسع ، السنة الحادية و العشرون يناير 1996م ، ص 21 – 22

كثرت الأشلاء وسالت الدماء وعلا صليل السيوف على أصوات الجند ، وثبتت القوات المملوكية ثباتا رائعا مع قلة عددها ، مما دفع كتبغا إلي استخدام كل طاقته دون أن يترك أي قوات للاحتياط خلف الجيش التتري .

كانت تلك هي المرحلة الأولى من الخطة التي وضعها قطز وهي أن تختبئ القوات الرئيسية في التلال ولا يظهر أمام القوات المغولية إلا قلة بقيادة الأمير بيبرس لاستنزاف القوات التترية في حرب متعبة والتأثير على نفسيتها عند مشاهدة ثبات المسلمين وقوة بأسهم. وكانت نتائج تلك المعركة حاسمة على المدى البعيد ، ولكن المعركة العسكرية كانت بحاجة إلى أن تحسم ضد فلول المغول الذين ما لبثوا أن تجمعوا عند بيسان القريبة من عين حالوت ، ثم اشتبك الجيشان فى معركة اشد وطأة من الأولى ولقي المغول هزيمة كاملة هذه المرة . [1]

ثم جاء الوقت المناسب لتنفيذ المرحلة الثانية من الخطة المملوكية البارعة ، وهي عبارة عن محاولة سحب جيش التتار إلي داخل سهل عين جالوت ، ولنجاح هذه الخطة كان على بيبرس أن يظهر الانهزام أمام التتار ويتراجع وهو يقاتل ، على ألا يكون هذا التراجع سريعا حتى لا يلفت نظر التتار إلي الخطة ، ولا يكون بطيئا فتهلك القوة المملوكية القليلة أثناء التراجع ، وهذا الميزان في التراجع يحتاج إلي قدرة قيادية فائقة ، كما يحتاج إلي رجال أشداء مهرة في القتال .

أسرعت القوات المغولية لملاحقة القوات الإسلامية التي تظاهرت بالإنسحاب ، وكلما رجع خطوة تقدم جيش التتار في مكانه حتى وقع كتبقا في الكمين الذي اعد له ولم يلبث أن تم تطويق الجيش التتري، كله وأحاطت القوات المملوكية بالتتار، ودارت المعركة بين الفريقين ، وكان قطز شديد الإدراك لتفوق جيشه فى العدد ، ولذا اخفي قواته الرئيسية في التلال الغريبة ولم يظهر إلا المقدمة التي قادها بيبرس ، وقد اشترك السلطان قطز في المعركة وقاد الهجوم بنفسه ، واظهر المماليك شجاعة كبيرة حتى يقال أن السلطان قطز عندما اضطرب عسكره في أول المعركة القي بخوذته من رأسه إلي الأرض ، وصرخ بأعلى صوته (واسلاماه) وحمل بنفسه على المغول ، وابلي بلاءا حسنا ، فالتف الجنود المماليك حوله ، وحملوا على المغول حملة صادقة

---

[1] راغب السرجاني ، مرجع سابق ، ص 319

وقاتلوهم ببسالة اهتز فيها ميزان النصر والهزيمة عدة مرات ، وحمي وطيس المعركة وأيدهم الله بنصره ، فاختل توازن المغول وولوا الأدبار لا يلوون علي شي ، وأباد المماليك الجيش المغولي . أما كتبقا فقد خر صريعا في الميدان ، واسر ابنه في أيدي المماليك . (1)

وانجلت المعركة عن هزيمة المغول لأول مرة في تاريخهم. وإذا بالجيش الذي أشاع الخراب و الدمار في آسيا وأوربا قد استسلم أمام الإيمان بالله و الحق ، وارتفعت راية الإسلام وهوت راية التتار ، عند ذلك نزل السلطان قطز وقبل الأرض ، وصلي ركعتين شكرا لله . (2)

ولم يسلم احد من المغول من القتل أو الأسر، فمن نكص على عقبيه و هرب قتله أهل الشام وتقهقر المغول إلي دمشق فتفتهم الفرق المملوكية حتى أخرجتهم من الأراضي الشامية .ويبدو أن هذه الهزيمة ليست الأخيرة للمغول في هذه الحملة ، حيث يذكر المؤرخ ابن عبد الظاهر أن الأمير ركن الدين بيبرس لم يشغله ما قاساه من التعب في معركة عين جالوت بل ساق خلف المغول حتى افامية فوجدهم قد تجمعوا بها ووحدوا صفوفهم للمرة الثالثة استعدادا لمواجهته ، فهاجمهم بكل شجاعة وكسرهم كسرة شنيعة ، وغنم منهم أموالا طائلة وخيولا كثيرة . (3)

وهكذا وبفضل الله و تعاون المماليك وقبائل العرب في مصر و الشام ، نجح المماليك في إيقاف سيول المغول الجارفة التي اجتاحت حدود العالم الإسلامي و العربي من الشرق إلي الغرب ، ويجهز عليهم حتى تطهرت منهم كل أراضي الشام وفلسطين ، وعادت مصر و الشام في عهد السلطان دولة واحدة هي دولة سلاطين المماليك التي استطاعت بفضل جهود أمرائها من أحياء الخلافة العباسية ،وجعلت القاهرة مقرا لها .

ويرى بعض المؤرخين العسكريين أن التجهيز القتالي لقرار قطز الذي اتخذه قبل المعركة ، والذي يتلخص في إن يزحف بجيوشه بواسطة مقدمة الجيش ، وليس

---

(1) ابن كثير ، مصدر سابق ، ج 13 ، ص 249 – 250

(2) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج 7 ، ص 79

(3) ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص 65

كما كان كالمعتاد بواسطة جواسيس أو طلائع محددة ، حينما أرسل بيبرس على رأس مقدمة الجيش لاستطلاع قوات التتار ودراسة مواقعهم وقواتهم وأسلحتهم وقيادتهم وخططهم ، وكان هو الشيء الجديد في ذلك الزمن الذي لم يشاهد من قبل في حرب العرب السابقة ، وهو التطبيق التكتيكي السليم ، إذ يعنى ذلك دراسة العدو للوصول إلى أفضل أسلوب لتدميره بأقل خسائر ممكنة ، أما قطز قائد الجيش المملوكي فقد كشفت خطته عن فهمه الجيد لفنون القتال كما سبق مما تقدم ، والتي حقق بها بيبرس أول مرحلة قتالية من الخطة الإستراتيجية بتدمير الحرس الامامى للمغول في غزة ، وذلك قبل موقعة عين جالوت بقيادة بيدرا ، واسترد منهم غزة وطاردهم حتى نهر العاصي . [1]

ويمكن أن نستدل من أحداث المعركة على مدى الوعي في التجهيز القتالي بكل عناصره ، وكيف طبق الجيش المصري المبادئ الحربية السليمة حتى تحقق له النصر ، فقد تجمع الجيش المصري عند مدينة عكا حبث عقد السلطان سيف الدين قطز مؤتمرا حربيا حضره رؤساء الفرق العسكرية لغرض خطة قرار المعركة ، وهو أحدث ما وصل إليه الفن الحربي تكتيكيا واستراتيجيا ، حيث يعرض القائد قراره على جنوده وضباطه ، ويستمع إلى أرائهم ، وبلقن كلا منهم المهمة العسكرية المنوطة به، ولم ينس السلطان قطز أن يلهب حماسة جنوده بتلك الخطبة ، وهذا ما يعرف في عرف العسكريين بالتجهيز المعنوي للقتال . [2]

ولقد طبقت قوات المماليك مبدأ المفاجأة على المستوى الاستراتيجي بنقل ميدان المعركة خارج الأرض المصرية ، وتكتيكيا بإخفاء القوات الرئيسية في التلال والأحراش القريبة من عين جالوت ، ولم يظهر للعدو إلا المقدمة التي قادها بيبرس ، ووقع كتبعا نوين في الفخ لأنه هاجم بكل قواته ضد قوات ركن الدين بيبرس الذي كان

---

[1] محمود نديم احمد فحيم ، الفن الحربى للجيش المصرى فى العصر المملوكى البحرى ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1983م ، ص 140

[2] محمود نديم احمد فهيم ، مرجع سابق، ص 148

يقود طليعة جيش المماليك فقط ، ولم يحتفظ القائد المغولي بأية احتياطات مما ساهم في التعقيدات العسكرية التي أدت إلى هزيمته .[1]

وما أن وصلت أنباء انتصار المسلمين في عين جالوت إلي دمشق، حتى سارع المسلمون فيها بالانتقام من العناصر التي تعاونت مع المغول ، وفى مقدمتهم المسيحيين الذين دفعوا الثمن غاليا بسبب تعاطفهم مع المغول ، وتابع قطز زحفه نحو دمشق ودخلها دخول الفاتح المظفر فاستقبل فيها استقبالا حافلا .[2]

أما ركن الدين بيبرس فكان قد سبق السلطان ، فاصدا دمشق وهو يتتبع أثار التتار إلى حلب ، فلما دنا منهم ، أطلقوا سراح من كان في أيديهم من اسري المسلمين ، والقوا بأولادهم فتخطفهم الناس ، وقاسوا من البلاء ما يستحقونه .[3]

وبهذا النصر المؤزر ، دخلت بلاد الشام في سورية من الفرات إلى حدود مصر تحت حكم المماليك ، وقد حاول المغول أن يستعيدوا مركزهم مرة أخرى ، فدخلت فرقة منهم ارض سورية من جديد ، ونهبت إقليم حلب ، إلا أنها سرعان ما ردت على إعقابها بعد لقاء قرب حمص ، فعادت أدراجها شرقي الفرات .[4]

واستطاع المماليك تطهير بلاد الشام بكاملها في بضعة أسابيع ، ثم اخذ يعمل على إعادة الأمن ، ومكافأة الأمراء الذين تعاونوا معه ، فأعاد بعض الأمراء الأيوبيين إلى إماراتهم بعد أن اخذ عليهم العهود والمواثيق بالطاعة ودفع الجزية ، وأعلن قطز توحيد مصر والشام من جديد تحت زعامته ، بعد عشر سنوات من الفرقة ، وذلك منذ وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب في سنة 648هـ ، وخطب لقطز على المنابر في كل المدن المصرية و الفلسطينية و الشامية حتى خطب له في أعالي بلاد الشام و المدن حول الفرات ، وعاش المسلمون أياما من اسعد أيامهم .[5]

---

[1] المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

[2] طقوش ، المغول العظام ، ص 160

[3] ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج7 ، ص 81

[4] فؤاد الصياد ، المغول في التاريخ ، ص 312

[5] عبد الرحمن محمد بن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، المسمي العبر وديوان المبتدأ والخبر ، الطبعة الثالثة ، المجلد الخامس ، دار الكتب العلمية ، 1427هـ / 2006م ، ص 451

أثار موقعة عين جالوت :-

مما لاشك فيه أن موقعة عين جالوت من الوقائع الحاسمة في التاريخ ، ليس في تاريخ مصر والشام فحسب ، ولا في تاريخ الأمم الإسلامية وحدها ، بل في تاريخ العالم بأسره ، لأنها أضعفت المغول وأوقفت تقدمهم في بلاد الإسلام .وقد ترتب عليها نتائج كبيرة وعميقة الأثر على تاريخ العالم كله في تلك الحقبة التاريخية ، فقد لقي المغول لأول مرة في تاريخهم في الشرق هزيمة حاسمة وتعرض جيشهم للدمار التام .

لقد كانت عين جالوت الحلقة الأولي في سلسلة الوقائع العسكرية بين الدولة الايلخانية ببلاد فارس ودولة المماليك ، فاصبحت بعد ذلك نقطة تحول في مجرى الاحداث السياسية في هذا الجزء الهام من العالم ، فقد تغيرت موازين القوى التي كانت تسود المنطقة ، وتغيرت نظرة الناس ايضا إلى هذه القوى ، فترتب على هذه المعركة تاثيرات مختلفة شملت كل الإطراف المتنازعة ومن يحتمى وراءها او يتعلق بها ، ويعنينا منها انها كانت البداية للصراع المستمر السياسى والعسكرى بين المماليك من جهة ، والمغول من حهة اخرى كما تعتبر تجربة حربية بين أسلوبين وفنين من فنون الحرب في العصور الوسطي . ومن الواضح أن هذه الواقعة التي انتهت بهزيمة المغول لأول مرة في تاريخهم ، بددت عقدة المناعة الحربية التي كانت سر انتصاراتهم منذ أيام جنكيزخان، فانقشعت عن العالم خرافة الاعتقاد بأن المغول قوم لا ينهزمون ، فقد كانت ضربة قاسية انزلها المماليك بالمغول . إذ كان فيها القضاء التام على كل أمل بتحقيق أهدافهم السياسية وإكمال سياستهم التوسعية في ضم أكبر قدر ممكن من أقاليم العالم في ذلك الوقت ، وتحولت سياستهم بعدها إلى الدفاع فقط بعد أن كانت هجومية ، وأصبح كل همهم الاحتفاظ بنهر الفرات كحد طبيعي لحدودهم مع المماليك ، ولذلك يمكن القول أن كل محاولاتهم العسكرية بعدها لاجتياز الفرات ، كان الغرض منها التأديب والإرهاب وليس الاستيلاء والاستيطان ، ويعد مقتل كتبغا صدمة قوية لهولاكو ، فصمم على الانتقام من المماليك ، وأراد أن يرسل حملة جديدة إلي مصر وبلاد الشام ، غير أن الظروف السياسية التي كان يمر

بها و المتمثلة في وفاة الخان الكبير منكو و التنازع الأسري حول خلافته لم تمكنه من ذلك . [1]

وتعتبر عين جالوت شهادة الميلاد الحقيقية لدولة المماليك الناشئة ، إذ أنها أعطت لكيانهم السياسي قبل كل شئ السند الشرعي لحكم مصر والبلاد الإسلامية التي حرروها من الاستيلاء المغولي ، بعد أن كان يشوب حكمهم شئ من الإنكار بحكم غموض أصولهم وانحطاط مكانتهم ، فقد حققت لهم الدعامة التي تعتمد عليها في البقاء في الحكم ، خاصة أن المماليك الذين استأثروا بحكم مصر في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي ، كانوا مغتصبين للسلطة ممن كانوا سادتهم ، وكانوا في حاجة ماسة للقيام ،بعمل يضفي عليهم نوعا من التشريف ويكسب حكمهم قسطا من الأهمية و الشرعية . فكان انتصارهم في عين جالوت محققا لأمانيهم ، إذ اخذ العالم الإسلامي ينظر للمماليك نظرة أجلال وإكبار . [2]

وتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم ، فقد كان إشارة الخلاص لبلاد الشام من ايدى المغول ، وتخليص أهلها من اضطهاد ولاتهم ونعدياتهم فنهضت دمشق لترفع عن كاهلها نير المغول . فان القلوب قد يئست من النصر على المغول لاستيلائهم على معظم بلاد الإسلام ، ولأنهم ما قصدوا إقليما إلا فتحوه ، ولا عسكرا ، ألا هزموه . ولو أن المغول نجحوا في هزيمة المماليك لاستطاعوا أن يتدفقوا عبر شمال إفريقيا حتى مضيق جبل طارق ، ولباتت أوربا في حلقة جديدة تحيط بها من بولندا وحتى البحر المتوسط ، ولكان بإمكان المغول الغزو من نقاط عديدة ، من غير المحتمل أن كان هناك أي جيش أوربي قادر على صدهم.[3]

---

(1) P. M .HOLT , The Combridge History Isgam , Volume , 1 , Combridge At The Univercity Press 1970 , P 213

(2) الهمذاني ، تاريخ خلفاء جنكيز خان ، ص 317

(3) ابو الفداء ، مصدر سابق ، ج 3 ، ص 214

وكذلك تجلى أثرها على المسلمين الذين كانوا تحت النير المغولي ، فان أمراءهم عملوا على الخلاص من سيطرتهم فثاروا عليهم وسعوا للاتصال بالمماليك والاستعانة بهم لإنجاح هذه الثورات ، مثال ذلك ما حدث في الموصل وشيراز . [1]

لقد أنقذ انتصار المماليك في عين جالوت الإسلام والمسلمين من خطر المغول وإخطارهم . فلو انتصر المغول في تلك الموقعة وتوغلوا داخل مصر لفعلوا بأهلها مثلما فعلوا بالعراق و الشام ، ولما بقي للمسلمين في العالم كله دولة كبيرة في شرقي بلاد المغرب ، ولقاسى العالم الإسلامي من ويلات المغول الشئ الكثير ، ولتغير مجري التاريخ في المنطقة كلها ، ولكن هزيمة المغول في عين جالوت لم تنقذ مصر فحسب ،من وحشية المغول وهمجيتهم، بل أنقذ الشام أيضا لان المغول بعد هزيمتهم لم يعد لهم بقاء في بلاد الشام ولا قوة تحميهم وتزود عنهم . [2]

أن انتصار المماليك في عين جالوت حقق لهم نصرا إضافيا عندما أظهرت القوى الأيوبية ببلاد الشام من الضعف و التخاذل ما جعلها تبدو وحشا لا يستحق البقاء بالنسبة للمعاصرين ، فقد انهارت أمام الغزو المغولي وسقطت تلك الزعامات الوهمية وبدأ على ملوك الأيوبيين الضعف و التخاذل في الوقت الذي ابدي ،فيه المماليك ثباتا وصلاحية للبقاء .ومن ثم عادت وحدة مصر و الشام تحت حكم المماليك . [3]

بعث النصر في عين جالوت روحا جديدة في المسلمين ، خاصة مسلمي إيران الرازحين تحت الحكم المغولي ، فقوى موقفهم ، وتمكنوا من الصمود أمام تحديات المسيحيين ، كما نافسوهم في تبوء الزعامة والصدارة في دولة المغول الايلخانيين في إيران ، وقد شجعهم هذا النصر على دعوة المغول إلى الدين الاسلامى ، حتى تكللت مساعيهم بالنجاح ، واضحي الإسلام دينا رسميا لدولة المغول الايلخانيين . [4]

---

[1] سعيد عاشور ، العصر المماليكي، ص 32 – 37

[2] استيفن رانسمان ، مرجع سابق ، ص 537

[3] سعيد عاشور ، الحركة الصليبية، ص 901

[4] محمد سهيل طقوش ، تاريخ المماليك، ص 82

ومن أثار موقعة عين جالوت انه نتيجة لظهور دولة المماليك وطبيعتها الجهادية ونشأتها الإسلامية ،أن اخذ المماليك على عاتقهم مهمة تحرير بلاد الشام وفلسطين من الإمارات الصليبية ، فبدأوا يوجهون جيوشهم الواحد تلو الأخر لتحرير البلاد الإسلامية .وبذلك انتهي الوجود الصليبي تماما من الشام ، وذلك بعد اثنين وثلاثين سنة فقط من عين جالوت . لذلك هذا التحرير من النتائج المباشرة لهذه الموقعة العملاقة . [1]

وفى نصرة الملك المظفر قطز على التتار يقول الشيخ شهاب الدين ابو شامة :

غلب التتار على البلاد فجاءهم　　　من مصر تركى يجود بنفسه

بالشام اهلكهم وبدد شملهم　　　ولكل شىء افة من جنسه [2]

ولقد ألقت عين جالوت المهابة على الأمة الإسلامية ، حتى أن هولاكو الذي كان يستقر في تبريز ومعه عدد ضخم من القوات التترية لم يفكر في أعادة احتلال بلاد الشام ثانية ، وأقصي ما فعله هو إرسال حملة انتقامية أغارت على حلب ، وسفكت دماء أهلها كنوع من إثبات الوجود ، لكن هيبة الأمة الإسلامية وقرت في صدره فلم يشأ أن يلقي بجيشه في مهلكة جديدة . [3]

لم ينقذ انتصار المماليك العالم الإسلامي من خطر المغول فحسب، بل أنقذ أوربا أيضا من خطرهم ، فبعد أن امتد النفوذ المغولي إلي أوربا الشرقية تطلع المغول إلي احتلال مصر نظرا لموقعها السياسي و الطبيعي ، في التمدد غربا باتجاه شمال أفريقيا وشمالا باتجاه أوربا ، وكان هولاكو وحلفاؤه يفكرون في اجتياح أوربا بعد سيطرتهم على الشرق الأدنى . [4]

ومن أثارها أيضا أن تزايد عدد المسلمين في القبيلة الذهبية ، حتى أصبح معظم أهلها من المسلمين، وتوطدت العلاقة بينهم وبين المماليك وتحالفوا مع السلطان بيبرس ضد عدوهم المشترك الذي يتمثل في أسرة هولاكو بإيران . [5]

---

[1] راغب السرجاني ، مرجع سابق 350

[2] ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهية ، ج7، ص 82

[3] راغب السرجاني ، مرجع سابق ، ص345

[4] E.G.Brown: Ali terary History of Persia , Cambridge nvercity press 1951, p . 43 - 44

[5] راغب السرجاني ، مرجع سابق ، ص 351

و الواقع إننا إذا قارنا موقعة عين جالوت بالوقائع الحربية الحاسمة في العصور الحديثة مثل وقعة المارن في الحرب العالمية الأولي، ومعركة العلمين في الحرب العالمية الثانية ، نجد أن عين جالوت كانت اقوي أثرا في تاريخ البشرية من كل تلك المعارك، لأنها لم تكن حربا بين شعوب راقية متحضرة ، تحكمها قواعد وقوانين متعارف عليها ، بل كانت حربا احد الطرفين فيها – وهم المغول – شعب بدائي بربري متوحش ، جبل على التخريب وسفك الدماء في كل مكان حل فيه – فانتصاره في تلك الواقعة كان معناه القضاء المبرم على الحضارة الإسلامية الشرقية و الغربية معا . [1]

ومن النتائج المهمة التي ترتبت على انتصار المماليك في عين جالوت ، أنها زادت من قوة المسلمين في آسيا كلها وأضعفت العناصر المسيحية ، حيث أن انتصار المماليك في هذه المعركة بعث روحا جديدة في المسلمين ، لا سيما مسلمي بلاد فارس الذين تحملوا وطأة الغزو المغولي كله ، والذين لاقوا صنوفا من العذاب والاضطهاد والتشريد ، فقوى موقفهم ، واستطاعوا أن يصمدوا أمام تحديات المسيحيين ، وينافسوهم في تبوء مركز الزعامة والصدارة دينيا وسياسيا فى دولة المغول بايران ، فقدمهم ايلخانات المغول وقلدوهم المناصب العديدة في دولتهم ، وصاروا يشرحون للحكام المغول تعاليم الإسلام ويرغبونهم في اعتناق هذا الدين حتى كللت مساعيهم بالنجاح ، وأصبح الإسلام دينا رسميا لدولة المغول في إيران .[2]

ويقول رنسيمان فى هذا المعنى : (ما حدث من ازدياد قوة العنصر الاسلامى وإضعاف العنصر المسيحي لم يلبث أن دفع المغول الذين بقوا في غرب آسيا على اعتناق الإسلام). [3]

وأدرك هذه الحقيقة توماس ارنولد فقال : (وكان النصر الحقيقي للإسلام على الوثنية عند اعتناق الايلخان السابع غازان محمود الإسلام بعد عشر سنوات من سابقه احمد تكو دار ، واعتباره الديانة الرسمية للدولة الايلخانية) . [1]

---

[1] احمد مختار العبادي ، في التاريخ الأيوبي والمملوكي، ص 159

[2] فؤاد الصياد ، المغول في التاريخ، ص 318

[3] رانسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج 3 ، ص 313

وقد أدي انتصار المماليك في عين جالوت إلي فشل سياسة الصليبيين في الشرق الأدنى القاضية بالتحالف مع المغول ضد المسلمين ، والي تعجيل زوال الإمارات الصليبية في بلاد الشام . وفي معركة عين جالوت تشهد المعادلة الواضحة التي لا تمنح جوابها العادل إلا إذا تجمع طرفاها في تكافؤ مقابل الأخذ بالأسباب. [2]

ويعد انتصار عين جالوت وقفة فاصلة في التاريخ كله ،سواء من ناحية مصر في العصور الوسطي أو تاريخ العصور الوسطي الأوربية ، فقد كان انتصارا عالميا ، إذ جاء الانتصار بعد أن عجزت الدولة الخوارزمية و الدولة العباسية عن مقاومة المغول أو مدافعتهم ، وبعد أن انهارت القوى المسيحية أمام الزحف المغولي على أجزاء من روسيا وبولندا و المجر ومن هنا كسبت سلطنة المماليك مركز الصدارة بين سلاطين المسلمين . [3]

لقد جعلت معركة عين جالوت سلطنة المماليك القوة الأساسية في الشرق الأدنى في القرنين التاليين إلي أن قامت الدولة العثمانية . [4]

أما تأثيراتها السياسية والعسكرية بالنسبة للمغول أو الدولة الايلخانية ، فقد كانت قاسية عليهم إذ كان فيها القضاء التام على كل أمل لتحقيق أهدافهم السياسية التي خطط لها من قبل الوصول إلى مصر وتحولت سياستهم بعدها إلى الدفاع فقط بعد أن كانت هجومية ، وأصبح كل همهم الاحتفاظ بنهر الفرات كحد طبيعي لحدودهم مع المماليك ، ولذلك يمكن القول أن كل محاولاتهم العسكرية بعدها لاجتياز الفرات ، كان الغرض منها التأديب والإرهاب وليس الاستيلاء والاستيطان . [5]

فقد كانت هزيمة المغول في عين جالوت صدمة عنيفة أصابت هولاكو إذ انه عندما بلغه نعى قائده كتبغا تأثر تأثرا شديدا وصمم على أن ينتقم لتلك الكارثة التي

---

[1] يير توماس ، و ارنولد ، الدعوة الى الاسلام ج 42 ، ترجمة حسن ابراهيم حسن وعبد المجيد عابدين ، مكتبة النهضة المصرية ،1970 ، ص 260 – 264

[2] محمد علي الصلابي ، المغول بين الإنتشار والإنكسار، ص 404

[3] إبراهيم العدوي ، مرجع سابق ، ص 384

[4] محمد سهيل طقوش ، تاريخ المماليك، ص 82

[5]محمد صالح داؤود القزاز ، الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية مطبعة القضاء النجف 1390هـ /1970م ، ص 374

حلت بجيوشه وأودت يسمعه المغول الحربية ، ولكن الظروف لم تمكنه من ذلك بسبب وفاة منكوخا ن، وبسبب الخلاف الذي ظهر بينه وبين أقاربه ، ولهذا عدل عن الفكرة ، ولكن هولاكو راسل الخاقان قوبيلاى الذي خلف منكوخان سنة 658 هـ /1260م ، واخبره بما حل بالمغول من هزيمة على يد سلطان مصر وابلغه انه مصمم على الثار والانتقام ومهاجمة المماليك والقضاء عليهم ، فما كان من قوبيلاى إلا أن اصدر مرسوما يقضى بان يتولى هولاكو وذريته البلاد الواقعة بين شط نهر جيحون حتى بلاد الشام ومصر ، كما قرر أن يمد أخاه هولاكو بثلاثين ألفا من المغول المشهورين ، فزاد ذلك من ثقة هولاكو بنفسه وخافه خصومه ، ويستفاد من الرسالة التي أرسلها هولاكو للخاقان الكبير أن المغول أصيبوا بصدمة قوية لعظم خسائرهم فى الرجال والعتاد ، كما تدل على أن هولاكو قد أدرك تمام الإدراك مدى قوة المماليك وخطرهم على ممتلكاته وأراضيه ، وبأنهم يمثلون العدو الأكبر لقيام الحكم الايلخانى في بلاد فارس وغرب آسيا . [1]

ولقد كان انكسار المغول في عين جالوت بداية ظهور الدولة الايلخانية لحيز الوجود على يد هولاكو الذي يعد المؤسس الأول لها ، ورأي المماليك بدورهم أن يعملوا على كسر شوكة المغول ووقف تقدمهم و الانتقام منهم دفاعا عن العالم الإسلامي لذلك استقر العداء مستحكما بين المماليك وايلخانات إيران خلال عهود خلفاء قطز .

كان انتصار المماليك على التتار في عين جالوت أهمية كبرى ، إذ إن التتار لم يهزموا من قبل كما هزموا في عين جالوت وعلى الرغم من أغاراتهم الكثيرة على بلاد الشام فيما بعد ، فان الهزائم لحقت بهم ، وصاروا يلتمسون الصلح وتحسين العلاقات بينهم وبين المماليك ، وعجلت هذه الوقعة بزوال الإمارات الصليبية في الشام ، كما دفعت التتار الذين حلوا بغربي آسيا إلى اعتناق الدين الاسلامى ، فتحول بركة خان ملك القبيلة الذهبية إلى الإسلام ، وأعلن عداءه للايلخانات في إيران ، وتوطدت الصداقة بينه وبين بيبرس ، ولم يعد في استطاعة الأمراء الأيوبيين بالشام

---

[1] رحمة بنت حمود بن فطيس ، العلاقات السياسية لدولة ايلخانات المغول 658 –756 هـ /1260 – 1255م، رسالة دكتوراة منشورة ، مكة ، 2013م ، ص 207

منازعة المماليك ، اذ استولى السلطان على إماراتهم ولم يبق في أيديهم منها إلا حماة التي دخلت في طاعة المماليك سنة 746هـ ، وتحالف السلطان بيبرس مع كيخسرو سلطان السلاجقة بالروم الذين وقعوا تحت حكم المغول ، وعلى الرغم من استمرار هجوم المغول على البيرة ومخاضات الفرات ، وتوغلهم في الشام حتى افامية ،فان بيبرس خرب هذه الإطراف الشمالية من ممتلكاته حتى لا يجد أعداءه المؤن والعلف ، ومن ثم قل تهديد التتار لهذه الجهات. [1]

وهناك ملاحظة أخيرة نختتم بها الحديث عن موقعة عين جالوت هي انه على الرغم مما أجمعت عليه المصادر من أن شجاعة المماليك هي التي حققت لهم النصر في تلك الموقعة وإنهم قاتلوا المغول قتالا مستميتا ، إلا انه لا ينبغي أبدا أن نسقط من حسابنا في دراسة التاريخ العوامل المساعدة التي كان لها نصيب في تحقيق ذلك النصر . وفي رأينا انه لو كان الصليبيون بالشام قد تحالفوا مع المغول ضد المماليك ولو كان الصليبيون بالشام قد استجابوا لنداء أرمينية الصغرى ووحدوا جهودهم مع المسيحيين الشرقيين لمؤازرة المغول ، ولو أن هولاكو بقي بجيشه في بلاد الشام ولم يضطر للعودة إلي قراقورم لكان من الصعب على المماليك أن يحققوا ما حققوه من نصر في عين جالوت إلا بصعوبة شديدة ، وخاصة أن المصادر المعاصرة أثبتت ما كانت تعانيه دولة المماليك الناشئة من انقسامات ومتاعب وأخطار داخلية وخارجية ، ومما ساعد المماليك على تحقيق انتصارهم الكبير هو المبدأ المعروف في التاريخ أن لكل هجرة أو غزوة – مهما تكن قوتها وعنفها – نهاية حتمية. و يبدو انه بوصول المغول إلي الشام كانت حركتهم التوسعية في ذلك الاتجاه الجنوبي الغربي قد بلغت نهايتها ، وأخذت في الفتور ، مما ساعد المماليك في صدها.

ولا يفوتنا أن ننسي القوة المعنوية التي يمنحها الإيمان العميق للمؤمن ، فالمماليك ساروا وحاربوا علي يقين أن النصر من عند الله القوي العزيز وان الله معهم. فاستطاعوا بهذا الإيمان واليقين أن يقهروا أسباب التفوق المادي مجتمعة .

---

[1] السيد الباز العرينى ، المماليك ، ص 49 – 50

وبعد انتصار المماليك على المغول عمل قطز على إعادة الأمن في جميع المدن الشامية ، ويبدو انه لم يكن مطمئنا تماما إلى أن قد امسك بزمام الأمور السياسية في يديه ، فعمل على ترتيب أحوال الشام بسرعة حتى ينمكن من العودة إلى مصر ، فاقطع الأمراء الصالحية والمعزية وأصحابه أقطاعات الشام ، وجعل نائبه في دمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبي ومعه الأمير أبو الهيجاء بن عيسى بن خشتر الكردي . (1)

كما أعاد الأمراء الأيوبيين إلي ممالكهم الصغيرة في الشام تابعين لسلطان مصر المملوكي ، بعد أن كانوا يحاولون محاولات مستميتة لعزل سلاطين المماليك ، فقد بعث إليه الاشرف موسى حاكم حمص ، والذي كان هولاكو قد عينه نائبا له في حكمها وفى بلاد الشام ، يطلب الأمان فاستجاب قطز وأمنه واقره على عرشه ، كذلك بعث بالملك المظفر علاء الدين على بن بدر الدين لؤلؤ صاحب سنجار ، ليكون نائبا للسلطان في مدينة حلب ، ووزع الاقتطاعات في المناطق الريفية بحلب على الأمراء الموالين له . (2)

وبعد أن اطمأن الملك المظفر قطز إلى تطهير بلاد الشام من المغول ، عزم على العودة إلى مصر لمشاركة أهلها احتفالاتهم بالنصر ، حيث أخذت القاهرة زخرفها وزينت استعدادا لاستقباله فغادر دمشق في 658 هـ /1260م في طريقه إلى مصر ، وعند عودة قطز إلي مصر تعرض له قواد الجيش على رأسهم بيبرس لان قطز كان قد وعده بمنحه ولاية حلب إلا انه لم يف بوعده ، وأعطاها لعلاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ ، يريد بذلك إن يكون الملك السعيد علاء الدين وسيلة لتتبع حركات المغول و أخبارهم عن طريق مكاتباته مع أخيه الصالح بن لؤلؤ صاحب الموصل . تلك المنحة أدت إلي هلاك قطز ،لان الأمير بيبرس البندقداري الذي كان يطمع في ولاية حلب حقد على قطز وصمم أن ينتقم منه ، وظل يترقب الفرصة لتنفيذ غرضه ، ولم تلبث أن واتته الفرصة إثناء عودة السلطان إلي مصر وخروجه للصيد بالقرب من

---

(1) قاسم عبده قاسم : السلطان سيف الدين قطز ، بطل معركة عين جالوت ، الطبعة الاولى ، دار القلم دمشق ، 1998م ، ص 139

(2) المرجع نفسه ، ص 129 –140

الصالحية ففي أثناء رجوعه من صيده وثب عليه بيبرس في عدد من المماليك وقتلوه بسيوفهم ورماحهم في 658هـ / 1260م . واتفق الأمراء بعد ذلك على بيبرس فأقاموه سلطانا ولقبوه بالملك الظاهر .[1]

وهكذا اغتيل السلطان قطز صاحب الفضل في تدعيم الدولة المملوكية من الناحية الخارجية . ولم تستقبله مملكته استقبال الفاتح المنتصر فحرم بذلك من ثمرة انتصاره على المغول . ودخل بيبرس القلعة في اليوم التالي ، وبدخوله بدأت مرحلة هامة في تاريخ الدولة الناشئة جعلت من بيبرس المؤسس الحقيقي لهذه الدولة بفضل انجازاته السياسية و الإدارية و العسكرية .

يبدو إن المفاهيم الرئيسية للدولة المملوكية كانت نتاجا للظروف التاريخية التي خرجت هذه الدولة من رحمها إلى الوجود ، ويمكن بلورة هذه المفاهيم السياسية في إن أمراء المماليك اعتقدوا منذ البداية إن عرش البلاد حق لهم جميعا ، يفوز به أقواهم وأقدرهم على الإيقاع بالآخرين ، وهو الأمر الذي ظهر واضحا منذ بداية الدولة سواء في مصرع تورانشاه ، أو عز الدين أيبك ، وشجر الدر ، ثم تأكد فيما قام به بيبرس عندما اغتال قطز ، كما تكرر في سلسلة انقلابات القصر ومؤامرات الحكم طوال سنوات حكم دولة سلاطين المماليك .

إن قيمة قطز هو انه صاحب الفضل في وقف الزحف المغولي على ما تبقى من العالم الاسلامى ، كما يعتبر أول من ارسي دعائم حكم دولة المماليك البحرية في مصر وتامين الحماية لها من الخطر الخارجي المتمثل في المغول ، كما شهد أول دخول رسمي إلى بلاد الشام مما سيكون له اثر في تدعيم الوحدة الإسلامية على يد خلفائه تمهيدا لاستمرار مقاومة المغول ، ولطرد بقايا الإمارات الصليبية من الشرق ، وعلى الرغم من إن فترة حكم سيف الدين قطز قصيرة في مداها الزمني ، فان انجازه التاريخي كان عظيما بالقدر الذي حق له مكانة في تاريخ المسلمين .

---

[1] النويري ، مصدر سابق ،ج 29 ، ص 305

الفصل الثالث

العلاقات بين المماليك والمغول في عهد الظاهر بيبرس

658 -676 هـ / 1260 – 1277م

المبحث الأول : عهد الظاهر بيبرس
المبحث الثانى : تحالف بيبرس وبركة خان ضد هولاكو
المبحث الثالث : النفوذ المغولى ببلاد الشام

المبحث الاول
عهد الظاهر بيبرس

لم يكد انتصار المماليك في معركة عين جالوت حني انتشر الخبر في سرعة مذهلة ، وحملت رأس كتبقا إلي مصر حيث أقيمت الاحتفالات بالنصر في حين فر نواب التتر من دمشق وتبعه أصحابهم ثم دخل قطز دمشق دخول الفاتح المظفر إلا أن قطز لم يقدر له أن يهنا كثيراً بثمرة ذلك النصر إذ قتله بيبرس البندقداري في طريق عودته إلي مصر في أواخر أكتوبر 1260م . [1]

وتقدم القاتل بعد ذلك ليتوج في القاهرة التي كانت قد زينت للملك المظفر قطز الذي أضحى اقوي الأمراء البحرية من ناحية ، فضلا عن مواقفه الشجاعة في مواجهة المغول من ناحية أخرى ، واستمرت الزينة لسلطنة بيبرس ولينعم بحفاوة الاستقبال الذي كان معدا لسلفه وضحيته وهكذا تقرر منذ البداية مبدأ الحكم لمن غلب . [2]

ومهما يكن من أمر ، فقد فرض بيبرس نفسه على الساحة السياسية وتربع على العرش ، فاضطر الأمراء إلى مبايعته والاعتراف بسلطنته ،خشية سطوته، ولم تبرز أية معارضة من جانبهم . [3]

ولما كان تثبيت الحاكم الجديد لا يتم إلا بدخول السلطان المبايع له ، إلى القلعة لإجراء مراسم التنصيب فقد توجه بيبرس إلى القاهرة ووصلها في سنة 658هـ /1260م فاستقبله الأمير عز الدين أيدمر على مدخلها وجلس على عرش السلطنة وتلقب بالملك (القاهر) . [4]

وقد أدى ذلك إلى اعتماد سلاطين المماليك في حكمهم على قوة ذات جناحين، احدهما يتمثل في القوة العسكرية للسلطان ، وهى القوة التي يجسدها مماليكه

---

[1] ركن الدين بيبرس المنصورى الدوادار ، زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ، تحقيق دونالدس ، ريتشاردز ، الشركة المتحدة للتوزيع ، بيروت 1419 هـ / 1998م ، ص 54

[2] ابن تقري بردي ، النجوم الزاهية ، ج7 ، ص . 102

[3] محمد سهيل طقوش ،تاريخ المماليك، ص 88.

[4] المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

ويتمثل الجناح الثاني في الواجهة الدينية التي حرص السلاطين على التخفي وراءها طوال ذلك العصر. [1]

الظاهر بيبرس هو من المماليك الذين استكثر منهم الصالح نجم الدين أيوب، وكان لهم اثر كبير في تغيير مجري السياسة المصرية ، ولد بيبرس ببلاد القفجاق (تشمل بلاد القفجاق وحوض نهر الفولجا والأراضي حول بحر قزوين) وهو تركي من قبائل التتار والقفجاق في مناطق الاستبس بوسط آسيا ، وربما كانت طفولته الباكرة في تلك الأنحاء ثم بيع لأحد تجار الرقيق علي اثر هجوم المغول علي هذه البلاد سنة 640 هـ – 1242م وقدم به هذا التاجر إلي حماة ثم دمشق فاشتراه الأمير علاء الدين ايدكين البندقدار مملوك الصالح نجم الدين أيوب ،ولهذا نسب اليه بيبرس وعرف بلقب البندقدارى ، فأقام في خدمته مدة ثم أخذه منه الملك الصالح نجم الدين فاتخذه رئيسا لأحدي فرق حرسه الخاص لما رآه فيه من الهمة والفطنة والذكاء ، وظل يتدرج في المناصب حتى أصبح قائدا لفرقة المماليك التي كان لها الفضل الكبير في هزيمة حملة لويس التاسع في المنصورة ، ثم شارك أمراء المماليك في التخلص من توران شاه وتولية شجر الدر عرش السلطنة المملوكية . ولم يزل يترقي إلي أن قتل فارس الدين اقطاي . فخرج بيبرس من القاهرة مع الفارين من المماليك البحرية وتنقل في بلاد الشام إلي أن عاد إلي مصر مرة أخري في عصر السلطان قطز وخرج معه إلي قتال المغول فابلي بلاء حسنا وكان له دور كبير في انتصار عين جالوت . ولكنه قتل سيف الدين قطز حين رفض منحه ولاية حلب ، وعاد بيبرس إلي القاهرة وجلس علي عرش السلطنة المملوكية سنة 658هـ /1260م ، لتبدأ مرحلة هامه في تاريخ الدولة الناشئة جعلت من بيبرس المؤسس الحقيقي لهذه الدولة بفضل انجازاته السياسية والإدارية والعسكرية . [2]

وباعتلاء بيبرس العرش تأثرت الأحوال السياسية في بلاد الشام ومصر مما شجع التتار علي معاودة القتال متوهمين ضعف الموقف الداخلي في البلاد ومحاولين

---

[1] قاسم عبده قاسم ، مرجع سابق ، ص10

[2] حمدي عبد المنعم حسين ، مرجع سابق ، ص 165

استقلال تلك الظروف الجديدة للحصول علي نصر سريع يمسحون به وصمة عار عين جالوت. [1]

اتصف بيبرس بالحزم وعلو الهمة والبأس الشديد وحسن التدبير ، واجتمعت فيه صفات العدل والفروسية والإقدام ، وقد اطنب المؤرخون في مناقبه بسبب ما ابتدعه من النظم والقواعد التي قوت اسس دولة المماليك ، وقد استحق الظاهر بيبرس السلطنة لان كل أوقاته معمورة بتلاوة القران ومطالعة الكتب ومجالسة العلماء ، ولأنه صاحب مداره وسياسة. [2]

تولي الظاهر بيبرس عرش سلطنة مصر في وقت افتقدت فيه البلاد تماسكها وسادها الاضطراب. ففي الجبهة الداخلية لم تكن الأمور قد استتبت بكاملها بعد لبيبرس ، فلم يكن الأمر يخلو من استبداد بعض المماليك وإطماعهم . أما الجبهة الخارجية فكانت مهددة من ثلاث قوي ، الأولي الصلبيين الذين كانوا يتحينون الفرصة لتنفيذ مأربهم في المنطقة والأخذ بثأرهم بعد معركة المنصورة التي انهزموا فيها وانسحبوا بعد اسر ملك فرنسا قبل عشر سنوات . أما القوة الثانية فهي التتر وتهديدهم المستمر للمنطقة الوحيدة التي استعصت عليهم في المشرق العربي وهي مصر . والقوة الثالثة وهي وأن تكن اضعف من سابقتيها إلا أنها كانت تشكل أرقاً للمماليك إلا وهي تطلعات الأسرة الأيوبية في الشام للعودة لحكم مصر. [3]

ساد هذا الجو المضطرب سائر الدولة الإسلامية العربية بعد انهيار عاصمة الخلافة في بغداد واحتلال هولاكو لها ، ومقتل الخليفة وقد خلت البلاد كلها من الحاكم الشرعي العام لها الذي يستمد منه حكام الأقاليم شرعيتهم ، فشغل كل حاكم نفسه بالعمل علي بقاء سلطته في دويلته أو إقليمه أو مقاطعته محاولا الحفاظ عليها ،

---

[1] محمود السيد ، الفتوحات الإسلامية مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية 2007 م ، ص 142.

[2] محمود ابن أحمد المعروف بالبد العيني ، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر تحقيق هانس ارنست ، دار احياء الكتب العربية مصر 1962، ص 21.

[3] ناصر الانصاري ، المجمل في تاريخ مصر النظم السياسية والادارية الطبعة الاولي دار الشروق 1413هـ/ 1993م ص0162

أو طامعا في اتساع نطاقها وازدياد نفوذه ولم يفكر احد منهم في إعادة الخلافة ، وظل منصب الخليفة شاغرا قرابة الثلاث سنواتً . [1]

كان مبدأ الحكم لمن غلب هو الذي جاء بالسلطان بيبرس إلي العرش وكان تحرك الطامعين في العرش ومن ثم كان علي بيبرس إن يعانى من هذا المبدأ أيضا في بداية سلطنته .

وبعد أن تولي بيبرس عرش السلطنة في قلعة الجبل بالقاهرة بدأ في تنظيم أحوال دولته داخلياً وخارجياً اتخذ عدة إجراءات تنفيذية بهدف تثبيت اقدامه في السلطة وتحصين الدولة الناشئة وإعطائها صفة الاستمرارية ، وكانت أول خطوات بيبرس في هذا الصدد التقرب من الخاصة والعامة ، ليستقطب الأمراء وليلتف حوله الناس ويدعموا حكمه ، فاقدم أولا على توزيع المناصب على الأمراء الذين يثق بهم فعين الأمير فارس الدين اقطاى اتابكا للعسكر ، والأمير لاحين دور دارا كبيرا ، وبليان الرشيدي أمير جاندار وغيرهم من الأمراء الذين ساندوه في حركته الانقلابية ، وبذلك يكون قد ارضي الأمراء واستقطبهم وحال بينهم وبين تدبير المؤامرات ، وسانده هؤلاء في إدارة شئون الدولة فكانوا خير معين ، وقد شكل ذلك عاملا من عوامل استقرار الدولة الداخلي ، كما عمل على إلغاء كافة الضرائب التي كان سلفه سيف الدين قطز قد فرضها لتمويل حربه ضد التتار ، كما عفا عن السجناء السياسيين وأفرج عنهم ، وكان من بينهم الملك المنصور نور الدين على وأمه وأخوه ، إلا انه نفاهم إلى بلاد البيزنطيين وكانت هذه الخطوة الثانية التي نفذها بيبرس لتدعيم حكمه.[2]

أما الخطوة الثالثة فقد كتب إلى الأمراء المسلمين يبين لهم مقدرة الدولة المملوكية العسكرية بالانتصار على المغول في عين جالوت ، ويوضح لهم إن ما حدث في مصر من تغيير في الحكم فذلك وضع اقتضته الظروف السياسية المستجدة

---

[1] المرجع نفسه ، ص162

[2] قاسم عبده قاسم عصر سلاطين المماليك ، دار الطبعة الاولي الشروق القاهرة 1994م ، ص149

بعد هذا الانتصار ، فكتب إلى صاحب اليمن وجميع ملوك الشام وتعتبر هذه الخطوة انفتاحا على العالم الاسلامى لكسب ود زعمائه . [1]

سرعان ما اثبت الظاهر بيبرس انه من اقدر الحكام وأقواهم ، وأبعدهم نظرا فاخذ يتغلب علي المشاكل الداخلية والخارجية التي واجهته واحدة بعد الاخري ليتفرغ لمحاربة الصليبيين وكانت أول هذه المشاكل من جانب المغول الذين زحفوا من الجزيرة علي شمال الشام عن طريق البيرة للانتقام لما حل بكتبقا ، وذلك بعد أن بلغهم مقتل قطز بتلك الصورة متوفعين حدوث انقسام داخل دولة المماليك ، ووجدوا في ذلك فرصة سانحة لهم لمحاولة فرض سيطرتهم على بلاد الشام مرة أخرى، فتجمع المغول الذين كانوا بحران وغيرها من مدن إقليم الجزيرة ، وانضم إليهم من سلم من معركة عين جالوت ، وساروا حتى قاربوا البيرة التي كانوا قبل ذلك قد هدموا أسوارها وأبراج قلعتها وأضحت مدينة مكشوفة ، فأدرك السعيد بن بدر الدين لؤلؤ الذي كان واليا على خلب خطورة الموقف فيها ، وأرسل نجدة من عنده لمساعدة أهل البيرة في الدفاع عن مدينتهم ، الا أن هذه القوة الإسلامية لم تستطع الصمود أمام الجموع المغولية ، وتراجعت إلى داخل المدينة حيث بعث قوادها إلى الملك السعيد يخبرونه بتفاقم خطر المغول وأنهم اتجهوا إلى منبج ، ويبدو أن المغول أرادوا عدم إضاعة الوقت في الهجوم على المدن الصغيرة ، وعقدوا العزم على مهاجمة مدينة حلب التي دخلوها سنة 658هـ /1260م وبداوا في مهاجمتها بقيادة الأمير المغولي بايدو الذي استطاع اقتحام المدينة ، فاحتلوا حلب وبذلوا فيهم السيف فافنوا غالبهم واخرجوا أهلها إلى قرية قرنبيا شرقي حلب ، وفيها حاول المسلمون توحيد صفوفهم مرة أخرى للوقوف في وجه المغول وإيقاف زحفهم إلا أن ذلك التجمع لم يجد نفعا أمام كثافة الجموع المغولية ، واضطر المسامون بقيادة حسام الدين الجوكندار الذي خلف السعيد على حلب إلى التراجع إلى الخلف لاستدراج المغول إلى مكان أفضل لمنازلتهم ، فتراجع إلى حماة ، ثم زحف المغول بعد ذلك علي حماة فتقهقر عنها صاحبها الملك المنصور الثاني محمد إلي حمص لتوسيع الرقعة على المغول متظاهرا بالضعف أمامهم ، بهدف إعطاء نفسه فرصة كافية لحشد اكبر عدد من الجيوش الإسلامية ،

---

[1] محمد سهيل طقوش ، تاريخ المماليك ، ص 90

فوصله بحمص الملك المنصور صاحب حماة ومعه أخوه الملك الأفضل على ومعهما عساكر حماة . علي أن الجيش المغولي كان حامية عددها ستة ألاف في الوقت الذي شغل هولاكو بالحرب مع بركة خان مغول القفجاق قرب القوقاز فلم يتمكن من الحضور بنفسه للانتقام من المماليك . وبذلك استطاع ملكا حماة وحمص – الملك المنصور الثاني والملك الأشرف موسي – أن ينزلا هزيمة بالمغول شرقي حمص بالقرب من قبر خالد بن الوليد قرب الرستن ، وبالرغم من إن كفة العدو كانت الراجحة من حيث العدة والعتاد إلا إن النصر كان حليف المسلمين ، وتبعهم المماليك يقتلون ويأسرون كيف شأوا حتى ردوهم إلي ما وراء الفرات في ديسمبر 1260م. ولقد كان لهذا النصر ابلغ الاثر في نفوس المسلمين ، اذ رفع روحهم المعنوية وقضى على فكرة إن المغول قوم لا ينهزمون ويظهر هذا واضحا ، اذ إن اهل حماة لما علموا بهزيمة التتار عند حمص بدءوا في عقاب جماعة من المنافقين في المدينة ، كانوا يميلون إلى مد يد العون إلى التتار ، وارادوا معا معاونتهم وذلك عن طريق ثقب جزء من السور ليدخل منه التتار إلى المدينة ، ثم وصل الملك المنصور إلى حماة فرجع التتار المنهزمون ونازلوا المدينة يوما ولكن قوتهم كانت ضعفت وانهارت فتركوا المدينة وساروا إلى افامية . [1]

الواقع أن سيادة سلطنة المماليك لم تمتد على بلاد الشام إلا بعد موقعة عين جالوت سنة 1260م –كما سبق أن رأينا ومنذ تلك السنة أصبحت المتاعب التي صادفها سلاطين المماليك في بلاد الشام لا تأتى من جانب الأيوبيين والتتار والصليبيين فحسب ، بل أيضا من جانب أمراء المماليك أنفسهم بالشام ومن ذلك تلك المشكلة التي واجهت بيبرس التي جاءت من جانب الأمير علم الدين سنجر الحلبي نائب دمشق الذي لم يشأ أن يعترف بالسلطان بيبرس ، وانتهز فرصة تغيير الحكم في القاهرة ، وأعلن نفسه سلطانا في دمشق في سنة 1260م اى بعد شهر واحد من توليته السلطة بل أن الأمير ستجر طالب لنفسه بمنصب السلطة فتلقب بالملك (المجاهد) ووضع اسمه على النقود ، ودعا لنفسه في خطبة الجمعة وحتي يدعم موقفه أرسل إلي كل من الأمير حسام الدين لاجين ، صاحب حلب والملك المنصور

[1] محمود السيد، تاريخ عرب الشام في العصر المملوكي ، مؤسسة شباب الجامعة 2006 ،ص142 –143

الأيوبي صاحب حماة ، والملك الاشرف موسي صاحب حمص ، ليدخلوا في طاعته فرفضوا إجابة طلبه خشية من الملك الظاهر بيبرس . [1]

ولكن الظاهر بيبرس حاول أن يتعامل مع هذه القضية التي هددت حكمه في بلاد الشام بالحكمة أولا . فأرسل الكتب والرسل إلي الأمير سنجر لإقناعه بالعدول عن موقفه الرافض للوضع الجديد ، ولزوم الطاعة ولكنه رفض الاستجابة واخذ في تحصين قلعة دمشق استعداد للقتال . [2]

وحاول بيبرس أن يخمد حركة سنجر عن طريق الحيلة وذلك بعد أن حرض أمراء الشام فانفضوا عن سنجر وقاوموه ثم قبض عليه بعد ذلك ، وساقه مكبلا إلى القاهرة في سنة 659هـ /1261م حيث اعتقل في قلعة الجبل ،ثم عفا عنه بيبرس بعد ذلك ، و أرسل جيشا بقيادة علاء الدين البندقدارى صد الأمير سنجر انزل به الهزيمة في سنة 1261م .كذلك ثار الأمير شمس الدين اقوش البرلى ووطد مركزه في حلب بمساعدة أعوانه ثم عزم على المسير الى مصر لانتزاعها من الملك الظاهر، ولكن بيبرس أرسل حملة عسكرية قضت على قواته ، وبذلك أصبح السلطان بيبرس سلطانا أوحدا في مصر والشام . [3]

ولم تكن المتاعب التي صادفها بيبرس في بلاد الشام في ذلك الدور التأسيسي لدولته كلها ناشئة من جانب أمراء المماليك ، وإنما ظل بعض بقايا ملوك بني أيوب الذين كانوا ما يزالون يحكمون في بلاد الشام يشكلون خطراً علي سلطان دولة المماليك ، على الرغم من إعلان المنصور صاحب حماة ، والاشرف موسى صاحب حمص ولاءهما لبيبرس ، ومن ذلك أن الملك المغيث عمر الأيوبي صاحب الكرك الذي كان يري في المماليك مجرد دخلاء اغتصبوا العرش الأيوبي في مصر ويجب القضاء عليهم وإعادة إحياء الدولة الأيوبية تحت زعامته معتقدا أنه أحق بتولي العرش من المماليك المغتصبين . فاستعان بجموع الأكراد الفارين من وجه التتار وأخذ يغير علي الشوبك وغيرها من المناطق القريبة التابعة لسلطنة المماليك بل أنه راسل

---

[1] ركن الدين بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ص 60

[2] المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

[3] سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ، ص 214 – 215 .

هولاكو وحرضه علي غزو مصر وبلاد الشام ويطلب منه إن يعينه ملكا عليها يكون تابعا له. [1]

وكان بيبرس قبل تولي السلطنة قد علم بنوايا المغيث وما يطمح اليه . فلما تولي الحكم عزم علي القضاء عليه . فالقضاء عليه ضرورة اقتضتها سياسة الدولة المملوكية العامة ، وتطلبتها واقعية الظروف المستجدة . فاعد بيبرس حملة عسكرية من أجل هذه الغاية إلا أن المغيث عمر كتب إلي الخليفة العباسي في القاهرة الحاكم بأمر الله يسأله الشفاعة ، فكتب الخليفة إلي الملك الظاهر يتشفع فيه فقبل شفاعته . وابقي علي المغيث عمر في الكرك ولكن المغيث عمر استمر علي عدائه للمماليك . ولم يهدأ بيبرس إلا بعد أن قبض علي المغيث عمر سنة 1262م واعتقله بقلعة الجبل إلي أن قتل بعد ذلك . وفي نفس العام تمكن بيبرس من القضاء علي المقاومة الأيوبية بشكل نهائي . [2]

أما الثورة الثانية فقد ظهرت بالقاهرة وتزعمها رجل شيعي عرف بالكوراتى ، اظهر الزهد والورع ، واتفق مع جماعته على تنظيم ثورة داخلية لاستبدال الحكم المملوكي السني بحكم شيعي ، واقطعهم الاقتطاعات ، وتمخضت تلك الدعوة عن ثورة سنة 658 هـ /1260 م ، فشق الثوار شوارع القاهرة ليلا وقاموا بعمليات سلب ونهب ولكن قوات السلطان بيبرس سارعت بمحاصرة الثوار، وإلقاء القبض على زعمائهم حتى خمدت الثورة ، ثم أمر بيبرس بصلب الكوراتى وغيره من زعماء الثورة الشيعية على باب زويلة . [3]

وعندما تولي بيبرس عرش مصر في غيبة الخلافة الشرعية رأي أن يدعم مركزه باتخاذ خطوات علي جانب كبير من الأهمية . أما الخطوة الأولي فكانت علي أعادة الخلافة العباسية في مصر سنة 669هـ –1262م إلي مكانتها ليقيلها من عثرتها الدامية التي لحقتها على يد هولاكو وجنوده ، وليظهر أمام العالم الاسلامى

---

[1] سهيل طقوش ، تاريخ المماليك ، ص 91.

[2] سعيد عبد الفتاح عاشور العصر المماليكي في مصر والشام، الطبعة الاولي دار النهضة العربية ، القاهرة ص 214–215.

[3] تقى الدين المقريزى ، السلوك ، ج 1، ق 2 ، مصدر سابق ، ص 440.

بمظهر الحامي للخلافة ، وليجعل لنفسه شيئا من النفوذ والزعامة على البلاد الإسلامية ، و لهدف خفي وهو أن يضفي بهذه الخلافة علي ملكه الشرعية المطلوبة، فيقوي بذلك عرشه في مواجهة القوي المناوئة له داخلياً وخارجياً ، وكانوا في حاجة إلى استقرار داخلي يمكنهم من الوقوف في وجه التتار والصليبيين ، ولن يكونوا يامنون الجبهة الداخلية لكراهية الناس لهم لأنهم اصلا ارقاء جلبوا من بلاد الشرق واتخذوهم الأمراء في خدمتهم ثم وصلوا إلى الحكم بعد إن انتزعوه من سادتهم الأيوبيين ، وعلي الرغم من أن بيبرس لم يكن أول من فكر في مشروع إحياء الخلافة العباسية السنية المنهارة ، إلا أنه أول من نجح فيها لتحقيق هذا المشروع ، وقد اضطر إلى التعجيل بتنفيذ هذا المشروع ليجعل منها سندا للسلطنة المملوكية التي كانت بحاجة ماسة إلى دعم روحي يجعلها مهيبة الجانب ، بالرغم من الانتصارات التي حققتها ضد المغول ، وليحيط عرشه بسياج من الحماية الروحية يقيه خطر الطامعين في ملك مصر من أمراء الشام ، ويبعد عنه كيد منافسيه من أمراء المماليك في مصر الذين اعتادوا الوصول إلى الحكم عن طريق تدبير المؤامرات ، وان يظهر أمام العالم الاسلامى بمظهر الحامي للخلافة ، وليجعل لنفسه شيئا من النفوذ والزعامة على البلاد الإسلامية ، وان وجود الخليفة العباسي في مصر يضفى على سلطان المماليك مكانة اعلي من مكانة الأمراء والملوك في البلاد الإسلامية الأخرى.[1]

وكما اذكرنا أن بيبرس ليس أول من فكر في إحياء الخلافة من الملوك والسلاطين الذين تداولوا حكم مصر والشام ، يبدو إن الناصر يوسف ،صاحب دمشق وحلب فكر في الإقدام على هذه الخطوة عقب سقوط بغداد من خلال استقطاب احد أبناء البيت العباسي الفارين من وجه المغول ويدعى أبو العباس احمد ، كان فد أقام عند الأمير عيسى بن مهنا أمير العرب ، فلما سمع به رأى أن يستدعيه فيعلنه خليفة في بلاد الشام ، لكن سرعة تطور الأحداث ،عقب قيام دولة المماليك البحرية ، وبروز الخطر االمغولى لم يمكنه من تحقيق ذلك ، ونهج المظفر قطز نهج الناصرفى التفكير، ذلك انه علم حين قدم دمشق بعد معركة عين جالوت بوجود أمير عباسي

---

[1] سهيل طقوش ، تاريخ المماليك ، ص 93 ،

يدعى أبا العباس احمد ، قد وصل أخيرا إلى دمشق ، فأمر بإرساله إلى مصر تمهيدا لإعادته إلى بغداد ، وتذكر بعض الروايات إن المظفر بايع هذا الخليفة وهو في دمشق ،غير إن حادثة اغتياله حالت دون تنفيذ هذا المشروع. [1]

وقد هدف بيبرس بالإضافة إلى الدعم الديني إلى التوسع السياسي ببسط سيطرته، بمساعدة الخليفة وتأييده علي البلدان المجاورة لمصر ، خاصة بلاد الحجاز ليقوي بذلك مقام السلطنة المملوكية الأولي في نظر المسلمين ، ويرفع من مكانة حكامها باعتبارهم حماة الحرمين الشريفين وتأمين حدود مصر الشرقية ومدها حني نهر الفرات. [2]

بدا بيبرس في إجراءات التنفيذ فاستدعى احد أبناء البيت العباسي الأمير أبا العباس احمد الذي كان قطز قد بايعه في دمشق وأعلنه خليفة في القاهرة سنة 660 هـ /1262 م ، ونقشت السكة في مصر باسميهما معا ، وكان الدعاء لهما معا علي المنابر يوم الجمعة وأمر الظاهر بيبرس بأن يدعي للخليفة قبل الدعاء له ولم يكتف بذلك بل دعاه ليخطب ويصلي بالناس صلاة الجمعة بجامع القلعة وتلقب ابو القاسم بلقب الخليفة المستنصر بالله. [3]

ولما تمت البيعة اقبل الخليفة على بيبرس وقلده أمور البلاد ، ولقب بالحاكم بأمر الله وبذلك حلت القاهرة محل بغداد في حاضرة الخلافة العباسية ومركز النشاط الديني في العالم الإسلامي ، في حين بدأت سلطنة المماليك في صورة القوة الحامية للخلافة المتمتعة ببيعتها مما دعم دولة المماليك الناشئة واكسبها أهمية في نظر المسلمين كافة ، وقد أصدر الخليفة تقليداً للسلطان الظاهر بيبرس بحكم البلاد الإسلامية وما يضاف إليها وما سيفتحه الله عليه من بلاد الكفار وهذا يعني حصول بيبرس علي تفويض شرعي من الخليفة العباسي للحكم .وقد ذكر السيوطي أن بيبرس حصل علي لقب (قسيم أمير المؤمنين) الذي لم يحصل عليه أحد من قبله. [4]

---

[1] المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

[2] سهيل طقوش ، تاريخ المماليك ، ص 94

[3] محى الدين ابن عبد الظاهر ،الروض الزاهر ، ص99 –100

[4] الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق محمد أحمد الفضل ، القاهرة ، 1968م ، ص 87.

وكان المعني الواضح لهذا أن بيبرس قد كسب شرعية واضحة لحكمه ولدولته ولنفسه . وهكذا نالت دولة سلاطين المماليك البعد الديني الذي يؤكد شرعيتها في عيون المعاصرين . لقد كان البعد العسكري هو الذي افرز هذه الدولة باعتبارها القوة القادرة علي حماية العالم الإسلامي بيد أن هذا البعد لم يكن كافيا وحده . بدليل تلك المصاعب التي واجهت المماليك منذ شجر الدر وحتى بيبرس من جانب الرعاية والقوي السياسية الاخري . [1]

وكان من نتائج إحياء الخلافة العباسية في القاهرة أن أصبحت القاهرة مركز النشاط الاسلامى الديني والسياسي والعسكري والثقافي بدلا من بغداد ، وبالرغم من التشكيك في صحة نسب الخليفة المستنصر بالله فان إحياء الخلافة أدى دورا سياسيا وروحيا بالنسبة لدولة المماليك الناشئة ، واستطاعوا أن يحققوا انتصارات رائعة على عدوهم ، ونعموا بثراء واسع لم يكن يتم لهم ذلك بدون إحياء الخلافة ومهما يكن هدف الظاهر بيبرس من اقامة الخلافة فانه اهتم بالخليفة واحاطه بكل رعايته وعنايته، ولما خرج الخليفة المستنصر بالله أبا القاسم أحمد إلى الشام لقتال التتار واسترداد بغداد ، زوده الظاهر بما يحتاج اليه من الفرسان والاموال، ولم يمنعه من زيادة تلك المساعدات إلا تحريض بعض الامراء له إن ينازعه السلطان إن هو انتصر على التتار واستقر في في بغداد فاكتفى بتزويده بجيش ضئيل لم يستطع الخليفة به الثبات طويلا امام التتار فقتل وتفرق اصحابه ، وبالرغم من ذلك فان الظاهر بيبرس لم يكن راغبا في اسقاط الخلافة فنجده يسرع في استدعاء الخليقة الحاكم بامر الله الذى رافق الخليفة المستنصر في قتاله التتار ، يستدعيه إلى القاهرة ليقيمه ويبايعه بالخلافة بدلا من الشهيد المستنصر بالله ، وتقرران يستقر الخليفة هذه المرة في القاهرة . [2]

---

[1] قاسم عبده قاسم وعلي السيد الايوبيون والمماليك الناريخ السياسي والعسكري ع للدراسات والبحوث القاهرة 1996م ، ص151.

[2] فايد حماد محمد عاشور ، الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين والمغول فى العصر المملوكى ، الطبعة الاولى ، جروس برس ، لبنان 1995م ، ص 73 .

واستقرت الخلافة العباسية في مصر أكثر من قرنين ونصف في القاهرة إلي الفتح العثماني سنة 1517م حيث انتقلت إلي استانبول. [1]

واكتسب بيبرس الكثير من أحياء الخلافة العباسية ذلك أن الأمة الإسلامية كانت حتى ذلك الوقت لا تزال تنظر إلى الخلافة نظرة أكبار واحترام ، وبالتالي كانت نظرتها إلى من يحقق فكرة أقامة الخلافة بنفس العين التي كانوا ينظرون بها إلى الخليفة نفسه ، كما استفاد سلاطين المماليك والقاهرة من ذلك الإحياء ، إذ صاروا منذ ذلك الوقت وحتى الفتح العثماني سنة يفرضون لأنفسهم مقاما ساميا على ملوك العالم الاسلامى وينكرون عليهم حق التلقب بلقب سلطان ، لأنهم وحدهم أصحاب هذا الحق شرعا باعتبارهم حماة الخلافة والمتمتعين ببيعتها . [2]

ويمكن القول أن الظاهر بيبرس قد حقق هدفين كبيرين معا ،الهدف الأول على المستوى المحلى وهو استقرار الحكم له ولطبقة المماليك من بعده لمدة قرنين ونصف من الزمان بالطريق الرسمي والشرعي بعد أن كان حكم المماليك في نظر البعض مغتصبا من الأيوبيين ، أما الهدف الثاني فهو اعم واشمل إذ كان يمس الأمة العربية الإسلامية جمعاء وهو أحياء الخلافة العباسية بعد انهيارها على ايدى التتار ، فوجدت الأمة حاكما عاما وإماما لها وأمير للمؤمنين وهو الخليفة العباسي في القاهرة. [3]

أما عن الوجهه العملية فقد كان تواجد الخلافة مظهريا بحتا ولا يخرج عن أمور شكلية وهكذا أحييت الخلافة العباسية بالقاهرة للمرة الثانية ، غير أن بيبرس لم يفكر في إعداد الخليفة لاسترجاع بغداد وإقامة الخلافة العباسية بها . بل عزم علي أن يكون مقامه بالقاهرة حني يكون علي مقربة منه وتحت عينه ، ولم يرد السلطان بذلك أن يخلق في عاصمته سلطنة دينية أو سياسية بجانب سلطنته ، بل مهد أن تكون الخلافة سندا للدولة المملوكية في أرجاء العالم الإسلامي ، وأن يكون الخليفة

---

[1] أحمد عودات وجميل بيضون تاريخ المغول والمماليك من القرن السابع الهجري حتي القرن الثالث عشر الميلادي دار الكندي ، اربد 1990م ، ص 94

[2] احمد مختار العبادى ، مرجع سابق ، ص 190

[3] ناصر الانصاري ، مرجع سابق، ص164

شخصية نافعة لإغراض دولة المماليك وما تحتاجه من الحماية الروحية . ويدل على ذلك كله أن السلطان لم يأمر أن يقرن اسم الخليفة باسمه على السكة ، وانه اسكنه احد أبراج القلعة متحفظا عليه ، ولم يترك له غير الدعاء في الخطبة فقط ، علي هذا الأساس لم تكسب الخلافة العباسية في إحيائها إلا كسبا مزيفا ، اذ صار الخلفاء منذ ذلك الوقت في وضع مهان تقريبا ، يعملون في دوائرهم الطبيعية ويحضرون حفلات السلطنة وولاية العهد ويزينون مجالس السلطان للوفود والسفراء ، ومجمل القول لم يتمتع الخلفاء في القاهرة بما تمتع به أسلافهم في بغداد من حيث السلطات الواسعة والسيطرة والقوة والتأثير على وجود دولته . [1]

أما الذين استفادوا من ذلك الإحياء فهم سلاطين المماليك وعاصمتهم القاهرة اذ صار المماليك منذ ذلك الوقت إلى الفتح العثماني سنة 1517م يفرضون لأنفسهم مقاما ساميا على ملوك العالم الاسلامى وينكرون عليهم حتى التلقب بلقب سلطان ، لأنهم وحدهم أصحاب هذا الحق شرعا باعتبارهم حماة الخلافة المتمتعين ببيعتها، إما القاهرة فقد تمتعت نتيجة لذلك الإحياء شهرة دينية وعلمية واسعة إذ صارت مركز الخلافة العباسية ، وبالإضافة إلى شهرة القاهرة الدينية والعلمية ، فهناك شهرتها التجارية التي جعلت هولاكو يسميها (كروان سراي) في احدي رسائله، اى محط الرحال والمتاجر والمال ، اذ أصبحت بفضل قيام الخلافة بها مركزا لنشاط تجارى واسع ، فضلا عن نشاطها القديم . [2]

عندما حقق بيبرس هدفه بإضفاء الصبغة الشرعية على حكمه . بدا يخطط للتخلص من الخليفة أبى القاسم احمد بيد انه كان حريصا على عدم القضاء على الخلافة نفسها إذ أدرك بيبرس بدهائه السياسي إن قيام الخلافة العباسية في القاهرة بشكل حقيقي سوف يحوله إلى مجرد تابع للخليفة ، لقد كان يريد الخلافة اسميا وواجهة تكسبه الشرعية ، وهكذا أرسل الخليفة مع قوة عسكرية صغيرة لقتال المغول ، وبالفعل أباد المغول جيش الخليفة العباسي الضئيل وقتلوه هو نفسه عند بلدة هيت ،

---

[1] قاسم عبده قاسم ، مرجع سابق ، ص 177

[2] أحمد مختار العبادي في التاريخ الايوبي والمملوكي دار المعرفة الجامعية الاسكندرية 1998م ص171

ولأن بيبرس الخبير بالتتار وأساليبهم في القتال أرسل هذا الجيش القليل مع الخليفة ،يرجح إن السلطان أرسل الخليفة في مهمة بلا عودة . [1]

وقلص بيبرس نفوذ الخليفة الجديد وسلطانه على نحو جعله أشبه بمن يخضعون لأحكام تحديد الإقامة فلم يكن مسموحا للخليفة العباسي في القاهرة إن يتصل بأحد المسئولين في الدولة أو غيرهم دون أذن من السلطان نفسه وبذلك أرسى بيبرس الأسس السياسية التي قامت عليها دولة سلاطين المماليك ، اى الاستعانة بالخلافة العباسية واجهة دينية وشرعية دون إن يكون للخليفة سوى الدعاء على المنابر في صلاة الجمعة . [2]

لكن أحياء الخلافة العباسية بالقاهرة لم يكن كافيا من وجهة نظر بيبرس لتأييد زعامة دولته على الخلافة اذ كان البعد الديني للدولة الناشئة ما يزال بحاجة إلى عناصر جديدة لاستكماله والحقيقة التي تفرض نفسها باستمرار على تاريخ المنطقة مؤداها إن كل دولة أرادت إن تبنى لنفسها القوة والزعامة كان لا بد لها إن تبسط سلطانها على البحر الأحمر والحجاز حيث يوجد الحرمان الشريفان في مكة والمدينة، ولم يكن بيبرس يشذ عن هذا المنطق الذي يفرضه التاريخ وتحتمه الجغرافيا. [3]

بدا بيبرس خطته بالقيام بعدة إصلاحات إسلامية بالمسجد النبوي الشريف ، وأرسل الكسوة إلى الكعبة وفي سنة 667هـ/1269م قام بأداء فريضة الحج وانتهز الفرصة لكي يجعل الخطبة في الحجاز للخليفة العباسي ثم سلطان مصر من بعده كما قام السلطان بيبرس بالتقرب إلى العلماء والفقهاء والقضاة وهكذا ازداد البعد الديني وضوحا في دولة سلاطين المماليك. [4]

ثم التفت بيبرس إلي الشام التي كانت قد انفصلت عن مصر واستقل بها بعض الأمراء الأيوبيين فاستعاد اغلبها حربا أو صلحا .

---

[1] قاسم عبده قاسم وعلي السيد ، مرجع سابق ، ص 152

[2] المرجع نفسه ، ص153.

[3] احمد مختار العبادى ، قيام دولة المماليك، ص 153.

[4] قاسم عبده قاسم ، مرجع سابق ، ص 153.

أما الخطوة الثانية فكانت صد الخطر المغولي وزعيمهم هولاكو والخطر الصليبي الذي كان يكمن في بعض الأمارات اللاتينية التي استقرت علي السواحل الشامية للبحر المتوسط . وعلى الرغم من إن وسائل القضاء عليهم قد توفرت منذ انهزامهم في موقعة المنصورة سنة 1250م إلا انه لم يشرع في القضاء على دولتهم في بلاد الشام إلا بعد تولى بيبرس السلطنة في مصر سنة 1260م و يرجع ذلك إلى انشغال سلاطين المماليك في العمل على إيقاف خطر المغول وضم الشام إلى مصر بعد انفصالها عنها على اثر اختيار أمراء دمشق للناصر داوود الايوبى سلطانا عليهم فكان لا بد من التغلب على تلك العثرات قبل إن يستطيع سلاطين المماليك مواجهة الصليبيين مواجهة تامة.[1]

ولم يكن سلاطين المماليك اقل حماسة في طرد الصلبين من بلاد الشام من أسلافهم الأيوبيين وقد أعقب فشل الحملة الصليبية السابعة ورحيل لويس التاسع عن مصر فترة هدوء حتمتها الظروف المحيطة بالمسلمين والصليبين ، ولم ليبث الموقف أن تغير تماما في عهد بيبرس وخلفائه إذ نجد أن سياسة المماليك في مصر نحو الصليبين في الشام تتسم بطابع العنف والقسوة ، ولم يكن ذلك بالأمر السهل فقد كان على بيبرس أن يناضل الإمارات الصليبية وهى أنطاكية وطرابلس والجزء الباقي من مملكة بيت المقدس. [2]

بدأت الحرب بين بيبرس والصليبين على شكل مناوشات محلية ويبدو أن بيبرس لم يشأ أن يقوم بهجوم كبير على الصليبين في تلك المرحلة قبل أن يوطد مركزه مركزه في الحكم من ناحية ، وبسبب اشتداد الغلاء ببلاد الشام من ناحية أخرى. [3]

أما عن المغول فلم يغب عن بال بيبرس خطورة العلاقات بين ايلخانات إيران وبين الأمراء الصليبيين في الشام ، ولا سيما بوهيمند السادس امير انطاكية

---

[1] حمدي عبد المنعم ، مرجع سابق ، ص 174.

[2] السيد الباز العرينى ، المماليك ، دار النهضة العربية بيروت ،1967م ، ص 50.

[3] حمدي عبد المنعم ، مرجع سابق ، ص 174.

طرابلس فاخذ في مهادنة التتار باراضى السلاجقة بالروم ، ثم واصل مهاجمة الممتلكات الصليبية باستمرار . [1]

ثم اعد جيشه أعدادا جيدا لرد غارات التتار المتتالية الذين كانوا قد ثبتوا أمرهم في فارس وحوض دجلة والفرات وكادوا يصلون إلي الشام وتمكن بيبرس من ردهم عن مصر والشام وأعاد توحيد البلاد ثم بدأ بالهجوم علي الإمارات الصليبية فلا تكاد تخلو سنة من حكم بيبرس إلا بمواجهة مع أحدي هذه الإمارات وقد تمكن من هزيمتهم في أنطاكية سنة 1260م ثم في عكا سنة 1262م ثم في فيسارية وعثليث وحيفا سنة 1265م ثم تمكن من قلعة ارسوف البحرية ، وخلص حمص من بوهيمند السادس ملك إنطاكية سنة 1266م . وفي نفس السنة هاجم قلاع طرابلس ، ثم تمكن من صور وصيدا واستولي علي مدينة صفد وخرب قلعتها . واستعاد هونين والرملة . وبعد هذه الانتصارات الحربية الحاسمة اضطرت أميرة بيروت لعقد صلح معهم . ولم يكد يمضي عامان إلا ووجه بيبرس في سنة 1268م ضربة قاضية إلي بقايا المملكة اللاتينية فاستولي علي الشقيف ثم اتجه إلي شمال سوريا ، وهاجم البلاد المحيطة بطرابلس وأخضعها ثم تقدم نحو صافينا وانطوس ثم شمالا إلي حمص وحماة ومنها زحف إلي إنطاكية وقاتل جيوشها وتمكن من اسر حاكمها واستولي علي المدينة . وظل بيبرس يناوي الصليبين ويستولي علي معاقلهم الواحد تلو الأخر رغم المدد الذي كان يصلهم من أوربا واستولى علي حصن الأكراد وحصن عكا الواقع شمال طرابلس سنة 1271م . [2]

وهكذا استخلص بيبرس البلاد من الأمراء الصليبيين ولم يبق منها تحت أيديهم إلا النذر اليسير ورغم إن الانتصار كان حليفه دائماً إلا انه قبل عقد الصلح مع الصليبيين في عكا وطرابلس مدته عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام ،وذلك بقصد التفرغ للمغول. [3]

---

[1] السيد الباز العرينى ، المماليك ، ص 50.

[2] محمد جمال سرور بيبرس وحضارة مصر في عهده ، القاهرة 1938م ، ص . 60.

[3] سعيد عبد الفتاح عاشور الحركة الصلبية ، ص907.

وهكذا زال الخطر الصليبيى ، كما زال خطر المغول على البلاد المملوكية في الشام ، واخذت دولة المماليك تستقر في مصر ، ومما زاد في استقرار الأمور في كل من مصر والشام نجاح بيبرس في التخلص من طائفة الإسماعيلية والاستيلاء على معاقلها في المنيعة والقدموس والكهف ، وهى الطائفة التي استغلها الصليبيون ضد المسلمين . [1]

تمكن بيبرس من خلال سنوات حكمه من توسيع مملكته فضم الشام وبعض البلاد التي استولى عليها التتار في فارس وبين النهرين ،كما دانت له النوبة وأجزاء من أرمينيا وتمكن من بسط نفوذه على بلاد الحجاز كما أقام علاقات طيبة مع نجاشي الحبشة وملوك أوربا وتحالف مع إمبراطور القسطنطينية.

أقام بيبرس إمبراطورية قوية متسعة مترامية الإطراف تركها من ورائه للمماليك البحرية الذين ظلوا في الحكم حوالي قرن من الزمان يحاولون السير على نهجه والحفاظ على البلدان التي ضمها والإبقاء على قوة مصر العسكرية أمام الصليبيين والتتار. [2]

وقد تضافرت هذه الخطوات في ظهور المماليك في صورة الحكام الفعليين والشرعيين للبلاد في نظر الأمة العربية والإسلامية وأدت إلي استقرار سياسي للحكم في مصر مما ساعد علي تأسيس دولة جديدة اظهر بيبرس كفاءة في سياسة أمورها فوضع كثير من الأسس والنظم الإدارية الجديدة . [3]

---

[1] السيد الباز العرينى ، المماليك ، ص 51.

[2] ناصر الانصاري ، مرجع سابق ، ص167.

[3] المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

المبحث الثاني
تحالف بيبرس وبركة خان ضد هولاكو

كانت المشكلة الكبرى التي واجهت السلطان بيبرس من بداية حكمه هي مواجهة المغول ، ذلك لان خطرهم كان واضحاً خصوصا بعد معركة عين جالوت التي كانت فاتحة العلاقات العدائية بين المماليك ومغول إيران . وقد أدرك بيبرس منذ اللحظة الأولي أن المغول مقدمون علي الأخذ بثأرهم ، ولم ينس بيبرس الكلمات التي تفوه بها كتبقا نوين قائدهم في عين جالوت قبل مصرعه علي يد قطز وهي : (إني أن هلكت علي يدك فاني اعلم أن الله هو الذي أراد قتلي ، فلا تتخدع بهذا النصر المؤقت ، فانه لا يكاد يصل إلي هولاكو خبر موتي حتى يغلي غضبه كالبحر المضطرب ، فتطأ أرجل الخيل المغولية ابتداء من اذريبجان إلي أبواب مصر). لهذا اخذ بيبرس يستعد لمناهضتهم . [1]

فمثل هذه الكلمات الجريئة تصور مدى الخطر الذي كان ينتظر دولة سلاطين المماليك من هولاكو بعد إن هزم جيشه وقتل قائده وصهره كتبغا ثم ازداد الموقف خطورة عندما ارتبط الخطر المغولي بخطر الصليبيين الذين حاولوا استمالة المغول ومحالفتهم طمعا في نشر المسيحية بيمهم والاستعانة بهم في غزو مصر والشام ، وهنا تظهر القدرة الفائقة في التحالف الاستراتيجي لبيبرس وهو يعنى توافقا وتعاونا استراتيجيا في شكل حلف واتفاق مع الاستفادة من جميع إمكانيات الدول الحليفة في تدمير عدو مشترك في مجابهة هذا الموقف. [2]

أرسل اباقا أبن هولاكو سنة (1265–1282م) سفراء إلي البابا كليمنت الرابع سنة 1267 م والي الملك جيمس الأول ملك أراجون بعدها بسنتين والي مجمع ليون سنة 1274م يقترح القيام بحملات مشتركة ضد سلطنة المماليك عدوهم المشترك ، كما أن البابا نيقولاس الرابع اقتبس الفكرة وخاطب المغول في شأن التحالف بيد أن الأمر لم يتعد حدود تبادل السفارات والمفاوضات . [3]

---

[1] ناصر الأنصاري ، موسوعة حكام مصر ، الطبعة الرابعة،القاهرة 1990، ص 167 .

[2] احمد مختار العبادى ، التاريخ الأيوبي والمملوكي ، ص 222.

[3] بدر الدين محمد العينى ،عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان ،تحقيق محمد امين ،ج 7 ،النهضة المصرية للكتاب ،القاهرة ،19991م ،ص 75.

وقد مثل المماليك العدو الأكبر للحكم الايلخان في غرب آسيا وعلي الرغم من حتمية الصراع بين هاتين الدولتين المتناقضتين في توجهاتهما السياسية والدينية إلا أن الايلخانين هم الذين بدأوا به نتيجة لاستمرارهم في تنفيذ سياستهم التوسعية واستعجال هولاكو بتحقيقها . وطول هذا الصراع الذي سوف يمتد في ألمدي الزمني كانت كفة المماليك هي الراجحة . ذلك أن الحكم الايلخان لم يكن قائما علي أساس من رضا الناس الذين تعلقت مشاعرهم بالحكم المملوكي الذي يمثل في نظرهم المدافع عن الإسلام أمام وثنية المغول لذلك كانت القوات المملوكية تجد الحماية والعون من أبناء البلاد في الوقت الذي كانت فيه هذه الميزة غير متوفرة للمغول إلا نادرا . [1]

ولم يلبث الدين الاسلامى أن انتشر بين دولة المغول الشمالية(القبيلة الذهبية) بعد أن اعتنق بركة خان هذا الدين فادى ذلك إلى ازدياد التقارب بين مغول القبيلة الذهبية والقوى الإسلامية في المشرق وبخاصة دولة المماليك البحرية الناشئة بينما ازداد العداء بين مغول القبيلة الذهبية وبقية طوائف المغول الوثنين وبخاصة مغول إيران وذلك لأنه يرضوا بما فعله هولاكو في بلاد المسلمين من مذابح ولأن إيلخانات المغول يهاجمون البلاد الشمالية في إيران وأذربيجان وأرمنيا ويساعدون حكام ارمنيا المسيحيين. [2]

وكان صراع بيبرس مع المغول متصلا بشكل وثيق بكفاحه ضد بقايا الصليبين في بلاد الشام والنصارى الشرقيين الذين حاولوا استمالة المغول ومحالفتهم للقضاء علي دولة المماليك ، فقرر أن يقضى عليه ويطردهم من بلاد الشام لذلك وضع بيبرس لنفسه برنامجا خارجيا ضخما كانت ابرز أركانه القضاء علي الصليبين وطردهم من الشام ومحاربة الأرمن وصليبي إنطاكية لمحالفتهم مغول إيران ، ثم التوسع علي حساب هؤلاء في شمالي بلاد الشام واسيا ألصغرى ، والاتصال بمغول القبيلة الذهبية للتنسيق معهم . [3]

---

[1] سهيل طقوش ، تاريخ المغول العظام، ص192 .

[2] سهيل طقوش ، المرجع نفسه ، ص193.

[3] بارتولد شبولر ،العالم الاسلامى في العصر المغولى ،الطبعة الاولى ،تعريب خالد اسعد عيسى ،دار حسان ،دمشق ،1986م،ص 62.

بدأ السلطان بيبرس بتنفيذ مخططه بمهاجمة الصليبين في بلاد الشام ففي سنة 664هـ / 1256م فتح فيسارية ويافا وارسوف ، وهاجم قلاعا أخري كما فتح في العامين التاليين صفد والرملة والقليعات وهي الحصون التي تحمي طرابلس من جهة الشمال والشمال الشرقي . وتعد سيطرة المماليك عليها خطوة متقدمة في سبيل فتح طرابلس بعد ذلك . (1)

التفت بيبرس بعد ذلك إلى معاقبة الأرمن وصليبيي إنطاكية الذين ساعدوا المغول وكان قد أرسل في أوائل عام 660هـ/1261 جيشا للسيطرة على حلب بعد إن أعلن أميرها المملوكي العصيان وشن غارات واسعة النطاق على أملاك إنطاكية. (2)

أدرك بيبرس حاجته إلي محالفة قوة خارجية كبري تساعده في الوقوف في وجه مغول فارس وزعيمهم هولاكو وتشغلهم عن محالفة الصليبين في الشام ضده ، فاتجه نحو مغول القفجاق أو القبيلة الذهبية وتزوج ابنة زعيمهم المسلم بركة خان ، الذي كان قد اشتهر بعدائه لمغول فارس وزعيمهم هولاكو ، لتقوية أواصر التحالف بينهما، وهو أول من اعتنق الإسلام من أبناء جنكيزخان ، وكانت بلاده تمتد من تركستان شرقا إلى شمال البحر الأسود غربا وفعلا دارت مراسلات بين بيبرس وبركة خان سنة 1262 – 1263م أدت إلي عقد تحالف بين الطرفين ضد العدو المشترك ممثلا في مغول فارس . وقد بلغ عدد السفارات المتبادلة بينهما نحو أربعين سفارة منها تسعة في عهد الظاهر بيبرس ، كان من الطبيعي أن يلاقى تجاوبا من الزعيم المغولي المسلم إذ أن اعتناق مغول القبيلة الذهبية الإسلام جعلت التحالف بيت الطرفين ضرورة سياسية لمواجهة المغول وأرسل بيبرس إلي بركة خان يغريه بقتال هولاكو ويرغبه في ذلك ، واخذ يكرم وفود مغول القبيلة الذهبية الوافدين إلي مصر وبذلك ضمن حليفا قويا يحمي ظهره من ناحية مغول فارس . ويظهر اثر ذلك التحالف بوضوح في الرسالة التي بعث بها إلى السلطان بيبرس سنة 1263م يقول فيها : (فليعلم السلطان أني حاربت هولاكو الذي هو من لحمي ودمي لإعلاء كلمة الله تعصبا لدين الإسلام لأنه باغي والباغي كافر بالله ورسوله ولقد رأيت أن نقصده

---

(1) محى الدين بن عبد الظاهر ، مصدر سابق ، ص 230 –234.

(2) محمد سهيل طقوش ، تاريخ المغول العظام ، ص 209.

من جهتك واقصده من جهتي فنقتله أو نطرده من البلاد ، ومتى كانت واحدة من هاتين أعطيتك ما كان في يده من البلاد التي استولي عليها .) ويعرض عليه إرسال قوة عسكرية إلى معابر الفرات لقطع الطريق على هولاكو . [1]

رد بيبرس علي رسالة بركة خان برسالة جمع فيها الترغيب في الجهاد والإغراء والتعاظم عليه وإظهار الميل إليه ووصف كثرة جنود المماليك وما هي عليه وأمر بالدعاء لبركة خان بعد الدعاء للخليفة والسلطان على منابر مكة والمدينة وبيت المقدس والقاهرة وحمل رسله الهدايا وكان من بينها زرافة وسن فيل وتمساح واستقبل رسل بيبرس في البلاط المغولي بالحفاوة وذكروا لدي عودتهم مدي انتشار الإسلام بين مغول الفيجاق بحيث أن لكل أمير وأميرة أماما ومؤذنا خاصا وان الأطفال يحفظون القران في المدارس. [2]

وبذلك حقق السلطان الظاهر بيبرس هدفه المنشود ، بإشغال هولاكو عن التحالف مع الصليبيين ، حيث أخذت الرسل تتردد بين بيبرس وبركة إلى أن قام بركة استجابة لدعوة الجهاد الاسلامى التي وجهها له الظاهر بيبرس وهاجم هولاكو واشتبك معه في معارك ضارية ، وفى هذا يذكر بركة في إحدى رسائله إلى بيبرس قوله : (واننى قمت انا واخوتى الأربعة لحربه (يقصد هولاكو) من سائر الجهات ، لإقامة منابر الإسلام ، وإعادة مواطن الهدى إلى ما كانت عليه من العمارة وذكر الله والأذان والصلاة ، واخذ ثار الأئمة والأمة) والتمس بركة في الوقت نفسه من السلطان الظاهر بيبرس ، إيفاد جماعة من عسكره إلى جهة الفرات لقطع الطريق على هولاكو، كما أوصى بركة السلطان بالاتصال بعز الدين سلطان سلاجقة الروم لطلب المساعدة على هولاكو. [3]

ترتب على اتصال بيبرس ببركة خان ، وتفاقم الخلاف بين بركة وهولاكو نتيجة هامة ، هي أن الاضطراب الذي عم بلاد المغول بسبب ذلك الصراع المرير ، أدى إلى هروب جماعات مغولية إلى بلاد الشام ومصر ، وذلك راجع إلى ما سمعوه

---

[1] محمد سعيد عمران ، المغول واروبا ، دار المعرفة الجامعية ، 1997م ، ص 75.

[2] محي الدين بن عبد الظاهر ، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، ص172.

[3] المصدر نفسه ، ص 171.

عن تسامح المسلمين هناك وحسن معاملتهم للوافدين الذين كان السلطان بيبرس قد اصدر تعليماته إلى نوابه بالشام ومصر إلى إكرامهم ، وتقديم كل ما يحتاجون إليه وإنزالهم في دور بنيت لهم ، ومن ثم تقطع لهم الاقتطاعات ، والى جانب ذلك يمكن القول أن السلطان الظاهر بيبرس قد حقق بتعاونه مع بركة خان القبجاق ، نصرا آخر على هولاكو ظهر واضحا في تلك الجموع المغولية الوافدة على دولة المماليك ، فالمصادر التي أوردت نبا وصول هذه الوفود التي كانت ترد إلى الظاهر بيبرس على فترات متقطعة وبإعداد ضخمة ، لم تشر إلى أنهم من عند الخان المسلم بركة ، بل وصفتهم (بالمستأمنين المغول) ، وهذا الوصف يؤكد أن هذه الجموع المغولية الوافدة إلى دولة المماليك هي من مغول فارس أتباع هولاكو لا من مغول القبيلة الذهبية (القفجاق) المسلمين اتباع بركة ، وإلا لما كانوا وصفوا بالمستأمنين . [1]

كما أثمرت هذه العلاقات الطيبة عن عقد معاهده بين الطرفين ضد العدو المشترك أدت إلي استمرار تدفق المغول من بلاد القفجاق ليزيد عدد جنودها والهاء هولاكو بقتال بركة خان علي حدود القوقاز وصرفه عن التفكير في توجيه حملات إلي بلاد الشام ليثار لهزيمة جيشه في عين جالوت. [2]

ومن اليسير معرفة عوامل التقارب بين بركة خان وسلاطين المماليك بدءا من سنة 1261م ، وأقواها العداء المشترك لهولاكو ورابطة الإسلام التي كانت تجمع الطرفين ، وفضلا عن ذلك كان الظاهر بيبرس (1260-1277م) ومعظم قادة المماليك من منطقة القفجاق التي كان يسيطر عليها بركة خان ، ومن ثم فان الحنين للموطن الاصلى قد شجعهم على التقارب مع بركة خان ، كما إن هذه المنطقة ظلت المورد الاساسى للرقيق الذين كانوا عماد العسكرية بالنسبة لسلطنة المماليك ، كما كان هناك عامل هام يهم الطرفين وهو استمرار فتح طرق التجارة بينهما عن طريق القسطنطينية. [3]

---

[1] سعيد الغامدى ، مرجع سابق ، ص 159.

[2] محمد سهيل طقوش ، تاريخ المغول ، ص193.

[3] عادل هلال ،مرجع سابق ، ص 106.

ومهما يكن من أمر فان العلاقة بين الظاهر بيبرس وبركة خان إيلخان مغول القفجاق لم تكن مجرد علاقة شخصية بين رجلين ، وإنما كانت علاقة بين دولتين ربطت بينهما روابط روحية قوية وأحسا بخطر واخذ مشترك هو خطر مغول فارس وهكذا لم تؤد وفاة بركة خان سنة 1267م إلى انقطاع صلات الود بين مغول القفجاق ودولة المماليك إذ تبودلت السفارات بين بيبرس ومنكوتمر – خليفة بركة خان – بقصد توجيه القوي ضد مغول فارس وزعيمهم أباقا خان . [1]

وما قيل عن تحالف الظاهر بيبرس مع بركة خان ، يمكن أن يقال عن اتصاله بالإمبراطور البيزنطي ميخائيل باليوجس الثامن ، الذي كان هو الأخر حريصا على محالفة بيبرس ، وتقديم المساعدة له ، والواقع أن كلا من السلطان الظاهر بيبرس والإمبراطور البيزنطي ميخائيل (1223–1282م) كان حريصا على التقرب من الآخر ، فالسلطان المملوكي بيبرس الذي تمكن . بتحالفه مع خان القفجاق بركة . من الحد من خطورة قيام حلف مغولي صليبي ضد دولته، كان يخاف نتيجة ذلك أن يقدم الصليبيون في ساحل بلاد الشام على استرضاء الإمبراطور البيزنطي وعقد تحالف معه ضده ، لذا كان عليه أن يبادر إلى إجراء اتصالات مع البيزنطيين لمنع احتمال قيام ذلك الحلف الجديد ، وفى الوقت نفسه كان الإمبراطور البيزنطي يحرص هو الآخر اشد الحرص على مصادقة الظاهر بيبرس ، لاشتراكهما معا في عداوة الصليبيين ببلاد الشام ، فضلا عن أن الإمبراطور البيزنطي الذي كان يتعرض بين آونة وأخرى لغارات مغول القبيلة الذهبية (القفجاق) كان يرى أن مصادقته للسلطان المملوكي بيبرس حليف بركة خان هو السبيل الوحيد لكف مغول القفجاق عن مهاجمة بلاده . [2]

وأيا كان السبب الذي دعا الإمبراطور البيزنطي إلى ذلك ، فان السلطان الظاهر بيبرس أيرم اتفاقية صداقة معه في سنة 660هـ / 1262م وكذلك الحال

---

[1] قاسم عبده قاسم وعبده السيد ، مرجع سابق، ص167 .

[2] سعيد الغامدى ، مرجع سابق ، ص 160.

بالنسبة لملك صقلية مانفرد بن فردريك الثاني ، كما يذكر انه في سنة 662 هـ /1263م وصل رسول من الملك شارل صاحب مرسيليه . [1]

وإذا تساءلنا عن السبب الذي دفع أباطرة وملوك الغرب الاوربى ، وبهذا العدد إلى خطب ود السلطان المملوكي الظاهر بيبرس الذي عرف بعدائه لأبناء جلدتهم الصليبيين في بلاد الشام ، والذي يبدو لنا هو أن الغرب الاوربى الذي كان يعانى وضعا سيئا بسبب المشاكل والخلافات التي كانت سائدة بين حكامه ، هي التي دفعتهم إلى ذلك العمل قاصدين بذلك وبطريقة غير مباشرة استرضاء بيبرس لإثنائه عن مهاجمة بقايا الإمارات الصليبية ببلاد الشام بعد أن أدركوا عجزهم عن تقديم أية مساعدة لإخوانهم هناك ، وعليه يمكن القول ان تلك المعاهدات التي أبرمت ، والسفارات التي تبودلت بين السلطان الظاهر بيبرس ، وبين ملوك وأباطرة الدول المحيطة بدولته من الشرق والغرب ، حمت دولة المماليك المسلمين ، خطرا كان يتهددها من جراء تلك المحاولات التي بذلت لعقد حلف مغولي صليبي ضدها ، واضحى السلطان بيبرس في وضع طيب بعد أن استطاع تجميد النشاط المغولي ضد دولته فى الشرق بانشغالهم في حروب داخلية ، وحرمان الصليبيين في بلاد الشام من أية مساعدة خارجية ، وتمكن بفضل ذلك العمل من توزيع نشاطه على الجبهتين الصليبية والمغولية معا . [2]

يبدو أن التحالف بين المماليك ومغول القيجاق لم يقف عند ذلك الحد ، إذ سرعان ما انضم الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن باليولوجس إلى محور بيبرس بركة ، ثم فأصبح التحالف رباعيا بانضمام عز الدين كيكاوس ،احد سلطاني سلاجقة الروم في بلاد الأناضول، مما مكن الظاهر بيبرس من القيام بمشاريعه الكبرى ضد الصليبيين وهو امن . [3]

كان هذا التحالف بمثابة خط الدفاع الأول لدولة سلاطين المماليك ضد هجمات مغول فارس الوثنيين ولهذا السبب اتسمت هجمات مغول فارس ضد بلاد

---

[1] احمد العبادي ، قيام دولة المماليك، ص 2040–0205

[2] سعيد الغامدى ، مرجع سابق ، ص 161.

[3] سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ص 179.

الشام بالسرعة والرعونة ، كما افتقرت إلي الشمول والعنف الذي ميز الهجمات المغولية التي سبقت عين جالوت . ولم يعتمد بيبرس علي هذا التحالف الاستراتيجي فقط ، بل اخذ يحصن أطراف دولته المواجهة للمغول علي نهر الفرات لاسيما قلعة البيرة التي ذودها بمعدات تكفيها لمقاومة الحصار لمدة عشر سنوات كي تظل شوكة في جنب المغول في الجبهة الشرقية – كما عمل علي تخريب الطرق والوديان المؤدية إلي بلاد الشام حتى لا يجد المغول إذا تقدموا ما يحتاجون إليه من أقوات أو أعشاب لدوابهم . وهذه هي أعلى درجات الرقى في التفكير الاستراتيجي لتحقيق أسس الفن الحربي ، وهى الإجراءات والتحضيرات قبل الخوض في المعركة او ما يسمى التنبؤ بمتطلبات سير المعركة ، كما أن هولاكو تحالف مع الصليبيين في الشرق وبخاصة مع ملك ارمينه لكي يقوي بذلك علي صد هجمات بركة خان وسلطان المماليك بمصر . [1]

وكان هولاكو قد وجه حملة في سنة 658هـ /1260م بقيادة بيدرا إلي شمالي بلاد الشام عن طريق البيرة للانتقام لما حل بكتبقا . وانضم إليه مغول حران والجزيرة فأحتل حلب وانسحب مقدم جيوشها المملوكي حسام الدين لاجين إلي دمشق ، فتقدمت القوات المغولية ودخلتها واخرج بيدرا سكانها وبذل فيهم السيف حني افني معظمهم ثم زحف إلي حماة وعسكر بمشارفها من ناحية الجنوب . وكان حسام الدين قد وصل بعساكره إلي حماة فطاردهم المغول فساروا إلي حمص ورافقهم الملك المنصور الثاني محمد ، صاحب حماة وأغلق أهل المدينة الأبواب في وجه المغول إلا أنهم قدموا إليهم المؤن والطعام مداراة لهم فتركوا المدينة وطاردوا الجيش الاسلامى المنسحب إلى حمص . [2]

عقد في مدينة حمص اجتماع ضم صاحبها الاشرف موسي والملك المنصور الثاني محمد صاحب حماة وحسام الدين لاجين تقرر فيه التصدي للزحف المغولي ، وأعاد الجوكندار تنظيم جيوش المسلمين مرة أخرى وجهزها بالعدة والعتاد استعدادا لمنازلة المغول ، ووصلت القوات المغولية واصطدمت بالجيش المملوكي عند مكان

---

[1] قاسم عبده قاسم وعلي السيد ، مرجع سابق ، ص166.

[2] طقوش ، تاريخ المغول العظام ، ص 196.

بالقرب من قبر خالد بن الوليد قرب الرستن . وكان النصر حليف المماليك الذين طاردوا المغول إلي ماوراء الفرات .رغم إن كفة العدو كانت الراجحة من حيث العدة والعدد ، وقد كانت القوة المغولية تبلغ ستة ألاف مقاتل في حين بلغت القوات المملوكية ألف وأربعمائة فارس . [1]

توفى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل فى سنة 656هـ/ 1258م فخلفه ابنه الملك الصالح إسماعيل وقد هادن المغول في بداية حياته السياسية ثم انقلب عليهم وطردهم من الموصل ثم ذهب إلى بيبرس في مصر ونظم معه مقاومة ناجحة ضد المغول ولما عاد إلى الموصل أرسل إليه هولاكو جيشا تعداده عشرة ألاف فارس بقيادة صندغون حاصره فيها ونصب الجيش المملوكي خمسة وعشرين منجنيقا وصارت تضرب المدينة وما أن علم بيبرس بذلك حتى أرسل نجدة تعدادها سبعمائة فارس بقيادة شمس الدين سنقر الرومي كما أمر بخروج العساكر من دمشق وحلب بقيادة الأمير علاء الدين الحاج طيبرس ، وشمس الدين البرلى صاحب حلب ، وقد خرج على رأس سبعمائة فارس من الغز وأربعمائة من التركمان ومائة من العرب . [2]

ولما علم المغول بخروج قوة المماليك كمنوا للقوات التي خرجت من حلب عند سنجار وانفضوا عليها وقتلوا معظم أفرادها وعاد صندغون بعد هذا الانتصار إلى الموصل ومعه الأسرى وشدد الحصار على المدينة فغلت الأسعار واشتد البلاء ،فاستغل صندغون هذه الحالة السيئة وأرسل إلى الملك الصالح يعده بالوعود الحسنة ا إذا استسلم وفعلا وافق الصالح إسماعيل ،وتوقف القتال ودخل المغول المدينة وكان ذلك في سنة 660هـ/1262م ولكن صندغون لم يف بوعده على عادة المغول فقبض على الصالح إسماعيل وقتله عند سنجار . [3]

وعلي الرغم من مشاكل هولاكو مع القبيلة الذهبية التي منعته من مواصلة الهجوم على المماليك فان هولاكو ما زال يدخر من القوة والبأس ما يكفي لمنعهم من مهاجمة حلفائه . لكن وفاته في سنة 663هـ / 1265م لم توقف تيار المشاعر

---

[1] ابن كثير ، مصدر سابق، ج 13 ،ص259 0

[2] محمد سهيل طقوش تاريخ المغول العظام ، ص 194.

[3] المرجع نفسه ، ص 195.

العدائية المتبادل بين سلطنة المماليك في مصر والشام وبين مغول فارس ذلك إن خليفته اباقا (663 –680 هـ /1265 – 1282م) كان حريصا على دعم صلاته بالقوى المسيحية ،سواء في الدولة البيزنطية او البابوية ودول غرب أوربا، بقصد تطويق العالم الاسلامى عامة ، ومحاربة دولة سلاطين المماليك على نحو خاص ، وفي عهده كثرت السفارات بين المغول والبابوية التي رأت في المغول أداة تمكنها من تحقيق مأربها وأهدافها التي فشلت الحملات الصليبية في تحقيقها كما شهدت بلاطات ملوك الغرب الاوربى سفراء المغول وكانت أنباء هذه السفارات والاتصالات التي كانت مملكة أرمينية الصغرى طرفا فيها تصل إلى السلطان بيبرس فيأخذ حذره ويعد نفسه لمواجهة هذه المخاطر مجتمعة أو فرادي [1]

كما أتاحت للمماليك فرصة طيبة إذ أضعفت ملوك إيران في لحظة حرجة وأراح المسلمين الشرق الادني من خصم عنيد كما أثرت سلبا علي حلفائه الأرمن والكرج والصليبيين . ذلك أن أرملته قطز خاتون كفلت ولاية العرش لابنها اباقا لكن لم يتم تنصيبه ايلخانا من الناحية الرسمية إلا بعد مرور أربعة أشهر علي وفاة والده.[2]

وفى سنة 663هـ/1265م أغار مغول فارس على قلعة البيرة الهامة الواقعة على ضفاف نهر الفرات وحاصرت قوات المغول حاميتها بغية الاستيلاء عليها ، فجهز السلطان من فوره الأمير بدر الدين الخازندار ليخرج أربعة ألاف فارس من بلاد الشام لقتال العدو وعين الامير عز الدين المعروف باسم سم الموت مقدما على الجيش ومعه الامراء مع اربعة الاف فارس ، وخرجوا من القاهرة ، ثم سارت فرقة ثانية عدتها اربعة االف فارس بقيادة الامير جمال الدين المحمدى والامير جمال الدين ايدغدى الحاجبى ، واجتمعوا خارج القاهرة ثم ساروا االى الشام ، وطلب الظاهر من صاحبى حماة وحلب التحرك بقواتهما ، فسارت جميع هذه القوات وعبرت نهر الفرات، وكان السلطان الظاهر قد امر عيسى بن مهنا بعد إن ارسل اليه عسكرا إن يسير بهم عبر الصحراء إلى حران والاغارة عليها ، وركب السلطان بيبرس بنفسه متوجها إلى

---

[1] قاسم عبده قاسم وعلى السيد ، مرجع سابق ، ص 168.

[2] محي الدين بن عبد الظاهر ، مصدر سابق ، ص 59.

القلعة، ولكن رسالة وردت إليه تخبره بفرار المغول عندما شاهدوا القوات التي أرسلها.[1]

وقد تعرض ابافا في هذه الفترة لتهديد أبناء عمومته في القبيلة الذهبية الذين أغاروا علي بلاده سنة 661هـ/1266م وحدثت بينهم معركة وانتصر عليهم ، فكان مستحيلا علي حكومة مغول إيران أن تتدخل في شئون غربي بلاد الشام . أما بيبرس الذي سبب بسياسته المتاعب للايلخان المغولي في الشمال فقد صار بوسعه أن يستأنف حملاته ضد الصليبين والأرمن دون أن يخشي تدخلا مغوليا . [2]

وقد حاول أباقا نفسه استمالة المماليك ودعوتهم للصلح مرتين لكى يامن جانبهم من ناحية ، ويضعف من تعاونهم السياسي الذي كان قد بدا بينهم وبين مغول القفجاق فبل أن يتحول إلى تعاون عسكري عليه وعلى دولته ، ولكن بيبرس رفض طلبه ، ثم إستانف أباقا سياسته العدوانية تجاه دولة المماليك مرة ثانية ، ففي سنة 1269م إتفق المغول مع الصلبيين وشنت قوات أباقا هجوما علي المناطق القريبة من حلب . وحين أسرعت القوات المملوكية تحت قيادة السلطان إلي بلاد الشام أنهزم المغول وارتدوا من هذه المناطق . وفي سنة 1271م عاودت القوات المغولية الهجوم ضد المسلمين في بلاد الشام ولكن الهزيمة كانت من نصيب المغول في هذه المنطقة القريبة من حران علي الرغم من أن الصليبين حاولوا تخفيف العبء علي حلفائهم المغول بالهجوم علي بعض المناطق القريبة ولكن الهزيمة كانت من نصيبهم أيضاً.[3]

ولما كان المغول الايلخانيون حريصون علي أن يؤلفوا جبهة مشتركة مع الأرمن والكرج والصليبيين وسلاجقة الروم والبيزنطيين بمناهضة المماليك وحلفائهم مغول القبيلة الذهبية ، كان بيبرس حريصا من جهته علي توطيد مركزه في شمالي بلاد الشام للانطلاق إلي الأناضول وذلك باستقطاب سلاجقة الروم ليتخذ من المنطقة حاجزا في وجه المغول الايلخانيين من جهة ، ويتصل بمغول القبيلة الذهبية من جهة

---

[1] سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية، ص 167 0

[2] استيفن رانسمان مرجع سابق ، ج3 ، ص 549

[3] قاسم عبده قاسم وعلى السيد ، مرجع سابق ، ص 168

أخرى . وتنفيذا لهذه السياسة قام بشن الغارات علي المعاقل الصليبية حتى بلغت طرابلس وانطاكيه . [1]

أتاح هذا الوضع السياسي لبيبرس الفرصة لكي يغزو مملكة أرمينيا الصغرى ويخضع هيثوم الأول ملك ارمينا الصغري في فيلقيا الذي انتهج سياسة معادية للمماليك فاضطر الزعيم الأرميني إلي اللجوء إلي التراجع والمهادنة ليجنب بلاده كارثة حقيقية وترددت السفارات بينهما. إلا أن المفاوضات لم تؤد إلي نتيجة ايجابية ولما شعر الملك الأرميني بان الحرب مع المماليك واقعة لا محالة أسرع إلي تبريز عاصمة المغول الايلخانيين يلتمس منهم العون والمساعدة . وكان ذلك في سنه 664هـ/ 1266م . [2]

انتهز بيبرس غياب هيثوم الأول وعمل بإرسال جيوشه باتجاه فيلقيا بقيادة المنصور الثاني أمير حمص ثم أردفه بقوة عسكرية بقيادة الأميرين قلاوون الألفي وعز الدين اوقان في حين أقام هو في دمشق للأشراف على الحملة ، وكان القصد من هذه الحملة هو تاديب مملكة هيثوم الأول والإختصاص منها لموقفها من المسلمين زمن التتار عندما استولوا على حلب وبلاد الشام ، هذا بالاضافة إلى رغبة السلطان الظاهر في فتح باب التجارة بين الشام وبلاد الارمن ولكن صاحب سيس لم يستجب لهذه الرغبة خوفا من هولاكو ، لهذا سارت القوات الاسلامية لغزو بلاد سيس ، واصطدم الجيش المملوكي بالجيش الأرميني عند دروب الشام وجرت معركة بين الطرفين قرب دربساك 664هـ–1266م انهزم فيها الجيش الأرميني . وانساب جيش المماليك على أثرها إلى فليقيا فنهب إياس وآذنة وطر سوس وتجاوز المصيصة إلى العاصمة سيس ، فنهبها وأشعل النار ثم انسحب عائدا إلى حلب ومعه الأسرى والغنائم. [3]

---

[1] محي الدين بن عبد الظاهر ، تشريف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور ، تحقيق مراد كامل ، وزارة الثقافة والارشاد القومي القاهرة 1996م ، ص307—308.

[2] ابن العبري ، مصدر سابق ، ص 325 .

[3] محى الدين بن عبد الظاهر ، مصدر سابق ،ص 269 .

ولما علم هيثوم الأول بما حل ببلاده أسرع بالعودة إليها وبصحبته قوة مغولية قليلة العدد فوجد ولي عهده أسيراً وعاصمته مدمرة وبلاده مستباحة فلم يعد في وزعه أن يوم بدور إيجابي في سياسة آسيا الصغرى اضطره أن يعقد مع بيبرس اتفاقية هدنة جاء فيها أن يتنازل هيثوم الأول لبيبرس عن بعض القلاع التي في حوزته وهي دربساك وهي مواقع استراتيجية مهمة تتحكم في طرق المواصلات التي تربط أرمنيا وحلفائها مغول فارس والجزيرة وشمال العراق من ناحية وبالصلسبيين في أنطاكيا من ناحية أخرى وإطلاق سراح الأمير شمس الدين سنقر الأشقر الذي سبق أن أسره المغول في حلب مقابل إطلاق سراح ليون بن هيثوم الذي أسره المماليك بعد معركة دربساك 657هـ – 1259م وبعد أن تم الاتفاق على هذه الشروط أضحى المسلمون يحدقون بمملكة الأرمن من كل جانب وظلت أرمنيا الصغرى بعد ذلك محدودة القوى ضعيفة التأثير في مجرى الشرق العربي الإسلامي. [1]

وبسقوط أنطاكية وضعف أرمينيا ألصغري بعد الضربات التي وجهها إليها بيبرس أضحي المماليك علي أبواب الأناضول. [2]

ومن الواضح إن المعاهدات التي أبرمت والسفارات التي تبودلت بين السلطان المملوكي الظاهر بيبرس وبين ملوك الدول المحيطة به شرقا وغربا جعلت دولة المماليك في شيء من الأمن مما يهدد كيانها من ناحية المغول والصليبيين ، وأن كان من المعروف أن خلو عهد بيبرس من حملة صليبية علي مصر أنما يرجع لانصراف الدول الأوربية إلي شئونها ومشاكلها في الغرب . كما أن قلة الغارات المغولية في عهده أنما يرجع إلي ما طرأ علي المغول من حالة سكون مؤقت بعد عاصفة جنكيز خان وهولاكو في البلاد الشرقية علي الأقل . [3]

لم يبق للدولة المملوكية بعد ذلك دعامة من دعامات القوة والبقاء سوى تامين حدودها ضد الغزو الخارجي وتنظيم جيوشها وتقوية أسطولها لما يتطلبه مركز

---

[1] عصم شبارو ،السلاطين في المشرق الغربى ، ص 81 .

[2] محي الدين عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، في سيرة الملك الظاهر ، تحقيق عبد العزيز الخويطر ، الطبعة الثانية ، الرياض 1976م ، ص 230 – 231 .

[3] أحمد مختار العبادي ، التاريخ الأيوبي والمملوكي، ص 192 –193

الزعامة في العالم الاسلامى من هجوم أو دفاع ،ولذا كان ما قام به بيبرس في هذا المضمار من أهم ما تحتاجه الدولة للقيام على أساس متين ، وأول ذلك إن السلطان جند العشائر العربية سنة 659هـ /1261م وهى العشائر المقيمة على الحدود الفراتية مثل عرب خفاجة وحثهم على قتال هولاكو بعد إن غمرهم بالخلع والهدايا والأموال ، ويقال إن هؤلاء العربان قاموا بمهمتهم خير قيام حتى وصلت أغاراتهم أبواب مدينة بغداد . [1]

ولم يكتف بيبرس بذلك بل أمر نوابه بحلب سنة 660هـ /1262م بإحراق المروج والإعشاب التي جرت عادة هولاكو أن يعسكر على مقربة منها أثناء هجومه على الشام ،فأحرقت تلك المروج جميعها وهى مسيرة عشرة أيام ، وبذا قطع بيبرس على هولاكو وجنوده السبل والطرق المؤدية إلى الشام . [2]

ثم امر بيبرس سنة 1263م بعمارة القلاع التي خربها المغول من حمص إلي حوران وزودها بالمؤن والذخيرة ، فأقام بذلك خطا حصينا من شرق الأردن إلي نهر العاصي ، فضلا عن أبراج المراقبة التي أقامه علي طول الأطراف الصليبية لحفظ الطرقات من اعتداءات الفرنج . [3]

كذلك أهتم بيبرس بعمارة سلسلة المنائر أو المناور التي تربط أطراف الدولة بالعاصمة ، وهي عبارة عن أبراج للمراقبة يرابط فيها الحراس والمرابطون ليل نهار فإذا كشفوا عدوا مقبلا من البر كالمغول ، أو من البحر كالصليبيين أشعلوا النار على قمم هذه المناور أذا كان الوقت ليلا ، أو اثأروا فيها الدخان أذا كان الوقت نهارا. ثم سرعان ما تنتقل هذه الإشارات النارية أو الدخانية من منارة إلي أخري تحذر الأهالي إلي أن تصل إلي العاصمة . [4]

---

[1] المرجع نفسه، ص193.

[2] احمد مختار العبادى ، في التاريخ الايوبي والمملوكي دار المعرفة الجامعية 1998م ، ص195

[3] المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

[4] المرجع نفسة، الصفحة نفسها.

المبحث الثاالث
النفوذ المغولى ببلاد الشام

فكر هولاكو في مهاجمة مدن شمالي بلاد الشام انتقاما لما حدث له في عين جالوت عمل علي استقطاب أمرائها وأرسل إلي الملك المنصور الثاني محمد صاحب حماة لإغرائه بالتعاون معه ووعده بتثبته في مركزه ألا أن هذا رفض ذلك ، واعلم بيبرس ليبرئ نفسه من التعاون مع المغول ويبرهن عن إخلاصه للسلطان. [1]

ولكن في تلك الآونة كان هناك تقارب قد حدث بين بركة خان زعيم القبيلة الذهبية وبيبرس (659– 776هـ/ 1260 –1277م) فتصدي بركة خان لأبن عمه هولاكو وحدثت بينهم معركة في ديسمبر 661هـ – 1266م وكان جيش بركة بقيادة توغاي وتحق النصر لبركة خان ، وقتل احد أبناء هولاكو وغرق عدد كبير من فرسان جيش هولاكو وهم في طريق انسحابهم إلي ازربيجان ، وتحسنت علاقات بيبرس ببركة خان خاصة أن بركة كان قد أعلن إسلامه . [2]

ولما فشلت خطط هولاكو الاستقطابية عمد إلي القوة العسكرية لتحقيق أهدافه فأرسل حملات صغيرة ضد بعض القلاع والثغور لإرهاب عدوه ومنعه من أقامة التحصينات فيها ، وقد اخطأ هولاكو حين ظن حصول انقسام داخلي في صفوف المماليك علي اثر مقتل قطز. [3]

وجه هولاكو حملة في سنة 658هـ /1260م بقيادة بيدرا إلي شمالي بلاد الشام عن طريق البيرة للانتقام لما حل بكتبقا وانضم إليه مغول حران والجزيرة ، فاحتل حلب وانسحب مقدم جيوشها المملوكي حسام الدين لاجين مع عساكره إلي دمشق ، فتقدمت القوات المغولية ودخلت المدينة واخرج بيدرا سكانها وبذل فيهم السيف حتى افني معظمهم ، ثم زحف إلي حماة في الجنوب منها وكان حسام الدين الجوكندار وعساكره قد وصلوها فطاردهم المغول فساروا إلي حمص ورافقه الملك المنصور الثاني محمد صاحب حماة ، وأغلق أهل المدينة الأبواب في وجه المغول

---

(1) ابن العبري ، مرجع سابق ، ص 327.

(2) أحمد مختار العبادي ، وإبراهيم مرجونة . مرجع سابق ، ص 143.

(3) محمد سهيل طقوش، المغول العظام ، ص 196.

إلا أنه قدموا له المؤن والطعام مدارة لهم فتركوا المدينة وطاردوا الجيش المملوكي المنسحب إلي حمص . [1]

عقد الاشرف موسي صاحب حمص والملك المنصور الثاني صاحب حماة وحسام الدين لاجين اجتماعا تقرر فيه التصدي للزحف المغولي فوصلت القوات المغولية التي كانت تبلغ ستة ألف مقاتل في حين بلغت القوات المملوكية ألفا وأربعمائة في سنة 659هـ/1260م واصطدمت بالجيش المملوكي عند مكان بالقرب من قبر خالد بن الوليد قرب الرستن . وعلي الرغم من أن كفة المغول كانت الراجحة إلا أن النصر كان حليف المماليك الذين طاردوا عدوهم إلي ما وراء الفرات. [2]

ولقد كان لهذا النصر ابلغ الاثر في نفوس المسلمين ، فتتبعوا عدوهم حتى افنوا معظمهم ، والعجيب انه ما قتل من المسلمين سوى رجل واحد وترتب على هزيمة التتار رفع الروح المعنوية عند المسلمين ، فما إن علم اهل حماة بهزيمة التتار عند حمص حتى شرعوا في عقاب جماعة من المنافقين في المدينة ، كانوا يميلون إلى مد يد العون إلى التتار وذلك عن طريق فتح ثقب كبير في سور المدينة ليدخل منه التتار إلى المدينة ، ثم وصل الملك المنصور إلى حماة فرجع التتار المنهزمون ونازلوا المدينة يوما ، ولكن قوتهم كانت ضعفت وانهارت فتركوا المدينة وساروا إلى افامية . [3]

سارع الملك المنصور عقب ذلك الانتصار بالاتجاه إلى حلب ، الامر الذي اضطر فلول المغول إلى الاتجاه إلى سلمية حيث انضموا إلى جموع مغولية كانت نازلة بها ، وحاولوا عبثا مهاجمة حماة مرة ثانية وأقاموا بها يوما واحدا ، ثم رحلوا منها إلى افامية التي كان قد سبقهم ألبها فرقة من جيش المسلمين ، وقامت بتنظيم الهجمات على المغول داخل المدينة حتى اضطر العدو إلى ترك افامية والاتجاه إلى حلب التي ظلوا يحاصرونها مدة من الزمن ، حتى تمكن الملك الظاهر بيبرس من تثبيت نفسه على عرش الدولة المملوكية في مصر والشام ، حيث سارع بإرسال جيش

---

[1] محمد سهيل طقوش المغول العظام ، ص196 .

[2] الحافظ بن كثير ، مصدر سابق ،الجزء 13 ، ص 259.

[3] فايد حماد عاشور ، الجهاد الإسلامي، ص 265.

كبير أوكل إليه مهمة طرد المغول من بلاد الشام ، ولما سمع المغول بمقدم ذلك الجيش داخلهم الخوف والهلع فولوا الأدبار هاربين باتجاه الشرق وتم تطهير بلاد الشام مرة أخرى من نير الاحتلال المغولي. [1]

وصلت أنباء الخلافات بين هولاكو وبركة خان القاهرة في سنة660هـ /1262م بوصول مائتين من القوات التابعة لمغول روسيا والتي كان بركة خان قد أرسلها لإمرة هولاكو لمساعدته في فتح قلاع الإسماعيلية ، وعندما تفجرت الصراعات بينهما فان بركة خان أرسل قواته بالحضور إليه وان لم يستطيعوا فعليهم الذهاب إلى عسكر مصر لدعم المماليك ، وقد قوبل هؤلاء التتار المستأمنين بحفاوة بالغة من المماليك، ويروى ابن عبد الظاهر (أن السلطان بيبرس نظر في مصلحة عامة للإسلام ، وهى إنفاذ رسل إلى الملك بركة ، وكتب له كتابا فيه شئ عظيم من الاستمالة والحث على الجهاد والإغراء بهولاكو ، وتهوين أمره وتقبيح الغفلة عنه). [2]

وهكذا بارك المماليك هذه المبادرة من بركة خان وردوا عليها بإرسال سفارة لتشجيعه على الجهاد ضد هولاكو وما تبع ذلك من تبادل السفارات والخطابات بين الدولتين ، وتوطدت هذه العلاقة بزواج بيبرس وقلاوون الالفى وغبرهما من قادة المماليك من بيت بركة خان ورعاياه ، وكانت هذه العلاقات علي قدم المساواة من المماليك . باعتبارهم اكبر قوة إسلامية في المنطقة . وبين مغول القبيلة الذهبية ، وكان التحالف مع الأخيرين جزءا من سياسة المماليك لمواجهة مغول فارس منذ ذلك الحين. [3]

كرر هولاكو هجماته علي شمالي بلاد الشام في سنة 662هـ /1264م وسانده أمراء ارمنية ألصغري وسلاجقة الروم وبعض العرب من بني كلاب فتعرضت عينتاب للهجوم ، كما هاجم الحلفاء قلعة البيرة في العام التالي وحاصروها. [4]

---

[1] سعيد الغامدى ، مرجع سابق ، ص 130.

[2] محى الدين بن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص 130 –140 .

[3] عادل اسماعيل فهمى ، مرجع سابق ، ص 106.

[4] محمد جمال الدين سرور ، دولة الظاهر بيبرس في مصر ، دار الفكر العربي القاهرة 1960م ، ص 94.

وفي سنة 663هـ/1265م وصل إلي الظاهر أن التتر أغاروا علي قلعة البيرة الحصينة الواقعة على نهر الفرات وحاصروها بقية الاستيلاء عليها ، فجهز جيشا لمحاربتهم بقيادة الامير بدر الدين الخازندار على الفور إلى بلاد الشام ليخرج باربعة الاف فارس لقتال العدو ، وعين الامير عز الدين ايغان المعروف باسم سم الموت على الجيش ومعه الامراء وخرجوا من القاهرة ، ثم سارت فرقة ثانية عدتها اربعة الاف فارس بقيادة جمال الدين المحمدى والامير جمال الدين ايدغدى الحاجبى، واجتمعوا خارج القاهرة ، ثم ساروا إلى بلاد الشام ، وطلب السلطان من صاحبى حماة وحلب التحرك بقواتهما ، فسارت جميع هذه القوات وعبرت نهر الفرات ، وكان السلطان الظاهر قد امر عيسى بن مهنا بعد إن ارسل اليه عسكرا إن يسير بهم عبر الصحراء إلى حران والاغارة عليها ، ثم سار بنفسه حتى وصل إلي غزة ومنها واصل سيره شمالا، ولكن وافته الأنباء بان المغول حينما علموا أن عساكرهم المصرية أشرفت علي البيرة رجعوا تاركين ورآهم عتادهم وأثقالهم وقد أمر بيبرس بعمارة ما خرب من البيرة وبحمل آلات القتال إليها من مصر والشام وبإعداد كل ما يحتاج أهلها في الحصار لمدة عشر سنين ، وكتب للامراء ولصاحب حماة بالاقامة على البيرة حتى ينظف الخندق من الحجارة التي ردمها العدو فيه ، فكان الامراء ينقلون الحجارة على اكتافهم مدة ، وبعثوا بخبر ذلك إلى السلطان وهو واقف على سور فيسارية ليهدمه بنفسه وفى يده القطاعة لقطع الصخور ، وقد تجرحت يده فرد عليهم : (انا بحمد الله ما تخصصنا عنكم براحة ولا دعة ، ولا انتم في ضيق ونحن في سعة ، ما هنا إلا من هو مباشر الحروب بالليل والنهار ، وناقل الاحجار ومرابط الكفار وقد تساوينا في هذه الامور ، وما ثم ما بضيق به الصدور) . [1]

وكان المماليك يسارعون في كل مرة عند سماعهم بأنباء الاعتداءات المغولية إلي إرسال الجيوش بطرد المهاجمين من جهة ، والقيام بهجمات مضادة ضد قلاع المغول من جهة أخري ، فيلحقون بهم خسائر كبيرة . [2]

---

[1] تقي الدين المقريزي، السلوك ،الجزء الاول القسم الثاني ، ص124.

[2] تقي الدين المقريزي ، السلوك، الجزء الاول القسم الثاني ، ص 524 .

ولم تكن بلاد الشام بالنسبة للمماليك مجرد إقليم من أقاليم الدولة ، وإنما كانت أهم من ذلك بكثير ، لقد كانت بلاد الشام الجناح الأيمن الذي بدونه يتعذر علي دولة المماليك الاحتفاظ بكيانها وتوازنها، والثبات في وجه الأخطار الآسيوية التي هددت تلك الدولة .حينا من جانب الايوبيين والتتار والصليبيين ، وأحيانا من جانب الأرمن والتركمان ، وهكذا أدرك سلاطين المماليك منذ أن أقاموا دولتهم في مصر انه لا بقاء لهم ولا دولتهم إلا في ظل وحدة تربط بين الشام ومصر تحت حكمهم وتضمن لهم مراقبة التيارات العديدة التي يمكن أن تؤثر في كيانهم ، فضلا عن مراقبة الطرق الرئيسية التي سلكها الأعداء في تهديدهم لمصر والشام في العصور الوسطى . [1]

معركة البيرة :671هـ-1273

أجتمع ممثلو الأسرة الجنكيزية المتواجدون في غرب آسيا وشكلوا (قوريلتاي) مصغراً وانتخبوا أباقا إيلخانا علي أيران ونواحيها وبعد خمس سنوات أيد قوبلاي خان الخان الأعظم انتخابه وأصبح أباقا بذلك سيد الشرق . [2]

ظل المغول في فارس يناضلون المماليك حتى توفي هولاكو غير أن وفاة الأشخاص في دولة فتية مثل دولة المغول ، لم يؤثر مطلقا في عزم المغول على تحقيق ما بدأه هولاكو من التقدم نحو غزو دولة المماليك في مصر والشام ، بل أن الخان الجديد اباقا خان (663 –680 هـ/1265–1284م) .كان حريصا على دعم صلاته بالقوى المسيحية ،سواء في الدولة البيزنطية أو البابوية . [3]

عاصر الايلخان اباقا– ايلخان مغول فارس – الظاهر بيبرس الذي كان رجلا سياسيا حاذقا بعيد النظر في التعامل مع أعدائه من الصليبين والأرمن والمغول، فبعد سلسلة إصلاحات داخلية وعلاقات دبلوماسية لتطويق أعدائه ، استطاع بيبرس إن

---

[1] عاشور ، الحركة الصلبية ، ص 213 .

[2] أحمد مختار العبادي وابراهيم ومحمد علي مرجونة ، المغول والحضارة الاسلامية والحضارة الاسلامية رحلة المغول من الاستكبار الي الانصهار مؤسسة شباب الجامعة الاسكندرية 2010 ، ص 145.

[3] احمد مختار العبادى ، في التاريخ الأيوبي، ص 224 .

يقود اكبر قوة عسكرية ضارية في المنطقة والانفراد بخصومه واحدا بعد الآخر ، وبعد تحطيم أو تحييد احد خصومه يستدير للخصم الآخر ، ولهذا كان الصليبيون في الشرق بحاجة ماسة أيضا للتحالف مع مغول فارس في ضوء انشغال البابوية بمشاكل سياسية في جنوب أوربا ، وكذلك انشغال بقية قادة الغرب الاوربى بمشاكلهم الإقليمية عن نجدة الصليبين ضد المماليك. [1]

يمكن القول انه بعد سيطرة السلطان بيبرس على أنطاكية ، وتطريق الإمارات الصليبية في بلاد الشام ، أصبحت دولة المماليك تجاور مملكة أرمينية الصغرى التي تقع في جنوب آسيا الصغرى عند الطرف الشمالي الغربي لبلاد الشام ، وأصبح كثير من الثغور الشامية متداخل بين الدولتين ، ومن الطبيعي أن يؤدى ذلك التجاور بينهما إلى الاحتكاك المباشر ، لاسيما وان مملكة أرمينية الصغرى قد مارست دورا صليبيا كبيرا منذ الحروب الصليبية ، وقامت بدورها الصليبي ، ضد المسلمين خير قيام ، ولهذا لا نعجب إذا ما اتجه الظاهر بيبرس لمعاقبة مملكة أرمينية الصغرى وتقليم أظافرها حتى لا تبقى شوكة في جانبه إثناء جهاده لاقتلاع جذور الوجود الصليبي في بلاد الشام . [2]

ومهما يكن من أمر فان استمرار تعلق الأرمن بمغول فارس ، واستغلال الفرص المناسبة للنيل من دولة المماليك ، كان السبب المباشر الذي دفع السلطان الظاهر بيبرس إلى نقل ميدان جهاده إلى تلك المنطقة التي لم بهمل أمرها حتى إبان انشغاله بجهاد الصليبيين في الفترة الماضية فبالرغم من محاولة ملك أرمينية هيثوم الأول استرضاء السلطان بيبرس بإرسال سفرائه إليه ، فان بيبرس لم يكتف بتحريض نائبه في حلب على مناوشة أهل سيس ليشغلهم عنه أثناء جهاده ضد الصليبيين في أنطاكية ، وانما رأى أن ينتهز فرصة غياب هيثوم عن بلاده عندما خرج إلى المغول في فارس يطلب المساعدة منهم وقرر مهاجمة أرمينيه حيث توجه بنفسه إلى دمشق سنة 664 هـ /1265 م للإشراف على تجهيز الحملة التي ازمع توجيهها إلى ارميتية الصغرى ، ويبدو أن الأرمن أحسوا بذلك ، فبادروا بإرسال رسلهم بهدية إلى السلطان

[1] عادل هلال ، مرجع سابق ، ص 110.

[2] سعيد الغامدى ، مرجع سابق ، ص 201.

الظاهر بيبرس وهو في صفد في محاولة لإثنائه عن مهاجمتهم ، إلا انه لم يقبلها وقرر مهاجمتهم. [1]

جهز بيبرس هذه الحملة واسند قيادتها إلى الملك المنصور صاحب حماة ، فخرج وبصحبته الأمير سيف الدين قلاوون ، والتقيا مع الجيش الارمنى ودارت الدائرة على الأرمن ، وزاد موقف أرمينية سوءا عندما استولى السلطان الظاهر بيبرس على أنطاكية ، إذ انقطعت بذلك صلة الصليبيين في طرابلس وعكا بالأرمن وتبددت فكرة إمكان تحقيق تحالف بين الصليبيين في ساحل بلاد الشام وأرمينية الصغرى والمغول في فارس من اجل ضرب عدوهم المشترك دولة المماليك المسلمين . [2]

أدرك أباقا بن هولاكو أن استيلاء بيبرس علي أنطاكية ، وانتصاره علي ليو الثالث ملك أرمينيا الصغرى قد حرمه من المساعدات التي كان يتلقاها من تلك المناطق ، كلما أراد النيل من ممتلكات الدولة المملوكية في بلاد الشام فأخذ يبحث عن قوة جديدة يقحمها في ذلك الصراع مع دولة المماليك . فوقع اختياره علي سلطنة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى التي كانت خاضعة للحماية المغولية منذ وصول حاكماها الي هولاكو عقب استيلائه علي مدينة بغداد وتقديم فروض الولاء والطاعة له . هذا بالإضافة إلي أن أباقا أراد بذلك – علي مايبدو – أن يجرب اقتحام حدود بلاد الشام من تلك الناحية ، بعد أن عجز عن تحقيق أي نجاح في اقتحام حدودها الشمالية الشرقية عن طريق عبور نهر الفرات . [3]

والواقع أن السلطان الظاهر بيبرس الذي كان يدرك ضعف ايلخانية مغول فارس، التي لم يجرؤ حاكمها على تقديم أية مساعدة إلى حليفه الارمنى ليو الثالث ، قد عزم عقب انتصاره على الأرمن وتدمير مدينة سيس أن يوجه لطمه أخرى مباشرة إلى مغول فارس لمعاقبتهم على تلك الإعمال العدائية التي مارسوها ضد ممتلكاته خلال انشغاله في الفترة الماضية بالجهاد ضد الصليبيين في ساحل بلاد الشام. [4]

---

[1] سعيد الغامدى ، مرجع سابق ، ص 202.

[2] المرجع نفسه ، ص 203.

[3] المرجع نفسه ، ص 207.

[4] سعيد الغامدى ، مرجع سابق ، ص 208 .

أضحى في استطاعة بيبرس أن ينفذ مشروعاته ضد المغول للانتقام منهم دون تدخل آية قوة خارجية لمساعدتهم ، وقد لاحت هذه الفرصة للسلطان بيبرس عندما استدعى اباقا ايلخان مغول فارس ، معين الدين البرواناه وزير سلطان سلاجقة الروم، وممثلي المغول في بلاد الروم ، عقب انتصار بيبرس على أرمينية الصغرى سنة 673 هـ /1274 م ، ولا بد أن اباقا قد بحث مع البرواناه وممثليه في بلاد الروم ، نجاح السلطان بيبرس في غزو تلك المنطقة وسبل مواجهته ، ويبدو أن الاتفاق وقع بينها على مهاجمة البيرة. [1]

ويعد عهد أباقا أحد المراحل الهامة في العلاقات بين مغول القبيلة الذهبية والغرب الاروبي وذلك بازدياد حاجة الطرفين للتعاون العسكري ضد المسلمين وقد أرسل كليمنت الرابع (1265–1268م) إلي أباقا خان يعرض عليه عقد محالفة عسكرية لمحاربة المماليك . ولكن أباقا كان مشغولا بحروبه مع القبيلة الذهبية ولذلك لم يقدم سوي وعودا غامضة ، كما أنشغل بحرب آخري مع أبناء عمومته أل جغتاى الذين أغاروا على أملاكه الشرعية ولما انتهى من مشاكله معهم وهزيمتهم في سنة 1270م فكر اباقا في التحالف مع الملك لويس التاسع وتعهد بان يقدم المساعدات العسكرية إذا وصل لويس بحملته إلى بلاد الشام ،ولكن لويس لم يتقدم إلى بلاد الشام بل وجه حملته إلى تونس حيث مات هناك وفشل هذا المشروع. [2]

سار اباقا خان علي سياسة والده في مناوأة المماليك ومصادقة الصليبيين فتزوج من ابنة الإمبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوجس وتبادل السفارات والهدايا مع البابوات وملوك أوربا .وكان الهدف من هذا التعاون المشترك وتلك المفاوضات هو تنظيم حملة مشتركة علي الدولة المملوكية والاستيلاء علي بيت المقدس . [3]

كانت الدولة المغولية في إيران والتي ارسي قواعدها هولاكو ، تشمل جميع الأراضي الممتدة بين جيحون إلي المحيط الهندي ، ومن السند إلي الفرات مع جزء كبير من الأناضول وبعض إقليم القوقاز . وقد أجتمع ممثلو الأسرة الجنكيزية

---

[1] المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

[2] محمد سعيد عمران ، المغول واروبا دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية 1997م ، ص 72.

[3] حمدي عبد المنعم حسين ، دراسات في تاريخ الأيوبيين و المماليك، ص179.

المتواجدون في غرب آسيا وشكلوا قوريلتاي مصغراً وانتخبوا اباقا (إيلخان) علي إيران وتوابعها . وبعد خمس سنوات أيد قوبيلاي خان الخان الأعظم انتخابه . واعتبر أباقا بذلك سيد الشرق . [1]

من ابرز واهم الإحداث في حياة اباقا خان توطيد علاقته بالمسحيين الذين تقربوا منه وامتلأ بلاطه بالقساوسة علي الرغم من أنه لم يتخذ المسيحية ديناً له . وحدثت مراسلات وسفارات بينه وبين الباباوات والملوك المسحيين في اروبا مثل البابا جريجوري العاشر وشارل ملك صقلية ولويس ملك فرنسا وهدفت هذه المراسلات إلي تنظيم حملة مشتركة ضد المماليك في مصر والشام . [2]

ظهر اثر هذا التحالف المغولي – الصليبي واضحا عندما انتهز اباقا فرصة انشغال بيبرس لمحاربة الصليبين للإغارة علي مناطق الحدود الإسلامية . ففي سنة 664هـ / 1266م أغار المغول علي مدينة الرحبة علي الحدود الفراتية في الوقت الذي كان فيه المماليك يهاجمون مدينة صفد الساحلية التي كانت قاعدة إستراتيجية صليبية خطيرة في بلاد الشام. [3]

وعلي الرغم من هذا الجو العدائي بين المماليك والمغول في ذلك الوقت ، حاول اباقا خان أن يجرى الصلح و التفاهم مع بيبرس كي يأمن جانبهم من ناحية ويضعف من تعاونهم السياسي الذي كان قد بدأ بينهم وبين مغول القفجاق قبل أن يتحول إلى تعاون عسكري عليه وعلى دولته ولكن عرضه بشروط تلائم المغول أو بمعنى آخر أن يستخدم الأساليب الدبلوماسية في بسط سيطرته على دولة المماليك. ففي سنة 667 هـ/1268م خرج بيبرس من القاهرة متوجها إلي بلاد الشام حتى إذا بلغ دمشق وصلت إليه رسالة من الايلخان المغولي تتضمن تهديدا وترغيبا في الصلح جاء فيها :(أن الملك ابافا لما خرج من الشرق تملك جميع العالم وما خالفه احد ، ومن خالفه هلك وقتل . فأنت لو صعدت إلي السماء أو هبطت إلي الأرض ما تخلصت منا فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحا .) ، غير أن هذه اللهجة المغولية

---

[1] أحمد مختار العبادي وابراهيم مرجونة ،مرجع سابق ، ص146.

[2] محمد سهيل طقوش ، تاريخ المغول العظام ، ص 204.

[3] محمد جمال الدين سرور ، دولة الظاهر بيبرس ، دار الفكر العربي القاهرة ، 1960م ، ص 95.

الامره في طلب الصلح لم تعجب بيبرس فرد علي رسول اباقا (اعلم إني وراءه بالمطالبة حتى انتزع منه جميع البلاد التي استحوذ عليها من بلاد الخليفة وسائر أقطار الأرض .) [1]

وعلى الرغم من أن هذا الصلح كان مفيدا للسلطان بيبرس الذي سيتفرغ بعده لمواجهة الجبهة الثانية التي تمثلت في العدو الصليبي ونعنى به إمارات الساحل المسيحية ، بالإضافة إلى خطر مملكة أرمينية الصغرى التي كانت ردءا للمغول في بلاد فارس وحلقة الوصل بينهم وبين الصليبيين ، ولكن بيبرس لم يقبل به، لان الشروط التي عرضها اباقا لم تكن واضحة او مطمئنة للسلطان المملوكي ، كذلك من أسباب هذا الرفض أيضا أن عقلية الايلخان المغولي ونظرته لجميع الحكام بما فيهم السلطان المملوكي كانت عقلية متعالية ، إذ أن الايلخان بالرغم من انه صاحب الدعوة والحاجة والإلحاح في تحقيقها ، تصور انه يمن على سلطان المماليك فهو في نظره لا يعدو حاكم دولة اقل منه قوة ونفوذ ، فكان في موقفه اقرب ما يكون إلى فرض الشروط وليس عرضها ، كما انه من الواضح أن اباقا حاول أن يجرب الصلح مع بيبرس على شروط تلائم المغول فقط ، أو بمعنى آخر حاول أن يستخدم الأساليب الدبلوماسية في بسط سيطرته على دولة المماليك فأرسل إليه يعرض عليه الصلح ويطلب منه الخضوع والرضوخ ، اضافة إلى محاولته التجريح من مكانتهم حيث قال: (أنت مملوك فكيف تشاقق ملوك الأرض). [2]

يبدو أن التتر كانوا يطلبون الصلح لإضطراب أحوالهم السياسية في الداخل ولخداع المسلمين وهو الإسلوب الذي إتبعه الصليبيون وإنهم كانوا يسارعون بتقديم الولاء وطلب الصلح إذا كانت ظروفهم سيئة لا تساعده على القتال فإذا ما شعروا بقوتهم تعاونوا مع التتر لمحاربة المسلمين في وقت واحد وكثيراً ما خرج السلطان لمحاربة المغول فيحارب الصليبيين أيضاً ، ذلك لأن هدف المغول والصليبيين واحد هو القضاء على كيان الإسلام والمسلمين.

---

[1] الحافظ بن كثير ، مصدر سابق ، ج 13 ، ص 284.

[2] تقى الدين المقريزى ، السلوك ، ص 474.

ويلاحظ أن هناك أطرافا أخرى قد دخلت في محاولات الصلح بين المماليك والايلخانيين ، ونقصد بها مملكة أرمينية الصغرى ودولة سلاجقة الروم ، إذ كانت بلادهما ميدانا لحروب طاحنة بين هاتين القوتين ، لذلك سعى الملك هيثوم والوزير برواناه ، لعرض الصلح على السلطان بيبرس والايلخان اباقا ، لتقوية ملكهما والمحافظة عليه ، والرغبة في تامين الاستقرار والرخاء فى منطقة آسيا الصغرى. [1]

ومن هنا كانت الحرب ضرورة لتقرير مصير هذا الصراع . وابتدأت الحركات العدوانية من جانب المغول بمحالفة الصليبيين وكان بيبرس بالإسكندرية سنة 667هـ / 1269م عندما بلغه أن المغول أغاروا علي الساجور بالقرب من حلب ، ثم اتفقوا مع الصليبين للقيام بهجوم مشترك علي المسلمين في بلاد الشام . وعندما بلغ بيبرس ذلك أرسل الأمير علاء الدين البندقداري علي رأس قوة عسكرية إلى بلاد الشام وأمره أن يرابط في المناطق الحدودية ليستطلع أخبار المغول وتحركاتهم ، وان يكون على اهبة واستعداد ، ثم خرج بيبرس بنفسه من القاهرة إلي دمشق في جماعة من العسكر ليكون قريبا من مجرى الأحداث ، ولكنه عندما وصل إلي دمشق سمع بهزيمة المغول وانسحابهم من بلاد الشام. [2]

لم يقنع اباقا خان بذالك الفشل الذي مني به في غاراته علي بلاد الشام فأغار في سنة 670 هـ/1271 علي عين تاب وعمق حارم ثم حاصروا قلعة البيرة فأسرع بيبرس لنجدتها وكان بيبرس بدمشق ثم اعد حملة بقيادة بدر الدين بيسرى الشمسي ومعه ثلاثة آلاف فارس اصطدمت بالمغول وانتصرت عليهم عند الرها وحران . وخرج بيبرس علي رأس جيشه إلي حلب وأرسل فرقاً من جنده تحت قيادة بعض الأمراء إلي إطراف الشام والعراق ، وتدخل الصليبيون ليخففوا عن حلفائهم المغول فأغاروا علي قاقون ولكن المماليك هزموهم ، وفي نفس الوقت عاقب بيبرس الصليبيين فأغار علي عكا . [3]

---

[1] رحمة بنت حمود ، مرجع سابق ، ص 298.

[2] بدر الدين محمود العيني ، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، الجزء الثاني ، النهضة المصرية للكتاب القاهرة ، 1985م – 1991م ، ص40.

[3] تقي الدين المقريزي ، السلوك ، الجزء الاول ، القسم الثاني ، ص 60.

وفي سنة671هـ /1273م هاجم التتر البيرة والرحبة فخرج السلطان بيبرس للقائهم حتى وصل الفرات عند مخاضه تعرف باسم مخاضه الحمام ، وجرت معركة عنيفة انهزم فيها جيش التتر شر هزيمة . [1]

أدت هزيمة المغول إلي موقف سياسي وعسكري جديد فقد رأي ابافا أن المماليك أضحوا قوة من الصعب التغلب عليها فمال إلي الأساليب الدبلوماسية لتجنب وقوع صدام معا في المستقبل . إلا أن موقفه هذا خالطه بعض الشك من جانب السلطان عندما طلب رسله حضور السلطان أو نائبه إلي المعسكر المغولي لبحث مسالة الصلح ، واخذ يبحث لنفسه عن حليف جديد ، ووجد ضالته في سلاجقة الروم بآسيا الصغرى . وتحالف مع عز الدين كيكاوس احد سلطاني سلاجقة الروم في الأناضول والذي سبق أن حرم من بلاده بسبب التحالف بين المغول وشقيقه قلج ارسلان الرابع – إنضم إلي محور بيبرس بركة خان . وقد أرد بركة خان أن يكسب نفوذا في بلاد الأناضول للاتصال بالمماليك في بلاد الشام حتى يحول دون وصول أعداءه ايلخانات إيران إلي البحر ، أو الاتصال بدول غربي أوربا. [2]

وهكذا انتقل الصراع الإسلامي – المغولي إلي جبهة جديدة في الشمال من بلاد آسيا الصغرى حيث أراد بيبرس تامين الجبهة الشمالية بعد أن امن الجبهة الشرقية ، حيث قامت مملكة سلاجقة الروم التي كانت تابعة للمغول وتحت حمايته منذ أيام هولاكو . [3]

هاجم جيش مغولي – سلجوقي مشترك قوامه أكثر من ثلاثين ألف مقاتل البيرة سنة 674هـ /1275 م بهدف الاستيلاء عليها . فحاصرها حصارا مركزا ونصب عليها ثلاثة وعشرين منجنيقا ، واتخذ كافة الاحتياطات لمنع الجيش المملوكي من الوصول إليها عبر الفرات ، وصمدت حامية المدينة للحصار ولكن حصارهم لم يدم

---

[1] صبحي عبد المنعم ، مرجع سابق ، ص24.

[2] A. A. Vasiliev History of the Byzantine Empire, Madison 1928 ,1937 , pp601

[3] قاسم عبده قاسم وعلي السيد ، مرجع سابق ، ص168.

طويلا . وكان أفرادها يخرجون في غارات ليلية ، فيهاجمون القوات المحاصرة ويحرقون مجانيقهم ثم يعودون مع وجه الصباح . [1]

وفي الوقت نفسه سمع العدو بمسير السلطان بيبرس علي رأس عدد كبير من قواته إليهم ، فانسحبوا منها خائبين . ويمكن إرجاع هذا الانسحاب المغولي السريع إلي أن المغول وأعوانهم ادركو نتيجة سماعهم بمسير جيش بيبرس إليهم أن أملهم في التغلب علي مدينة حصينة كالبيرة كان يتطلب سرعة وجيشا كبيراً يضرب ضربته بسرعة قبل وصول النجدات الإسلامية التي عادة ما تصل إليها من المدن الشامية القريبة منها . وهذا بالطبع يستلزم من القوات المغولية المهاجمة أن تحصل علي مؤونة ضخمة لا تتناسب مع خفة تحركاتهم التي تمكنهم عادة من الانسحاب عند اقتراب النجدات الإسلامية السريعة ، ولعلهم في ذلك الوقت ادركو أن محاولة السيطرة علي البيرة يحتاج إلي وقت أطول ، وتموين أكثر مما كان باستطاعتهم توفيره آنذاك . هذا بالإضافة إلي أن المغول –علي مايبدو – قد اكتشفوا مراسلة البرواناه للسلطان الظاهر بيبرس ، الذي وعد بيبرس بالهجوم علي فرق المغول القريبة منه بمجرد أن تبدوا طلائع الجيش المملوكي ، وهذا كاف لانسحاب المغول من البيرة . [2]

ويمكننا القول أيضا لا يستبعد أن أباقا ايلخان مغول فارس لم يهدف بتلك الغارة علي البيرة محاولة السيطرة عليها ، وإنما قصد مجرد إقحام سلطنة سلاجقة الروم في هذا الصراع لتوجيه أنظار الظاهر بيبرس إلي منطقة الأناضول التي بات الطريق إليها ممهدا بعد كسر شوكة الأرمن في العام الماضي ، وحماية حدود إقليم فارس الغربية من هجوم المماليك المنتظر . [3]

ولا يمكننا أن نهمل ما كان يقوم به مغول القبيلة الذهبية (القفجاق) من دور فعال في الضغط على ايلخانية مغول فارس ، خاصة وان علاقتهم بالمماليك ازدادت

---

[1] عز الدين محمد شداد ، تاريخ الملك الظاهر ، 684هـ –1285م الهيئة العامة لعصور الثقافة ، القاهرة 2009م ،ص 204 –205 .

[2] عبد الله سعيد الغامدى: جهاد المماليك ضد المجوس والصليبيين، رسالة دكتوراة منشورة ،جامعة ام القرى، 1407هـ ،ص209.

[3] المرجع نفسه ، ص 210.

توثقا بعد أن أقدم بيبرس على الزواج من ابنة بركة خان القفجاق ، ومن ثم حرص خليفته منكوتمر على الاستمرار في محالفة السلطان الظاهر بيبرس . [1]

وعلي كل فان هجوم المغول علي البيرة في هذه السنة فتح المجال أمام السلطان الظاهر بيبرس لتقليص نفوذ المغول في الشرق ، فبعد أن حرم بيبرس المغول من مساعدة حلفائهم المخلصين الأرمن رأي في غارة المغول علي البيرة ومراسلة البرواناه له فرصة لضرب الأناضول لزيادة إحكام العزلة علي المغول في فارس . [2]

وكان بيبرس لما علم بنزول المغول علي البيرة في سنة 671هـ/1272 م خرج إلى حمص لملاقاة التتر على أرضهم وصادر مراكب الصيادين وحملها مفصلة على الإبل وأنزلها في نهر الفرات لتعبر بها جيوشه واستطاع بيبرس وجنوده عبور النهر حيث القوات المتحالفة مرابطة على الشاطئ الآخر كما عبر الأمير سيف الدين قلاوون الألفي والأمير بدر الدين بيسري وتبعهما بيبرس بنفسه ثم بقية الجيش ، وارسل جماعة من الاجناد والعرب لكشف اخبار العدو ، فعاد الكشافة واخبروه إن طائفة من التتار تبلغ ثلاثة الاف فارس تقريبا على شط الفرات مما يلى الجزيرة ، فسار اليهم واشتبكوا معهم ، وتراموا بالسهام ، وانتصر بيبرس على الجيوش المغولية ومطاردة فلولها في الأراضي العراقية سنة 672هـ – 1273م ، فلما علم التتار الذين كانوا يحاصرون البيرة بهزيمة جيشهم على شاطىء الفرات انهزموا مع مقدمهم وتركوا اثقالهم واقواتهم ، فاستولى اهل البيرة على كل ذلك ، ولما علم الظاهر بيبرس بذلك سر كثيرا ، وانتظر حتى ياتيه احد من التتار ليقاتله ، ولما لم ياتيه احد لمحاربة السلطلن بعد هويمتهم عاد بجيشه في الفرات كما خاضوه اول مرة وسار الظاهر بعد ذلك إلى البيرة ، ويبدو أن انتصار بيبرس في هذه الحملة مكنه من جذب عدد من كبار رجال الدولة المغولية إلى جانبه كما استطاع أن يؤمن الحدود الشرقية لبلاده. [3]

---

[1] المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

[2] سعيد الغامدى ، مرجع سابق ، ص 209.

[3] فايد حماد عاشور ، الجهاد الإسلامي ، ص 283.

يبدو أن البيرة استعصت على المتحالفين بسبب اشتداد البرد ونزول الثلج وتراكمه ففك الجنود عنها الحصار وعادوا إلى بلاد الروم بعد أن دمروا معداتهم وأحرقوها حتى لا تقع في أيدي القوات المملوكية ولكن مؤخرتهم اصطدمت بالقوات المملوكية التي عبرت النهر وتعرضت للدمار وأسر الجيش المملوكي مائتي جندي ولم ينج منهم إلا القليل وكان ذلك في سنة 672هـ –1273م. [1]

وهكذا تعرض المغول لهزيمة عسكرية أخرى أمام المماليك ودخل بيبرس قلعة البيرة منتصراً وخلع على نائبها ووزع النقود على أهلها تعويضاُ لهم عما لاقوه من شدة أيام الحصار وأنعم عليهم ببعض الغنائم مما تركه المغول وترك بها جماعة من العسكر لحفظها ، ثم غادرها عائداً إلى مصر عن طريق دمشق[2].

ثم توجه بيبرس نحو فيليقية حليفة المغول في سنة 673هـ – 1274 م في أطار خطته لإخراجها من صراعه مع إمارة إنطاكية وهزم الجيش الأرميني وعاد إلي مصر.[3]

وهكذا وجه بيبرس ضربة قاضية للتحالف الارمينى –الصليبي ، ولم يعد لبقية الصليبين اى حدود مشتركة مع مملكة أرمنيا الصغرى أو مع مغول إيران[4]

ولهذا كان اباقا يتوقع استجابة فورية من الغرب الاوربى للتحالف معه ضد المماليك بعد سقوط إنطاكية ، بدليل انه دخل في تفاصيل مشروع التحالف المشترك وابلغ البابا إنه سيرسل قوة كبيرة إلى بلاد الشام وجيش ملك اراغون في اسبانيا سوف يهاجمان المماليك من الناحية الأخرى لحصار وتدمير عدوهما المشترك. [5]

وهكذا كشف السلطان الظاهر بيبرس عن إدراكه لحقيقة الدور التاريخي المنوط بالدولة التي اعتلى عرشها ، وأدرك إن دولته تواجه خطرا مزدوجا يمكن إن يؤدى إلى حلف بين اثنين من ألد أعدائه وأعداء المنطقة العربية الإسلامية وهم المغول في فارس والصليبيون فلسطين وبلاد الشام ، وقد سارت خطط بيبرس باتجاه القضاء على

---

[1] المرجع نفسه ، ص 99.

[2] عبد الرحمن بن خلدون ، مصدر سابق ، المجلد الخامس ، ص 458.

[3] صبحي عبد المنعم ، مرجع سابق ، ص 24.

[4] محمد سهيل طقوش ، المغول العظام ، ص 205.

[5] المرجع نفسه ، ص 206.

كل من هذين الخطرين على حدا ، ولم يكن ممكنا للسلطان الظاهر بيبرس إن يحقق هدفه بدون إن يكون لديه الجيش القادر على إحراز النصر لذلك عمد إلى ضم القبائل العربية المقيمة على حدود العراق إلى جيشه لتكون بمثابة قوات مساعدة ،أو حرس حدود، وغيرهم بالأموال والمساعدات والهدايا ، فشنوا هجمات عنيفة ناجحة على قوات المغول ووصلت قواتهم إلى مدينة بغداد التي كان المغول يحكمونها آنذاك كما أعاد تحصين القلاع التي تحمى مناطق الحدود مع دولة مغول فارس ، وشحنها بالذخيرة والأقوات وتمركزت بها أعداد كافية من الجنود ، وأقام سلسلة من نقاط المراقبة لرصد نشاط العدو في تلك المناطق الجنوبية . (1)

معركة البستان(*) 675هـ - 1277م:-

لقد انتقل الصراع بين دولتي المغول والمماليك إلي ميدان أخر وهو بلاد آسيا ألصغري قي الشمال . والسبب في هذا التحول هو أن بيبرس بعد أن أمن حدوده الشرقية أراد تأمين حدوده الشمالية المتاخمة لبلاد السلاجقة الروم في آسيا ألصغري . وكانت هذه البلاد تابعة للمغول منذ أن انحاز ملوكها إلي هولاكو ،عقب استيلائه على مدينة بغداد، هذا بالاضافة إلى إن اباقا اراد بذلك إن يقتحم حدود بلاد الشام من تلك الناحية بعد إن عجز عن تحقيق اي نصر وكانت مقاليد الحكم في يد الوزير معين الدين سليمان البرواناه . والبرواناه لفظ فارسي معناه الحاجب . (2)

كان هذا البرواناه يعمل إلي جانب أصحاب السيادة في البلاد وهم المغول . فلما تغلب بيبرس عليه مال البرواناه إلي جانب المنتصر واخذ يراسل بيبرس معلناً انضمامه إليه وبذلك دخل سلاجقة الروم في الأناضول بحكم موقع بلادهم الاستراتيجي في دوامة الصراع بين المغول والمماليك، وتغلبت سياستهم وفقا لتقيد ميزان القوي ، فهم تارة مع المغول يستمدون العون منهم، ويحاربون في صفوفهم وتحت رايتهم ، وتارة أخري يستنجدون بالمماليك ليحرروهم من سيطرتهم ، وهناك فئة

---

(1) قاسم عبدة قاسم وعلي السيد ، الايوبيون والمماليك ، ص 157 .

(*) هي ابلستين سميت بالبستان بعد ذلك تقع في شرق قيصرية في اسيا الصغري بين جبال طوروس والقسم الاعلي من نهر جيحان وهي من مدن الثغور ومشهورة ببلاد الروم. ياقوت الحموي مصدر سابق الجزء الاول ص70.

(2) حمدى عبد المنعم حسين، مرجع سابق ، ص181 .

أخري من الأمراء حملت لواء المعارضة للوجود المغولي في بلادهم وتعرضت للضغط الشديد فاضطرت إلي الهجرة إلي مصر وبلاد الشام . [1]

وفى سنة 664هـ/1265 م نصب المغول غياث الدين كيخسرو الثالث سلطانا على سلاجقة الروم بناء على رغبة الوزير معين الدين بروا ناه ، وكان عمره ست سنوات ، فتولى مقاليد الأمور في البلاد ليديرها وفق مصلحة بلاده . [2]

وتعرض اباقا لضغط شديد من حاخامات القبيلة الذهبية في الشمال، ومن المماليك في الجنوب فأضطر إلى فتح المفاوضات مع بيبرس لحل المشاكل التي بينهما بالطرق السلمية ، فأرسل رسلا إلى دمشق يعرض على بيبرس إبرام معاهدة صلح ، ووافق بيبرس على ذلك وأرسل إلى اباقا يعرض عليه أعادة بلاد المسلمين التي استولى عليها هو وأبوه من قبل ، مقابل أبرام الصلح ، إلا أن الخان المغولي رفض ذلك العرض واقترح بان يحتفظ كل طرف بما عنده ، فرفض بيبرس هذا الاقتراح ، وانتهت المفاوضات بالفشل ، واستعد ت بلاد السلاجقة لموجة جديدة من الحرب. [3]

بعد فشل المغول في الاستيلاء على البيرة ازداد بروا ناه سلاجقة الروم في آسيا الصغرى تعلقاً بدفع بيبرس للقدوم إلى بلاد الروم وأدرك أنه لا مقام له في البلاد مع وجود المغول فيها وذلك بفعل الخلافات الحادة بينه وبين الحاكم المغولي لبلاد الروم وأرسل إلى بيبرس يحثه على المجيء فوراً إلى بلاد الروم بغية القضاء على الوجود المغولي فيها على أن يعترف بسلطة غياث الدين في كيخسرو الثالث مقابل منحه من الامتيازات ما كان يمنحه الإدارة المغولية. [4]

لقي ذلك العرض هوى وقبولا لدى بيبرس وذلك لان ضمه لتلك البلاد سيمكنه من الاتصال بمغول القفجاق والتنسيق معهم الوقوف في وجه مغول إيران ، ويخفف من الضغط المغولي الايلخانى الواقع على بلاد الشام ونتيجة لازدياد الضغط المغولي

---

[1] محمد سهيل طقوش ، تاريخ المغول العظام ، ص 214

[2] المرجع نفسه ، ص215.

[3] عز الدين محمد شداد ، مصدر سابق ، ص 34 –35 .

[4] محمد سهيل طقوش ، تاريخ المغول العظام ، ص 217.

على بلاد الروم مال بروا ناه إلى جانب المماليك وبعث برسالة إلى بيبرس عرض فيها الولاء مقابل اعترافه باستقلال بلاد الروم وبالسلطان كيخسرو الثالث حاكما عليها، وان يرسل له فرقة عسكرية ترابط في البلاد بشكل دائم للاستعانة بها لقتال المغول عند الحاجة ، يبدو إن بيبرس رحب بالتعاون مع الحكومة الرسمية للسلاجقة إلا انه اعتذر عن عدم الحضور فورا على أن يحضر في العام القادم وذلك بحجة نقص المياه في الآبار التي على الطريق. [1]

أدرك البرواناه بعد إن كشف المغول مراسلته مراسلته للظاهر بيبرس انه لم يعد يامن على نفسه منهم ، فراى أن يسير قدما في مشروع استدعاء المماليك وحسن لهم القدوم إلى بلاد الروم في تلك السنة .

يبدو أن بيبرس لم يكن مستعدا للقيام بمغامرة عسكرية غير مضمونة النتائج لأنه علم بأن أمراء السلاجقة منقسمون على أنفسهم بين مؤيد له ومعارض ، ولان مثل هذه الحملة تتطلب استعدادات ضخمة نظرا لبعد المسافة وقوة البدو من جهة أخرى ، وحتى يتحقق من ولاء السلاجقة الروم له من جهة أخرى ، لذلك اعتذر للبرواناه بأن عساكره لا يمكنها قطع الدر بند في هذا الوقت من السنة إلا بعد انقضاء فصل الربيع وهو مصمم على التوجه إلى بلاد الروم إن عاجلاً أو آجلاً . [2]

وهاجر في هذه الأثناء الأمراء الموالين للظاهر بيبرس إلى دمشق واجتمعوا ، وفد رحب بقدومهم ، كما انتشرت الفتن والثورات في بلاد الروم نتيجة للفوضى السياسية حتى كاد الموقف إن يخرج من سيطرة برواناه ، وأشاع احد الثائرين وهو شرف الدين بن الخطير قي أرجاء البلاد عن قرب وصول الجيش المملوكي ، فخرج وفد سلجوقي إلى بلاد الشام واجتمع ببيبرس في حمص وحثه على السير بسرعة لإنقاذ الموقف ، ويبدو إن إن الوقت لم يحن بعد ، بدليل قول بيبرس لأعضاء الوفد : (انتم استعجلتم في البابنة ، فأنى كنت قد وعدت برواناه اننى اطا أرضه في أواخر

---

[1] محمد سهيل طقوش ، تاريخ المغول العظام ، 216.

[2] عز الدين محمد شداد ، مصدر سابق ،ص 128 -129.

هذه السنة) ثم طلب منهم العودة إلى بلادهم ، على إن يتحصنوا بقلاعهم بانتظار قدومه . [1]

يبدو أن ذلك لم يكن السبب الوحيد الذي جعل بيبرس يمارس سياسة الحذر في إجابة طلب البرواناه بالمسير إلى بلاد سلاجقة الروم ، بل هناك أسباب أخرى بالإضافة إلى انه لم يشأ إن يقدم على مخاطرة قد تؤدى إلى نكبة تكون على حساب السمعة والمكانة الكبيرة التي بناها بحكمته وحسن تدبيره في السنوات الماضية ، فاستراتيجيا وجد انه من المستحيل إن يرسل إلى بلاد الروم جيشا كبيرا يكون الأرمن في مؤخرته ، ويكون هو تحت رحمتهم ، وسياسيا بعض قادة السلاجقة في بلاد الروم لم يشاركوا في قبول اقتراح معين الدين البرواناه ذلك ، واقتصاديا ليس من صالح السلطان بيبرس إن يبقى جيشا كبيرا في تلك المنطقة دون إن يتأكد من ضمان وصول الامدادت إليه ، وحتى الطقس في هذا الوقت من السنة لم يكن مشجعا على إرسال جيش إلى مكان نائي كبلاد الروم . [2]

ويمكننا إن نضيف إن السلطان الظاهر بيبرس الذي كان على علاقة طيبة مع البيزنطيين تردد في ذلك الوقت في القيام بعمل حربي في منطقة الأناضول لما قد يؤدى إليه ذلك من تأثير على صداقته بهم إذ من الطبيعي إن البيزنطيين بالرغم من مصادقتهم للمماليك كانوا يفضلون بقاء دولة سلاجقة الروم مجاورة لهم على إن تجاورهم دولة قوية كدولة سلاطين المماليك المسلمين لما قد يترتب عن ذلك من منافسة بين الدولتين القويتين في المجالات السياسية والاقتصادية على وجه الخصوص. [3]

المهم في الأمر إن معين الدين البرواناه بات في موقف حرج ، فاباقا –ايلخان مغول فارس – كاتبه يستدعيه للحضور إليه ، والسلطان المملوكي بيبرس اعتذر عن المسير إليه في هذه السنة ، واضطر البرواناه أخيرا إلى إجابة طلب اباقا ، وسار إليه ينتظر ما قد يتجدد من جهة السلطان الظاهر بيبرس من أخبار وصوله إلى بلاد

---

[1] ابن شداد ، مصدر سابق ، ص 154 –155.

[2] عبد الله سعيد الغامري ، مرجع سابق ، ص 210.

[3] المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

الروم ، ليعود إليه على وجه السرعة ، وكان قد أوصى احد أمراء الروم المقربين إليه بان تظل الكتب متواترة إليه بخبر السلطان الظاهر بيبرس إذا قصد بلاد الروم ليعود إليهم على وجه السرعة ، وهنا سارع كبار الأمراء في سلطنة سلاجقة الروم ، وعلى رأسهم الأمير شرف الدين مسعود بن الخطير إلى مكاتبة السلطان بيبرس وحثه على تسيير قوة من عنده إلى بلاد الروم ، ويبدو أنهم قصدوا بذلك استعادة البرواناه باى وسيلة ، ولا يستبعد إن يكون السلطان بيبرس قد استجاب لنداءاتهم ، ووعدهم بإرسال قوة من عنده إلى بلاد الروم ، فسارع هؤلاء الأمراء بمكاتبة البرواناه وهو لا يزال في طريقه إلى اباقا –ايلخان مغول فارس –واخبره بان السلطان بيبرس قاصد بعساكره البلاد ، وانه وان لم يسرع بالعودة فان بلاد الروم مأخوذة لا محالة ، فأرسل البرواناه تلك الكتب إلى اباقا لاطلاعه على الوضع ، فأعطاه اباقا دستورا بالعودة من الطريق وجرد معه ثلاثين ألفا من أعيان المغول لمساعدته . [1]

ويبدو إن تلك القوة التي جردها اباقا مع البرواناه لم تكن يقصد مساعدته بقد رما هي بهدف عدم انحيازه إلى السلطان بيبرس ، لذا فان البرواناه لم يستطع تنفيذ ما كان يجول بخاطره نحو التنحي من سلطة المغول والانضمام إلى طلائع الجيش المملوكي الوافد على بلاده ، الأمر الذي أدى إلى اختلاف الأمراء السلاجقة حول ذلك الأمر ، وسار جماعة منهم إلى الظاهر بيبرس ، وسألوه إن يرسل معهم عسكرا لإحضار السلطان غياث الدين وبقية الأمراء المؤيدين لهم ، ولكن البرواناه وعسكر المغول حالوا بين ذلك الجيش المملوكي الذي بعثه السلطان بيبرس وبين السلطان غياث الدين فرجع هؤلاء الأمراء إلى السلطان الظاهر بيبرس فأحسن استقبالهم وجهزهم للرجوع إلى مصر . [2]

ومن المحتمل إن محاولة هؤلاء الأمراء إحضار السلطان غياث الدين إلى الظاهر بيبرس في بلاد الشام كان بمساعدة البرواناه نفسه ، ولكن حرج موقفه يحكم وجود قوة مغولية كبيرة معه جعله يحول دون ذلك كما لا يستبعدان تكون محاولة نقل السلطان غياث الدين إلى بلاد الشام كانت بموافقة السلطان غياث الدين نفسه إذ إن

---

[1] عبد الله سعيد الغامدى، مرجع سابق ، ص 211

[2] المرجع نفسه ،الصفحة نفسها.

من المحتمل انه كان يفضل الانضواء تحت لواء المماليك المسلمين والتخلص من حماية المغول الوثنيين. [1]

وعلى كل فان إصرار أمراء سلاجقة الروم على الاتصال بالسلطان بيبرس وحثه على المسير إلى بلادهم ، قضى على كل الشكوك التي كانت تراوده تجاه إخلاص البرواناه له ، وبدا يفكر جديا في تلبية طلبهم بالاستعداد لغزو الأناضول ، فارسل في أوائل سنة 675هـ /1276م احد أمرائه وبصحبته ألف فارس إلى بلاد الروم ومعه كتابا منه إلى أمراء الروم يحثهم على إخلاص النية والانقياد له ، ولما وصل هذا الأمير إلى الابلستين استقبله جماعة من أمراء الروم أحسن استقبال ، ووعدوه المساعدة على المغول. [2]

إما بالنسبة لمعين الدين البرواناه ، فانه ظل على ما يبدو مضطرا إلى مصانعة المغول وتنفيذ أوامرهم ، فى الوقت الذي والى فيه كبار أمراء الروم مراسلتهم وحضورهم إلى السلطان الظاهر بيبرس ، فتلقاهم بيبرس بنفسه في بلاد الشام وأكرم نزلهم ، وكتب إلى أبيه الملك السعيد وجماعة من الأمراء يستشيرهم في إرسال العساكر إلى بلاد الروم . [3]

ومهما يكن من أمر فان السلطان بيبرس رأى أن الأوضاع قد ساءت داخل الأناضول وان الفرصة أصبحت مواتية لضرب المغول في تلك المنطقة وقد أضحي باستطاعة بيبرس في سنة 674هـ –1275 م أن ينفذ مشروعه بضم بلاد الروم إذ أن الأوضاع أصبحت ملائمة فالسلطان السلجوقي كيخسرو الثالث كان لا يزال صبيا أما بروناه الحاكم الفعلي لبلاد الروم فانه لا يستطيع أن يضبط الأوضاع الداخلية المتدهورة وإخماد الفتن والثورات المؤيد للمماليك كما انه عجز عن ضبط الأمارات التي أخذت في الظهور وأهمها الأمارة القرمانية واحتفظ الايلخانات بحماية

---

[1] عبد الله سعيد الغامدى ، مرجع سابق ، ص 212.

[2] ابن كثير ، مصدر سابق ، ج 13 ، ص 271.

[3] المصدر نفسه ، ص 212.

مفككة علي سلطنة سلاجقة الروم بسبب تكاثر الانتفاضات ضد حكمهم وقد عجزت الحامية المغولية المرابطة في البلاد عن وضع حد لها . [1]

أما الأرمن في فيلقيا فقد ضعفوا بسبب تواصل الغارات المملوكية عليهم منذ عام 664هـ /1265 م . كذلك تم إخضاع إنطاكية وتدميرها في سنة 666هـ /1268 م ولم تنهض بعدها أبدا ، كما فقدت أهميتها التجارية ، ولم تعد لها مكانة سوي أنها أصبحت قلعة بالطرف الإسلامي .

أما الصليبيون فقد صاروا في إمارات متباعدة ، نجح بيبرس في عزلها وصار يهاجمها واحدة اثر واحدة حتى تمكن من استعادة معظم مدن الشريط الساحلي في بلاد الشام وفلسطين . بالإضافة إلي بعض القلاع الداخلية ، وما تبقي منها أصابه الضعف ، كما عقد هدنة مع حكومة عكا في سنة 670هـ /1272 م بهدف منع أي تدخل غربي آخر في أمور الشرق يؤثر علي سياسته وخططه . [2]

تقدم بيبرس بجيوشه من القاهرة في سنة 675هـ/1277م متوجها إلي دمشق وقد صحبه الأمراء السلاجقة الذين التجأو إليه ، ثم انتقل منها إلي حلب وأرسل نائبها نور الدين علي بن مجلي إلي الساجور علي رأس قوة عسكرية ليرابط علي الفرات ويحفظ المعابر من هجمات المغول ، و حتى لا يعبر منها المغول إلي بلاد الشام أثناء غيابه في الأناضول وهناك انضم إليه الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا أمير العرب، اما السلطان الظاهر فانه ما مر على مملكة من بلاد الشام إلا اخذ معه عسكرها وخزائنها واسلحتها ، ولما بلغ نواب المغول بالعراق نزول تلك القوة الإسلامية على الفرات جهزوا جماعة من عرب خفاجة لملاقاتهم ، فذهب إليهم نائب حلب والتقى بهم وهزمهم وغنم منهم غنائم كبيرة . [3]

توجه السلطان بيبرس من حلب إلي جيلان ثم إلي عينتاب ثم دلوك ومرج الديباج ثم عبر النهر الأزرق وقطع الدر بند وبات في ارض منبسطة والتقت طليعته بقيادة سنقر الأشقر بطليعة مغوليه قوامها ثلاثة ألاف مقاتل ، فهزمتها وانتصر عليها

---

[1] محمد سهيل طقوش، تاريخ المغول العظام ، ص217.

[2] المرجع نفسة ، الصفحة نفسها.

[3] شهاب الدين أحمد النويري ، مصدر سابق ،ج 30 ، ص 226 .

انتصارا عظيما عند بلدة ابلستين أو ابلستان واسر كثيرا من المغول ، وفقد من المغول في تلك المعركة ما يقرب من سبعة ألاف جندي. [1]

يبدو أن أنباء توغل القوات المملوكية في بلاد الروم وصلت إلي مسامع اباقا ، وكان الأرمن في فيلقيا أول من رصد تقدم القوات المغولية باتجاه الأناضول إلى اباقا فقرر مواجهة الموقف ووضع خطة للتصدي للمماليك من شقين ،الأول أراد استغلال خروج بيبرس من بلاد الشام ليعبر عليها ليخفف الضغط عن قواته في بلاد الأناضول فأرسل قوة عسكرية من عرب خفاجة لإزاحة العساكر المملوكية المقيمة علي المعابر .أما الشق الثاني ، انه اصدر أوامره للقوات المغولية والسلجوقية بالتحرك إلى البستان لتصدي للقوات المملوكية ولقد اشترك الكرج بثلاثة ألاف مقاتل . [2]

وعلي الرغم من كل هذه الاستعدادات لم يحقق اباقا هدفه ، ذلك أن قوات المماليك المرابطة علي معابر الفرات استطاعت أن تنزل الهزيمة بعرب خفاجة وبذلك يكون بيبرس قد أحبط محاولة اباقا وتفرغ لبلاد الروم وهو مطمئن علي بلاد الشام . [3]

وتحركت القوات المغولية – السلجوقية بقيادة القائدين المغوليين تودان نوين وتوغواغا بصحبتهما معين الدين بروا ناه ، علي طريق البستان ولما وصلت إلي الجبال المشرفة علي صحراء هوني علم القادة عن طريق الجواسيس بان الجيش المملوكي سيصل إلي هذا المكان في صباح اليوم الثاني فنزلوا من الجبل وعسكروا على بحر جيحان وشكلوا جيوشهم ورتبوها وعزلوا العساكر السلجوقية عنهم وجعلوها كتيبة بمفردها لأنهم يشكون في مقدرتهم القتالية كما أنهم خشوا أن يكونوا متفقين مع الملك الظاهر بيبرس ضدهم. [4]

وصلت قوات المماليك إلى الجبال المشرفة على صحراء ابلستين فرأى بيبرس جنود العدو متأهبين في السهل وقد رتبوا قواتهم احد عشر كتيبة ، في كل كتية ألف

---

[1] ابن تغري بروي ، النجوم الزاهرة، ج 7 ، ص 168.

[2] ابن العبري مصدر سابق ، ص 287 .

[3] سهيل طقوش ، تاريخ المماليك ، ص 143.

[4] شهاب الدين النويري ، مصدر سابق ، ج 30 ، ص226.

فارس ، ثم تقدم العدو ، فنزل بيبرس وانصبت الخيول الإسلامية عليهم من الجبل ، ووقف المسلمون إمام عدوهم وقفة رجل واحد ، وفدم السلطان عددا من مماليكه وخواصه وقاتلوا شديدا ، ثم أردفهم بنفسه ، وجرت المعركة في 675هـ/1277م في جو بارد وقاتل المغول حتى أثخن القتل فيهم فخارت قواهم وهربت فرقة منهم واعتصمت بالجبال و قاتلوا قتال من يطلب الموت فلم يغن ذلك عنهم ،ثم لاحت منه التفاتة فرأى الميسرة قد أناخت تحت ضغط ميمنة المغول ، وكادت إن تفنى ، فاردفها بجماعة من الفرسان ، وحملت ميمنة المماليك في إحدى مراحل المعركة على قوة مغولية وأبادتها ، وترجل المغول عن خيولهم من شدة وطأة القتال ، وحمل تودان وتوغو حملات متواترة مزقت صفوف المماليك ، إلا إن كفة هؤلاء رجحت في النهاية فتضعضعت القوات المتحالفة ، وبدا أفرادها يفرون ، ونهب المماليك المعسكر المغولي وقتلوا الأسرى ، وكما ذكر ابن العبري ، فان بروا ناه قدم للفرسان المغول قبل بدء المعركة لحما وخمرا ، وعندما بدأت المعركة كان هؤلاء قد لعبت الخمر برؤوسهم فلم يستطيعوا تحقيق التوازن كما أنهم لم يتمكنوا من التركيز خلال القتال ،مما اثر في النتيجة النهائية للمعركة. [1]

و أسفرت المعركة عن انتصار ساحق للمماليك إذ فقد المغول ستة ألاف وسبعمائة وسبعون جنديا بينهم القائدان تودان وتوغو واسر كثير منهم كما قتل ألف فارس من الكرج وخمسمائة من الفلاحين بالإضافة إلى عدد من الأمراء السلاجقة. [2]

ولما رأى بروا ناه ما حل بالجيش المغولي فر من ارض المعركة وسار إلى قيصرية ، وأشار على السلطان غياث الدين كيكاوس كيخسرو وجماعة من الأمراء بالخروج منها لان المغول المنهزمين متى دخلوا قيصرية قتلوا من فيها حنقا على المسلمين ، ثم اخذ البرواناه السلطان غياث الدين وجماعة من أعيان البلد وسار بهم إلى توقات احدى بلدان الروم والتي بينها وبين قيصرية مسيرة ثلاثة أيام . [3]

---

[1] ابن العبرى ، مصدر سابق ، ص 335.

[2] شهاب الدين النويري ، مصدر سابق، ص227.

[3] سعيد الغامدى ، مرجع سابق ، ص 218.

ونزل بيبرس بعد انتصاره في معسكر المغول واحضر إليه من اسر من أمرائهم فعفا عنهم ، وأطلق سراحهم ، وأرسل الأمير شمس الدين سنقر الأشقر علي رأس قوة عسكريه لمطاردة الهاربين ثم توجه إلي قيصريه عاصمة سلاجقة الروم ومعه كتاب بالأمان إلي سكانها ونزل بدار السلطنة وجلس علي عرش السلاجقة وخطب له علي المنابر واستقبله الأهالي استقبالا رائعا . [1]

أقام بيبرس في قيصرية مدة عشرة أيام علم أثناءها بمراسلة بروا ناه لاباقا فخرج منها لان عساكره قد أنهكها التعب ونفدت الأقوات وليس في مقدوره مواجهة المغول . وحاول البرواناه أن يستبقيه ، ويذكر أن معين الدين البرواناه ارسل يهنىء السلطان الظاهر بيبرس على جلوسه على الحكم في فيسارية ، فرد عليه الظاهر يطلب حضوره ليقره على مملكة الروم ، رد على السلطان بيبرس يطلب منه مهلة خمسة عشر يوما ، ويبدو انه أراده تأخير رحيله حني يصل الجيش المغولي ليدرك بيبرس في بلاد الروم ، ولكن بيبرس كان ادهي منه فتابع سيره في طريقه عائدا إلي دمشق ومن اسباب خروج الظاهر من فيسارية وعودته منها قلة الاقوات وخراب البلاد وقلق العساكر الاسلامية لبعدهم عن بلادهم . [2]

يبدو إن البرواناه لم يكن يقصد مماطلة الظاهر بيبرس حتى يصل ابافا إلى بلاد الروم بدليل إن تلك المدة التي حددها البرواناه لم تكن كافية لوصوله إلى بلاط اباقا في فارس وحثه على الوصول إلى بلاد الروم للإطباق على القوات الإسلامية بقيصرية ، هذا بالإضافة إلى ما ذكر بعد ذلك من إن السلطان الظاهر بيبرس عندما نزل بقيرلو في طريق عودته من قيصرية ورد عليه رسول جديد من جهة البرواناه يستوقفه عن الحركة ، وعليه يمكن القول انه لا يستبعد إن يكون المغول قد اخذوا على البرواناه رهينة عندهم ،لضمان عدم انضمامه إلى الظاهر بيبرس ، والا فان الحوادث التي ذكرت كانت كافية لإظهار نوايا البرواناه بالانضمام إلى جيوش المماليك المسلمين . [3]

---

[1] عبد الرحمن بن خلدون ، مصدر سابق ، ص 466.

[2] غريغريوس بن العبري ، مصدر سابق ، ص288.

[3] سعيد الغامدى ، مرجع سابق ، ص 218.

إما بالنسبة لرحيل السلطان الظاهر بيبرس عن قيصرية ، فان سببه يتضح لنا من رده على رسالة البرواناه الأخيرة حيث كان جوابه عليها قوله : (إن معين الدين ومن كانت تاتينى كتبهم شرطوا شروطا لم يفوا بها وقد عرفت الروم وطرقه ، وما كان جلوسنا على العرش رغبة فيه إلا لنعلمكم إن لا عائق لنا عن شيء نريده بحول الله وقوته ، ويكفينا أخذنا أمه وابنه وابن بنته). [1]

كما لا يمكننا إن نهمل ما ذكر من انه من الأسباب التي منعت بيبرس من البقاء ببلاد الروم ،إن جيشه كان كبير ويحتاج إلى مئونة كبيرة لا يمكن بيبرس حمله معه من بلاده إلى تلك المنطقة بسهولة ، فلو لم ينسحب لشح تموين جيشه ، كما إن أخبار هزيمة المغول لابد أنها وصلت إلى اباقا ، مما قد يحمله على إن ياتى ومعه نجدة ، فيواجه السلطان بيبرس صعوبات جديدة لكونه سيخوض معركتين متتاليتين ، كما إن بقاء بيبرس هناك قد يشجع المغول على مهاجمة ممتلكاته في بلاد الشام عن طريق العراق ، وهناك سبب داخلي ربما كان يشغل بال السلطان بيبرس وهو انه ترك ابنه الملك السعيد في مصر وليس معه سوى خمسة آلاف جندي ، مع وجود عدد من القادة الطموحين حوله ، وغياب بيبرس في تلك المناطق قد يغريهم بإثارة فتنة ضده.[2]

وعلى كل فان اباقا ، وكما توقع بيبرس وصل إلى بلاد الروم بعد رحيل السلطان بيبرس عنها ، وحاول إن يرسل خلف الظاهر بيبرس جيشا لعله يدركه قبل إن يصل إلى بلاد الشام ،إلا إن اباقا عندما تبين له إن بيبرس فد عبر بجيشه الحدود أمر جيشه بالعودة ، والجيش الذي أرسله اباقا لتعقب بيبرس كان خفيفا ، ولعله قصد ان يتمكن ذلك الجيش من العودة بسرعة بعد ان ينزل ضربة سريعة بجيش بيبرس ، الا انه يئس من تحقيق شيء من ذلك بعد ان وصل بيبرس إلى دياره ، واستقر في معسكره ، حيث المعدات الثقيلة ، والمؤن الوافرة ، والجند الذي لم يرهقه السفر المتواصل ، في الوقت الذي كان جيش اباقا مجهدا بعد السفر الطويل ، فاقدا لبعض خيله التي لا بد إن تموت بعد هذا السفر المتواصل ، كما إن السلطان بيبرس لما

---

[1] محى الدين بن عبد الظاهر ، مصدر سابق ، ص 468.

[2] ابن تغرى بروي ،النجوم الزاهرة ،ج 7 ، ص 168.

بلغه خبر هذه القوة المغولية استعد لها ، ولم يهمل التصدي لها الابعد إن علم إن اباقا أمر بعودتها. [1]

وانتشر جنود اباقا بعد ذلك في بلاد الروم ، وقتلوا كثيرا من المسلمين انتقاما، واعتبر اباقا ان البرواناه قد غدر به عندما لم يخبره بحقيقة حجم جيش السلطان بيبرس ، ولم يقبل عذره في انه نفسه لم يكن يعرف ذلك ، فلم ينج البرواناه هذه المرة من سخط اباقا ، فلاقى حتفه بعد إن عاد مع اباقا إلى بلاطه. [2]

الواقع أن بيبرس لم يحقق هدفه بضم بلاد الروم والاتصال بمغول القيجاق ، ولعل الظروف السياسية والعسكرية والجغرافية كانت اقوي من إمكانياته فعاد إلي بلاده قانعا بما أحرزه .

وما أن علم اباقا بما حل بجيشه في الأناضول استشاط غضبا وقاد جيشا بنفسه بلغ تعداده خمسين ألفا متوجها إلي بلاد الروم لوضع حد لطموحات بيبرس ولما وصل إلي البستان وشاهد ارض المعركة وتفقد ألقتلي تأسف علي المغول ويقال انه بكي عندما شاهد أشلاء القتلي من جنوده وصب جام غضبه علي أهالي البلاد فقتل منهم عددا كبيرا لترحيبهم للظاهر بيبرس الذي قضى على جيشه وأتهم بروا ناه بخداعه وأمر بقتله بعد أن قامت نساء ألقتلي من المغول بثورة كبيرة مطالبات بدمه لأنه كان السبب لهذه الكارثة. [3]

أرسل بروا ناه يهنئ بيبرس بالجلوس علي العرش ،لاتحاده معه في الخفاء بسبب إسلامه ، فطلب منه بيبرس الحضور إليه ليفوض له أمور البلاد ، فطلب بروا ناه أن يمهله خمسة عشر يوما ، وقد كان يخطط للاستعانة بالمغول ، ولعلة أراد انهاك قوة الفريقين حتى تخلو له الساحة فكتب إلي اباقا يحثه علي إرسال نجدة سريعا لتعيد الأمور إلي نصابها. [4]

---

[1] سعيد الغامدى ، مرجع سابق ، ص 220.

[2] ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ص 174.

[3] تقي الدين المقريزي مصدر سابق ج1 ، القسم الثاني ، ص631.

[4] شهاب الدين أحمد النويري ، مصدر سابق ، جزء 30 ، ص 226.

أرسل اباقا رسالة إلي بيبرس يدعوه فيها للعودة والمواجهة وبعث في الوقت نفسه فرقاً عسكريه للتوغل في بلاد الشام واستطلاع أخبار جيش المماليك لكنها لم تتمكن من التوغل بعيدا ، ولما عاد أفرادها ابلغ قائده الزعيم المغولي بان القوات المملوكية تغير على المخافر الأمامية في غزوات خاطفة ثم تلتجئ إلى القلاع ، وقرر خوض معركة تكون نتائجها حاسمه لأنه أدرك انه أذا ظل بيبرس يملك زمام المبادرة فان مغول إيران لا يعرفون الراحة ، ولكن قواته كانت منهكة كما نفق أكثر خيله ، فوجد نفسه عاجزا عن تحقيق ما يريد فعدل عن غزو بلاد الشام وعاد إلي قيصرية ثم إلي بلاده. [1]

لقد كان لمعركة ابلستين نتائج عظيمة الأهمية ، أهمها إن سلطنة سلاجقة الروم لم تعد دولة مستقلة ، وإنما أصبحت ولاية تابعة للمغول يتولاها احد قادتهم كنائب عن الايلخان في فارس ، فقد أرسل اباقا الخواجة شمس الدين إلى بلاد الروم لإدارة الأمور باسمه هناك ، وبذلك انتقلت الإدارة الداخلية لبلاد الروم إلى يد المغول، وسرح الجيش السلجوقي وأصبح الأمراء والجند الذين فقدوا وظائفهم مصدر قلاقل وشغب ، وزاد ذلك إن المغول فرضوا على الشعب كثيرا من الضرائب التي لم تكن موجودة من قبل. [2]

وبالرغم من السيطرة المغولية على بلاد الروم فانه يمكن القول إن ما حل بالجيش المغولي من القتل والأسر ، لدرجة إن اباقا بكى عندما شاهد قتلى المغول في مكان المعركة ، كان له الأثر البالغ على إضعاف دولة مغول فارس نفسها ، هذا بالإضافة إلى تهور اباقا وإقدامه فور وصوله إلى مكان المعركة على الانتقام من سكان بلاد الروم بقتل أعداد كبيرة منهم ،حيث يقال انه قتل من الفقهاء والقضاة والرعايا ما يزيد مائتي ألف شخص ، ولم يقتل احد من النصارى ، أدى إلى حرمانه من المساعدة التي كان يحصل عليها عند الحاجة من تلك الجهة ، والاهم من ذلك إن السلطان بيبرس بانتصاره على المغول في الأناضول قضى على الآمال التي

---

[1] محمد سيهل طقوش، تاريخ المغول العظام ، ص 220 .

[2] سعيد الغامدى ، مرجع سابق ، ص 221.

كانت تراودهم باقتحام بلاد الشام من تلك الناحية ، بعد إن فشلوا في اقتحامها من جهة معابر الفرات . [1]

كما يمكن القول أيضا إن هذا النصر العظيم قد زاد من إخماد جذوة نار الروح الصليبية في الغرب الاوربى ، إذ لا يستبعد إن ملوك الغرب الاوربى بعد إن عجز المغول وحلفائهم الأرمن المسيحيين عن صد هجوم المماليك عن أرمينيا والأناضول قد فقدوا الأمل في نجاح اى محاولة أخرى من جانبهم فيما لو حاولوا إرسال المساعدة إلى المشرق ، لذا التزموا الصمت تجاه انتصار بيبرس في أرمينية الصغرى والأناضول بالرغم من معرفتهم التامة بان عاقبة ذلك النصر سيكون وبالا على من بساحل الشام من الصليبيين أبناء جلدتهم. [2]

وكان من نتائج المعركة تجدد الاتصالات بين ايلخانات فارس وملوك أوربا الغربية والبابا في روما لبناء حلف جديد للوقوف في وجه المماليك. وقد لعب الأرمن دوراً كبيراً في هذه المحاولة. [3]

والحقيقة إن هذه السفارات على تعددها وامتدادها في المدى الزمني لم يحقق الغاية المنشودة لكلا الطرفين ، وذلك لانشغال الملوك الأوربيين والبابوية بمشكلاتهم الداخلية ، وتراجع حماس الأوربيين للحروب الصليبية بعد الهزائم التي منى بها الصليبيون في الشرق بحيث فقدوا الأمل في أعادة أحياء الممالك الصليبية المندثرة ، بالإضافة إلى اعتقادهم بان التحالف مع المغول لم يعد مطلوبا في هذه الآونة ، كذلك فان اباقا من جهته فقد انهمك في الحروب المستمرة في جبهاته الثلاث في الغرب والشمال والشرق ، وهكذا فشلت خطة قيام هجوم ايلخانى . نصراني مشترك على شمالي بلاد الشام فقد كان عامل المفاجأة الضروري لمثل هذا الهجوم مفقودا بسبب الصلات التي كان يشوبها الخلل بين الطرفين. [4]

---

[1] ابن تغرى بردى ،المنهل الصافى والمستوفي بعد الكافي،ج1 ،تقديم سعيد عبد الفتاح عاشور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1984م، ص 186.

[2] سعيد الغامدى ، مرجع سابق ، ص 222.

[3] محمد سهيل طقوش ، تاريخ المغول العظام ، ص 207.

[4] سهيل طقوش ، المغول العظام ، ص208.

يأخذ بعض المؤرخين علي بيبرس انه لم يعد إلى بلاد سلاجقة الروم لحمايتها وطرد المغول منها بحكم أنها صارت تابعة لدولة المماليك رسميا ، ولكن ربما كان السبب أن في ذلك أن بيبرس فقد تولاه التعب والمرض بدليل انه توفي في تلك السنة بعد مقتل البرواناه بوقت قصير سنه 676هـ/ 1277م ودفن في دمشق بعد حكم استمر لمدة سبعة عشر عاما . [1]

لقد نجح بيبرس . كما رأينا . في دفع خطرا لمغول عن مصر ، فهزم جند هولاكو قبيل اعتلائه العرش ، كما أوقع بهم هزيمة منكرة في موقعة البستان سنة 1277م ، وام يمض على ذلك زمن طويل حتى رحل اباقا إلى فيسارية ليثار لجيشه المهزوم وليعيد نفوذ المغول وحكمهم فيها ، ولما دخلها صب على أهلها وابلا من العذاب وانتقم من مسلميها شر انتقام لمقابلتهم سلطان مصر بالتجلة والترحاب . [2]

وعلى الرغم من مهاجمة المغول لقيسارية التي استولى عليها المماليك ،فان الملك الظاهر بيبرس لم يعد لمقابلتهم لأنه بعد استيلائه على هذه المدينة واتجاهه إلى حارم ، أمر بتسيير جيشه إلى مصر ، كما إن الجيش المصري كان قد بلغ به الضعف غاية أقعدته عن الرجوع دفاعا عن فيسارية ، إذ قل العدد وهلكت المواشي ونفقت الأقوات وعدم العلف لكثرة ما لاقى الجيش في هذه المعركة من وعورة الطريق وصعوبة المسالك وزمهرير الشتاء ، وفضلا عن ذلك فانه بعد إن فارق قيصرية إلى دمشق لم يلبث إن عاجلته المنية قبل ان يتمكن من إعادة ذلك على أعدائه ويردهم على إعقابهم . [3]

ولاشك أن السلطان بيبرس استطاع بإعماله الواسعة وانتصاراته علي المغول أن يحول دولة المماليك في مصر والشام من دوله ناشئه إلي دوله قويه مدعمة الأركان راسخة الأقدام وان يمهد الطريق لخلفائه من بعده كي يتموا رسالته ويصلوا إلي الهدف المنشود وهو القضاء علي المغول والصليبيين .

---

[1] عبد الرحمن بن خلدون ، مصدر سابق ،ج5 ، ص 451.

[2] جمال الدين محمد سرور ، دولة بنى قلاوون ، ص 161.

[3] المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

وهكذا كما رأينا أن اباقا دخل عدة معارك ضد المماليك في الشام حتى ينتقم لما حل بالجيوش المغولية في عين جالوت والتحم مع جيش السلطان الظاهر بيبرس في معارك عديدة أسفرت جميعها عن هزيمة جيوش المغول وانتصار الظاهر بيبرس انتصارا رائعا لقد تميز بيبرس بحصافة وبعد نظر سياسي جعله جديرا بالمكانة لبتي أحتله في صفحات التاريخ . فقد كان يمهد لكل عملية من عملياته العسكرية باستمرار من خلال المعاهدات والاتفاقيات الدولية التي كان يعقدها مع القوي الدولية المعاصرة. وبينما كانت تحالفات بيبرس علي الجبهة الأوربية موجهة ضد الصليبين كانت معاهداته ومحالفاته علي الجبهة الشرقية موجهة ضد مغول فارس الخاضعين لهولاكو وبنيه. [1]

كان بيبرس يقظا متنبها سريع الحركة ،كثير التنقل من مكان إلى آخر ، وكان يبدو وكأنه في عدة أماكن في وقت واحد ، يراقب عن كثب أعمال نوابه ، واقبل على العمل بجد ونشاط ،وكانت حكومته مستنيرة عادلة حازمة ، وعرف عنه انه رجل متدين متمسك بأهداب الدين وبأوامره ونواهيه ، حارب البدع والمفاسد ، والواقع إن شخصية هذا القائد الذي نجح في شتى ميادين الحياة السياسية والعسكرية والاجتماعية لا بد وان يصبح حديث الناس فينال إعجابهم ، وتقدير المؤرخين سواء في الشرق أو الغرب . [2]

وهكذا كشف بيبرس عن إدراكه لحقيقة الدور التاريخي المنوط بالدولة التي أعتلي عرشها ، وأدرك أن دولته تواجه خطراً مزدوجا يمكن أن يؤدي إلي حلف بين أثنين من ألد أعدائه وأعداء المنطقة العربية الإسلامية وهم المغول في فارس والصليبيون في فلسطين وبلاد الشام. [3]

كانت هذه آخر أعمال السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى فبعد هذه الأحداث توفاه الله وهو في قمة حياته الحافلة بالنشاط السياسي والعسكري سنة 1277م بعد

---

[1] قاسم عبده قاسم وعلي السيد ، مرجع سابق ، ص 157 .

[2] محمد سهيل طقوش ، تاريخ المماليك ، ص 156-157.

[3] قاسم عبدة قاسم وعلي السيد ، مرجع سابق ، ص157.

إن تجاوز الخمسين عمره بعد فترة طالت إلى سبع عشرة سنة وكانت وفاته بدمشق فدفن قرب داريا ببلاد الشام حسب وصيته. (1)

أقام بيبرس إمبراطورية قوية متسعة مترامية الإطراف تركها من ورائه للمماليك البحرية الذين ظلوا في الحكم بعده حوالي قرن من الزمان يحاولون السير على نهجه والحفاظ على البلدان التي ضمها ، والإبقاء على قوة مصر العسكرية أمام الصليبيين والتتار ، وقد خلف بيبرس في المدة الباقية من أسرة المماليك البحرية اثنان وعشرون من سلاطينهم ،اثنين من أبنائه هما السعيد ناصر الدين أبو المعالي محمد بن بيبرس من سنة 676هـ /1277 م لمدة عام واحد ، والملك العادل بدر الدين سلامش بن بيبرس لمدة عام آخر ثم أل الحكم إلى سلطان آخر لا يقل عن بيبرس فيما قدمه للبلاد وهو السلطان المنصور سيف الدين قلاوون الذي اهتم بشئون مصر الداخلية فعنى بتسهيل سبل التجارة الداخلية وعمل على أعداد جيش قوى أخر بعد أن أنهكت المعارك جيوش بيبرس وورثة في الحكم اثنين من أبنائه أيضا هما الاشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون والناصر محمد بن قلاوون واحد عشر آخرين من سلالته حتى انتهاء حكم أسرة المماليك البحرية سنة 784هـ /1382 م حيث انتقلت مقاليد الأمور إلى أسرة المماليك البرجية أو الشركسية .

---

(1)عبد الرحمن بن خلون ، مصدر سابق ، ج5 ، ص451.

الفصل الرابع

العلاقات بين المماليك والمغول في عهد سيف الدين قلاوون الألفي

678-690 هـ /1279 –1291 م

المبحث الاول : التطورات السياسية في دولة المماليك بعد وفاة بيبرس وحتى ولاية سيف الدين قلاوون الألفي

المبحث الثانى : العلاقات بين سيف الدين قلاوون والايلخان اباقا خان 622 – 680 هـ /1264 -1281م

المبحث الثالث : العلاقات بين سيف الدين قلاوون والايلخان احمد تكودار 681 -683هـ /1282- 1284م

المبحث الرابع : العلاقات بين سيف الدين قلاوون والايلخان ارغون بن اباقا 683 -690هـ /1284 -1292م

المبحث الخامس : العلاقات بين الاشرف خليل والمغول 689 -693هـ /1292 -1293م

المبحث الأول
التطورات السياسية في دولة المماليك بعد وفاة بيبرس وحني ولاية سيف الدين قلاوون

انتهت الحوادث التي تلت بيبرس انتهاء مملوكيا عاديا ،إذ أقيم في السلطنة على التوالي أبناءه الملك السعيد محمد بركة خان ،ثم الملك العادل سلامش وفي خلال ذلك وقعت أحداث مختلفة أدت إلى عزلهما و تولية اقوي أمير مملوكي في ذلك الوقت وهو الأمير سيف الدين قلاوون الصالحى الالفى سلطانا على مصر والشام.[1]

ومن خلال دراسة العصر المماليكى نلمس عدم استمرار بيت واحد في الحكم مدة طويلة وإذا استطاع رجل مثل بيبرس إن يمكن لنفسه ويحلف الأمراء على احترام ولاية العهد لابنه من بعده فان تلك الإيمان كانت سرعان ما تنكث بعد وفاته لعدم ايمان المماليك بمبدأ الوراثة ، ولم يحدث طوال القرنين ونصف القرن التي حكم فيها سلاطين المماليك مصر إن ظلت السلطة في بيت واحد مدة طويلة ، باستثناء بيت قلاوون الذي حطم تلك القاعدة ، والذي يعتبر مثلا فريدا في تاريخ المماليك لبقاء الحكم في بيت واحد أكثر من قرن(1279–1382 م) ولا يمكن إرجاع هذه الظاهرة إلا لمجرد المصادفة والظروف التي أحاطت بذلك البيت وبعض افراده ، فضلا عن أحوال البلاد في ذلك الوقت ، والدليل على ذلك إن أمراء المماليك لم ينقادوا لبيت قلاوون طوال ذلك القرن ، وإنما قامت محاولات لعزل بعض سلاطين قلاوون من الحكم ، ونجح بعض الأمراء في تولى السلطنة فعلا في تلك الإثناء ، وكثيرا ما كان بني قلاوون يتغلبون بعد قليل . [2]

ولا شك إن بقاء السلطة في بيت قلاوون تلك المدة الطويلة جعل عصر تلك الأسرة يكتسب طابعا خاصا مميزا في تاريخ المماليك ، وربما كان بقاء اسم (قلاوون) في سلسلة طويلة من أسماء السلاطين منذ أواخر القرن الثالث عشر حتى أواخر القرن الرابع عشر ،ما أضفى على ذلك العصر طابعا مميزا هذا بالإضافة إلى إن جميع مميزات وخصائص العصر المماليكى اكتملت ونضجت في ذلك العصر فاستقر الحكم للمماليك تماما في مصر والشام بعد فترة الاضطرابات الأولى التي

---

[1] احمد مختارالعبادى ، في التاريخ الايوبى والمملوكي ، ص 229.

[2] سعيد عبد الفتاح عاشور ، العصر المماليكي ، ص100.

أنهاها بيبرس بتثبيت أركان الدولة ، وأخذت تتبلور النظم والقواعد التي سارت عليها سلطنة المماليك حتى أواخر أيامها وبدأت تظهر بشائر النشاط التجاري الذي عاد على المماليك بالثروة الواسعة ومكنهم من أقامة تلك المنشات الرائعة التي ما زالت بقاياها في مدن مصر والشام تنطق بمجدهم ، هذا بالإضافة إلى إن عصر أسرة قلاوون شهد حلقات بارزة في قصة الجهاد ضد التتار من ناحية ، والصليبيين من ناحية ثانية ، فضلا عن النشاط الدبلوماسي والمعاهدات السياسية والاتفاقيات الاقتصادية مع كثير من القوى المعاصرة في أفريقيا وأوربا واسيا أدركت في نهاية الأمر أهمية عصر بيت قلاوون في تاريخ دولة ألمماليك. [1]

كان بيبرس قد حرص أثناء حياته وبعد إن وطد سلطنته في مصر وبلاد الشام علي تولية السلطنة لابنه الملك السعيد ناصر الدين محمد بركه . وقد مهد لذلك بأن جعل الأمراء يقسمون لابنه يمين الولاء والطاعة في سنة 660 هـ/ 1262 م ، ثم ما لبث أن ولاه السلطنة عندما وافته الأخبار بقدوم التتار إلي بلاد الشام سنة 662 هـ / 1264 م لينوب عنه في مصر أثناء اشتغاله بمحاربتهم ، وأقام لذلك احتفالا كبيرا قرئ فيه عهد تفويض السلطنة للملك السعيد بركة . [2]

ولما توفى والده جدد الأمراء له البيعة بالسلطنة ، كما سارع سائر الناس وعلى رأسهم أمراء الجند والقضاة والأعيان إلى مبايعته ، ودعا له الخطباء على المنابر في سنة 676هـ /1277م . [3]

ومع ذلك كان بيبرس يعتقد أن الملك لن يصفو لابنه بعد موته وأيقن أن كبار أمراء المماليك لم يبايعوا ابنه بولاية العهد إلا رهبة وخوفا منه ، وتوقع أن يقوم كبار أمراء المماليك بتدبير المؤامرات بعد وفاته لاغتصاب الملك منه ، لذلك لجأ إلي تزويج ابنه بركة خان من ابنة سيف الدين قلاوون بدمشق سنة 674هـ /1275 وقد

---

[1] أحمد مختار العبادي ، قيام دولة المماليك ، ص 78 .

[2] محمد جمال الدين سرور ، الظاهر بيبرس ، حضارة مصر في عهده ، ص 128.

[3] فايد حماد عاشور ، العلاقات السياسية ، ص 111

قصد بيبرس بهذا الزواج أن يصبح قلاوون في إدارة شئون الدولة لأنه كان في ذلك الوقت اكبر أمراء المماليك في مصر .[1]

تولي الملك السعيد بركة خان العرش ، بيد أن هذه الولاية لم تكن عن إيمان من جانب أمراء المماليك بمبدأ وراثة الحكم ، أذا أن نشأتهم العسكرية من ناحية ، والظروف التي ولدت في غمارها دولتهم من ناحية أخري ، جعلت المبدأ السياسي الذي يؤمن به الجميع هو (الحكم لمن غلب)، ومن ثم لم تكن ولاية الملك السعيد بركة خان أكثر من مرحلة انتقالية ريثما يتم حسم الصراع لصالح احد أمراء المماليك الكبار.[2]

وأصبح السعيد بركة سلطانا علي البلاد المصرية ، ومن خلال الوصية التي تركها بيبرس لابنه قبل وفاته ندرك انه لم يكن واثقا من ان أمر وراثة العرش سوف يتم في سهولة فقد أوصاه بالعنف ضد كل من يحاول ان يقف في طريقه أو يعارض سلطنته ، فاقر الأمير بيليك كنائب للسلطنة ، وثبت الصاحب بهاء الدين بن حنا في وزارته وخلع عليهما ، وعلى الأمراء والقضاة ، وكتب الملك السعيد إلى دمشق وسائر الممالك الشامية يخبر النواب بوفاة والده واعتلائه الحكم خلفا له ، ويطلب منهم مبايعته والولاء له ، ففعلوا ذلك .[3]

لم يعين للسلطان اتابك ، باعتباره قد بلغ سن الرشد ، ولكن المماليك الذين لم يؤمنوا بمبدأ الوراثة صاروا يراقبون تصرفاته ، كما أن الأمراء في حقيقة الأمر نظروا إليه كصبي ، وبدأوا يثيروا له المشاكل في حكمه ، ثم اتهموه بدس السم للأمير بدر الدين بيليك نائب السلطنة مما دفعه للحذر منهم ، وتغير نواب السلطنة باستمرار. ومن جهته فقد اتبع بركة خان سياسة ضيقة تمثلت بإبعاد كبار الأمراء ، وتقريب المماليك الاحداث إليه ، وسرعان ما ازداد نفوذهم عليه ، وتحكموا في دولته وصاروا يتدخلون في تعيين نواب السلطنة وعزلهم ، ولم يقف الأمر بهم عند هذا

---

[1] بدر الدين محمد العيني ، عقد الجمال في تاريخ أهل الزمان الجزء الثاني تحقيق محمد أمين النهضة المصرية للكتاب 1985- 1991م ، ص185 -187 .

[2] قاسم عبده وعلي السيد ، مرجع سابق ، ص170.

[3] ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج7، ص 260 -261.

الحد، بل تدخل هؤلاء المماليك حتى في توزيع الاقتطاعات ، الأمر الذي أدى إلى قيام نزاع بين الملك السعيد ونائب السلطنة سيف الدين كوندك الساقي ، الذي تمكن بدوره من ضم جماعة من كبار الأمراء إلى جانبه لمواجهة السعيد وأعوانه ، ولم يقتصر الأمر على هذا ، بل أدى إلى تحيز السلطان السعيد بركة لمماليكه المقربين ، وإطلاق يدهم في إدارة شئون الدولة ، مما أغضب كبار الأمراء الصالحية ، وفي مقدمتهم صهره الأمير سيف الدين قلاوون والأمير علم الدين سنجر ، وزاد الموقف صعوبة قيام بركة خان بالقبض علي الأمير شمس الدين سنقر الأشقر والأمير بدر الدين بسري وسجنهما بالقلعة ، وكان لعمله هذا أسوا الأثر في نفوس بقية الامراء ، فاجتمعوا مع أتباعهم ومن انضم إليهم من العسكر ، فزادت الوحشة بينه وبين الأمراء وبعثوا إلي الملك السعيد بركة خان (انك أفسدت الخواطر وتعرضت إلي أكابر الأمراء فإما أن ترجع عما أنت فيه وإلا كان لنا ولك شان) وظلت الرسل تتردد بين السلطان والامراء .فاضطر إلى ملاطفتهم وعقد الصلح معهم، بعد إن اقسم السعيد لهم بانه لا يريد بهم شرا. [1]

وتشير المراجع المعاصرة بدماثة خلقه وحسن طباعه وعدم ميله لسفك الدماء ، ولكن يبدو إن هذه الصفات كانت سببا في عزله لأنها لم تكن تلائم روح ذلك العصر، فالملك السعيد بركة خان لم يكن له دراية بمؤامرات المماليك ودسائسهم مم اضطره إلى إن يحيط نفسه بحرس خاص من مماليكه وهم الخاصكية (حرس خاص) وكثر في عهده تعاقب الأمراء على منصب نيابة السلطنة، فكلما تولى احد الأمراء هذا المنصب لجأت بطانته إلى تخويفه منه ، فيعزله ويعين آخر مكانه . [2]

تدخل مماليك بركة خان لإفساد العلاقة بين بركة خان وأكابر الأمراء فأشاروا عليه عندما خرج من القاهرة في سنة 677هـ /1279 م ودخل دمشق ، بإقصاء الأمراء الصالحية عنه ، وذلك بان يعهد إليهم بغزو سيس والقبض عليهم عند عودتهم من سيس ، فاستجاب لهم وسير فرقة من الجيش صحبة الأمير سيف الدين قلاوون، وفرقة صحبة الأمير بدر الدين بيسرى ، (والضغائن من الملك السعيد كامنة في

---

[1] حمدي عبد المنعم حسين ، مرجع سابق ، ص184.

[2] احمد مختار العبادى ، التاريخ الأيوبي والمملوكي ، ص 223.

النفوس ، والحقائد قد أثمرت منها الغروس) ولم يكتف امراء السعيد بذلك بل اوعزوا اليه بالقبض على هؤلاء الامراء الصالحية عند عودتهم من الغزو ، وتوزيع اقطاعاتهم على فريق منهم ، هذا والامير سيف الدين كوندك مطلع عليهم ، ولم يابه الملك السعيد بذلك بل استمر في تقريب مماليكه وصار يطلق عليهم بافراط بخلاف ما كان يفعله ابوه ، فلما علم الأمراء بما يدبر ضدهم أشاروا على الملك بركة خان بإبعاد هؤلاء المماليك الخاصكية عنه إلا إن الملك رفض ذلك وعاد من دمشق إلى قلعة الجبل فحاصروه وعزلوه وعينوه نائبا على الكرك تنفيذا لرغبته ومعه أخوه نجم الدين خضر ، بعد أن اتفق الأمراء على أن يأخذ نجم الدين الشوبك ، ولما تم عزل الملك السعيد بركة خان وسافر إلى الكرك عرض الأمراء السلطنة على الأمير سيف الدين قلاوون ، فرفض وقال ؛ (أنا ما خلصت الملك السعيد طمعا في السلطة وحرصا على المملكة ، ولكن حفظا للنظام ، والأولى إلا يخرج الأمر عن ذرية الأمير الظاهر إلى غيره). [1]

وقي عام 677 هـ / 1278م خرج الملك بركة خان إلي دمشق ، فظن أمراء دمشق انه يريد أن يغدر بهم ، وعبثا حاول أن يقنعهم انه لا يريد المكر بهم وعاد مسرعا إلي القاهرة خوفا من حدوث مؤامرة ضده ، ولكن الأمراء حاصروا القلعة وشددوا عليه الحصار ، فعرض عليهم إن يقطعهم بلاد الشام ، فرفضوا ذلك وأصروا على إن يخلع نفسه من السلطنة . [2]

نتيجة لهذه التطورات في الموقف السياسي ، اضطر الملك السعيد إلي خلع نفسه وتنازل عن العرش أمام الخليفة والقضاة والأمراء في 678 هـ/1279 .وخرج من القاهرة إلي الكرك بعد أن أمضى سنتين من حكمه لمصر .ولم يكن المقصود من خلع السلطان بركة خان الإسراع في القضاء على بيت الظاهر بيبرس ، بل إن شخص السلطان كان هو المقصود بالذات ، وان بقاءه على عرش مصر لم يعد مرغوبا ، فانه لم يكن مثل والده من القدرة على معالجة الصعاب بالحزم والعزم وقوة

---

(1) ابوبكر بن ابيك الدواداری ،كنز الدرر وجامع الغرر وهو الدر الفاخر في سيرة الملك الظاهر ،ج8، تحيق هانس روبرت ،القاهرة ،1960م ص 228.

(2) سهيل طقوش ، تاريخ المماليك ، ص 163.

الشكيمة ، بل كان شابا لم يعد التسعة عشر سنة عند اعتلائه العرش منقادا لنفوذ والدته وآراء صغار مماليكه ورحل بركة خان إلى الكرك وأقام بها فلم تزد مدة سلطنته على سنتين ، وقد عرض الأمراء المنصب علي الأمير قلاوون الألفي ولكنه رفض متظاهرا بالزهد فيها . فتم اختيار الابن الثاني للظاهر بيبرس وهو العادل بدر الدين سلامش الذي لم يتجاوز السابعة من عمره وبويع بالسلطنة واقسم الجيش والامراء على الولاء له واتفق علي أن يكون الأمير سيف الدين قلاوون اتابكا له ووصيا عليه. [1]

وبتولية سلامش ، نرى عودة النظام الاتابكى ،حيث الاتابك يتصرف باموارالدولة وفق مصلحته ، وفعلا لم يكن لسلامش مع قلاوون اى نفوذ إلا مجرد الاسم ولقب السلطنة ، وظهر نفوذ قلاوون واضحا حين طلب قلاوون إلى الأمراء إن يقسموا له يمين الطاعة ، وضربت السكة باسميهما كما خطب لهما على المنابر . [2]

لم يمتنع الأمير قلاوون عن قبول السلطنة رغبة منه في الاحتفاظ بها لذرية بيبرس أو احتراما لمبدأ وراثة العرش ، بل رأى إن أغلبية الجيش كان من الظاهرية أتباع الظاهر بيبرس ، فخشي قيامهم بالثورة ضده كما أن أكثر البلاد كان يتولى أدارتها أمراء موالون لأسرة بيبرس لذلك عدل عن قبول السلطنة إلا بعد إقصاء هؤلاء الأمراء عن مناصب الدولة ، ومع ذلك اخذ قلاوون يمهد في الخفاء للوصول إلى السلطنة ،واتخذ لذلك الخطوات التي كان يمنى نفسه بتنفيذها من عزل السلطان بركة خان وهى عزل نوابه لذلك أمر بعزل هؤلاء النواب من البلاد الشامية وولى من يثق بهم من إتباعه وقبض على جماعة من الأمراء الظاهرية وسجنهم بثغر الإسكندرية ثم تخلص من منافسيه البارزين الذين كانوا يطمعون في السلطنة ، وبعث بالأمير شمس الدين سنقر الأشقر إلى دمشق وفوض إليه نيابة السلطنة بالشام ، واحضر بعض المماليك البحرية الصالحية وأحسن إليهم ، وأرسل البعض الأخر إلى نيابات الشام.[3]

---

[1] محمد جمال الدين سرور ، دولة بني قلاوون ، ص 22.

[2] ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج7 ، ص 286.

[3] المصدر نفسه ، ص 266.

ولما تخلص الأمير قلاوون من متاعبه واطمأن إلى إن الظروف أضحت مؤاتية، والأمور باتت مهيأة لاعتلائه منصب السلطنة ، دعا أمراء المماليك وتحدث معهم في صغر سن السلطان وقال لهم :(قد علمتم إن المملكة لا تكون إلا برجل كامل) وبدا يستغل منصبه كاتابك للسلطان الصغير وقبض على زمام الأمر وتحكم في دولته وبدا يمهد لنفسه ، واتفق معهم على خلع الملك العادل بدر الدين سلامش وإرساله مع أخيه إلى قلعة الكرك ، اخذ قلاوون يعمل علي تمكين نفسه ويمهد للوصول إلي السلطنة مستقلا صغر سن السلطان وقد نجح في ذلك فخلع سلامش بعد ثلاثة أشهر من توليته بوصفه صبيا لا يصلح للحكم ونصب نفسه مكانه 668 هـ/1279 وتلقب بالمنصور . لتبدأ مرحلة جديدة من حكم أسرة بني قلاوون من دولة المماليك البحرية وكان عليه متابعة سياسة محاربة المغول والصليبين معا. [1]

وهكذا زال الملك من بيت بيبرس على يد سيف الدين قلاوون الألفي الذي اصطنعه الظاهر بيبرس ، وارتبط برباط المصاهرة فزوج ابنه الملك السعيد من ابنته سنة 674هـ /1275م ، غير إن قلاوون سرعان ما طمع في ولاية عرش مصر على اثر وفاة الظاهر ، وبعد إن أدرك عجز أبناء الظاهر بيبرس عن حمل راية الجهاد ضد أعداء الإسلام والمسلمين المغول والصليبيين ، فانتهز فرصة ضعف الملك السعيد وصغر سن الملك العادل سلامش والخلاف الذي قام بينه وبين أمرائه ،وعمل على خلعه ليحل محله في سلطنة مصر ، ولم يكتف بذلك بل أقصاه هو وأخويه نجم الدين خضر والملك العادل سلامش إلى بلاد الشام ، وبذلك صفا له الجو واستطاع إن يؤسس من بيته أسرة حكمت مصر زهاء قرن من الزمان. [2]

وحقيقة أن الفترة الواقعة بين 1277-1280م ، اى منذ وفاة بيبرس حتى قيام المنصور قلاوون في السلطنة حفلت بالقلاقل والفتن في مصر والشام نسبة للتنازع على العرش ، فعلى الرغم من أن الأمراء المماليك لا يعرفون الوراثة فقد جرى التقليد على أن يعترفوا بسلطة من اختاره السلطان وليا لعهده ، ولم يلبث أن يجد نفسه

---

[1] تقي الدين أحمد بن علي المقريزي السلوك لمعرفة دول الملوك الجزء الأول القسم الثاني لجنة التليف والنشر القاهرة 1957 ، ص 658.

[2] محمد جمال الدين سرور ، دولة بني قلاوون ، ص 23.

مضطرا للتخلي عن الحكم لأقوى الأمراء المماليك وهذا ما حدث حين تولى قلاوون السلطنة سنة 1279م ولم يلبث أن هزم سنقر الأشقر عند دمشق سنة 1280م بعد أن أعلن نفسه سلطانا بمدن الشام ، ودعا الأمراء هناك إلى طاعته ، وتلقب بالملك الكامل في سنة 678 هـ /1280م ، وقبض على من رفض طاعته من الأمراء وعلى رأسهم الأمير حسام الدين لاحين نائب قلعة دمشق ، ثم أرسل احد الأمراء التابعين له إلى سائر الممالك الشامية والقلاع ليحلف من بها من النواب وغيرهم ويولى فيها من جهته من يريد .[1]

وتهيأت بذلك الأحوال لان يقوم المغول بالإغارة فأرسل اباقا جيشا إلى شمال الشام وهجمت طوائف المغول على أعمال حلب واستولوا على عينتاب وبغراس ودربساك ودخلوا حلب.

سيف الدين قلاوون : 678 – 689 هـ / 1279 -1290 م

تعد أسرة قلاوون ذات شان كبير في تاريخ المماليك وقد احتفظت بالحكم من ذرية سيف الدين قلاوون لمدة قرن (678–874 هـ /1279–1382 م) وهي الفترة الزاهرة من حكم المماليك التي ظهرت فيها معالم الحضارة والفن والأدب وترسيخ الحكم بالداخل والحفاظ علي وحدة البلاد ومواجهة التهديدات الخارجية .

في أثناء المنازعات التي قامت بين بركة خان بن بيبرس وأمراء مصر ظهر أمير قوى كان له اثر كبير في سير الحوادث الجارية وهو الأمير سيف الدين قلاوون الصالح الألفي احد المماليك البحرية الذين نبغوا في أواخر العصر الأيوبي وهو من خالصة القفجاق من قبيلة برج أعلي جلب إلي مصر وهو صغير واشتراه الأمير علاء الدين افسنقر الساقي العادلى احد مماليك العادل أبي بكر بن أيوب بألفي دينار، فعرف بالألفي ثم انتقل إلي خدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب .بعد وفاة أستاذه الأمير علاء الدين وجعله الملك الصالح من جملة المماليك البحرية وما زال حتى وفاة الملك الصالح ثم إقامة شجر الدر بعد الملك نوران شاه ابن الصالح فلما أقام المعز أيبك في سلطنة مصر وقتل الفارس اقطاى خرج قلاوون من مصر فيمن خرج من البحرية ، ولكن ما لبث أن عاد إليها نتيجة الأحداث التي أثارها المغول في بلاد

[1] ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج7 ، ص 294.

الشام ، والتي أدت إلى اتحاد المماليك ، وترقي بسرعة بين المماليك البحرية وعظم نفوذه في عهد السلطان بيبرس حتى أصبح من الأمراء البارزين . [1]

وتنقلت به الأحوال حتى صار اتابكا للعسكر بديار مصر في سلطنة الملك العادل بن الظاهر بيبرس وصار يذكر أسمه علي المنابر إلي أن وقع الاتفاق على خلع العادل وإقامة قلاوون وحلف له الأمراء وتلقب بالمنصور ، وزينت القاهرة ومصر وظواهرها وقلعة الجبل وأقيمت له الخطبة بإعمال مصر ، وبرز في عهد السلطان بيبرس كأمير قوى فارتفعت مكانته في عهده ، واعتمد عليه في كثير من أعماله الحربية والسلمية . [2]

كان قلاوون حاد الذكاء فصار يعمل على تنفيذ مآربه تدريجيا ، فشعر بالغيرة عندما تولى بيبرس عرش السلطنة ، وان لم يستطع إن يعبر عن شعوره ، نظرا لقوة بيبرس ، وأدرك بيبرس من ناحيته تطلعات قلاوون نحو السلطة ، وشعر بازدياد نفوذه، وانه سوف يقف حجر عثرة في تحقيق هدفه بحصر السلطة في بيته ،لذلك عمل على استمالته ، فزوج ابنه الملك السعيد بركة خان من ابنته غازية خاتون ، ظنا منه انه لن يقدم على انتزاع المملكة من زوج ابنته . [3]

ويبدو إن أطماع المماليك كانت أقوى من رابطة المصاهرة، فبعد وفاة بيبرس طمع قلاوون في الحكم ، لكنه كان حريصا على عدم كشف مطامعه لان الظروف لم تكن مؤاتية للإقدام على هذه الخطوة ، وبايع الملك السعيد ،وصار يعمل من وراء حجاب لإزاحته عن الحكم ، وكان باستطاعته تولى عرش السلطنة ، إلا انه أحجم عن ذلك وتظاهر بالزهد وبايع الملك بدر الدين سلامش ، والتفي بمنصب الاتابك ، ثم استغل منصبه بحكمة بالغة حتى لا يستثير حقد بقية المماليك ، وصار يعمل بتؤدة حتى مكن لنفسه ، وتخلص من الأمراء المنافسين له ، واستمال المماليك البحرية الصالحية . [4]

---

[1] النويري، مصدر سابق، جزء 31، ص 3 – 4

[2] سهيل طقوش ، تاريخ المماليك ، ص169

[3] المرجع نفسه ،الصفحة نفسها.

[4] ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ،ج 7 ، ص292.

وأخيرا وبعد إن أصبحت الأمور مؤاتية لتولى السلطة اقنع الأمراء بعزل السلطان سلامش وتولى العرش مكانه كما ذكرنا، وبذلك يكون قلاوون قد نقل السلطة من البيت الظاهري ليحصرها في بيته .

برز سيف الدين قلاوون خلال النزاع الذي نشب بين الملك السعيد والأمراء كمرشح لتولي السلطنة . وقد أدي دورا بارزا ومميزا في الإحداث التي أدت إلي تنازل الملك السعيد عن لعرش فاختير اتابكا لسلامش الذي لم يكن له أي نفوذ سوي الاسم.[1]

وما أن تولي قلاوون عرش السلطنة في مصر حتى عاد مبدأ الحكم لمن غلب يطل بوجهه البغيض على الساحة السياسية ويعرض نفسه علي الأحداث إذ أن كبار الأمراء من المماليك البحرية يرون أنهم أحق بعرش السلطنة من سيف الدين قلاوون لان تاريخهم العسكري لم يكن اقل تألقا من تاريخ قلاوون نفسه ، وان لهم الحق في تولية السلطنة ومن ناحية أخرى غضب المماليك الظاهرية ، لأنه عزل بركة بدر الدين سلامش ابن أستاذهم الظاهر بيبرس كما قبض على عدد منهم وابعد البعض الأخر من مناصبهم. [2]

علي أن أخطر عدو واجه قلاوون في تلك المرحلة كان شمس الدين سنقر الأشقر نائب دمشق الذي رفض أن يعترف بسلطنة قلاوون ودعا أهل الشام للخروج عليه ، وخلع الملك العادل سلامش ، وأعلن نفسه سلطا نا في سنة 678هـ /1280م وتلقب (بالملك الكامل) وخطب له علي منابر الجامع الأموي. [3]

ولما وصلت أنباء خروج سنقر علي قلاوون إلي القاهرة حرص علي استعمال اللين والسياسة معه ، ولكن سنقر أصر علي رأيه . فأرسل له قلاوون جيشا كبيرا في سنة 679هـ/1280م لمحاربته بقيادة الأمير عز الدين الافرم . التقي بجيش سنقر

---

[1] أحمد بن علي المقريزي ، السلوك ، ج1 ، ص 658.

[2] قاسم عبده وعلي السيد علي ، مرجع سابق ، ص 176.

[3] مفيد الذيدي موسوعة التاريخ الإسلامي العصر المملوكي 648 – 923هـ /1208 –1517م ، دار أسامة للنشر والتوزيع الأردن 2009 ، ص 40.

عند غزة والحق به هزيمة عنيفة واضطر أتباع سنقر إلى العودة منهزمين إلى مدينة الرملة . [1]

على إن هذه الهزيمة لم تفت في عضد سنقر ، ولما علم سنقر الأشقر بهزيمة جيشه جمع بعض الأمراء بغزة يعدهم ويستميلهم كما أتته النجدات من حلب وحماة كما عاونه بعض أمراء العربان ، وخرج بهم من دمشق وعسكر في الجسورة ،استعدادا لملاقاة الجيش المصري . [2]

فسير سيف الدين قلاوون إمدادات جديد إلي جيشه واجتمعوا مع الأمير عز الدين الافرم وساروا جميعا بقيادة الأمير علم الدين سنجر الحلبي إلي دمشق ، والتقوا بجيش الأشقر وجرت بينهما معركة طاحنة ، وثبت سنقر الأشقر وإبلي بلاءا حسنا ، حتى لاح له النصر لولا إن خيانة في صفوف قواته ، فقد غدرت به معظم القوات الشامية التي انضمت إلى جيش السلطان قلاوون وتخاذل من بقى منهم ،. كما رجع عنه عسكر حلب وحماة إلي بلادهم وتخاذل عنه عسكر دمشق مما اثر سلبا علي النتيجة النهائية ، فحمل عليه الأمير سنقر الحلبي فانهزم وهرب إلي الرحبة . [3]

ويبدو إن هذه الهزيمة التي منى بها الجيش الشامي الموالى لسنقر الأشقر قد زادت من حنقه وحقده على السلطان قلاوون ولذلك وفى أثناء النزاع بين السلطان قلاوون والأمير سنقر ،لم ير سنقر حرجا في الاتصال بالتتار واتفق هو وأمير العرب عيسى بن مهنا فكتب إلي خان مغول فارس اباقا بن هولاكو –ايلخان مغول فارس – محاولا تأليب المغول ضد المماليك وحرضاه علي مهاجمة بلاد الشام ووعداه بالانحياز إليه وتقديم المساعدة له . [4]

المهم في الأمر إن اختلاف كلمة المسلمين آنذاك أفاد المغول في فارس ، فقد أدت مراسلات سنقر الأشقر والأمير عيسى بن مهنا لهم إلى دفعهم لغزو بلاد الشام في هذه السنة في محاولة منهم للانتقام لهزيمة جيوشهم في معركة ابلستين ،

---

[1] ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج7 ، ص 294.

[2] محمد سهيل طقوش ، تاريخ المماليك ، ص 172.

[3] حمدي عبد المنعم حسين ، مرجع سابق ، ص 186.

[4] سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي ، ص 215.

حيث جهز اباقا العساكر وخرج المغول قاصدين البلاد الشامية ، وافترقوا ثلاث فرق ، فرقة من جهة بلاد سلاجقة الروم ومقدمهم صمغار وطنجى وطرنجى ، وفرقة من جهة الشرق ومقدمهم بيدو بن طرغاى بن هولاكو وصحبته صاحب ماردين ، والفرقة الثالثة فيها معظم العسكر وشرار المغول صحبة منكو تمر بن هولاكو وبلغ عدد الجيش المغولي خمسين الف فارس ومعهم صاحب سيس والارمن ، ووردت الأخبار بذلك إلى الشام في سنة 679هـ/1280م واستعد المسلمون لصدهم ، فخرج من كان بدمشق من العساكر المصرية والشامية ، يتقدمهم الأمير ركن الدين اياجى ، ولحق بالعساكر الذين كانوا على شيزر وكانوا قد تأخروا عنها ونزلوا ظاهر حماة ،حيث اجتمعوا بالعسكر الواصل من مصر بقيادة الأمير بدر الدين بكتاش النجمى ، وأرسلوا كشافة إلى المغول لاستطلاع أخبارهم ، ويعثوا في الوقت نفسه إلى الأمير سنقر يقولون له (قد دهمنا العدو وما سبيه إلا الخلف بيننا ، وما ينبغي أن نهلك المسلمين في الوسط والمصلحة أن نجتمع على دفعه) فكان لهذا النداء أثره على نفس الأمير سنقر ، فأمر عسكره بالنزول من صهيون ورفيقه الحاج ازدمر من شيزر، واجتمعت كل طائفة تحت قلعتها ، وبالرغم من أنهم لم يخالطوا جيش السلطان ، فأنهم اجمعوا على اتفاق الكلمة ودفع العدو . (1)

وفى نفس السنة وصل إلى دمشق وبعلبك خلق كثير من أهل حلب وحمص وحماة وغيرها من بلاد الشام هاربين من المغول ، ولم يتخلف إلا من عجز عن الرحيل وأخليت حلب من العساكر والتحقوا بحماة ، وعزم من تجمع بدمشق وما حولها على التوجه إلى الديار المصرية ، ثم وصلت طوائف كثيرة من جيوش المغول إلى حلب بعد أن ملكوا في طريقهم عين تاب وبغراس والدربساك ، ودخلوا حلب دون مقاومة لخلوها من العساكر ، فقتلوا من تأخر بها من المسلمين ونهبوا واحرقوا المساجد ودور الأمراء و ارتكبوا بها الفظائع والفساد على عادة أفعالهم القبيحة ، واقاموا بها يومين على هذه الصورة ثم رحلوا عنها راجعين إلى بلادهم بعد ان حملوا معهم من الغلات الشئ الكثير. (2)

---

(1) سعيد الغامدى ، مرجع سابق ، ص 234.

(2) فايد حماد عاشور ، العلاقات السياسية ، ص115.

وكان سبب رجوع المغول عن حلب بهذه السرعة ، ما بلغهم من اتفاق كلمة المسلمين على دفعهم ولما بلغهم من اهتمام الملك المنصور صاحب حماة وخروجه بالعساكر من مصر للانضمام إلى بقية الجيوش الإسلامية ببلاد الشام لمحاصرة المغول داخل مدينة حلب. [1]

ولعل من أسباب رجوعهم أيضا علمهم بخروج السلطان قلاوون بقواته من مصر لقتالهم حيث كان قد جمع العساكر يمصر وانفق على الأمراء والجند ، ثم استخلف على الاراضى المصرية ابنه الملك الصالح على ، وسار إلى غزة وبقى بها ،ثم قدم عليه من كان ببلاد الشام من عسكر مصر وجماعة من أمراء سنقر الأشقر الذين تخلوا عنه فاكرمهم الملك المنصور ، فلما سمع نبا عودة المغول إلى بلادهم، عاد إلى مصر بعد أن غاب عنها خمسين يوما . [2]

ويمكننا أن نضيف سببا آخر وهو انه لا يستبعد أن يكون المغول عند دخولهم حلب خافوا على ممتلكاتهم في إقليم فارس من تهديد مغول القبيلة الذهبية (القفجاق) حلفاء سلاطين دولة المماليك المسلمين ، فاضطروا للعودة بهذه السرعة لتلافى ما قد يحدث لهم من تلك الجهة من أخطار بسبب غيابهم في بلاد الشام ، ومما يكن من أمر فان ما قام به المغول من مهاجمة للأجزاء الشمالية من بلاد الشام ودخولهم مدينة حلب ، قد نبه السلطان المنصور قلاوون إلى خطرهم على ذلك الجزء من مملكته ، وهنا رأى قبل الاشتباك معهم أن يسير على نفس النهج الذي نهجه سلفاه قطز وبيبرس من قبل وهو مهادنة الصليبيين القريبين على ساحل بلاد الشام ، لضمان عدم تدخلهم في الصراع وإجباره على تقسيم قواته في جهتين متباعدتين ، فاستغل وصول رسل الصليبيين إليه بمنزلة الروحاء يسألونه استمرار الهدنة التي كانت معقودة بينهم وبين السلطان بيبرس والزيادة عليها ، فوافق على ذلك وتقررت الهدنة بين الملك المنصور قلاوون ، وولده الملك الصالح على معا ، وبين مقدم

[1] سعيد الغامدى ، مرجع سابق ، ص 336.

[2] فايد حماد عاشور ، العلاقات السياسية ، ص 115 –116 .

الاسبتارية وجميع الإخوة الاسبتارية بعكا لمدة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات . [1]

ولم تنته المتاعب التي واجهها السلطان قلاوون في بلاد الشام عند ذلك الحد ، إذ حدث سنة 1281م والسلطان قلاوون مشغول بمحاربة الصليبيين ، إن دبر الأمير سيف الدين كوندك وجماعة من الأمراء الظاهرية وبعض التتار مؤامرة لاغتيال السلطان ولم يتردد المتآمرون في الاتصال بالصليبيين واسروا لهم في عكا بما دبروا، ونصحوهم بعدم عقد أية معاهدة مع السلطان لأنه سيقتل في القريب العاجل ، لكن هؤلاء رفضوا التعاون معهم وحذروا قلاوون منهم ، ولكن المنصور قلاوون علم بالمؤامرة في الوقت المناسب فأحبطها واعدم زعماءها وفر عدد كبير من إتباعهم إلى قلعة صهيون ليلحقوا بالأمير شمس الدين سنقر الأشقر . [2]

قرر سيف الدين قلاوون المسير إلي الشام فوصل دمشق في سنة 680هـ /1281م ،لأول مرة منذ تولى السلطنة ، فرحب به أهلها واحتفلوا بمقدمه ، ومن هناك أرسل الأمير عز الدين أيبك الافرم والأمير علاء الدين كشتقدي الشمسي لقتال الأشقر الذي ما إن علم بمسير عساكر قلاوون التي خرجت إليه حتى فارق حليفه عيسى بن مهنا ، وتوجه بمن معه من العسكر في البرية إلى صهيون وتحصن بها ، ولما لم بكن باستطاعته مواجهة الموقف لافتقاره إلى القوة العسكرية أرسل من هناك إلي السلطان سيف الدين قلاوون يطلب الصلح من اجل حقن دماء المسلمين والوقوف في وجه العدو الذى وصلت طلائع قواته إلى اطراف بلاد الشام فاتفق الطرفان علي أن يسلم شيزر للسلطان مقابل أن يعوض عنها بافامية وكفرطاب وإنطاكية وصهيون واللاذقية وغيرها . كما اشترط أن يكون أميرا علي ستمائة فارس عدا من عنده من الأمراء فأجابه قلاوون إلي ذلك وكتب له تقليدا بولاية تلك البلاد ، وذلك لهدف إبعاده عن التحالف مع الاعداء التتار ، ولكنه رفض إن يلقبه بلقب ملك. [3]

---

[1] سعيد الغامدى ، مرجع سابق ، ص 237.

[2] المرجع نفسه ، ص 215.

[3] النويري ، مصدر سابق ، جزء 31 ، ص 14.

وتجدد الصراع مرة أخري بين قلاوون وسنقر الأشقر وذلك عندما حضر السلطان لحصار حصن المرقب(*) بالقرب من صهيون ولم يحضر الأمير سنقر إلي خدمة السلطان فغضب منه قلاوون لأنه أرسل ابنه ناصر الدين صمغار فاسر السلطان هذه في نفسه فمنعه السلطان من العودة إلي والده وحمله معه إلي مصر . وجرد نائبه الأمير حسام الدين طرنطاي في سنة 686هـ إلي صهيون في عساكر كثيرة فحاصرها وطلب تسليمها فرفض سنقر ونصب حسام الدين المجانيق عليها حتى اشرف علي أخذها عنوة ، وظل القتال بين الفريقين ، فلما رأي شمس الدين سنقر ذلك أرسل في طلب الأمان وسلم الحصن وسار مع طرنطاي إلي مصر فاستقبله قلاوون واحتفل بلقائه وانعم عليه بإمرة مائة فارس وقدمه علي ألف فارس واستمر سنقر في خدمة قلاوون من أكابر أمراء الدولة . [1]

كل هذه الأعمال تدل على إن نظام وراثة العرش لم يكن طبيعيا عند المماليك لان مقياس القرب أو البعد عن العرش كان المهارة الحربية وكثرة الأتباع ، وقد كان نظام وراثة العرش في بعض الأحيان ستار ، فنحن نعرف مثلا إن أربعة عشر سلطانا حكموا مصر من ذرية قلاوون ، ولكن علينا إن نذكر إن خمسة منهم اقل من عشرين سنة حين تولوا العرش ، وان أربعة كانوا اقل من عشرة ،وطبيعى إن السلطان كان في مثل هذه الحالات ألعوبة في يد الأمراء . [2]

ويعد سيف الدين قلاوون المع خلفاء بيبرس فهو الذي طرد الصليبين نهائيا من فلسطين وقضي علي الجيش المغولي بقيادة منكو تمر 680هـ/1281م الذي فر هاربا فساقوا جيشه إلي القاهرة مكبلا بالأغلال . [3]

(*) المرقب بلد وحصن بساحل الشام وكان هذا الحصن من الحصون المشهورة بالمنعة والحصانة وقد بقية بيد فرسان الاسبتارية من الفرنج وكان هولاء قد احازو إلي المغول وذهبوا إلي حد القتال إلي جانب المسلمين وهكذا فقد كان تصميم قلاوون أن يأخذ هذا الحصن مهما كلف الآمر وان يجعل الفرنج يرجعون عن انحيازهم للمغول . النويري، مصدر سابق، ج 31، ص 15.

[1] عبد الرحمن بن خلدون ، مصدر سابق ، ص 471 –472 .

[2] على ابراهيم حسن ، مرجع سابق ، ص 55.

[3] محمد السيد الفتوحات الإسلامية ، مرجع سابق ، ص.146

والملاحظ انه لم تحدث إضطرابات في الشام عقب وفاة السلطان سيف الدين قلاوون وقيام ابنه الاشرف خليل وقيام أخيه الناصر محمد بن قلاوون في السلطنة سنة 1293م . وفي الفترة المضطربة التي أعقبت وفاة المنصور قلاوون وامتدت حتى قيام الناصر محمد في السلطنة للمرة الثالثة سنة 1309م شهدت بلاد الشام بعض الإحداث من ذلك أن السلطان كتبغا الذي أغتصب العرش سنة 1294م زار بلاد الشام حيث عزل الأمير عز الدين أبيك نائب دمشق وعين بدله الأمير سيف الدين اغرلو العادلي . ولم يكد السلطان كتبقا يعود إلي مصر حتي عزله حسام الدين لاجين ، وولي السلطنة بدله سنة 1296م وهرب كتبقا إلي دمشق . [1]

وقد لجا السلطان المنصور لاجين إلي تعيين الأمير سيف الدين قبجق نائبا بالشام ، كما أرسل السلطان السابق الناصر محمد بن قلاوون إلي الكرك ليامن خطره. غير أن السلطان لاجين أوغر صدور أمراء مصر والشام عليه بسبب سياسته فخرج عليه الأمير قبجق بالشام ثم رحل قبجق إلي بلاد التتر حيث رحب بهم غازان محمود. [2]

---

[1] ابن تغرى تردى ، النجوم الزاهرة ،ج 8 ، ص 63 –64.

[2] احمد مختار العبادى ، في التاريخ الايوبى والمملوكى ، ص 216.

المبحث الثانى

العلاقات بين سيف الدين قلاوون والايلخان اباقا خان

622 -680 هـ /1264 – 1281م

انتهت الحوادث التي تلت بيبرس انتهاء مملوكيا عاديا إذ أقيم في السلطنة على التوالي أبناءه الملك السعيد محمد بركة خان ثم الملك العادل سلامش وفي خلال ذلك وقعت أحداث مختلفة أدت إلى عزلهما وتولية اقوي أمير مملوكي في ذلك الوقت وهو الأمير سيف الدين قلاوون الصالحى الالفى سلطانا على مصر والشام . (1)

لم ينته العداء بين المغول في فارس والمماليك في مصر بعد وفاة الملك الظاهر بيبرس بل ظل مستحكما حتى استقر الأمر للملك قلاوون فأخذت جيوش المغول تجتاح الحدود السورية ثانية مرتكبين نفس الفظائع التي ارتكبوها منذ عشرين عاما وشجعهم علي ذلك ما سمعوه من اختلاف كلمة المماليك فضلا عن ثورة سنقر الأشقر الذي خرج عن طاعة الملك المنصور قلاوون ونادي بنفسه سلطانا علي دمشق فاعتقدوا بان سنقر الأشقر سيعمل علي مساعدتهم ويتفق معهم علي قتال المماليك اثر المراسلات التي تبودلت بينهما ولكنه عاد أخيرا وعدل عن موقفه حينما راسله مماليك مصر قائلين : (وهذا العدو قد دهمنا وما سببه إلا الخلف بيننا وما ينبغي هلاك الإسلام) وكان لهذا النداء أثره على نفس الأمير سنقر ، فأمر عسكره بالنزول من صهيون وإنقلب على المغول ووقف في صفوف المسلمين للقضاء على جيوشهم ، وانضم سنقر إلي قلاوون وعادت وحدة المماليك من جديد . وهذه شيمتهم دائما إبان الإخطار والأزمات . (2)

ولما كان خروج سنقر الأشقر عن الطاعة ،هو السبب المباشر الذي دفع المغول إلى مهاجمة مدن بلاد الشام الشمالية سنة 679هـ /1280م وان استمرار اختلاف كلمة المسلمين شجعهم على معاودة الهجوم مرة أخرى فقد حرص السلطان المنصور قلاوون ، بعد إن توصل إلى عقد هدنة مع الصليبيين على الاتصال بالأمير سنقر الأشقر ليقضى عليه نهائيا وترددت الرسل بينهما في الصلح ،680هـ / 1281م ، وهنا يبدو إن كلا منهما أدرك خطورة تفرق كلمة المسلمين وتكالب

---

(1) احمد مختار العبادي ، قيام دولة المماليك ، ص104.

(2) ابن تقري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج7 ، ص299.

الأعداء عليهم فتقرر الصلح بينهما، و مضمونه إن يسلم سنقر الأشقر شيزر لنواب السلطان قلاوون ، ويعوضه عنها الشغر وبكاس وكانتا قد أخذتا منه،ومعهما افامية وكفر طاب وان يلقب بلقب ملك . [1]

اتجه قلاوون لمواجهة التحديات الخارجية في جهات بلاد الشام خاصة أن الأمير ستقر قد تحالف مع المغول والصليبين ضد الحكم المملوكي وشجع القائد المغولي اباقا خان في سنة 679هـ /1280م لإرسال جيشه لاحتلال قلاع في بلاد الشام . [2]

بعد القضاء علي الفتنة التي أثارها سنقر الأشقر في بلاد الشام تفرغ قلاوون لمواجهة خطر المغول والصلبيين واستكمال المهمة التي كان بيبرس يقوم به من قبل. وكان قلاوون قد عقد هدنة مع الصلبيين تبدأ من سنة 1281م مدتها عشر سنوات لكي يتفرغ لترتيب أوضاع البلاد الداخلية من جهة ،وإخماد حركة العصيان التي أشعلها سنفر الأشقر من جهة أخرى. [3]

أصبح السلطان قلاوون مستعدا لتوجيه ضربة قاصمة للمغول وحلفائهم للانتقام مما انزلوه بحلب في السنة الماضية ،وكان عسكر حلب هم السباقون إلى ذلك ،فقد خرجت من حلب سنة 680هـ /1281م فرقة من (الغيارة) ذكر ابن عبد الظاهر أنهم كانوا في ستمائة راكب إلى بلاد الروم ، وإنهم صادفوا قافلة تقدر بمائتي جمل خارجة من بلاد سيس إلى بلاد الروم ، فنهبوها فخرج إليهم اكبر أمراء الروم ومعه ثلاثمائة راكب فقتلوه وقتلوا جماعة من أصحابه ، ووصلوا إلى اركلنا فهرب النائب بها ، وحضر إليهم جماعة من أصحاب ابن قرامان فاجتمعوا وساقوا إلى جبل بلغار فوق مندس وعادوا سالمين بين الجبال بين طريق سيس وبلاد الروم . [4]

تألم اباقا . ايلخان مغول فارس . من ذلك الهجوم الاسلامى المباغت فسير أخاه منكو تمر680 هـ /1281م على رأس قوات مغولية إلى بلاد سلاجقة الروم ، فنزل

---

[1] محمد سهيل طقوش ، تاريخ المماليك ، ص 173 .

[2] سعيد الغامدى ، مرجع سابق ، ص 238.

[3] قاسم عبده قاسم وعلى السيد ، مرجع سابق ، ص 176.

[4] محى الدين بن عبد الظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص 1.

منكوتمر بجيوشه بين فيسارية والابلستين ، ولما علم السلطان المنصور قلاذون بذلك، بعث كشافة من عنده لاستطلاع أخبار العدو وتحركاته واهدافه ، فلفوا طائفة من المغول ، واسروا منهم شخصا بعثوه إلى السلطان بدمشق ، فانسه واستماله إليه ، وسأله أخبار المغول فذكر أنهم في عدد كثير يزيدون عن ثمانين ألف فارس وأنهم يريدون مهاجمة بلاد الشام في هذه السنة ، فاهتم السلطان بالأمر واستدعى العساكر استعدادا لملاقاة العدو . [1]

أما بالنسبة للمغول في فارس والعراق فقد انتهزوا فرصة الاضطراب الداخلي التي أعقبت وفاة السلطان بيبرس وبداوا يشنون هجماتهم ضد الاراضى الخاضعة لحكم سلاطين المماليك في بلاد الشام ، ولم يكن السلطان المنصور قلاوون اقل إدراكا لحقائق الموقف السياسي في المنطقة العربية من بيبرس ولذلك سار على منهجه في عقد المحالفات مع مغول القفجاق المسلمين والإمبراطورية البيزنطية وصقلية وجنوه وقشتالة . [2]

عبرت الجيوش المغولية نهر الفرات بقيادة منكوتمر بن هولاكو (أخ اباقا خان) إلي حلب فقام أهلها بإخلائها ومن كان معسكرا فيها من الجنود ونزحوا الحماة وحمص ، ثم دخلت طوائف المغول إلي حلب واستولوا عليها واحرقوها وقتلوا أهلها وسلبوها ثم انسحب عائدا إلي العراق بعد أن سمع السلطان قلاوون قد سافر إلي غزة في طريقه لملاقاته ودحره . [3]

معركة حمص 680 هـ /1281م :

عندما باءت جهود اباقا للتحالف مع الغرب بالفشل قرر الاعتماد على القوى المحلية في غرب آسيا لمواجهة المماليك ، فاستقل اباقا خان الاضطرابات الداخلية التي سادت مصر وبلاد الشام علي اثر وفاة الظاهر بيبرس وتنازع الأمراء على السلطنة وتمرد سنقر الأشقر علي قلاوون 1279 –1290م واستقلاله ببلاد الشام

---

[1] ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج1 ، ص302.

[2] قاسم عبده قاسم وعلى السيد ، مرجع سابق ، ص 178.

[3] تقي الدين أحمد بن علي المقريزي ، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، ص682

ومراسلاته لقادة مغول فارس ، واعتقاده بأنه يؤازره على اثر المراسلات التي تبودلت بينهما ويتفق معه علي قتل السلطان الجديد. [1]

ولهذا أرسل اباقا مبعوثا إلى عكا في اكتو بر 1280م لطلب التحالف مع الصليبين عندما تتقدم جيوشه في العام القادم ضد المماليك ، اما عن الأرمن والجو جانين فلم يكن أمامهم خيار سوى الإذعان لمشيئة اباقا في الانضمام لقواته ضد المماليك ، وكان للصليبين موقفا آخر فمعظم القوى الصليبية اختارت موقف الحياد لأنهم علموا من الدروس المريرة التي يلقتها كل من مملكة أرمينيا الصغرى وإمارة أنطاكية إن المغول غير قادرين على حماية حلفائهم . [2]

كما أرسل قوة استطلاعيه في سنة 679هـ/1280م إلي شمالي بلاد الشام لتقصي أحوال المماليك وللقيام بمحاولة للإنتقام منهم وتأديبهم واستطاعت هذه القوة أن تحتل عنتاب[*] دربساك وحلب التي ارتكبوا فيها أعمالا وحشية كعادتهم فاحرقوا المساجد والمدارس ودار السلطنة ودور الامراء ، وانتهز اباقا خان الفرصة واخذ يعد الجيوش ويعد العدة لحملة جديدة ضد المماليك. [3]

وردت الأخبار إلى السلطان سيف الدين قلاوون بأن المغول تحركوا من منزلتهم ، وان فرقة منهم على رأسها اباقا نفسه توجهت إلى الرحبة ، واتحد المماليك فيما بينهم وتعاهدوا على مواجهة المغول صفا واحدا ونبذوا الخلافات التي كانت بينهم بسبب السلطة والتفوا حول الملك المنصور الذى وجه همته إلى صد غارات المغول ، فسير السلطان كشافة إليها لاستطلاع أخبار اباقا ، وخلت مدينة حلب من أهلها الذين نزحوا منها خوفا من هجوم المغول إلى جهة حماة وحمص . [4]

---

[1] عادل هلال ، مرجع سابق ، ص 116.

[2] المرجع نفسه ، ص 117.

(*) عنتاب قلعة حصينة بين حلب وإنطاكية كانت تعرف بدلوك وهي ألان من أعمال حلب ، القلقة شندي معجم البلدان الجزء السادس، ص369.

[3] أحمد عودات وجميل بيضوني ، تاريخ المغول والمماليك من القرن السابع الهجري حتى القرن الثالث عشر الهجري دار الكندي اربد ، 1990 ص 104.

[4] سعيد الغامدى ، مرجع سابق ، ص 2410.

وأمام ذلك الخطر الداهم ، سارع السلطان المنصور قلاوون ، بالخروج على رأس جيوشه التي احتشدت في دمشق قاصدا حمص فنزل عليها وا رسل قوة عسكرية بقيادة الأمير بدر الدين بكتاش ألنجمي للتصدي للمغول وعسكر في حماة وسير طلائعه لتقصي أخبارهم وأرسل في الوقت نفسه يحث الأمير سنقر الأشقر –وكان في صهيون –على الانضمام إليه بمن معه من العساكر والأمراء ، فنزل سنقر من صهيون ووافى السلطان ومعه الأمراء على حمص ، فأكرمهم قلاوون وانعم عليهم وفرح المسلمون بحضورهم ، كما أرسل إلي الأمير عز الدين الافرم الذي تمكن من إقناعه واتفقا علي قتال المغول ودفعهم عن بلاد الشام . [1]

وهذه ظاهرة امتاز بها المماليك البحرية خلال تاريخهم السياسي فهم دائمو التنازع فيما بينهم ، حتى إذا داهمهم خطر خارجي تناسوا ما بينهم من خلاف واتحدوا لمواجهته ، وذلك بدافع الشعور الغريزى للدفاع عن كيانهم. [2]

أما بالنسبة للمغول فقد علم اباقا بان اهل الشام يهاجمون بلاد الروم وديار بكر ويدمرون تلك البلاد وينهبون غلالها ويثيرون الفتن ، فتالم لذلك وصمم على الحركة إلى تلك البلاد ، ويمكن إن نضيف إلى ذلك مراسلات الامير سنقر الاشقر إلى التتار يستحثهم فيها على غزو بلاد الشام ، وكذلك كان الخلاف بين امراء المماليك عاملا هاما من العوامل التي دفعت التتار إلى الاسراع في الغزو ، تقدموا إلى أطراف حلب ونزل اباقا بقواته الرحبة بثلاثة آلاف فارس كانوا بصحبته وسار منكوتمر اخ اباقا بقواته التي كانت مكونة من المغول والكرج والأرمن وغيرهم إلى عينتاب ومنها تقدم إلى حماة ،فافسد نواحيها . [3]

ولما علم السلطان قلاوون بذلك ، وبان مملوكا لأحد الأمراء هرب إلى المغول واخبرهم بأخبار جيش المسلمين وعددهم ، وان منكوتمر بن هولاكو قد تقدم من حماة لملاقاة الجيوش الإسلامية التي احتشدت في حمص استنفر قواته واستعد لمنازلة المغول واتفق في تلك الأثناء إن شخصا من معسكر المغول دخل حماة وقال

---

[1] ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج7 ، ص299.

[2] سهيل طقوش ، تاريخ المماليك ، ص190.

[3] ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج7 ، ص 303.

للنائب بها :(اكتب الساعة إلى السلطان على جناح طائر ، وعرفه بان المغول ثمانون ألف مقاتل ، في القلب منهم أربعة وأربعون من المغول وهم طالبون القلب ، وميمنتهم قوية جدا ، فيقوى ميسرة المسلمين ، ويحترز على السناجق). [1]

فلما قرأ السلطان الكتاب رتب عساكره سنة 680هـ /1281م ، ،فجعل في الميمنة الملك المنصور صاحب حماة والعسكر الحموي ، وعلى رأس الميمنة شرف الدين عيسى بن مهنا ومعهما عد د آخر من الأمراء ، وجعل في الميسرة الأمير سنقر الأشقر من معه من الأمراء الظاهرية بالإضافة إلى عدد آخر من كبار أمراء السلطان نفسه ، وجعل على رأس الميسرة التركمان بجموعهم ، وعسكر حصن الأكراد، وعلى مقدمة القلب الأمير حسام الدين طرنطاى نائب السلطنة بالديار المصرية والأمير ركن الدين اياجي والحاجب بدر الدين بكتاش والمماليك السلطانية . واختار السلطان مائتي فارس من مماليكه وانفرد عن العصائب ووقف علي تل ، وكان إذا رأي طلبا قد اختل أردفه بثلاثمائة من مماليكه . [2]

وعندما علم قلاوون باستعدادات اباقا شرع في الاستعداد هو الأخر للقائه ، وظهرت حنكته السياسية في الخطوة التي أقدم عليها وهى فصل الصليبين في بلاد الشام عن مغول إيران بعقد المعاهدات مع عكا وطرابلس ، كما ضم سنقر الأشقر إلي جانبه ، فأطمأن بذلك علي جبهته الداخلية والخارجية ، ففي الجبهة الداخلية فقد عين ابنه الملك الصالح علاء الدين على نائبا عنه في القاهرة ليدير شئون الحكم طيلة فترة غيابه ، واما فيما يتعلق بالجبهة الخارجية فقد اطمأن إلى إن الصليبين في بلاد الشام سيلتزمون الهدوء نتيجة اتفاقيات الهدنة التي عقدها معهم ، وخرج من القاهرة في 679هـ / 1281م متوجها إلي بلاد الشام لقتال المغول الذين أغاروا عليها بنفس الوحشية التي تميزت بها هجماتهم زمن هولاكو. [3]

وصل قلاوون إلي دمشق ودعا فيها إلي التعبئة العامة فاجتمعت حوله الحشود من تركمان وعربان وبقية الطوائف الاخري ثم سارت القوات باتجاه حمص وعسكرت

---

[1] سعيد الغامدى ، مرجع سابق ، ص 242.

[2] المقريزي ، السلوك ، ج1 ، ص 693.

[3] سهيل طقوش ، تاريخ المماليك ، ص222 .

في ظاهرها واستدعي الأمير سنقر ليوافيه بقواته فامتثل للأمر . ثم ما لبس السلطان أن عفا عنهم ،فسر السلطان بذلك فأكرمه وانعم عليه ، وخرج سكان دمشق بعد رحيل السلطان إلي الصحاري والمساجد يبتهلون إلي الله ويستمدون منه العون والنصر في خطوة روحية ضرورية لكسب النصر . [1]

توجه جيشان مغوليان إلي بلاد الشام ، الأول من إقليم الجزيرة وتعداده ثلاثة آلاف فارس بقيادة أباقا أخضع أثناء زحفه المدن والحصون الإسلامية علي امتداد نهر الفرات . ومر في طريقه بالرحبة ورابط هناك بهدف مراقبة تحركات المماليك في بلاد الشام . وخرج الثاني من كبادوكيا في آسيا ألصغري عن طريق عينتاب قاصدا حمص للاصطدام بالمماليك وتعداده مائة ألف جندي بقيادة منكوتمر وضم قوات المغول الرئيسية كما انضم إليه ليون الثالث ملك ارمينا ألصغري وجموع مختلفة من الكرج والعجم وغيرهم وهبط وادي العاصي بعد أن اجتاز عينتاب وحلب ووصل إلي حمص . [2]

واستعد الجيشان لخوض المعركة الفاصلة فقاد المنصور صاحب حماة ميمنة الجيش المملوكي ، وتولى قلاوون قيادة القلب ، والى جانبه جيش دمشق بقيادة الأمير لاجين ، في حين تولى الأمير سنقر الميسرة ، اما الجيش المغولي فقد تولى منكوتمر قيادة القلب واتخذ أمراء مغول آخرون مواقعهم في ميسرته ،في حين استلمت عساكر الكرج وليون الثالث والاسبتارية الميمنة . [3]

التقي الجيشان بالقرب من مدينة حمص قريباً من مشهد خالد بن الوليد في سنة 680هـ/1281 في رحى معركة طاحنة فصدمت ميسرة المغول ميمنة المسلمين فثبت المسلمون أمامه وحملوا علي ميسرة المغول فانهزمت الي القلب الذي فيه قائدهم منكو تمر ، ويبدوا أن هجوم المغول قد جاء في وقت واحد حيث صدمت ميمنة المغول في الجهة الاخري ميسرة المسلمين فلم تستطع مقاومة تلك الجهة وساق المغول خلف المسلمين حتي اشرفوا علي حمص ولما وجدوا أبوابها مغلقة وقعوا علي العامة

---

[1] ابن كثير ، مصدر سابق ، الجزء 13، ص 329 .

[2] ابن كثير ، مصدر سابق ، ص259 .

[3] سهيل طقوش ، تاريخ المماليك ، ص 192.

والغلمان وقتلوا منهم خلقا كثيرة ، ولم يكن من بالميسرة من المسلمين يعلم ما تهيأ لميمنتهم من النصر ، وكذلك الحال بالنسبة لميمنة المغول الذين ساقوا خلفهم لم يعلموا ما حل بميسرتهم من هزيمة حيث انسحب بعض من انهزم من ميسرة المسلمين إلي دمشق وبعضهم إلي قرب صفد ، ومنهم من وصل إلي غزة . وظن من ساق وراءهم من المغول أن النصر قد تحقق لجيشهم بكامله فنزلوا عن خيولهم من المرج الذي عند حمص ونهبوا الأثقال والخزائن في انتظار لوصول بقية الجيش المغولي إليهم . فلما تأخر عليهم أرسلوا من يكشف أخبارهم ، فرجعوا واخبروهم ميسرتهم وأن قائدهم منكوتمر هرب من المعركة فساورهم الخوف وفروا راجعين . هذا ما كان من ميمنة المغول وميسرة المسلمين . أما ميمنة المسلمين التي كانت قد نجحت في هزيمة ميسرة المغول ووصلت إلي القلب ومنكوتمر واجبروه علي الهروب بمن معه فقد ساق من بها من المسلمين خلف المغول الهاربين بعد أن تعاهدوا وتحالفوا علي الجهاد . أما ميمنة المغول التي هزمت ميسرة المسلمين فأنها لما رجعت من مرج حمص بعد سماعها بهزيمة منكوتمر . لم يجرؤ من بها من المغول علي منازلة السلطان قلاوون أثناء مرورها من أمامه . فلما تقدموا قليلا باتجاه أخوانهم المنهزمين ساق السلطان خلفهم بفرسانهم فانهزموا لا يلوون علي شئ . يمكن القول أن الجنود من الطرفين اقتتلوا قتالا عظيما لم ير مثله من أزمان طويلة. [1]

واضطربت صفوف الجيش المملوكي واشرف على الهزيمة لولا ثبات السلطان في ارض المعركة ، مما شجع الأمراء والجنود التفوا حوله واستبسلوا في القتال ، وأضاع المغول نصرهم بتعجلهم إلى حمص لجمع الأسلاب ، فانفضت عليهم عساكر السلطان ، وسقط منكو تمر عن ظهر جواده وجرح ، وانسحب القلب من ارض المعركة فأصبحت ميمنته معزولة ، وكان لزاما على أفراده إن يقاتلوا ليشقوا لهم طريقا نحو الشمال، فاصطدموا بقوة مملوكية بقيادة الأمير شجاع الدين السينانى ، وتكبدوا خسائر جسيمة . [2]

---

[1] ابي عبد الله ابي محمد بن سعد اليافعي ، مصدر سابق ، ص144 .

[2] سهيل طقوش ، تاريخ المماليك ، ص 193.

أسفر القتال عن انتصار واضح للقوات المملوكية بسبب الحماس الدينى ، وهزم المغول وحليفهم ليو الثالث ملك أرمينيا وقتل الكثير من المغول وجرح منكوتمر، كما اسفرت عن خسائر كثيرة في الارواح اذ قتل كثير من التتار، وقتل من التتار في الانهزام اكثر ممن قتل في ميدان القتال ، واختفى كثير منهم بجانب الفرات ،اما ليو الثالث ملك دولة ارمينية الصغرى فانه انسحب عائدا إلى بلاده يجر اذيال الفشل والهزيمة فتلقته التركمان والاكراد في الطريق وقتلوهم عن اخرهم ، ولم يفلت من القتل او الاسر إلا دون العشرين ، وأراد قلاوون أن يقضي علي المغول قضاء مبرما فأرسل إلي عماله وقواده عند الحدود الفراتية للوقوف في وجه التتر الفارين . كما أمر أن تضرم النار بالحشائش التي على الفرات فأحترق منهم عددا كبير وهلك كثير منهم في الطريق الذي سلكوه إلي سلمية ، وعندما حدث هذا النصر كان اباقا ملك التتار محاصرا للرحبة ، فوصلت بشلئر السلطان إلى نائب الرحبة تبشر بهزيمة التتار في حمص ، فعلم العدو بذلك ومن ثم قرر العدو الرحيل فورا إلى جهة بغداد ، وخرج إليهم أهل الرحبة وطردوهم منها فلحق من بقي من المغول باباقا وهو في طريقه إلي بغداد وفيهم آخوه منكوتمر الذي رجع حزينا جريحا إلى بغداد فغضب عليه أخوه اباقا خان وعلي من معه من كبار المغول ، وقال له : (لم لا مت أنت والجيش ولا انهزمت) ، فلما دخل اباقا بغداد مكث بها فترة قليلة وسار منها إلى جهة همذان ، أما منكوتمر فقد توجه إلى بلاد الجزيرة ، فنزل بجزيرة ابن عمر ، وكانت الجزيرة لامه قد أعطاها إياها أبوه هولاكو لما أخذها ، ثم توفي منكوتمر بعد ذلك بعد قليل متأثرا بجروحه . [1]

واجتاز المغول بعد هزيمتهم نهر الفرات الذي أضحي حدا فاصلا بين الدولتين المغولية والمملوكية . ولم يغامر قلاوون بمطاردة الأرمن وإنزال العقاب بهم فعاد إلي دمشق ثم إلي القاهرة . [2]

وقد تميز عهد أباقا بوقوع أحداث مهمة كان لها تأثير كبير على سياسة الدولة الداخلية والخارجية تمثلت في الحروب التي نشبت بين مغول فارس الايلخانيين

---

[1] تقي الدين المقريزي ، مصدر سابق ، ص 694.

[2] ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، الجزء السابع ، ص305 –306.

ومغول القفجاق ومغول التركستان من ناحية ، والمماليك في مصر وبلاد الشام من ناحية أخرى وإذا كان أباقا قد نجح في إيقاع الهزيمة بأعدائه من أمراء المغول إلا أنه لم يتمكن من الإنتصار على أعدائه المماليك حكام مصر والشام ، حيث كانت كفة المماليك راجحة على المغول والصليبيين في آن واحد وقد هزم المماليك اباقا خان المغولى في ثلاثة معارك هى البيرة 671هـ – 1272م وابلستين 675هـ – 1276م وحمص 680هـ – 1281م ، يضاف اليهم هزيمة (عين جالوت) التي وقعت في عهد هولاكو ، وبذلك استقرت الحدود الفاصلة بين المغول والمماليك نهائيا بين سوريا وبلاد ما بين النهرين، وقد كتبت البشائر بهذا النصر الذى احرزه المماليك إلى سائر البلاد واحتفل اهالى القاهرة باستقبال السلطان الملك المنصور قلاوون على اثر عودته مظفرا من بلاد الشام . [1]

الواقع أن واقعة حمص كان لها أثر كبير في تاريخ العلاقات بين المماليك والمغول الايلخانين اذ نجم عنها هدنة طويلة الأمد . وأيقن المغول إلا قبل لهم بالمماليك . هذا وقد جاء هذا النصر في وقت كانت فيه حركة الاتصال بين المغول والصليبين لتكوين جبهة متحدة ضد المماليك تسير سيرا حسنا ، فلما قضى قلاوون على الخطر المغولي في وقعة حمص زالت معه قيمة ذلك الحلف الصليبي المغولي .

وبهذا تمكن السلطان المنصور قلاوون من إفشال محاولة المغول السيطرة على مدن الشام الشمالية ، وطهر بلاد الشام منهم مرة أخرى ، بعد إن أثخن في جيوشهم قتلا وأسرا ، ولقنهم درسا لن ينسوه ، ليتفرغ بعد ذلك لمواصلة مشروع تصفية الوجود الصليبي في المشرق الاسلامى. [2]

وتعد معركة حمص احدي المعارك الكبري في تاريخ العالم الإسلامي ومصيره إذ لو انعكست نتيجة المعركة لوقعت مصر في أيدي المغول بل ربما كانت ميول اباقا النصرانية آثرت في مصير مصر وبلاد الشام . [3]

---

[1] جمال سرور ، دولة بني قلاوون ، ص 163.

[2] سعيد الغامدى ، مرجع سابق ، ص 246.

[3] سهيل طقوش ، تاريخ المغول ، ص 232.

توفى اباقا في سنة 680هـ /1282م بهمذان وكان عمره يناهز الخمسين عاما بسبب إفراطه في الشراب وفيل انه عندما علم بهزيمة جيشه بقيادة منكو تمر في معركة حمص 682هـ/1281م على ايدى المماليك في بلاد الشام لم يتحمل تلك الهزيمة ومات كمدا وحزنا وقد تولى مسئولية الحكم ثمانية عشر عاما ، وهى أطول مدة حكمها ايلخان في هذه الدولة ، وقد ساعدته هذه المدة الطويلة على تحقيق الاستقرار إلى حد ما ،على الرغم من كثرة مشكلاته الداخلية والخارجية التي لم تدع له إلا فرصا قليلة للراحة ، وخلفه على عرش الايلخانية في إيران أخوه تكو دار الذي أشهر إسلامه وتسمى احمد تكو دار ، ونظرا لاعتناقه وكثير من قواده الإسلام ، فانه حاول التقارب مع المماليك وانهاء حالة الحرب بين البلدين ليتفرغ لمشاكله الداخلية الناجمة عن تمرد ابن أخيه أرغون عليه ولكن مصرعه على يد أرغون أغلق باب الحوار مع المماليك إلى حين . [1]

---

[1] احمد مختار العبادى وابراهيم مرجونة ، مرجع سابق ، ص 148.

المبحث الثالث

العلاقات بين سيف الدين قلاوون والايلخان أحمد تكو دار

681 -683 هـ/ 1282 – 1284م

اجتمع أمراء المماليك بعد وفاة اباقا خان 681هـ/1289م لاختيار ايلخان جديد في ظل تيارات متعارضة وانقسامات حادة لقد برزت ثلاثة اتجاهات فيما يتعلق بوراثة العرش بعد اباقا.

الأول : يتمثل في اباقا نفسه ،عندما كان لا يزال على قيد الحياة والمؤيدين لسياسته من الأمراء ويرى أصحاب هذا الاتجاه بان أرغون بن اباقا هو الوريث الشرعي لابيه.

الثاني : يتمثل في طائفة من كبار الأمراء ،وهم يرون بضرورة التمسك بنصوص الياسا التي تمنح اكبر أفراد الأسرة الحق في توالى العرش وينطبق ذلك على الامير تكو دار اكبر أبناء هولاكو في ذلك الوقت .

الثالث: تمثله اولغاى خاتون – زوجة اباقا – وقد رشحت ابنها منكوتمر لمنصب الايلخانية ، غير إن هذا الأمير سرعان ما توفاه الله على اثر هزيمته أمام المماليك في معركة حمص سنة 1281م .

ورأى المجتمعون ضرورة الإسراع في اختيار ايلخان جديد منعا للخلاف ، وحتى لا يتطرق الخلل إلي أجهزة الدولة نتيجة الصراع على المنصب ، وأخيرا اجمعوا على اختيار تكو دار ايلخانا وذلك في 681هـ/1282م غير إن هذا الاختيار لم يرضي أرغون بن اباقا الذي رأى انه أحق من عمه بالسلطة ، مما أدى إلى تحول المعارضة إلى عداء سافر ومواجهة عسكرية. [1]

كان تكو دار في الصين إبان حكم والده هولاكو ثم أرسله قوبيلاى خان الخان الأعظم إلى فارس أيام حكم اباقا خان ليكون في عون ومساعدة أخيه ، وهو الابن السابع لهولاكو وله اخ يدعى أرغون عندما كان له أطماع على تولى الحكم خلفا لأبيه لكن القوريلتاى انتخب تكو دار حاكما على حسب ما تنص الياسا الجنكيزية ، اعتنق تكودار المسيحية في صغره وعمد تحت اسم نيقولا وكان

---

[1] الحسن بن عمر ابن الحسن بن حبيب ، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه ، مطبعة دار الكتب القاهرة 1976م ص 72.

للمسيحيين نفوذ كبير في بداية حكمه وعلى اثر اتصاله برعاياه من المسلمين صار يميل إلى الإسلام تدريجيا حتى توطدت علاقته بعلماء المسلمين فأعلن إسلامه سنة 681هـ / 1282م ليكون أول ايلخان مغولي يعتنق الإسلام ، وبذل قصارى جهده فى حمل المغول على الدخول في الإسلام ، واسلم على يديه كثير منهم بفضل ما منحهم إياه من العطايا وألقاب الشرف. [1]

وقد ترتب على إسلام تكو دار أن خلا الديوان من المسيحيين واليهود وحولت المعابد الوثنية والكنائس إلى مساجد واجبر كثير من المسيحيين على اعتناق الإسلام وخفت حدة التوتر بينه وبين السلطان قلاوون في مصر، ونسي الطرفان الأحقاد وتبادلوا الرسائل والهدايا وأقر احمد تكو دار الشريعة الإسلامية بدلا من الياسا .

والواقع إن احمد تكو دار الذي يقال انه تشرف باعتناق الإسلام في حياة والده هولاكو كان على ما يبدو حريصا كل الحرص على إن يبدأ عهده بفتح صفحة جديدة في العلاقات المغولية المملوكية قائمة على أساس احترام مبادئ الدين الاسلامى الحنيف ، ومواجهة أعدائه ، وبالرغم من أن الايلخان الجديد لم يكن قادرا على جعل الإسلام دينا رسميا للدولة ، إلا انه سعى لتطبيق تعاليمه وتثبيت قواعده ، يدلنا على ذلك الرسالة التي بعثها إلى فقهاء بغداد طالبهم فيها بإظهار شعائر الدين الاسلامى وتنفيذ أحكامه وضرب الجزية على أهل الذمة مضمونها:(بسم الله الرحمن الرحيم ،لا اله إلا الله محمد رسول الله ، وإنا جلسنا على كرسي الملك ، ونحن مسلمون فيتلقون أهل بغداد هذه البشرى ، ويعتمدون في المدارس والوقوف وجميع وجوه البر ما كان يعتمد في أيام الخلفاء العباسيين، ويرجع كل ذي حق إلى حقه في أوقاف المساجد والمدارس ولا يخرجون عن القواعد الإسلامية ، وانتم يا أهل بغداد مسلمون ، وسمعنا عن النبي (ﷺ) انه قال :لا تبرح هذه العصابة الإسلامية مستظهرة إلى يوم القيامة ، وقد عرفنا إن هذا الخبر خبر صحيح ، ورب واحد احد فرد صمد ، فتطيبون قلوبكم ، وتكتبون إلى البلاد جميعها).[2]

---

[1] عبد السلام فهمى ، مرجع سابق ، ص 167.

[2] عادل هلال ، مرجع سابق ،ص 171، انظر نص الرسالة فى ركن الدين بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ص 218 -219 .

وكان إسلام تكو دار رنة فرح بين المسلمين ، وبخاصة الإيرانيين منهم ، واستهل عهده بإظهار إخلاصه وتمسكه بالدين الاسلامى والدفاع عنه ، ويبدو إن السلطان احمد تكو دار اختار أهل بغداد لأولى رسائله المعبرة عن اعتناقه للدين الاسلامى لكي يبين للمسلمين وخاصة المماليك في مصر والشام صدق نواياه نحو مصادقة المسلمين ، وذلك لما يكنه مسلمو المغول من احترام لحاضرة الخلافة العباسية بغداد ، كما لا يستبعد أيضا إن السلطان احمد تكودار كان يبيت في السر تعاطفه مع سلاطين دولة المماليك المسلمين منذ حياة والده هولاكو ، وعهد أخيه اباقا، بدليل أننا لم نسمع عنه اى مشاركة في الصراعات الدامية التي دارت رحاها بين المسلمين والمغول في اعالى الفرات والأناضول ، وقد اعتبره علماء بغداد في ردهم عليه بأنه حامى الإسلام والمسلمين ونعتوه بناشر دين الله المبين ، اما بقية الشعب الاسلامى الواقع تحت نير المغول فقد تجدد الأمل عندهم خاصة الإيرانيين منهم بعد أن غلبوا على أمرهم وملأت الحسرة قلوبهم نتيجة ما اقترفه المغول من فظائع ومصائب ، فتعاطفوا معه وتوطدت علاقة السلطان المغولي بعلماء الدين الاسلامى وعظماء المسلمين ، واتخذهم أصفياء له وأعوانا. [1]

ومما هو جدير بالذكر أم إسلام أحمد تكو دار لم يقصد به الإعلان المحلي بل انه تعداه إلي الإقليمية حيث أرسل كتابا بهذا الصدد إلي العلماء في بغداد يعلن فيها نفسه حاميا للإسلام ، كما كتب أيضا إلى السلطان قلاوون في مصر يخبره بانتقاله إلى الدين الاسلامى وممن معه من المغول ، ومالت سياسته باتجاه السلم والوفاق ونبذ الحرب والعمل علي إزالة سوء التفاهم بينهم وبين المماليك وتوطيد العلاقات وأحكام الروابط بينهما . كما أظهر ألاحسان والشفقة علي جميع المغول وأكابر النصارى . وربما ترجع الخطوة الأخيرة لأهداف سياسية تأمينا لحدوده الغربية ليتفرغ لخصومه في الداخل ، ولكن مقتله على يد ابن شقيقه أرغون أوقف مشروع

---

[1] عبد السلام فهمى ، مرجع سابق ، ص 167.

الصلح مع المماليك واجل مؤقتا انتشار المد الاسلامى بين صفوف القوات المغولية.[1]

كان احمد تكو دار يريد الخير لنفسه ولأهله ولقومه من المغول حتى لا ينفر عنهم المسلمون في إيران وغيرها من البلاد الإسلامية ، لذلك أسرع فور اعتلائه العرش إلي اتخاذ كافة الاجراءت التي تثبت صدق إسلامه . وحاول جاهدا إن يحول كافة المغول إلي الإسلام عن طريق الإغراء ، فصار يبذل ألعطايا والمنح وألقاب الشرف ودخل عدد كبير منهم في الإسلام . كما أتخذ الترتيبات اللازمة كرعاية قوافل الحج إلي مكة وأرسل المؤن إلي أهلها .فاثر هذا التطور اللافت تأثيرا حسنا في نفوس رعاياه من المسلمين . [2]

ويبدو إن أمراء الطبقة الحاكمة ظلوا متمسكين بديانتهم ،مما سيكون له تأثير سلبي على العلاقات السياسية بين العالم الاسلامى ومغول فارس ، إلا إن فضل احمد تكو دار هو انه فتح الباب أمام المغول ليتحولوا إلى الإسلام في المستقبل . [3]

بدأت العلاقات تتحسن بين دولة سلاطين المماليك ودولة مغول فارس إذ أن الدين الإسلامي جمع بين الدولتين وهذا يؤكد أن المغول لم يكونوا خطرا حقيقيا علي العالم الإسلامي في ألمدي البعيد . لأنهم لم يلبثوا أن ذابوا في هذا العالم وصاروا جزءا منه فمنذ معركة عين جالوت سنة 1260م وحتى وفاة اباقا بن هولاكو 1282م مرت اثنان وعشرون سنة ما أهونها في حياة الشعوب والأمم ، وفي هذه الفترة تبدل الحال وصار التتر الوثنيون المدمرون مسلمين متحمسين يدافعون عن دار الإسلام ويساهمون في حضارته . [4]

أراد أحمد تكودار أن يعمق ارتباطه بالإسلام والممالك الإسلامية فأرسل سفارة في سنة 681 هـ / 1282م إلى السلطان المملوكي قلاوون برئاسة شيخ الإسلام كمال

---

[1] ابن تفري بردي ، النجوم الزاهرة ، الجزء السابع ، ص310 أو Sykes Sir Percy. A history of Persia, London 1963, p 159

[2] ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ، ج7، ص310.

[3] محمد سهيل طقوش ، تاريخ المماليك ، ص 195.

[4] محي الدين بن عبد الظاهر ، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ، تحقيق مراد كامل ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، القاهرة 1996م ، ص4 .

الدين عبد الرحمن الرافعي وعضوية كل من قطب الدين الشيرازي قاضي مدينة سيواس وبهاء الدين اتابك مسعود الثاني سلطان سلاجقة الروم .فوصل هؤلاء إلى البيرة ، فسار اليهم الامير حسام الدين لاجين والامير سيف الدين كبك الحاجبان وقد امر السلطان إن يبالغا في الاحتراز على الرسل واخفائهم فساروا بهم في الليل حتى وصلوا بهم إلى قلعة الجبل ، ومعهم رسالة مهمة تفيض حباً في الإسلام وإخلاصاً لمبادئه وحرصاً على حقن دماء المسلمين وحفظ أراضيه إلي السلطان يخبره باعتناقه الإسلام وشرح فيها أهدافه السياسية لأحياء الشريعة الإسلامية في المجتمع المغولي خاصة والعالم إسلامي عامة ، ورغبته أن يظل في سلام مع جيرانه المسلمين والعمل علي توحيد كلمنهم ، وانه امر ببناء المساجد والمدارس في بلاده وحث الناس على المسير إلى ارض الحجاز لاداء فريضة الحج ، وأنه قد عارض قرار القوريلتاي بشأن تسير حملة إلي بلاد الشام ، وهي الحملة التي كان قد تقرر القيام بها في عهد أخيه اباقا للثار من المماليك . كما أخبره بأنه قبض علي جاسوس مملوكي ولم يقتله لأنه بعد الاتفاق وجمع الكلمة لا حاجة للجواسيس ولا غيرهم مما فيه تطييب خاطر السلطان وظهرت رغبته في الصلح وتوقع بالمقابل أن يرسل السلطان وفدا إلي تبريز حتى تزول أسباب العداوة المتأصلة بين المغول الايلخانيين والمماليك . [1]

يلاحظ في رسالة السلطان احمد إلى قلاوون لهجة الاستعلاء الناتجة عن شعوره بالتفوق ورسالته تحمل طابع الوثنية المغولية على الرغم من أسلوبه الاسلامى وورود عدد من الآيات القرآنية و تعد هذه الرسالة وثيقة تاريخية بالغة الأهمية تبين مدى عمق إيمان هذا السلطان لمغولي المتوحش والمتعطش لسفك الدماء إلى صورة مغايرة تتسم بأسمى العواطف الإنسانية الرغبة الصادقة في تقوية دعائم الإسلام ونشره بين المغول الوثنين وجمع كلمة المسلمين في المشرق الاسلامى . [2]

وقد علق السير توماس ارنولد على ما كان للإسلام من اثر في نفس تكو دار احمد بقوله : (إن من يدرس تاريخ المغول ليرتاح عندما يتحول فجأة من قراءة ما

---

[1] تقي الدين المقريزي ، السلوك ، ص708 انظر نص الرسالة ،عند ابن العبرى ، ص 289 –292

[2] محمود سعيد عمران المغول والاروبين والصليبون وقضية القدس دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية ، 1994م، ص414.

اقترفوه من الفظائع وما سفكوه من الدماء إلى أسمى عواطف الإنسانية وحب الخير التي أعلنت عن نفسها في تلك الوثيقة التاريخية التي كتبها تكو دار احمد إلى سلطان المماليك في مصر والتي يدهش الإنسان لصدورها من مثل ذلك المغولي) [1]

ولم يتردد السلطان قلاوون في تجاوبه مع هذه الدعوة ، ونبذ الفرقة والنزاعات، و رد قلاوون على الايلخان احمد تكو دار برسالة تعد مثلا بليغا على الدبلوماسية والفهم هنا فيها الايلخان بدخول الإسلام واثني على جهوده التي يبذلها في تطبيق أحكام الشريعة ، وطالب ان يكون التحالف بين المماليك والمغول ضد العدو المشترك وهم الصليبيين ، وقد رد في رسالته على جميع بنود رسالة السلطان المغولي ويذكر له إن الله أراد به الخير إذ هداه للإسلام ، واخبره انه اصدر أمره إلى نوابه في بلاد الشام بالا يتعرضوا لحرس الحدود وأعرب عن استعداده للتعاون معه لخدمة الإسلام والمسلمين وتسيير سبل التجارة وحماية التجار إلا انه وقف عند هذا الحد. [2]

والواضح أن هذا السلوك من جانب السلطان قلاوون المتسم بالا مبالاة من جانب السلطان قلاوون حكم علي السياسة الخارجية وللسلطان أحمد تكو دار بالفشل وادي حذر المماليك من حكم الايلخان أحمد غير المستقر إلي عدم التعاون المثمرة بين الدولتين .

دعا الايلخان أحمد تكو دار أهل بغداد للسير طبقا للشريعة الإسلامية وإظهار شعائر الإسلام ، كما أمر بأن تترك لهم حرية العمل بسائر الشعائر الدينية حسبما اعتادوا منذ أيام حلفاء بني العباس ، وبين لهم أنه يعرف أن النصر دائما للإسلام وهذا يدل في وضوح علي مدي صدقه في إسلامه وحبه لدينه الجديد . [3]

ونتج عن هذه السياسة التي اتبعها احمد تكودار وقف العداء بين الدولتين وغلب الهدوء على ساحات المواجهة بينهما، إلا أنها من الجانب الأخر أثارت عليه أمراء المغول الحريصون علي التمسك بعقائدهم وتقاليدهم ، ووجدوا أن أحمد تكو دار يهدد كيانهم ويقوض بنيانهم فناصبوه العداء ، واشتكاه قادة المغول للخاقان (قوبيلاى قان) واعتبروا

---

[1] توماس ارنولد، الدعوة الى الاسلام، ترجمة حسن ابراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، 1970م، ص 232.

[2] انظر رد الرسالة عند القلقشندي ، الجزء السابع ، ص257 –258.

[3] ابن العبري ، مصدر سابق ، ص 292 .

مراسلته لسلطان المماليك وجهوده في وقف العداء بين الدولتين المغولية والمملوكية خروجا على أحكام الياسا ، وقلبا للسياسة المغولية رأسا على عقب ، بوضعه حدا للحروب بين مغول فارس والمماليك ، وهم الذين سفكوا دماء المغول انهارا في حروب الشام واسيا الصغرى ، وعاداه الأمير أرغون الذي كان يحقد على عمه ، و يطمع في ولاية العرش بعد وفاة أبيه أباقا خان . وبدأ يحث المغول ويؤلبهم علي أحمد تكو دار وتجهز لمحاربتهم وخاطب المغول قائلا: (تعلمون فوق هذا كيف خرج علي شريعتنا ، بل قد نبذها ونأى عنها وأصبح مسلما يعبد محمدا ، ولم نسمح للمسلمين بالولاية علي التتار) ، فانضم إليه كيخاتو حاكم بلاد الروم السلاجقة ، وبعض أمراء الدولة الأقوياء، وما أن استكمل عدته وعتاده تقدم لقتال عمه ، والتقي أرغون مع أحمد تكو دار بالقرب من خراسان ، وبعد معركة حامية الوطيس حقق أحمد نصرا كبيرا في سنة 682هـ /1283م . عند قزوين ، واسر أرغون وحضرت زوجته وأمه وسألوا السلطان أحمد فعفا عنه واكتفي بسجنه . [1]

يبدو أن المفاوضات من أجل عقد صلح وتحالف بين الطرفين قد تعثرت لأن المماليك لم يبتهجا لهذا التطور الذي اعتبروه سابقا لأوانه .كما أنهم علموا أن رجال الطبقة الحاكمة في دولة المغول الايلخانيين ليسوا متحمسين للاقتداء بايلخانهم وأن الأمير أرغون بن اباقا كان يطالب بالعرش ويتمتع بدعم وتأيد الجماعة البوذية المتطرفة ، وأن الايلخان تعرض لانتقادات شديدة وقد أدي حذر المماليك من حكم الايلخان أحمد على التمسك بعقائدهم وتقاليدهم ووجدوا أن احمد تكو دار يهدد كيانهم ويقوض بنيانهم غير المستقر إلي عدم التعاون المثمر بين الدولتين ، واضحى احمد تكو دار الرجل الخارج على نظم المغول وتقاليدهم ، وأرغون المحافظ على رسوم المغول وآدابهم ، ولا بد إن يزول احدهما ليبقى الآخر ، ويفرض سياسته وتعاليمه على رعايا الدولة الايلخانية، لكن ساد الهدوء جبهات القتال ولم يحدث أي صدام بينهما . [2]

لم تستمر هذه العلاقات الودية سوي عامين قام بعدها أمراء المغول الذين وجدوا في ما انتهجه تكودار خروجا على ما ألفوه من نظم وعرف قبلي – وعلي رأسهم أرغون بن اباقا لينتهي الأمر بعد منازلات حربية بين قوات تكو دار والمنامرين عليه ، ودبروا الفتنة

---

[1] بارتولد شبولر ، مرجع سابق ، ص70.

[2] رجب عبد الحليم ، مرجع سابق ، ص 180 .

بالقصر أطاحت بتكودار وأدت إلى مصرعه سنة 683هـ/1284م ، فكان بذلك أول ايلخان مغولي يعدم ودفع حياته ثمنا لاعتناقه الإسلام ، وبموته فقد المسلمون عونا لهم وتبددت آمالهم وحلت للمرة الثانية أحكام الياسا الجنكيزية والآداب المغولية بدلا من القران الكريم والآداب الإسلامية ، وتولي بعده ابن أخيه أرغون بن اباقا وعاد الصراع مرة أخري ، وكان مقتل الايلخان بداية سيئة لجرأة أبناء الأسرة الايلخانية بعضهم على بعض وإستخفاف أمراء المغول بهم. [1]

إن إقصاء تكو دار عن منصبه لا يقلل من أهمية تلك الجهود التي بذلها في الجبهة الإسلامية وبخاصة تقاربه مع المماليك في مصر والشام وعلي الرغم من إن إسلام تكو دار كان له طابعه المرحلي إزاء أحكام الياسا الجنكيزية وطغيان الشامانية والبوذية على معظم العناصر المغولية ، فانه بطبيعة الحال قد مهد لظهور قاعدة راسخة بين طوائف المغول أسهمت في خلق جيل جديد من العناصر المغولية الراغبة في هضم مبادئ الإسلام وأن تعرضت هذه العناصر لمحاولات من الضغط عند تولى أرغون بن اباقا 683–690هـ/1284 –1292م الذي اشتد في إيذاء المسلمين فلاقوا الأذى وتعرضوا للقهر والظلم الشديد . [2]

وهنا ينبغى إن نؤكد على شيء مهم وهو تحول المغول إلى الاسلام وكان اسلام سلطان المغول تكودار فاتحة خير للعلاقات بين البلدين وبالرغم من وفاته إلا إن حركة انتشار الاسلام بين المغول على المستوى الرسمى والشعبى كانت تتم بشكل سريع حتى دخل التتار في الاسلام وخصوصا مغول القبيلة الذهبية التي ارتبطت مع السلطان الظاهر بيبرس بعلاقات طيبة .

---

[1] رحمة بنت حمود بن فطيس ، مرجع سابق ، ص 49.

[2] شبولر بارتولد ، مرجع سابق ، ص 70.

المبحث الرابع
العلاقات بين سيف الدين قلاوون والايلخان أرغون بن أباقا
683 – 690هـ /1284 -1292م

أرغون هو الابن الأكبر لاباقا خان ، عقد له سنة 683هـ/1284م جلسة القوريلتاى لانتخابه رسميا لتولى عرش المغول في إيران ، فهو رابع ملوك إيران الايلخانيين ، وبعد إعلانه قبل به الجميع وتناول واللهو والشراب كعادة المغول في تنصيب الخان . [1]

وبعد أن انتخب أرغون خانا رسميا لإيران جمع النبلاء الذين كانوا يدينون بالخضوع لأبيه وأعلنوا له فروض الولاء والطاعة باعتباره مولاهم . [2]

وحقيقة الأمر أن أرغون كان بوذيا واعتقد في السحر والشعوذة وقرب إليه علماء الفلك والكيمياء كعادة المغول وأبرز ما ميز عهده السلطة المطلقة التي أعطاها لسعد الدولة اليهودي الذي تحول إلى مستبد وطاغية ومتعصب لكل ما هو يهودي ونالوا مكانة مرموقة. [3]

وسرعان ما اتبع ارغون سياسة تختلف عن سياسة تكودار التي كانت تعتمد اساسا على تاييد الاسلام ونشره والتقرب من المسلمين والرفع من شانهم ، فكانت سياسة ارغون تفيض حماسة وقوة لخدمة المسيحية والمسيحيين رغم انه كان بوذيا ومقيما على بوذيته في قوة واندفاع ، وكان أرغون كمن سبقه من الايلخانات ينظر باحترام إلى خان المغول الأعظم قوبيلاى واعتبره خانه الاعظم . [4]

اما عن سياسته الخارجية في الشرق والغرب فقد كانت مستقرة ولم تنشب أي حرب كبيرة في تلك الآونة حتى مع دولة المماليك في مصر والشام ذلك لان أرغون وجهه اهتمامه إلي جمع المال ، ورعاية اليهود والمسحيين والاهتمام بالكيمياء والفلك وغير ذلك ، ومن ناحية أخري كان المماليك وخاصة السلطان قلاوون مشغولين بالصراع ضد أنصار الملك الظاهر بيبرس وسنقر الأشقر والصليبيين والأرمن ، وكان

---

[1] أحمد مختار العبادي إبراهيم مرجونة ، مرجع سابق ، ص 150.

[2] عباس العزاوي ، مرجع سابق ، ص320.

[3] أحمد مختار العبادي إبراهيم مرجونة ، مرجع سابق ، ص 152.

[4] عبد السلام فهمى ، مرجع سابق ، ص 171.

أرغون يميل إلي المسيحية وعمل علي أصلاح ما تهدم من كنائس علي عهد أحمد تكو دار ، وراسل البابوية في أوربا لتنفيذ مخطط لحملة مشتركة علي المماليك في مصر والشام ، ولكن هذه الاتصالات علي الرغم من أنها لم توت ثمارها المرجوة إلا أنها عملت علي ازدهار المسيحية في الشرق . [1]

اضطهد أرغون بن اباقا المسلمين في دولته بسبب تحزبهم والتفافهم حول منافسه تكو دار احمد ، وبسبب انتصارات قوات المماليك المسلمين على جيوش والده عدة مرات ، وكذلك لتأثير الحاشية المسيحية واليهودية المسيطرة على بلاطه ودفعها إياه للانتقام من رعاياه المسلمين ، خاصة وقد أرسل هذا الايلخان أربعة سفارات للغرب الاوربى لطلب عون قادته ضد المسلمين ، و لأنه كان لا يثق بهم فذاقوا الأمرين علي أيدي البوذيين وتعرضوا للضغط والظلم فابعدوا عن كافة المناصب التي كانوا يشغلونها في القضاء والمالية ، كما حرم عليهم الظهور في بلاطه . وتحكم فيهم وزيره سعد الدولة اليهودى وصار يقضى على ما للاسلام من مكانة ، وينهج سياسة اسلافه او بمعنى اصح السياسة التقليدية للمغول ووهى محاولة الاتفاق مع الصليبيين في حلف لتحطيم قوة المماليك ، تلك القوة التي كانت تقف دائما امامهم وتحول دون تمفيذ اطماعهم ، وكان يتطلع إلي النيل من المسلمين بالوقوف إلي جانب الصليبين في هجومهم المرتقب علي الشرق وتكوين حلف مغولي – صليبي ومساعدتهم في محاولة استرداد بيت المقدس من المسلمين وتكون له القدرة علي مواجهتهم والانتصار عليهم . [2]

ولم يكتف أرغون بالضغط على العناصر المسلمة في داخل إيران بل انه لجا لسياسة ابعد من ذلك ، وهو السير على نهج أسلافه في محاولة التحالف مع القوى المعادية للمسلمين والتعامل مع اى جهة تتعاطف معه ، فوجد ضالته في الصليبيين لضرب دولة المماليك انتقاما من هزيمة والده في موقعة حمص سنة 1281م ، تلك الهزيمة التي شجعت المنتصرين على الانتقام من أرمينية الصغرى مرة أخرى بل

---

[1] Sir Henry Hayle Howorth, History of Monglos from the 9th to the 19th century, London 1927, III p 313

[2] عبد الرحمن بن خلدون ، مصدر سابق ، ص 546.

وتحريض أمراء العراق للتمرد على الحكم المغولي ومراسلة رجال الصفوة المسلمين الذين كانوا تحت إمرة المغول للجوء إليهم . [1]

ولما كان أرغون قد ارتقى عرش الايلخانية بعد عمه تكو دار احمد الذي كان مسلما هو ومعظم قواده ، فضلا عن عداء أرغون للمماليك وغيرهم من المسلمين فانه اتضح لأول مرة بصورة علنية عداء الايلخان المغولي لرعاياه المسلمين وتمثل ذلك في إبعادهم عن المناصب الهامة في الدولة ولبلاط وتودده وحبه للمسيحيين واليهود على السواء ، بل وإسناده منصب الوزارة لسعد الدولة اليهودي رغم أن أرغون نفسه كان بوذيا . [2]

ففي سنة 683هـ /1285م أرسل إلى البابا هونوريوس الرابع ، فلم يستجب له لعجزه عن عقد تحالف مغولي –صليبي ، وأرسل أربع سفارات إلى المقر البابوي في السنوات 1285 و1287 ، و1289 و 1290 ميلادية يقترح فيها جميعا استعداده للقيام بحملة مشتركة مع المقر البابوي لحرب المماليك ، على أن يقوم الغرب المسيحي بغزو مصر في الوقت الذي يقوم هو فيه بغزو الشام ، كما أرسل أرغون سفارة برئاسة رين صوما سنة 685هـ/1287 م إلى الإمبراطور البيزنطي الذي ابدي استعداده لمساعدة المغول حسب ما تسمح به موارده الضئيلة كما أرسل إلى فيلب الرابع ملك فرنسا الذي وعده بالقيام بحملة لاسترداد بيت المقدس لكن أرغون لم يحصل على نتيجة ايجابية واتفاق معين لتنفيذ مشروعه ، فأرسل عدة سفارات إلى البابا وفرنسا وانجلترا لكنه لم يجد تعاونا حقيقيا منهم ، وبخاصة تعد سقوط عكا أخر المعاقل الصليبية بيد السلطان المملوكي الاشرف خليل بن قلاوون سنة 690هـ /1291 م .

ولم يكتف ارغون بذلك العداء السافر والاضطهاد للمسلمين بل ذهب ابعد من ذلك بأن راسل ملوك الغرب المسيحى والبابا ، يعرض عليهم حق الاتجار والتنقل في دولته ، بقصد إضعاف تجارة المماليك ، والقضاء على قوتهم في الشام ، وزاد على ذلك بان أعلن استعداده للتنصرالا إن محاولاته كاها باءت بالفشل ، وان كانت

---

[1] عادل هلال ، مرجع سابق ، ص 118.

[2] المرجع نفسه ، ص 119.

العلاقات العدائية بين الدولتين ظلت كما هى ، اضف إلى هذا تطلع المماليك إلى فتح العراق وذلك ايام الملك الاشرف خليل .[1]

كان لهذه السياسة أسوأ الأثر في نفوس المماليك وعادت العلاقة بين دولتى المماليك والمغول في فارس إلي سابق عهدها من العداء ، ولكن الجبهات العسكرية ظلت هادئة نسبيا فلم تشهد اصطدامات تذكر ولم يقع اى قتال في عهد أرغون مع المماليك ولم يتحقق اى تحالف مغولي مع الغرب الأوربي.[2]

لعل ذلك يرجع إلي انشغال الطرفين بأمور أخري وحاجته إلي الهدوء علي جبهة بلاد الشام ، فانشغل المماليك بالخلافات الداخلية التي نشبت بينهم لاسيما بين قلاوون والمماليك الظاهرية ، بالإضافة إلي عصيان الأمير سنقر الأشقر وثورات الأرمن . كذلك أراد المماليك التفرغ لطرد الصلبين من بلاد الشام أولا طالما كان الخطر المغولي لا يتعدي المناطق الحدودية . أما أرغون فقد انشغل بجمع المال وتكديسه وبالكيمياء وغيرها ، وانشغل جنوده في ميادين أخرى ، وانصراف ملوك أوربا إلى المخاصمات ، ولم يجد أرغون استجابة من الغرب أو حماسا سواء من البابا أو من غيره من الملوك ، ولم يتعد الاهتمام بخطاباته أكثر من قراءتها ، أما النتائج التي نتجت عن اتصال أرغون بالغرب المسيحي فإنها كانت بنفع المسيحية في إيران ونشرها بين مغول الدولة الايلخانية وإنتشارها كذلك في البلاد المحيطة بها ضمن نشاط البعثات المسيحية في الشرق الإسلامي ، كما انقطع أرغون عن الاتصال بالعالم الخارجي تاركا الأمور في يد وزيره سعد الدولة اليهودي . فاضطربت البلاد في أواخر عهده وتصدي له الأمراء وتأمروا عليه وتوفاه الله في سنه 690هـ /1291م قبل أن يتحقق تماما من أن التحالف المغولي – الصليبي لم يعد مجديا بعد سقوط عكا أخر المعاقل الصليبية بيد السلطان الاشرف خليل بن قلاوون سنة 690هـ /1291.[3]

---

[1] فايد حماد عاشور ، العلاقات السياسية ، ص 126.

[2] بارتولد شبولر ، مرجع سابق ، ص71.

[3] عبد السلام فهمى ، مرجع سابق ، ص 181 .

وأراد أرغون إن يضرب المماليك في اتجاه آخر بعد فشله في تحقيق التحالف المغولي الصليبي ، ففكر في إرسال حملة عسكرية لمهاجمة الحرمين الشريفين ، في سنة 690هـ وتحويل الكعبة إلى معبد بوذي لكنة أصيب بالمرض وتوفاه الله في نفس العام ، ويمكن القول إن الحدود بين المغول والمماليك كانت هادئة آمنة . [1]

واتهم اليهود بقتله وعلى رأسهم وزيرهم سعد الدولة اليهودي ، فخرج المغول وقتلوا خلقا كثيرا من اليهود ونهبوا أموالا عظيمة كانت لهم وأقاموا كيخاتو خانا على عرش الايلخانية خلفا لأرغون سنة 690 هـ/ 1292م .

ورغم العداء السافر بين أرغون والمماليك ، فإننا نستطيع أن نوكد بان خروج أرغون على عمه احمد تكو دار ، واضطهاده للمسلمين لم يؤثر على انتشار الإسلام بين صفوف مغول فارس ، اذ يبدو أن جموع المغول الوثنيين نتيجة اختلاطهم بالمسلمين الأصليين في إقليم فارس وجدوا ضالتهم في الدين الاسلامى ، فاقبلوا على اعتناقه ، وأصبح الإسلام دينا رسميا لدولتهم في فارس ، بدلنا على ذلك إقدام عدد من ايلخاناتهم الذين خلفوا أرغون على اعتناق الدين الاسلامى وتطبيق أحكامه داخل دولتهم . [2]

كان عصر أرغون عصر سيطرة اليهود على الحكم ، وقام سعد الدولة اليهودي وزير أرغون باضطهاد المسلمين وإبعادهم عن وظائف الدولة الكبرى ، واتهامهم لدى الايلخان بعدم الإخلاص ، وبأنهم السبب وراء كل مشكلة تعانى منها الدولة الايلخانية. [3]

لقد انتهى حكم أرغون سنة 1292/690م وملك بعده أخوه كيخاتيو اباقا بن هولاكو ، ولم تكن حالة دولة المغول في فارس تسمح لها بتوالى هجماتها على بلاد الشام ، فقد كان من اثر اسراف هذا السلطان في انفاق الاموال الكثيرة على ملذاته إن نفذت خزانة دولته ، وانقسم الأمراء في عهده إلى أحزاب ، فريق أيد كيخاتو ، وفريق ايد أخاه ببدو ، ولم تطل مدة كيخانو فقد حكم لمدة ستة شهور ، ثم قتل في سنة

---

[1] بارتولد شبولر ، مرجع سابق ،ص 71.

[2] عبد السلام فهمى ، مرجع سابق ، ص 174.

[3] رحمة بنت حمود ، مرجع سايق ، ص 51.

693هـ/1295م وتولى الحكم من بعده أخيه ببدو بن هولاكو الذى توج في همذان ، ولكن غازان بن أرغون الذي كان واليا على خراسان تمرد عليه وهزمه ، واصدر امرأ بقتله ، بعد أن جلس على العرش الايلخانى عدة أشهر فقط ، اختلف في عددها لكنها بين ستة وثمانية أشهر ، واستولى غازان على العرش في سنة 693هـ/1295م واسلم على يد الشيخ صدر الدين بن حمويه الجوينى وظل التتار على الإسلام وان كانت علاقتهم بسلاطين المماليك تتأرجح بين العداوة والصداقة . [1]

والواقع إن قوة المغول الايلخانيين قد تراجعت بعد وفاة اباقا ،في الوقت الذي تعاظمت فيه قوة المماليك ، وأضحت الدولة المملوكية اكبر قوة ضاربة في الشرق الأدنى ، ولم يتسن للمغول مواجهة المماليك إلا بالتعاون مع عدو ياتى من وراء البحار، وأما الغرب الاوربى فكان أيضا بحاجة ماسة للتعاون العسكري مع المغول لان المماليك كانوا يسقطون عاما بعد آخر واحدا من مواقع الصليبيين الهامة في بلاد الشام ، في الوقت الذي انهمك فيه بحروبه الإقليمية ومشكلاته الداخلية . [2]

---

[1] قاسم عبده قاسم وعلى السيد ، مرجع سابق ، ص 189.

[2] سهيل طقوش ، المغول العظام ، ص245.

المبحث الخامس
العلاقات بين الاشرف خليل بن قلاوون والمغول
689 – 693هـ/ 1290 – 1293م

لم يكن السلطان المنصور قلاوون يتصور بان السلطة ستستمر في أعقابه أكثر من قرن ، لأنه كان مملوكا قبل أن يكون سلطانا ، وحطم بنفسه مبدأ الوراثة عندما عزل سلامش بن الظاهر بيبرس من السلطة ليتولي هو الحكم بدلا منه وكان قلاوون وقع اختياره على ابنه علاء الدين ليكون وليا لعهد السلطنة كما فعل من قبل بيبرس عندما اختار ابنه بركة خان لولاية عهده ، فجمع قلاوون لذلك الأمراء وعرض عليهم ما استقر عليه رائه من تفويض ابنه الأكبر ولاية العهد فاقروه علي رائه وكان الدافع لقلاوون علي أقامة ابنه سلطانا في حياته أنه كان دائم السفر إلي بلاد الشام لمحاربة التتر ورأي أن يقيم ابنه مكانه سلطانا في إدارة شئون مصر إثناء غيابه مع منحه لقب السلطنة حتى تكون له الهيبة في نفوس الأمراء والأهالي . وتم ذلك وتقلده علاء الدين علي بن قلاوون السلطنة بحضور الأمراء وتلقب(بالملك الصالح) وكان ذلك في سنة 679هـ – 1280م . [1]

ولكن علاء الدين توفاه الله في حياة أبيه بعد إن بقى على العرش مدة ثماني سنوات (679 –687هـ /1280 –1288 م) فعهد قلاوون من بعده لابنه الثاني خليل ولقبه (بالا شرف) إلا أن بعض المؤرخين ذكروا أن قلاوون امتنع عن تولية خليل العهد فيرجع السبب في ذلك لأنه كان مبغضا عند كثير من الأمراء لاستهانته بهم وتصغيره شانهم ، ولما اتصف به من القسوة وعدم التدين ، ثم لاتهامه بدس السم لأخيه علاء الدين ولكن هذا لم يمنع أن يؤول الملك إلى خليل عند وفاة والده في سنة 689هـ/1290م وأعلن نفسه سلطانا دون أن تمر البلاد بالاضطرابات المعتادة التي كانت تحدث بين ولاية سلطان راحل وبين ولاية سلطان جديد . [2]

رفض السلطان قلاوون إن يوقع كتاب ولاية العهد لابنه الثاني خليل لاعتقاده في سوء خلقه وعدم أهليته لتولى الملك وسرعان ما أثبتت الأيام صدق نظرة الأب قلاوون وسبب مخاوفه من ابنه خليل وحقيقة إن خليلا عرف بالشجاعة والبأس وله مواقف

---

[1] سعيد عاشور ، العصر المماليكي ، ص102.

[2] عبد الرحمن بن خلدون ، مصدر سابق ، ص 478.

مشهودة في محاربة الصليبيين والتتار ، ومع ذلك فهو السلطان الذي اقترن اسمه في التاريخ بمحو الصليبيين من الشام ولكن ذلك جاء مصحوبا بنزعة تعسفية في أخلاقه ،فغدر بالأمراء واستخف بهم مما عجل بنهايته. [1]

افتتح الاشرف عهده بقتل حسام الدين طرنطاي نائب السلطنة بعد أن سمع أنه يريد الفتك به طمعا في السلطنة فقبض عليه وقتله غدراً الأمر الذي اثأر إستياء الأمراء ومخاوفهم . وعين الأمير بدر الدين بيدرا نائبا للسلطنة ، وأقطعه أقطاع الأمير طرنطاي نفسه فازداد نفوذ بيدرا في الدولة وأخذ يتطلع بدوره إلي السلطنة فازداد العداء بينه وبين الاشرف خليل ، ولكن سرعان ما أنقلب الاشرف خليل علي بيدرا بعد أن ثبت له أن أملاكه قد اتسعت وأن ثروته قد زادت ، فاستعاد منه بعض الأراضي التي كان قد استولي عليها وضمها إلي أملاكه . ومما زاد من غضب السلطان علي بيدرا عبثه بأموال الدولة واستيلائه علي متاجر الإسكندرية فقرر الاشرف التخلص منه . [2]

ثم أن الاشرف خليل عزل الأمير علم الدين سنجر الشجاعى من الوزارة وعين بدله شمس الدين محمد بن السلعوس ، وقد ازدادت مكانة ابن السلعوس في الدولة بعد إن فوض أليه السلطان خليل شئون الأمراء ، وهكذا ظهر التنافس بين بيدرا نائب السلطنة وابن السلعوس الوزير ، فاخذ ابن السلعوس يوغر صدر السلطان على بيدرا، وأوهمه إن أملاكه قد اتسعت ونفوذه ازداد حتى غدا خطرا على السلطان نفسه . [3]

رأي بيدرا أن يتعاون مع الأمراء المعارضين للاشرف خليل واتفق مع الأمير حسام الدين لاجين علي قتله في أقرب فرصة ، ولقد حانت الهم عندما نزل الاشرف خليل 693هـ/1253م في بلدة تروجه من أعمال البحيرة للصيد فقام ببدرا والأمراء المتآمرين بقتله وتركوه في المكان الذي قتل فيه ، وكان حاكما قديرا شديد البأس ، مهيبا في أعين الناس ،كان بطلا لا يكل الحروب ليلا ونهارا ، موفقا في تحركاته الجهادية ، وانتهت سلطنته القصيرة لم تكن أكثر من ثلاث سنوات وتشاور الأمراء

---

[1] سعيد عاشور ، العصر المماليك ، ص101.

[2] ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج7 ، ص 320.

[3] سعيد عاشور ، العصر المماليكي ، ص102.

قبل أن يغادروا مكان الجريمة في أمر السلطنة ، فاتفقوا علي تولية بيدرا . ولم يكد الأمير زين العابدين كتبقا يعلم بمقتل الاشرف حتى سار بمن معه من المماليك ولحقوا بالسلطان بيدرا عند بلدة الطرانة وقتلوه وتتبعوا اثر الفارين من إتباعه .[1]

علاقة الاشرف خليل و الايلخان كيخاتو خان 690 -694هـ /1291 – 1294م:

كان كيخاتيو خان هو الابن الثاني لاباقا خان بن هولاكو بن تولاى بن جنكيز خان . أمه من قبيلة التتار نصب خانا علي مغول إيران عام 690هـ /1291م رغم سعي بعض الأمراء المغول لتولية (بايدو) ابن طوغان حفيد هولاكو بدلا منه لكن بايدو رفض ذلك احتراما لما تنص عليه الياسا من أحقية كيخاتو بالولاية .[2]

تولى كيخاتيو عرش الايلخانية بعد وفاة أرغون 690–694 هـ/ 1291 – 1295 م ولم تكن حالة دولة المغول في هذه الفترة تسمح لها بمتابعة سياسة الغزو والإغارة على بلاد الشام لأسباب أهمها الصراع الداخلي بين الأمراء المغول حول الاستيلاء على العرش .[3]

عادت العلاقات الحربية بين دولتي المماليك والمغول بعد وفاة أرغون بن اباقا في سنة 683هـ/1284م سيرتها الأولى، واخذ المماليك يتطلعون في عهد السلطان الاشرف خليل إلى إجلاء المغول عن العراق . على أن المماليك وان لم يقدموا على تنفيذ هذا المشروع في عهد الاشرف خليل فأنهم اخذوا يتربصون الدوائر بالمغول ، فلما أغاروا على الرحبة خرجت إليهم طائفة من جند دمشق لصدهم ، وتمكنت من ردهم على أعقابهم في سنة 691هـ .[4]

اقتفى كيخاتو سياسة والده في الاعتدال بين طوائف الشعب ، وأعاد المسلمين إلى الوظائف ، وجعل الوزارة في أيديهم ، وابرز ما في عهد هذا الخان عودة منصب الوزارة إلي المسلمين وأصبح أكثر ميلا إليهم عندما فوضهم أمرها ، فتولاها (خواجة صدر الدين أحمد الخالدي) ولقب بصدر جيهان أي (صدر العالم) وأعطاه كيخاتيو

---

[1] مفيد الزيدي ، مرجع سابق ، ص44.

[2] أحمد مختار العبادي ومحمد علي مرجونة ، مرجع سابق ، ص153.

[3] بارتولد شبولر ،مرجع سابق ، ص 71 .

[4] صبحي عبد المنعم حسين ، مرجع سابق ، ص 214.

سلطة واسعة ومطلقة حني أصبح علي قدم المساواة مع القائد العام لجيش المغول . واعفي العلماء ورجال الدين وال البيت من الضرائب ووزع الأموال على المحتاجين [1]

وتزامن الجلوس كيخاتيو مع ثورة جماعة من التركمان اليونانيون في بلاد الروم سنة 691هـ/1292م فتوجه إليهم كيخاتو بنفسه وهزمهم بعد قتال عنيف استمر عشرة أشهر ، وتميزت ثوراتهم بالعنف والدمار ، وأظهرت أمراء المغول علي غير عادتهم مفككون لا تربطهم وحدة وتماسك ، وهم الذين كان يضرب بهم المثل فئ الوحدة والطاعة ، ثم قامت ثورة بخراسان ترأسها وقادها حاكم خراسان المغولي ، فأرسل إليه كيخاتيو نائبه فاستطاع إخماد هذه الثورة . ولم تحدث أي تحرشات من جانبه ضد المماليك أو اتصالات بالغرب الاروبي . [2]

رحل السلطان الاشرف خليل من القاهرة قاصدا بلاد الشام في ستة 691هـ /1292م على رأس جيش كبير وبصحبته وزيره الصاحب شمس الدين بن السلعوس ثم زحف من دمشق إلى حلب قاصدا قلعة الروم لضمها ، وكانت في طاعة التتار ، حين علم أن أهلها يوادعون التتار ويحرضونهم على المسلمين ، وقلعة الروم هذه ذات موضع حصين غربى الفرات مقابل البيرة ، ولما اقترب منها اخذ في محاصرتها حتى تمكن من فتحها عنوة بعد حصار دام ثلاثة وثلاثين يوما وسماها قلعة المسلمين . وعاد إلى دمشق ثم إلى القاهرة. [3]

وظل المغول يتطاولون علي بلاد الشام ومصر ويحاولون التوسع في تلك البلاد. وكان ملك المغول كيجاتو الذي خلف أخاه أرغون سنة 690هـ /1291م قد أسرف في إنفاق الأموال الكثيرة علي ملذاته حني نضبت خزائنه مما أدي إلي ضعف دولته ، فاضطر هذا الايلخان إلي اللجوء لأسلوب الحرب الباردة مع المماليك . فأرسل إلى السلطان الاشرف خليل رسالة يطلب منه أن يعيد له حلب لأنها مما فتحه هولاكو وهو يريد الإقامة فيها وان لم يسمح له فسيأخذ بلاد الشام ، ولقد أجابه السلطان بأنه(قد وافق ذلك ما كان في نفسي فأنى كنت علي عزم من اخذ بغداد

---

[1] أحمد مختار العبادي ومحمد علي مرجونة ، مرجع سابق ، ص.154

[2] المرجع نفسة ، ص 154.

[3] المقريزي ، السلوك ، ج7 ، ص786.

واقتل رجالك فاني أرجو أن أردها دار إسلام كما كانت وستنظر أينا اسبق إلي بلاد صاحبه) . [1]

يتضح من هذه الرسالة مدى القوة التي كان يشعر بها السلطان المملوكي الاشرف خليل تجاه ايلخان المغول حيث تظهر فيها روح التحدي والمبادرة . لذلك بادر الاشرف خليل بالكتابة إلي نوابه في بلاد الشام للاستعداد وتجهيز الجيوش لهذا الأمر في سنة 692هـ /1293م إلا أن هذه الاستعدادات قد توقفت ولم يكتب لها أن تتم بسبب وفاة كل من السلطان المملوكي الاشرف خليل بن قلاوون سنة 693هـ/1294م وايلخان المغول كيخاتو سنة 694هـ/1295م . اذ خرج بيدو على كيخاتو والتقى معه في قتال شديد انتهى بمقتل كيخاتو واستغل بيدو بالملك فخرج عليه نائب خراسان غازان بن ارغون وجمع الجيش وفاتل بيدو حتى اخذ الملك منه وقتل بيدو بعد معركة حامية قرب همذان ، وكان بيدو محبا للنصرابية وبذل كثيرا من الجهد لوضع العقبات في سبيل نشر الاسلام بين المغول. [2]

لقد كان الاشرف خليل ملكا شجاعا مقداما مظفرا في حروبه . تمكن من فتح عكا وصور وبيروت وقلعة الروم ، ونازل المغول وردهم علي إعقابهم وقد كانت مدة سلطنته ثلاث سنين وشهرين . ولم تحدث اصطدامات تذكر بين المماليك ومغول فارس في عهده ، إنما استمر أرغون في تنفيذ سياسة التحالف مع القوى المحلية والأوربية ،للتصدي للمماليك ، ففى سنة 691– 1292م ،التفت السلطان الاشرف خليل إلى القضية المغولية ، وكان قد فرغ من تصفية بقايا الإمارات الصليبية في بلاد الشام للإستيلاء على عكا أخر حصن لهم في الشرق في 690هـ – 1297م بعد أن لبث في أيديهم مائة عام كاملة وخرجوا من بلاد الإسلام إلى غير رجعة وليقضي بذلك على كل أمل بإستعادة البلاد المقدسة ، فركز قواه ليسحق المغول الذين كانوا لا يزالون شوكة في جنب مصر.[3]

---

[1] محمد جمال الدين سرور ، دولة بني قلاوون فيمصر ، دار الفكر العربي ، 1947 م ، ص173.

[2] فايد حماد محمد عاشور ، العلاقات السياسية، ص 198م.

[3] Runciman Steven, A History of the crusads , New York Conbridge University, Press, 1952. P.410.

من الملاحظ انه لم تحدث اضطرابات في الشام عقب وفاة قلاوون وقيام الاشرف خليل في السلطنة سنة 1290م ، أو عقب الاشرف خليل وقيام أخيه محمد بن قلاوون في السلطنة سنة 1293م .

يبدو إن جهاد الاشرف خليل لطرد بقايا الصليبين ، وتصفية قواعدهم لم يشفع له لدى كبار الأمراء الذين ازداد حنقهم عليه لغدره واستخفافه بهم ، خاصة بعد فتح عكا حيث صار يتمادى في كبريائه وتعاظمه عليهم حتى ضاقوا به ذرعا ، واخذوا يفكرون في التخلص منه ، وكان قد هالهم ما فعله بنائبه طرنطاى من قبل ، فخشوا على أنفسهم ، وكانت العداوة قد نشبت بين السلطان وبين نائبه بدر الدين بيدرا نتيجة دسيسة من الأمير شمس الدين بن السلعوس ، الذي أوهمه بان أملاك بيدرا اتسعت بشكل يهدد السلطان نفسه ، فأقدم السلطان على انتزاع بعض الاقتطاعات من نائبه وضمها إلى أملاكه وعلى الرغم من انه كان ينقم على بيدرا بسبب عبثه بأموال الدولة، فانه ما لبث أن خشي باسه ، وشعر بتغير بيدرا عليه ، فحاول استرضاءه ولكن محاولاته لم تنفع في إعادة الصفاء بين الرجلين . [1]

وتعتبر هذه العداوة السبب في القضاء على السلطان ، وتعيد مأساة قطز نفسها ، فاتفق كل من بيدرا وحسام الدين لاجين على قتله ، وتحينوا فرصة لتحقيق مآربهم ، وقد حانت الفرصة عندما خرج السلطان للصيد ،كما ذكرنا من قبل .

تمكن بايدو حفيد هولاكو وحاكم بغداد والعراق من إعلان الثورة على كيخاتو ثم هزيمته وقتله ، وتولى الحكم بعده مدة ستة شهور 694 هـ – 1295 – 1296 م ، وذلك بعد اجتماع القوريلتاى بالقرب من مدينة همذان ، حيث قرروا بالإجماع تنصيبه على العرش الايلخانى ، وكان بايدو فى تلك الفترة صغير السن ، قليل الخبرة ، وعلى اثر توليته تخلص من أتباع سلفه كيخاتو ، وقرر إعادة الوظائف والحقوق إلى أصحابها ، واعفي الأوقاف الإسلامية من الضرائب ، ولم يكن هوى بيدو مع المسلمين ، غير انه في الوقت نفسه لم يكن يضمر عداءا ظاهرا للإسلام ، ولكن

---

[1] محمد سهيل طقوش ، تاريخ المماليك ، ص 210.

قوتهم وانتشار الإسلام بين المغول فرض عليه التزام جانب الحذر في علاقته بهم ، فابقي الوزارة في أيديهم واضطر في بعض الأحيان إلى التظاهر بالإسلام. [1]

لم يكد بايدو يتولى العرش ويستتب له الأمر حتى ثار عليه الأمير غازان بن أرغون الذى كان والياً على خراسان من قبل والده حتى ذلك الوقت ، والذي عظم عليه ما حدث لعمه كيخاتو ، وأيده فى ذلك الأمير نوروز احد أمراء المغول الذين اسلموا وخلص إسلامهم ، وقد اعتنق غازان الإسلام على المذهب الحنفي وسمى نفسه محمودا ، واقتدى به نحو مائة إلف من المغول فدخلوا الإسلام كذلك ، وجهز جيشاً لملاقاته فلم يستطع بيدو الصمود أمامه وقد تمكن غازان من التغلب على بايدو وقتله وتولى مقاليد الأمور وكان مقتله (1295م) نهاية لوثنية الحكم الايلخانى . [2]

وهكذا كانت نهاية بيدو الذي إرتقى العرش قبل أن يجف دم إبن عمه كيخاتو وطيلت الأشهر التي قضاها يحمل اسم ايلخان لم يعرف عنه أنه إستقر في البلاط إلا ليطارد أو يطارد حتى سقط بنفس الطريقة التي إرتقى بها.

---

[1] عبد السلام فهمى ، مرجع سابق ، ص 187.

[2] صبحى عبد المنعم ، مرجع سابق ، ص 33.

الفصل الخامس

العلاقات بين الملك الناصر محمد بن قلاوون و المغول

693-726 هـ / 1293 – 1235 م

المبحث الاول : عهد الناصر محمد بن قلاوون

المبحث الثانى : العلاقات بين الناصر محمد والايلخان غازان 694 -703هـ / 1295 -1304م

المبحث الثالث : العلاقات بين الناصر محمد والايلخان اولجايتو 703 -716 هـ /1304 -1316م

المبحث الرابع : العلاقات بين الناصر محمد وابو سعيد 716 -735 هـ /1216 -1235 م

المبحث الخامس : اثر العلاقات بين المماليك والمغول على العالم الاسلامى

المبحث الاول
عهد الناصر محمد بن قلاوون

شهدت دولة سلاطين المماليب قيام أسرة حاكمة على مدى أجيال ثلاثة وهى أسرة قلاوون الذي حكم هو وأولاده وأحفاده مدة تزيد على قرن من الزمان .

يرى بعض الباحثين انه لا يمكن تفسير هذه الظاهرة السياسية في تاريخ دولة سلاطين المماليك في ضوء أيمان المماليك بمبدأ وراثة العرش وإنما هي مجرد ظروف وملابسات أحاطت بسلاطين تلك الأسرة التي حكمت مصر والشام والحجاز منذ سنة 678 هـ/ 1279م حتى سنة 784 هـ/1382م. [1]

ينقسم حكم الناصر محمد إلى ثلاثة أقسام :

سلطنته الأولى (693-694هـ /1293-1294م) ويتلوها اغتصاب ملكه بوصول كل من العادل زين الدين كتبغا (694 -696هـ /1294-1296م) والمنصور حسام الدين لاجين (696-698هـ /1296-1298م) إلى العرش ، وفى غضون تلك الفترة يقيم الناصر بالقلعة ولا يسمح له بالظهور ، ثم لا يلبث إن يرحل إلى الكرك في عهد السلطان لاجين سنة 696 /1296م ، ولكن الاضطرابات والفتن التي قامت في عهد كل من كتبغا ولاجين ، والضعف الذي انتاب البلاد أثناء حكمهما ساعدا على عودة الناصر إلى العرش .

أما سلطنته الثانية (698-705هـ / 1299 -1309م) فقد اشتد الضيق عليه فيها كما اشتد استخفاف الناس بأمره خلالها ، حتى اضطر في النهاية للرحيل إلى الكرك ثانية ليتخلص مما هو فيه من مذلة ، وليقيم هناك حتى تستقيم أحوال البلاد ،غير إن نزوحه عن مكان ملكه وخلو جوها من المتآمرين عليه مكن المظفر زين الدين بيبرس الجاشنكير المعروف في تاريخ دولة المماليك باسم بيبرس الثاني (708-709هـ/1308-1309م) من اغتصاب العرش لنفسه ، ولكن هذا لن يصرف أذهان الناس عن الناصر وتعلقهم به وعقيدتهم الراسخة في انه هو سلطانهم الشرعي ، الذي يستطيع دون سواه إن يخلصهم من الفوضى التي سادت أثناء حكم بيبرس الجاشنكير ، فأوفدوا إليه الرسل

---

[1] حامد زقان غانم ، محاضرات في تاريخ الأمويين والمماليك ، دار الثقافة العربية ، بدون تاريخ ، ص 186.

يرجونه العودة إلى عرش أبيه ، والحوا عليه في ذلك حتى أجاب طلبهم وعاد إلى مصر موفور الجانب ليقبض على زمام الأمور هذه المرة بيد من حديد .[1]

بذلك تبدآ سلطنته الثالثة (709 -741هـ /1310 -1340م) وهى التي انفرد فيها بحكم مصر ، وتمكن من القضاء على الذين أقاموا الفتن وأثاروا الدسائس حوله واغتصبوا عرشه ، وقد استمرت هذه الفترة اثنين وثلاثين سنة ،وهى المدة التي يعدها المؤرخون عهد سلطنة الناصر الحقيقية ، إذ انه لم يكن ألعوبة في ايدى الأمراء الأقوياء يجلسونه على العرش أو يصرفونه عنه حسب أهوائهم كما حدث في سلطنته الأولى والثانية عندما كان ظهور الطامحين في العرش من أقوياء الأمراء مثل كتبغا ولاجين وبيبرس الجاشنكير كافيا للقضاء على ملك الناصر فترة من الزمن ، ولكن هؤلاء لم تتوافر فيهم الكياسة وحسن تصريف الأمور ، الخصلتان اللتان اتصف يهما رجل مثل قلاوون ، فلم يطل عهدهم بالحكم .[2]

وعلى ذلك يمكن القول إن عصر الناصر محمد يمثل عهد وراثة تخللنه فترات اغتصاب لا تكاد تظهر حتى تختفي ثم يعود وارث العرش فيستمتع بحقه في ملك أبيه ، وكانت حوادث عصر الناصر تدور حول اغتصاب عرشه ، فاتخذ الأمراء من صغر سنه فرصة سانحة لتحقيق مطامعهم غير آبهين لمبدأ الوراثة الذي ظل مشكوكا فيه خلال الدولة المملوكية من أولها إلى آخرها .

سلطنة الناصر محمد الأولى 693-694هـ / 1293-1294م:

بقتل السلطان الاشرف خليل تكررت نفس الأحداث التي حدثت عقب مقتل قطز من قبل إذ اجتمع المتآمرون في مسرح الجريمة وقبل إن تجف دماء ضحيتهم للتشاور في مصير السلطنة وكان إن استقر رائهم على تعيين زعيم المؤامرة الأمير بدر الدين بيدرا سلطانا ولقبوه (الملك الرحيم) وقيل (الملك الأمجد)، وحلفوا له ولم يبق بعد ذلك سوي أن يغادر السلطان الجديد مكان الجريمة إلي القلعة ليتم تنصيبه رسميا .[3]

---

[1] على ابراهيم حسن ، مرجع سابق ، ص 64.

[2] المرجع نفسه ، ص66.

[3] ابو الفداء ، مصدر سابق ، ص 30 .

ولم يكد الأمير زين الدين كتبغا يعلم بذلك حتى سار بمن معه من المماليك السلطانية فداهموا الجناة على حين غفلة بالطرانة ، وأحاطوا بيدرا وقتلوه وتتبعوا اثر الفارين من أتباعه ، وسار الأمير زين الدين كتبغا بعد الانتصار عائدا إلى القاهرة،ليتربع على السلطنة ، غير إن الأمير علم الدين سنجر الشجاعى . الذي كان السلطان الملك الاشرف خليل قد أنابه عنه بقلعة الجبل قبيل رحيله إلى تروجه . حال بينه وبين العبور إلى المدينة ، ثم دارت مفاوضات بين الطرفين ، وما زالت الرسل تتردد بينهما حتى وقع الاتفاق على تعيين الملك الناصر محمد بن قلاوون بالسلطنة ، ولقب (الناصر محمد أبى الفتوح)، ومن ثم سمح للأمير زين الدين كببغا ومن معه المماليك بدخول القاهرة .[1]

كان للبيئة التي عاش فيها الناصر محمد اثر عظيم فيما نشا عليه من صفات، وانعكست عليه كثير من صفات أبيه قلاوون، فقد كان لا يميل إلى سفك الدماء، محبا لجمع المال ،مهتما بالمشروعات الحيوية، نشا محبا للغزو والفتح ،ميالا للسيطرة والنفوذ.[2]

أعتلى الناصر محمد قلاوون عرش السلطنة في سنة 693 هـ/1293م و كان له من العمر تسع سنوات ، وكان من الصعب على ذلك الصبي إن يتحمل إدارة شئون تلك الدولة الواسعة ، وان يواجه ما يقيمه أمراء مصر في وجهه من فتن وقلاقل ، إلا إذا كان بجانب السلطان الطفل من كبار الرجال واحد يجمع بين الاعتقاد في وجوب المحافظة على السلطنة لوارثها حتى يبلغ أشده ، والمقدرة على كبح جماع الأمراء الطامعين إلى النفوذ ، غير إن مثل هذا الرجل لم يكن ليوجد بين أمراء المماليك الذين تربوا في طباق قلعة الجبل على حب الرياسة والطموح إلى السلطنة نفسها ، والذين لم تكن بيئتهم ونشأة السلطان من بينهم تساعدانهم على الاقتناع بمبدأ وراثة العرش ، لذلك لم يستطع احد من أبناء السلاطين إن يبقى على عرش ابيه طويلا .[3]

ولما تولى الناصر محمد الملك ، استقر الرأي علي تعيين الأمير زين الدين كتيغا نائباً للسلطنة ، والأمير علم الدين الشجاعى وزيرا له ، وكان من الطبيعي إن يفتتح

---

[1] محمد جمال الدين سرور ، دولة بني قلاوون ، ص 31.

[2] على ابراهيم حسن ، تاريخ المماليك البحرية ،مكتبة النهضة المصرية ،1944 ، ص62.

[3] على ابراهيم حسن ، مرجع سابق ، ص 65.

الناصر عصره بتعيين كتبغا في هذا المنصب ، فإن كتبغا هذا كان زعيم المماليك الذين اخلصوا لذكرى الاشرف خليل، وذبحوا قاتله الأمير بيدرا واجلسوا الناصر على العرش ، فتعيينه اتابكا ونائبا للسلطنة أمرا كان متوقعا ، وبه يتكرر المنظر المألوف في دولة المماليك وهو اختيار صبى صغير ليرث العرش علي إن يستأثر بالسلطنة أمير قوى ، ولكن نفوذه لا يكن بدرجة تمكنه من فرض نفسه على الساحة السياسية والاستيلاء على السلطة ، و أصبح الأمير كتبغا هو القائم بجميع أمور الدولة ، و ليس للناصر إلا الاسم فقط ، كذلك عين الناصر محمد علم الدين سنجر الشجاعي وزيراً له . و سرعان ما ظهر التنافس بين كتبغا و الشجاعي بسبب رغبة كل منهما للاستئثار بالسلطة . [1]

وبتعيين كتبغا اتابكا للعساكر ونائبا للسلطنة نلمح من بداية عصر الناصر شبح الاغتصاب يحاول الظهور ، فقد بدا كتبغا عهده بالدور الذي سبقه إليه الأمير قطز مع السلطان على بن أيبك في سنة 655هـ /1280م ، ولكن هناك فارقا بين ما فعله أولئك الاتابكة مع أولاد سلاطينهم ، وما فعله الأمراء الذين اغتصبوا عرش الناصر محمد ، ذلك إن هؤلاء المغتصبين الأولين لم يمكنوا السلاطين المعزولين من العودة إلى عروشهم ، على حين نجد إن مغتصبي عرش الناصر محمد ينهار ملكهم وتقوض عروشهم بسرعة ويعود الناصر ثانية إلى الحكم . [2]

دارت حوادث عصر الناصر محمد في سلطنته الأولى منذ بداية حكمه حول اغتصاب عرشه ، وكان اشد القائمين بتلك الحركة ثلاثة من كبار الأمراء وهم علم الدين سنجر الشجاعى والوزير زين الدين كتبغا اتابك العسكر وحسام الدين لاجين ، وكان الخلاف الذي قام به هؤلاء الأمراء أهم ما حدث في ذلك الوقت ، فقد كان لكل منهم آمال ومطامع في اعتلاء عرش السلطنة ، واتخذ كل منهم من حداثة سن الناصر محمد فرصة سانحة لتحقيق أغراضه ، ومن ذلك يتضح لنا إن الحالة في مصر لم تكن مستقرة، فكثيرا ما كان الأمراء يتنافسون على المملكة حتى إن بعضهم كان يعمل على إقصاء البعض الآخر عن مناصب الدولة . [3]

---

[1] عبد الرحمن بن خلدون ، مصدر سابق ، ج5 ، ص478 .

[2] على ابراهيم حسن ، مرجع سابق ، ص66.

[3] محمد جمال الدين سرور ، دولة بني قلاوون ، ص 33.

و عندما علم الأمير حسام الدين في القاهرة – و هو أحد الأمراء الذين اشتركوا في قتل الأشرف خليل و كان كثيفا قد حماه – سعى إلي كتبغا و التمس منه الحصول علي عفو من الناصر محمد ، فعفا الناصر محمد عنه ، و لكن هذا العفو أغضب مماليك الأشرف خليل الذين لم ينسوا أنه ساهم في قتل سيدهم ، فقام المماليك الأشرفية في سنة 694هـ –1294م بثورة في مصر و القاهرة ، و لكن السلطات استطاعت أن تقضي علي هذه الثورة ، و قبضت علي الثائرين و ضربت أعناق بعضهم ، و قطعت أطراف البعض الآخر ، و كان عددهم يزيد علي الثلاثمائة مملوك . [1]

كذلك لم ينج شمس الدين بن السلعوس وزير الاشرف خليل من الاضطهادات التي لحقت بغيره من الأمراء ، فقد رأى علم الدين سنجر الشجاعى أن الفرصة قد حانت للتخلص منه ، واخذ ينقص من شانه عند نائب السلطنة مما حمله على القبض عليه ومصادرة أمواله وإنزال اشد العقوبات به حتى توفاه الله سنة 693هـ. [2]

وتركز النزاع بين الأمير الشجاعى وكتبغا ، وانضم إلى كل منهما عدد كبير من الأنصار والأتباع ، ولما وصلت الاتصالات بشان تسوية الخلاف بين الرجلين إلى طريق مسدود ،شرع كتبغا في الزحف على القلعة وقد تحصن الشجاعى فيها ، فحاصرها وقطع الماء عنها ، وحاول المماليك البرجية فك الحصار عنها لكنهم فشلوا في ذلك ، وشدد كتبغا الحصار الذي استمر مدة سبعة أيام انضم إلى صفوفه خلالها معظم أتباع الشجاعى .

وحاولت أم السلطان الناصر محمد التوسط بين الأميرين الثائرين لإخماد الفتنة ، فاوحت إلى ابنها بان يعرض على الأمير الشجاعى نيابة حلب ، ولكن الشجاعى لم يعجبه الاقتراح وأغلظ على السلطان في القول فقبض عليه المماليك الذين كانوا في حضرة السلطان وقتلوه . [3]

وعمد كتبغا بعد مقتل الشجاعى إلى الإفراج عن الأمراء المعتقلين ورد إليهم أقطاعاتهم ، في خطوة لاستقطابهم وإضعاف شوكتهم حتى لا يثوروا في وجهه إذا استغل

---

[1] تقي الدين المقريزي ، السلوك ، ص 805.

[2] المصدر نفسه ، ص 797.

[3] حمدى عبد المنعم حسين ، مرجع سابق ، ص 190.

بالسلطة في المستقبل ، كما حاول استقطاب الأميرين لاجين وقراسنقر اللذين اشتركا في قتل الاشرف خليل . [1]

وانتهت تلك الحوادث والناصر لايزال صاحب ا لساطنة الشرعي في مصر برغم أنه لم يكن له من الأمر شئ ، ولكن هذه الحوادث قد ساعدت علي تقريب أجل حكمه ، وأدت إلي القضاء علي الشجاعي وجعلت كتبغا صاحب النفوذ الحقيقي في مصر . وثاني الأمور التي أثرت في مجري الأحول في مصر إذ ذاك بالإضافة إلي ذلك الخلاف الذي قام بين كتبغا والشجاعي هو ظهور حسام الدين لاجين في القاهرة ، وعلي إثر ظهوره اضطربت الأحوال وقام المماليك الاشرفية في سنة 694 هـ /1294م بثورة عنيفة بدأ بعدها لاجين يحسن للأمير كتبغا الوصول إلي عرش السلطنة وخلع الناصر محمد ، لان الاشرفية ما دام الناصر محمد في الملك فان شوكتهم قائمة ، ولان الملك الناصر محمد متى كبر لا يبقى كتبغا ولا أحدا ممن شارك في قتل أخيه الملك الاشرف . [2]

اغتصاب زين الدين كتبغا السلطنة : 694 -696هـ / 1294 – 1296م :-

انتهز حسام الدين لاجين فرصة هذه الثورة ، و أخذ يغري صديقه كتبغا علي الاستئثار بالحكم و خلع الناصر محمد ، وصادف كلام لاجين هوي وقبولا في نفس كتبغا و استجاب كتبغا و تحدث إلي الخليفة العباس في القاهرة في عدم أهلية الناصر محمد لصغر سنه ، و أقنع الخليفة و الأمراء و القضاة و أقروا خلع الناصر محمد ، و تولية كتبغا مكانه ، و أصبح سلطاناً علي مصر و الشام سنة 694هـ – 1294م وتلقب بالعادل – وهو مغربي الأصل ، ومن سبايا التتار ، أخذه السلطان قلاوون في واقعة حمص سنة 659هـ وجعله من مماليكه وتعهده بالتربية ، فلما آلت السلطنة إلي قلاوون رقاه في وظائف الدولة حتى صار من كبار الأمراء ولما قتل خليل وتولي أخوه الناصر محمد جعله نائبا للسلطنة في 693هـ – 1261م. [3]

ولما اعتلى كتبغا العرش أقام السلطان حسام الدين لاجين نائبا السلطنة وفوض إليه جميع أمور الدولة ، وأعطى الأمير شمس الدين قراسنقر إقطاعا ، وكان من

---

[1] محمد سهيل طقوش ، تاريخ المماليك ، ص 215.

[2] علي ابراهيم حسن ، مرجع سابق ، ص68.

[3] ابن اياس ، مصدر سابق ، ص 122.

الطبيعي إن يكرم كتبغا هذين الأميرين ،إذ انه كان منذ مقتل الاشرف خليل يطمح إلى عرش السلطنة ، ووجد كل من لاجين وقراسنقر من عظم النفوذ وكثرة الأتباع في البلاد المصرية ما يسهل عليه الوصول إلى غرضه في الملك إذا انضما إليه ، كما أمر كتبغا بنقل الناصر محمد و أسكنه بعض قاعات قلعة الجبل مع أمه وحجب عنه الناس ، و انتهت بذلك الولاية الأولي للناصر محمد و بلغت سنة واحدة . [1]

لذلك يمكن القول أن سلطنة الناصر محمد الأولي كانت أسمية ، وأن السلطة الفعلية تركزت في أيدي مجموعة من الأمراء أهمهم زين العابدين كتبغا و علم الدين سنجر الشجاعي واحتجب الناصر بعد عزله عن الأنظار ومنع من الاتصال بالناس ، ومن ثم صار كتبغا يقرب إليه الأمراء وينعم عليهم بالإقطاعيات حتى قويت شوكته وعظمت منزلته عند جميع الناس . [2]

لم تدم سلطنة كتبقا غير سنتين ، فقد كان سئ الحظ إذ شهد عهده انخفاض مياه النيل سنة 695هـ / 1295م فعم الجدب معظم الأراضي و قلت المحاصيل الزراعية، وارتفعت الأسعار ، و شكا الناس من شدة الجوع ، و فتكت بهم الأمراض ، و تفشي بينهم الموت ، و حتى كانوا يتساقطون صرعى في الطرقات ، و قد بذل كتبغا كل ما يستطيع لدرء هذه الكوارث و لكن دون جدوى . [3]

و مما أساء إلي كتبغا أيضاً ترحيبه بالأمراء والجند المغول الذين فروا إلى مصر على اثر اعتناق غازان محمود ايلخان المغول في فارس الدين الإسلامي وانتصاره على بيدو ، ويرجع السبب في هجرة هذه الطائفة إلى خوف زعيمهم طرغاى من إقدام غازان محمود على الأخذ بالثار منه لمناصرته بيدو على عمه كيخاتو . وقدر عددهم بعشرة آلاف ، وكان هؤلاء لا يزالون على وثنيتهم ، وكان هولاء الفارين من المغول الاويراتيه من بني جنس كتبقا . كان كتبقا مغولي الأصل- وقد أثار هذا الترحيب حقد أمراء الدولة على كتيغا ، خاصة حين منحهم حق ممارسة طقوسهم الدينية الوثنية بحرية

---

[1] محمد عبد العزيز مرزوق الناصر محمد بن قلاوون ، المؤسسة المصرية العامة ،. بدون تاريخ ، ص 114.

[2] .سعيد عبد الفتاح عاشور ، العصر المماليكي في مصر والشام الطبعة الأولي ،دار النهضة العربية القاهرة ، 1965 ،ص 105 .

[3] تقي الدين المقريزي ، السلوك ، ج الاول ، ص814.

كاملة، ونهى عن التعرض لهم ، ورفض إن يكرههم على الدخول في الإسلام ، مما اظهر كتبغا في صورة حامى الوثنين. [1]

كما أن كتبغا لم ينعم على أمراء الشام عند زيارته سنة 1295م بالخلع والهدايا ، كما جرت به عادة السلاطين من قبل عند زيارتهم لبلاد الشام لأول مرة بعد توليتهم . [2]

ومن الأمور التي أخذت على كتبغا أيضا ، انه منح السلطة والنفوذ لأميرين من خاصة مماليكه هما بتخاص و بكتوت الارزق ، فلم يحسنا استعمالها وتحكما في أمور الدولة وظلما الرعية ، وغيرا عليه الناس لسوء سيرتهما وأوغرا صدره على الأمير لاجين اشد الأمراء المماليك نفوذا في ذلك الوقت . [3]

تميز كتبغا بقصر النظر السياسي ، وكان إقدامه على هذه الخطوات قد أدي إلى سوء سمعته بين الناس وكراهيتهم لحكمه .

اغتصاب حسام الدين لاجين الحكم :696 – 698هـ / 1296 – 1298م

كان لاجين من أبناء بعض البلاد الواقعة علي البحر البلطي في الشمال الغربي من أوربا ولما اعتلى قلاوون العرش جعله من بين أمرائه ثم نائبا علي دمشق اعتقه بعد إن رباه وبلغ أشده ولما اعتلى قلاوون العرش جعله من بين أمرائه ثم عينه نائبا علي دمشق. ظل في تلك الوظيفة حتى عزله السلطان خليل بن قلاوون وقبض عليه وحبسه ، ولما خرج من الحبس توجس خيفة من السلطان فاتفق مع بيدرا وبعض الأمراء على قتله وتم لهم ما أرادوا ، وعقب مقتل خليل اختفى عدة أشهر إلى إن أعاده الأمير كتبغا بعد إن شفع فيه عند السلطان الناصر ، ولما صار كتبغا سلطانا جعله نائبه واستمر يباشر نيابة السلطنة حتى أتيحت له فرصة الاتفاق مع جماعة من كبار الأمراء على قتل كتبغا وهو في طريقه إلى مصر ، ليحقق بذلك غرضه الأول وهو الوصول إلى السلطنة على نحو ما فعله بيبرس مع قطز ، وتم لهم ما ارادوا فما كاد السلطان يصل إلى اللجون قرب طبرية في طريق عودته من دمشق إلى القاهرة حتى علم بتفاصيل المؤامرة ، ففر إلى

---

[1] الحسن بن عمر حبيب ، مصدر سابق ، ص 670.

[2] سعيد عاشور ، العصر المماليكي ، ص 108.

[3] حمدي عبد المنعم حسين ، مرجع سابق ، ص192.

دمشق ،حيث جدد له نائبه فيها الولاء وقتل أثناء عملية تنفيذ المؤامرة الأميران بتخاص وبكتوت الأزرق ،اعز مماليك كتبغا وأقربهم إليه . [1]

وعقب فرار كتبغا استولى حسام الدين لاجين عرش السلطان وخزائنه وانضم إليه الحرس وسائر الجيش دون أن يبداوا أية مقاومة ، ولما تم له ذلك جمع لاجين الأمراء الذين كانوا مع كتبغا وشاورهم في الأمر وحاول إن يسترضيهم ليبايعوه بالسلطنة ، ولا غرو فان بعض سلاطين المماليك كانوا يسارعون بالظهور بمظهر الملوك منذ ينجحون في الاستيلاء على العرش فأراد في هذه المرة إن يقول للأمراء انه واحدا منهم فرد عليهم : (أنا واحد منكم ، ولا أخير نفسي عليكم ولست موليا عليكم من مماليكي أحدا ، ولا اسمع فيكم كلاما أبدا ، ولا يصيبكم ما أصابكم من مماليك العادل ، وانتم خوشداشيتى ، ومحل اخوتى) ، وتلك سياسة منه وتواضعا ، فوافقوا على اختياره سلطاناً سنة 1296م ، واشترطوا عليه بعدم الاستبداد برائه أو تسليط مماليكه ، ثم دخل القاهرة واستقر في القلعة بعد أن تلقب بالسلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين . [2]

يدلنا هذا التطور في الأمور السياسية على إن الانقلابات السياسية والعسكرية والاغتصاب لمنصب السلطة كان أمرا مالؤفا لدي الأمراء المماليك في الأحوال التي يكون فيها السلطان ضعيفا لا يستطيع إن يسوس الأمر ، أو يكون فيها السلطان صبيا لا يفقه أمور السلطة ، ولا يتمكن من استيعاب مشاكل الحكم غير متمسكين بالمبدأ الوراثي ، بدليل أنهم لو كانوا يتمسكون بالمبدأ الوراثي في الوصول إلي العرش لما سمحوا لهذين الغاصبين باغتصاب عرش الناصر علي هذه الصورة وهو لايزال حيا مهما بلغت سنه.[3]

وفى سنة 696 هـ /1297 م وصل إلى دمشق الأمير سيف الدين قبجق نائب الشام من قبل حسام الدين لاجين ، يحمل الأوامر السلطانية إلى قضاة دمشق وأمرائها بإحضار كتبغا وإبلاغه عزله عن السلطة ،و بأمره بالتوجه إلى مدينه صرخد للإقامة فيها،

---

(1) على إبراهيم حسن ، مرجع سابق ، ص 73.

(2) تقي الدين المقريزي ، السلوك ، الجزء الأول ، القسم الثالث ، ص818.

(3) علي إبراهيم حسن ، مرجع سابق، ص 72 .

ولما أدرك كتبغا حرج موقفه وان الأمر افلت من يده خلع نفسه ، .فذهب إليها معززا مكرما . [1]

وبعد وصول لاجين إلى عرش السلطنة كانت أمامه عقبتان لا بد له من اجتيازها والتغلب عليها لتثبيت حكمه ، أولاهما كتبغاوما كان ينتظر إن يأتيه من الدسائس وما يثيره من الفتن لاستعادة عرشه، وثانيتهما الناصر محمد الذي كان لا يزال مقيما بمصر على النحو الذي تركه عليه كتبغا ، وكان في نظر الناس صاحب الحق الشرعي في الملك، إلا إن كتبغا سلم بالأمر الواقع بعد محاولات غير مجدية وكفى نفسه شر القتال وشهد أمام قاضى قضاة دمشق بنزوله عن العرش ورضي بالمكان الذي عينه له لاجين.[2]

قرر حسام الدين لاجين أبعاد الملك الناصر محمد عن مصر ، فاستدعاه إليه واخبره برغبته في إرساله إلى الكرك ليبقى بها إلى أن يبلغ سن الرشد ويصبح قادرا على إن يحكم بنفسه ، ثم يسلمه ملكه بعد ذلك بحجه انه سوف ينوب عنه في حكم مصر . وعلى اثر ذلك رحل الناصر محمد إلى الكرك بعد أن أمنه على حياته . وفعلا خرج الناصر محمد إلى الكرك بصحبة الأمير سيف الدين سلار، وأقام فيها، وعامله نائبها الأمير جمال الدين اقوش الاشرفى باحترام . [3]

وبعد إن اطمأن لاجين على ملكه من كتبغا والناصر محمد ، التفت إلى تدبير شئون ملكه فعين الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري نائبا للسلطنة ، ولكن لم يلبث إن قبض عليه، وعين بدلا منه الأمير سيف الدين منكوتمر ، ويعتبر تولية منكوتمر في نيابة السلطنة ائذانا بزوال حكم لاجين الذي اخذ عليه الأمراء المواثيق والعهود إلا يعين هذا الأمير في اى عمل من أعمال الدولة حتى لا يسير سير كتبغا حين عين بكتوت وبتخاص الذين أذاقا الناس العذاب والهوان وأشتد حنق الأمراء على السلطان حين علموا انه يفكر في جعل منكوتمر ولى عهده ، وبذلك أثار لاجين حفيظة الأمراء بتعيين

---

[1] تقي الدين المقريزي ، السلوك ، ج1 ، ص 832 .

[2] على إبراهيم حسن ،مرجع سابق ، ص74.

[3] تقي الدين المقريزي ، السلوك ، ج1 ، ص832 .

منكوتمر نائبا للسلطنة حانثا في يمينه لهم قبل اعتلائه العرش بعدم إسناد اى منصب من مناصب الدولة اليه .[1]

لم يف حسام الدين لاجين بالوعد الذي قطعه على نفسه أمام الأمراء عندما اختاروه لتولى السلطة ، فبدا يقرب مماليكه وكان أقربهم إليه الأمير سيف الدين منكوتمر، فعينه نائباً بدلاً من الأمير شمس الدين سنفر ، رغم معارضه الأمراء في تعينه ومنحه الإشراف على شئون الدولة ، لذلك أستاء الأمراء مما فعله لاجين ، لان منكوتمر كان فظاً عنيفاً واخذوا يكيدون له . ثم زاد حنقهم عليه عندما أراد أن يعنيه ولياً لعهده واتفق عدد من المماليك على الغدر بالسلطان لاجين ونائبه منكوتمر . ولما شعر منكوتمر بكراهية الأمراء له أشار على لاجين أن ببعد أمراء مصر إلى الشام وان ينقل أمراء الشام إلى مصر ، وبدا لاجين بعد العدة لتنفيذ المشروع ، فأحس الأمراء بالخطر وقرروا التخلص من لاجين و منكوتمر .[2]

والواضح إن هذا الصراع بين الأمراء يدل على ان مبدأ الوراثة لم يكن طبيعيا في النظام المملوكي ،كما لم يكن مفهوما عند المماليك فان لاجين لا يغتصب العرش لنفسه فقط ، بل يريد إن يتركه من بعده لأمير آخر ليست له صلة شرعية بالعرش ، وهذه إحدى المظاهر الجديدة التي حفل بها التاريخ المملوكي .[3]

اتفق عدد من المماليك على الغدر بالسلطان لاجين ونائبه منكوتمر ، واتصل ذلك بمسامع لاجين فصار لا يبرح القلعة إلا نادرا ولضرورة قاهرة، وفى 698هـ / 1299م قام الأمير سيف الدين كرجي يقتل لاجين بينما كان جالساً في قصره ، بعد حكم دام سنتين وشهرين ونصف تقريباً . ثم قتل منكوتمر بعد ذلك وتخلصت البلاد من السلطان ونائبه وأصبح العرش دون حاكم .وبقتلهما تجدد التفكير في إعادة الناصر محمد إلى السلطنة.[4]

---

[1] على إبراهيم حسن ، مرجع سابق ، ص 79.

[2] أحمد مختار العبادي ، في التاريخ الأيوبي والمملوكي ، ص 250.

[3] سهيل طقوش ، تاريخ المماليك ، ص 222.

[4] تقي الدين المقريزي ، السلوك ، ص859.

سلطنة الناصر محمد الثانية 698- 708هـ / 1299 -1309م :-

تجددت النزاعات بين الأمراء بعد مقتل السلطان لاجين ،كل يطمع في تولى السلطة ، وذلك لعدم وجود شخصية قوية تستطيع إن تسيطر على الموقف السياسي وتحسم الأمور لصالحها ، وتستأثر بالحكم فأضطر الأمراء نتيجة الفراغ في رأس السلطة إلى استدعاء الناصر محمد من الكرك على إن يكون الأمير طغجى نائبا له ، وألا يبرم امرأ من الأمور المتعلقة بشئون الدولة إلا بموافقة الأمراء .[1]

بعد مقتل لاجين منكوتمر اجتمع الأمراء للتشاور حول أمر السلطة ، فقام الأمير سيف الدين كرجي وقال : (يا أمراء أنا الذي قتلت السلطان وأخذت ثأر استاذى خليل الاشرف والملك الناصر صغير لا يصلح ولا يكون السلطان إلا هذا ، وأشار إلى الأمير سيف الدين طغجى ، وأنا نائبه ومن خالفه فدونه السيف) واستل سيفه فسكت الجميع ، وانفض المجلس دون أن يتخذ قراراً ، وانتشرت الفتن والاضطرابات في القاهرة ، وانتهت بمقتل الأميرين كرجي وطغجى ، واستقر رأى الأمراء على استدعاء الناصر محمد من الكرك .[2]

وهذه ظاهرة عجيبة وقاعدة تكاد تكون مطردة في عصر المماليك ،وهى إن قاتل السلطان يعتقد انه لا بد إن يصبح سلطانا ، يدل على ذلك ما سبق إن ذكرنا ،عن وصول بيبرس إلى السلطنة بعد قتل قطز ، وما ذكرناه عن وصول بيدرا إلى العرش بعد قتل خليل بن قلاوون والآن تتكرر هذه الظاهرة ويتفاخر كرجي انه قاتل السلطان لاجين ، ويقترح طغجى سلطانا ويعلن نفسه نائبا له .

يبدو إن كرجي طمع في الحكم فلم ينفذ ما اتفق عليه الأمراء بصدد عودة الناصر محمد ، وتكررت ظاهرة جلوس الأمير قاتل السلطان على العرش مكانه ، وقد تذرع كرجي بصغر سن السلطان الناصر محمد وان الأوضاع التي تمر بها البلاد تتطلب وجود رجل في السلطنة ، فاقترح إن ينصب طغج سلطانا وان يعين هو نائبا له ، ولم يتمتع المماليك الاشرفية بالقوة الضرورية لتنفيذ الاقتراح ، بالإضافة إلى استياء الجند من اشتراك الأميرين في قتل السلطان لاجين واتفقوا على قتلهما ، وتم لهم الأمر ثم اجتمع

---

[1] محمد سهيل طقوش ، تاريخ المماليك ، ص 227.

[2] ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج8 ، ص115 – 116.

الأمراء في القلعة واتفقوا على إعادة السلطان الناصر محمد إلى الحكم على إن تدار أمور الدولة باتفاقهم جميعا حتى وصوله من الكرك واستمر الحال على ذلك مدة خمسة وعشرين يوما كانت البلاد تحكم فيها بغير سلطان حتى وصل الناصر محمد من الكرك إلى مصر وتسلم ملكه سنة 698 هـ /1299 م ، وبدأت بذلك سلطنته الثانية . [1]

تفاءل الناس خيرا بعوده الناصر وزينت القاهرة بالزينة الجميلة ، وخرج الأمراء لاستقباله واظهر الناس على اختلاف طبقاتهم سرورا يفوق الوصف لعودة سلطانهم الحقيقي إلى ملكه ، وذلك لان عامة الناس رأوا في حكم أسرة قلاوون نوعا من الاستقرار وحسما للمنازعات بين الأمراء ، وكان الناصر قد خرج في موكب حافل من الكرك إلى القاهرة ، وكان عمره أربعه عشر عاماً ومعه الأمراء والأعيان ، وجددت له البيعة اصدر الخليفة التقليد بتعينه . [2]

الراجح إن الشعب لم يكن يهتم كثيرا بنظام العرش ومشاكل الحكم ، أو حق الناصر في عرش أبيه ولكن يمكن تفسير الفرح الذي عبر عنه لدي استقبال الناصر محمد سخطه علي الأمراء المماليك الذين لم يهتموا بالأمور الضرورية لحياة الناس آملين أن تتغير الأوضاع علي يد الناصر محمد ، خاصة وأنهم لمسوا في ظل هذه الأسرة نوعا من الاستقرار السياسي والاقتصادي ، وحسما للمنازعات بين الأمراء . ولكن ومما لاشك فيه أن ظهور المؤازرة الشعبية لشخص الناصر تدل علي أنه كان يتمتع بمكانة كبيرة في نفوس الناس ، ومنزلة جليلة بين رعاياه . [3]

ولما استقر الناصر محمد على العرش قام بتنصيب الأمير سيف الدين سلار نائباً للسلطة ، والأمير ركن الدين مرسى اسناداراً ، غير أن هذين الأميرين عملا على التضييق على الناصر محمد ، وعمدا إلى الحجز عليه وتقرير راتب شهري ضئيل له ، فضاق يهما ، وزهد في الملك وبلغ اليأس به مبلغا عظيما فاستدعى الأمير بكتمر الجوكندار ، واعلمه بما عزم عليه من القبض على الأميرين سلار وبيبرس ، ولم يجد بدا أمام هذا الاضطراب القائم في مصر من الرحيل عنها مختارا قبل إن يضطره أعداؤه إلى

---

[1] سهيل طقوش ، تاريخ المماليك ، ص 228.

[2] ابن اياس ، مصدر سابق ، ص117.

[3] محمد سهيل طقوش ، تاريخ المماليك ، ص229.

مغادرتها ، بل ربما تمنى ذلك فلم يتمكن منه ، وتظاهر الناصر محمد بالخروج إلى الحجاز فلما وصل إلى الكرك (708هـ /1308م) بمن معه من الأمراء والمماليك أعلن تنازله عن السلطة ورغب في المقام بالكرك ، وكتب بذلك لكل من بيبرس وسلار ، وطلب منهم الانعام عليه بالكرك والشوبك ، ثم امر الامراء الذين قدموا معه بالعودة إلى مصر ، وفوجئ سلار وبيبرس بهذا الفرار ، وأدركا انه لابد من نرضيه السلطان ، فأرسلا إلى الناصر يطلبان منه العفو عما وقع منهما والعودة إلى القاهرة ، ولكنه أصر على رائه ، ويدل ما تضمنه كتابه إلى الأميرين سلار وبيبرس على مدى ما وصلت إليه الأوضاع في مصر من التدهور والضعف وسوء نظام الحكم ، وانتهت بذلك سلطنة الناصر الثانية بعد حكم دام عشر سنوات ونصف تقريباً .[1]

وفى ذلك الوقت ظهر التنافس واضحا بين بيبرس وسلار ، الأمر الذي أدى إلى عدم استقرار الأمور في البلاد، وهكذا اضطربت أحوال البلاد نتيجة لقيام سلطان قاصر في الحكم ، وانشغال أمراء المماليك بالمنافسات فيما بينهم ، في الوقت الذي اشتد عبث العربان في الداخل ،وتجدد خطر التتار على بلاد الشام ، ومما زاد الأمر سوء ا نشوب النزاع بين طوائف المماليك ، وعقد الأمراء اجتماعا لتدارس الموقف بشان وراثة العرش ، فرأى بيبرس الدوادار إن يطلبوا من الناصر محمد العودة إلى ملكه ، ولكن رفض اقتراحه بسبب ما يمكن إن ينتج من ذلك من اضطراب في الوضع الداخلي ، لذلك اختار الأمراء بيبرس الجاشنكير للسلطنة وتلقب (بالملك المظفر) في سنة 708-709 هـ /1308-1309 م وعين الأمير سلار نائباً له ، ثم كتب تقليدا إلى الملك الناصر محمد بالانعام عليه بما طلبه ، وفى هذه الاونة اغارت طائفة من المغول على قلعة كركر ونهبوا من فيها من التركمان ، فسارت اليهم القوات وهاجموا التتار في الليل وقتلوهم واستردوا ما اخذوه من قلعة كركر واسروا منهم ستين رجلا وغنموا عدة خيول .[2]

وبإقامة بيبرس الجاشنكير المعروف في تاريخ دولة المماليك باسم بيبرس الثاني ، سلطانا على مصر تنتهي سلطنة الناصر الثانية ولم تطل سلطنة بيبرس غير سنه

---

[1] Philip . k.HI tti: Hist ory of the Arab Macllin and Co .Limited Street . London 1940. P.6 57

[2] فايد حماد عاشور ، العلاقات السياسية ، ص 179.

واحده، ولم وتستقر له الأمور خلالها ، حيث ضجر الناس من حكمه ، خاصة انه اتبع سياسيه العنف في معاملته للناس والأمراء ، فقد كان يخشي أن يتصل المماليك بالناصر أو أن يتأمروا على خلعه . [1]

وعلى الرغم من إن الناصر محمد قد استعاد نفوذه في الكرك فانه رأى إن يخادع بيبرس حتى تتاح له الفرصة للعودة إلى مصر ، فأرسل إليه كتابا اعلي فيه من شانه واظهر فيه نفسه بمظهر الضعيف لما رأى بيبرس انصراف الأمراء والمماليك عنه ، طلب من الخليفة المستكفى بالله إن يجدد له عهد البيعة ليوطد بذلك دعائم ملكه ، ولكن هذا التصرف لم يكن له اثر في نفوس أهل مصر لكراهيتهم لحكمه وتعلقهم بالناصر محمد ، هذا إلى استياء الأمير سلار نائب السلطنة من موقف بيبرس نحوه . [2]

على اثر جلوس بيبرس الجاشنكير على عرش مصر كتب إلى الناصر تقليدا بمنحه الكرك ظنا منه بأنه قد يكتفي بهذه المنحة ولا يفكر في العودة إلى ملكه ، ويكون مصيره كمصير كتبغا بعد إن منحه لاجين ولاية صرخد. [3]

ويبدو إن الظروف التي أحاطت ببيبرس تختلف عن الظروف التي أحاطت بالناصر محمد بعد رحيله إلى الكرك ، وان كبار أمراء الشام قد وقفوا في صفه ، وساندوه ضد بيبرس تأييدا لبيت قلاوون وتجنبا للفوضى ودسائس الأمراء ، كذلك أمراء مصر وأهلها لم يهتموا بإعادة كتبغا لأنه كان قد أساء معاملتهم من جهة ، ولان كلا من كتبغا ولاجين كانا في نظرهم مغتصبين للعرش ، ولا فارق بين هذا وذاك لتكون له أفضلية السلطنة ، وحمل محمد بن قراسنقر رسالة الأمراء إلى الناصر محمد ، فلما وصل الرسول إلى الكرك وسلم الناصر الكتاب ، رد عليه الناصر بكتاب أشار فيه بالتريث والصبر لان هذا الأمر ما ينال بالعجلة . [4]

وقد دل مضمون الرد على بعد نظر الناصر محمد فهو من جهة يرغب في انتهاز الفرصة لاستعادة عرشه ولكنه يرى من جهة أخرى إن الوقت الذي وصل فيه

---

[1] حمدي عبد المنعم ، مرجع سابق ، ص195 .

[2] محمد سهيل طقوش ، تاريخ المماليك ، ص 46.

[3] على إبراهيم حسن ، مرجع سابق ، ص 86.

[4] اين تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج 8 ، ص 241.

كتابهم غير ملائم للقيام بحركة معادية لبيبرس ،إذ لم يكن قد مضت على توليه العرش غير فترة قصيرة ، ولذلك أوصاهم بالتريث حتى تتعقد أمامه الأمور والمسائل ، ويظهر بوضوح استياء الطبقات الساخطة ، وحينئذ يسهل القضاء عليه ، والواضح إن السلطان الناصر محمد عندما تنازل عن العرش لم يكن زاهدا بالسلطة ، ولكنه اثر الانتظار في الكرك إلى إن تتضح الأمور وبعد ذلك يستطيع إن يسترد سلطانه بسهولة . [1]

أما الناصر فقد قصد بلجوئه إلى الكرك أن يمهد للاتصال بأمراء الشام ونوابه لجمعهم حوله ، ثم مهاجمة مصر لأبعاد بيبرس وسلار ، واستخلاص العرش ثانية لنفسه. وقد نجحت خطه الناصر واستجاب أمراء الشام لدعوته ، وأعلنوا ولاءهم له والتفوا حوله . وبعد ذلك خرج الناصر بجنده إلى دمشق وبدا يعد العدة للرحيل إلى مصر . [2]

لم يكن أهل مصر يعلمون بنيه الناصر محمد الحضور إليهم حتى اظهروا سرورهم وانفض معظم الأمراء في مصر عن المظفر بيبرس ، وغادر بعضهم البلاد فاصداً لناصر محمد لمؤازرته في استرداد عرشه . وأطلعوه على حقيقة الأحوال في مصر الأمر الذي شجعه على اتخاذ تلك الخطوة . [3]

وعرف أهل مصر خبر تأهب الناصر الرحيل إليها فعبروا عن سرورهم بإقامة المظاهرات في وجه بيبرس الجاشنكير وحاصروه في القلعة وأشتد الحال على بيبرس حين علم إن اسم الناصر محمد قد ذكر في خطبة الجمعة على منابر دمشق ، كما إن الجيش رفض مساندته بل إن عساكر مصر خرجت تريد اللحاق بالملك الناصر ، ولم يبق معه سوى خواصه ، ووجد نفسه وحيدا ، ولم تفلح إجراءاته في تغيير الوضع الجديد ، لذا كان عليه إن يتدارك الموقف ، فأما إن يقبل بالواقع السياسي ويتنازل عن العرش ، أو يتخذ موقفا حاسما لإنقاذ نفسه وعرشه قبل إن يفلت زمام الأمور من يده ، ويبدو انه اختار الحل الثاني ، فكتب إلى الناصر يستعطفه إن يمنحه الإقامة في الكرك أو صهيون أو حماة ، ويتضح من الكتاب الذى كتبه المظفر إلى الناصر انه كان مضطرا إلى الاستسلام وكتب إلى الناصر يقول :(والذى اعرفك به اننى قد اقلدك بغيك فان حبستنى

---

[1] سعيد عاشور ، العصر المماليكي ، ص 115.

[2] سعيد عبد الفتاح عاشور ، العصر المماليكي ، ص217.

[3] حمدي عبد المنعم حسين ، مرجع سابق ، ص195 .

عددت ذلك خلوة ، وان نفيتنى عددت ذلك سباحة وان قتلتنى كان ذلك لى شهادة)[*] ، فلما سمع الملك الناصر ذلك ولاه على صهيون ، وعلي اثر ذلك أعلن انه خلع نفسه من السلطنة بحضور قضاة مصر، بعد أن استولى على ما في خزائن مصر من الأموال ، وفر هارباً إلى الصعيد . [1]

ومن هنا تتبين مدى ما ذهب إليه السلطان بيبرس لاسترضاء الأمراء واستجلاب ولائهم حفظا لكيان عرشه ، مما يدل على إن سلاطين المماليك كانوا يسعون لجلب رضاء الأمراء ، وان من لم يفز منهم بذلك الرضا كان مصيره العزل أو القتل إن لم يكن منيع الجانب وافر الأتباع . [2]

سلطنة الناصر محمد الثالثة : 709 - 741هـ / 1310 - 1341م :

غادر الناصر محمد الكرك إلى دمشق ليستوثق من أمراء بلاد الشام فدخل المدينة في سنة 709 هـ /1310م وسط ابتهاج الناس وخطب له قيها ، وقدم له نائبها الافرم الطاعة ، كما بايعه أمراء طرابلس وحماة ثم غادرها متوجها إلى القاهرة سنه 709هـ / 1310م مع بعض إتباعه ، وتجمعت لديه الجيوش المصرية والشامية عند وصوله غزة ، ثم سار أمنا على نفسه حتى دخل مصر ، فاستقبله الأمير سلار نائب السلطنة وبقيه الأمراء وقدموا له فروض الولاء والطاعة ، والتفاه الناس بفرح وسرور وبذلك بدأت سلطنته الثالثة . [3]

تعتبر الفترة الثالثة من حكم الناصر محمد بحق سلطته الحقيقة ،لأنها ظهرت فيها شخصيته التي طبعت أحداث التاريخ المملوكي بخاصة ، وتاريخ المنطقة بعامة بطابع فريد وقد امتدت حتى وفاته وبلغت إحدى وثلاثين سنه (1310 . 1341م) وهى مدة لم يحظ بها سلطان واحد من سلاطين المماليك الأمر الذي أعطى الناصر طابعاً خاصاً فريداً ، وقد استفاد فيها الناصر محمد من الحوادث السابقة بتجارب متعددة عرفته بأخلاق المماليك ومؤامراتهم وكيفية معاملتهم ، كما أن سنه في ذلك الوقت قد بلغ مرحلة النضج

---

[*] انظر كتاب الناصر ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج8 ، ص181.

[1] سعيد عبد الفتاح عاشور ، العصر المماليكي ، ص217.

[2] على ابراهيم ، مرجع سابق ، ص 18.

[3] المقريزي ، السلوك ، ج1 ، ص872.

إذا بلغ الخامسة والعشرين من عمره الأمر الذي ساعده على القبض بزمام الأمور في الدولة بنفسه وعدم الاستسلام لكبار الأمراء يتحكمون فيه ، كما كان في المرتين السابقتين ، فعاد وهو أكثر خيرة وتمرساً في الحياة السياسية وشئون الحكم فسأعده ذلك على تثبت أقدامه في الحكم وتركيز الإدارة في يده .

قبض الناصر محمد على زمام الأمر بيد من حديد واضحي صاحب السلطة المطلقة في البلاد ، على إن الأمر الذي يسترعى النظر انه عجل بعد إن استقر في الحكم على الانتقام من كبار الأمراء الذين أذلوه وسلبوا سلطته واستخفوا به ، حتى تخاو له الساحة السياسية ويستطيع إدارة شئون الدولة دون إن يخشى تدخلا من احد ، فالقي القبض على بيبرس الجاشنكير قرب غزة وهو يحاول الفرار إلى الشام ومعه عدد كبير من مماليكه ، وأمر بقتله فقتل في حين القي الأمير سلار في السجن إلى إن توفاه الله . [1]

وقد ظن بعض أمراء المماليك إن الناصر محمد هو كما عهدوه في الفترتين السابقتين ، فحاول الأمير بكتمر الجوكندار نائب السلطنة تدبير مؤامرة لخلع الناصر محمد ، وإقامة ابن أخيه الأمير مظفر الدين محله في السلطنة ، كما حاول المماليك الاشرفية إشعال الثورة من جديد ، ولكن السلطان الناصر محمد في تلك المرة سيطر على شئون الحكم فزج الأمير مظفر الدين موسى في السجن وقلم أظافر المماليك الاشرفية ، ولم يتساهل مع اى أمير في مصر أو الشام شك في ولائه وإخلاصه له ، وهكذا اثبت الناصر محمد كفاية نادرة ومقدرة في تصريف شئون الدولة مما أضفى عليه وعلى حكمه مهابة كبيرة في الداخل والخارج . [2]

ولقد سار الناصر محمد على سياسته أسلافه نحو المشاكل الرئيسية التي أحاطت بمملكته و هي مشاكل الصليبين و المغول ، و التي تطورت تطوراً كبيراً في صالح المسلمين في ذلك الوقت ، نظراً لجلاء الصليبين عن الشام نهائياً ، وضعف الحماس الصليبي في أوربا ، كما أن دولة مغول فارس قد أخذت في الضعف هي الأخرى

---

[1] سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ص 119.

[2] ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج9 ، ص 24 -25.

نتيجة للحروب التي خاضتها مع المماليك من جهة ، و مع مغول القفجاق من جهة أخري. [1]

توفي الناصر محمد بن قلاوون في سنة 741هـ /1341م وقد بلغت دولة المماليك في عهده أقصي درجات الأتساع و العظمة ، بعد أن نجحت في قهر التتار و طرد الصلبيين من الشام ، و بدت في صورة القوة العظمي في العالم الإسلامي . و قد امتازت سلطنة الثالثة بطول المدة الزمنية و الاستقرار النسبي في أوضاع الدولة الداخلية . [2]

عهد الناصر محمد بالملك من بعده لابنه سيف الدين أبو بكر ، و أوصي الأمراء بتنفيذ ذلك بعد وفاته ، و علي أثر ذلك تولي سيف الدين عرش مصر و تلقب بالمنصور و كان عمره نحو عشرين عاماً ، و هو أول من تولي السلطنة من أولاد الناصر محمد فقد تولي السلطنة أثنا عشر سلطاناً من أولاد و أحفاده فشغلوا بالمؤامرات و المنافسات عن النظر في صالح البلاد و الرعية ، فساءت الأحوال الاقتصادية و عمت الفوضى و أنتهي الأمر بسقوط دولة بني قلاوون في سنة 784هـ /1382م. [3]

هناك حقيقة هامة أن عصر السلطان محمد بن قلاوون تميز بالاستقرار وكثرة العمارة والبناء . الأمر الذي أعطي عصر الناصر محمد طابعا خاصا فريدا وجعل أسم الناصر محمد يحتل مكانة خاصة في قلوب الناس وساعد علي ذلك أن دولة المماليك بلغت أقصي درجات الاتساع والعظمة ، هذا بالإضافة إلي شخصية الناصر محمد نفسه التي كان لها أثرها في رسم صورة الإطار العام في مصر . [4]

حكم الناصر محمد ثمان وأربعين سنة (693 –741 هـ / 1292 –1340م) وتعتبر هذه الفترة بحق من ازهي عصور مصر ،فقد كانت القاهرة في عهده حاضرة لإمبراطوريه شاسعة متحدة امتد سلطانها من بلاد برقة غربا إلى ساحل البحر الأحمر شرقا ، ومن آسيا الصغرى شمالا إلى بلاد النوبة جنوبا ، ولا شك إن الناصر محمد نجح إلى حد ابعد عن أسلافه من سلاطين مصر الإسلامية في تكوين تلك الإمبراطورية ، حقا

---

[1] أحمد مختار العبادي ، في التاريخ الأيوبي والمملوكي ، ص252.

[2] سعيد عبد الفتاح عاشور ، العصر المماليكي ، ص119.

[3] حمدى عبد المنعم ، مرجع سابق ، ص 196.

[4] ابن ابيك الدوا دار ، مصدر سابق ، ج9 ، ص 388.

إن الفاطميين مدوا نفوذهم إلى بغداد إلا إن غرضهم الأول كان نشر المذهب الشيعي ، كما إن نفوذهم على تلك المساحة المترامية الأطراف لم يدم إلا فترة قصيرة جدا ، اما عن الأيوبيون فقد قسموا إمبراطوريتهم إلى ممالك صغيرة متنافسة ومتفرقة الكلمة ، كما بسطت إمبراطورية الناصر نفوذها على بلاد اليمن والحجاز ، وخطب ودها ملوك أوربا واسيا عن طريق إبرام المعاهدات والمصاهرة وإرسال الهدايا . [1]

---

[1] على ابراهيم ، مرجع سابق ، ص 93.

المبحث الثانى

العلاقات بين الناصر محمد بن قلاوون والايلخان غازان 694-703هـ /1295-1304م

غازان هو اكبر أحفاد هولاكو، ومن ابرز خانات المغول في إيران ، والسابع من أسرة ايلخانات المغول في فارس ، وهو من طراز هولاكو وجده اباقا ،تولى الحكم بعد مقتل بايدو ، حيث كان التطور الطبيعى لانتصاره عليه هو اعتلاؤه عرش الايلخانية، وهو الذي تحارب معه الناصر ، ولقد صادف الناصر في حروبه كثير من الصعاب ، وقد اعتنق الإسلام ، وجعله الدين الرسمي للدولة فحقق انتصارا مبينا على الوثنية المغولية وهى الشامانية ، واحدث بذلك تغييرا كبيرا في علاقة المغول بالشعب الايرانى ، فقد تسللت البوذية مع المغول إلى إيران ، وما أن دخل غازان في الدين الاسلامى حتى عمل على إدخال قومه من المغول في الإسلام ، واسلم على يديه حوالي مائة ألف مغولي ، وحول معابد بوذا والكنائس إلى مساجد يذكر فيها اسم الله ، وتمكن من دراسة الدين الاسلامى دراسة وافية ، وبلغ من حماسه للدين الاسلامى أن كان يقف من المغول موقف الواعظ يشرح لهم أسس الإسلام وخصائصه ، ،كما بدات الدولة الفارسية في عهده تستعيد استقلالها . [1]

ظهر النزاع بين أمراء المماليك في أواخر أيام السلطان حسام الدين لاجين الذي أغتصب العرش من الناصر محمد ، فلجأ بعض أمراء المماليك إلي خان المغول غازان محمد بن أرغون فشرحوا له سوء الأحوال في مصر و الشام و حرضوه علي غزو تلك البلاد . [2]

تولي غازان (694–703هـ/1295–1304م) عرش الايلخانية و هو في الرابعة و العشرين من عمره ، بعد أن انتصر على خصمه بايدو ودخل تبريز دخول الظافرين ، خاصة وانه كان قد أشهر إسلامه ولبس عمامة المسلمين ، فاستقبله خارج المدينة كبار رجالها وقاداتها وعلماؤها وقضاتها المسلمون ، يتقدمهم الوزير (خواجة صدر الدين) الذي ما لبث أن نال ثقة الايلخان ، وأطلق يده في حكم البلاد . [3]

---

[1] عصام الفقى ، مرجع سابق ، ص 207.

[2] المرجع نفسه ، ص 216.

[3] عبد السلام فهمى ، مرجع سابق ، ص 190.

جعل غازان الإسلام الدين الرسمي للدولة ، و تأسس الحكم الإيلخاني علي الآداب الإسلامية ، و أعتبر غازان نفسه خاناً مستقلاً ، وانفرد بنقش اسمه على السكة ، وبذكر اسمه في الخطبة ، وعزل اليهود والمسيحيين من الوظائف العامة وقصرها على المسلمين فقط ، الأمر الذي اوجد حالة من السخط ضده ، لذلك لجا إلى العنف في القضاء على خصومه ، وقتل الكثير منهم ، و بذلك تكون دولة مغول إيران قد دخلت مرحلة جديدة سادها حكم إيلخانات مسلمين منذ عهد غازان خان ، و ظلت هذه المرحلة علي تلك الحال حتى نهاية حكم مغول إيران سنة 756هـ . [1]

يعتبر اعتلاء غازان العرش المغولي في فارس نقطة تحول فاصلة في تاريخ دولة الايلخانيين ،ذلك بأنه اعتنق الإسلام فور اعتلائه العرش وتسمى باسم محمود ، وكان تحوله هذا فاتحة التحول الكبير الذي طرا على وضع مغول فارس باعتناقهم الدين الاسلامى ،كما إن جميع الخانات الذين تعاقبوا على عرش المغول في فارس من بعده ظلوا مخلصين لهذا الدين . [2]

و أعلن غازان بعد تحوله إلي الإسلام استقلاله التام عن الإمبراطورية المغولية في منغوليا و الصين و تلقب بلقب (خان) و كان هذا اللقب مقصوراً علي الخان الأعظم للمغول بمنغوليا و كذلك كتب اسمه علي السكة (السلطان الأعظم غازان)، و أضاف هذه الكلمات إلي اسمه (بتاييد الله المتعال) . [3]

اصدر غازان مرسومه الأول عقب اعتلائه العرش الذي بنص على إن الإسلام هو دين الدولة الرسمي ، وان الآداب والرسوم يجب إن تجرى طبقا لما تنص عليه الشريعة الإسلامية ، وان على كبار الأمراء في الدولة إن يتوخوا العدالة التامة ويبعدوا عن إلحاق الأذى والضرر بالرعية ، وقد فرض غازان هذه الديانة فرضاً على سكان بلاده[4] وعلى اثر ذلك غير المغول زيهم ولبسوا العمامة كإشارة على التحول للدين الاسلامى الذي اعتنقه على الفور مائة ألف من أمراء المغول وجنودهم اقتداء بغازان.

---

[1] أحمد مختار العبادي وإبراهيم محمد علي مرجونه ، مرجع سابق، ص 157.

[2] محمد سهيل طقوش ، تاريخ المماليك ، ص 225.

[3] بارتولد شبولر ، العالم الإسلامي في العصر المغولي الطبعة الأولي ، تعليق خالد اسعد عيسي دار حسان لطباعة والنشر دمشق ، 1983م ، ص 174 .

[4] Arnold : The Preaching of Islam, P.232

وبتحول غازان إلى الإسلام ، وفى خطوة جديدة على الوضع السياسي لايلخانية فارس ، قام غازان بقطع الصلة المباشرة التي كانت تربط الايلخانيين في فارس ببلاد الخان الأعظم في بكين ، وأعلن استقلاله الكامل ولقب نفسه بلقب خاقان وتخلي حكام المغول في فارس عن لقب (الايلخان) وأضحوا يعرفون باسم (خان). [1]

أما المرسوم الثاني فينص على تحطيم جميع الكنائس المسيحية ومعابد اليهود والبوذيين وبيوت النار الزرادشتية في كافة إنحاء المملكة الايلخانية وإحلال المساجد مكانها لإقامة شعائر الدين الاسلامى . [2]

وقد اعتنق غازان الدين الاسلامى في السنة الأولى من ولاية الملك العادل كتبغا سلطان المماليك في مصر ، يرجع الفضل في اعتناق غازان للإسلام إلى الأمير نوروز بن أرغون الذي كان قد اعتنق الإسلام بدوره واضحي مثلا اعلي للمسلم الذي يجمع بين الشجاعة ونبل الخلق وبين العلم بالتصوف والتاريخ ، وكان غازان قد وعده بالدخول في هذا الدين لذا وهب الله له النصر على خصمه بيدو ، ولما تم له ذلك بر بوعده فاسلم ومعه عشرة آلاف من المغول ، فاحدث بذلك تغييرا كبيرا في شكل الدولة المغولية في ابرأن أن إسلام غازان خان يعد ملحمة كبرى لانتصار الإسلام على الديانات الأخرى ، خاصة إذا علمنا إن غازان كان في بداية أمره بوذيا . [3]

وكان لاعتناق غازان وخلفائه للدين الاسلامى آثاره الكثيرة بهمنا منها:

أولا : القضاء على الفجوة الكبيرة التي كانت تفصل بين المغول ورعاياهم المسلمين ، مما ساعد على اندماج المغول في المجتمع الاسلامى واشتد تأثرهم بالحضارة الإسلامية.

ثانيا : وضع هذا التحول حدا لسياسة تفضيل الأقليات المسيحية واليهودية في مقابل تجاهل الأغلبية المسلمة ، وبهذا تحددت مكانتهم وصاروا يعاملون كاهل ذمة .

ثالثا : بدخول المغول في الإسلام فانهم كفوا أيديهم عن القتل والغارات ووجدوا في إصلاح ما أحدثه الايلخانيون البوذيون من تخريب وتدمير ورفع المظالم عن الرعية وأتباع الشريعة الإسلامية بدلا من قوانين المغول التي سنها لهم جنكيز خان .

---

[1] بارتولد شبولر ، مرجع سابق ، ص 74.

[2] عصام الفقى ، مرجع سابق ، ص 56.

[3] عبد السلام عبد العزيز فهمي ، مرجع سابق ، ص 190.

رابعا : ساهم إسلام غازان وخلفائه في دخول هذا الدين في مناطق جديدة كانت تسيطر عليها البوذية في شرق آسيا وجنوبها ، وانقلب المغول من كونهم معول هدم للإسلام إلى سواعد فتية لنشر هذا الدين سواء لمناطق لم يدخلها من قبل ، أو في مناطق لم يكن منتشرا فيها على نطاق واسع.[1]

كما إن كثيرا من المغول والأمراء والأشراف وغيرهم نظروا إلى تحول غازان إلى الإسلام نظرة السخط والكراهية ، خاصة وإنهم وجدوا الدولة قد تغيرت لغير صالحهم ، وادي ذلك إلى قيام المؤامرات وتدبير الدسائس فيما بينهم ، وما ذلك إلا أن عدم إسلامهم حال دون تبوأهم المناصب العليا في الدولة ، وحتى في حالة إسلامهم فقد نافسهم المسلمون في تلك المناصب ووصلوا إلى البلاط وقربهم السلطان إليه واعتبرهم خاصته والمدافعين عنه ، بيد انه تمكن من القضاء على تلك الفتن بغير رحمة أو شفقة حتى قيل انه قتل في شهر واحد عدد لا يقل عن خمسة من أمراء المغول وسبعة وثلاثين من حكامهم المنتشرين في الأقاليم الايلخانية المختلفة. [2]

ومهما قيل عن الدوافع والأسباب التي دفعته لاعتناقه رغبة أو مصلحة ، فالثابت إن الإسلام كسب الكثير من إسلام غازان ، وان المسلمين ازدادوا قوة ومنعة بانضمامه إليهم ، إضافة إلى ما رافق الدعاة المسلمين المنتشريين بين المغول من نشاط بفضل حماية الدولة لهم وتشجيعهم في عملهم. ومن المحتمل انه في أول الأمر تعلق بالإسلام طمعا في الوعود التي وعد بها لإيصاله إلى العرش ، ولكن الآلاف التي اعتنقت الإسلام باعتناقه لم يكن يدور بخلدها تلك المغريات التي أطمعته من قبل ، وقد أصبحت هذه الجموع الكثيرة بعد إن غدا إسلامها حقيقة لا تقليداً بفضل اختلاطها بالمسلمين واطلاعهم على تعاليم الإسلام أصبحت سياجا حمى الإسلام كثير من أخطار الوثنية المغولية وخاصة الردة التي كادت إن تعيد الايلخان اولجايتو فيما بعد إلى الوثنية ، هذا بالإضافة إلى ما رافق المبشرين المسلمين المنتشرين بين المغول من نشاط بفضل حماية الدولة لهم وتشجيعهم على عملهم . [3]

---

[1] توماس ارنولد ، مرجع سابق ، ص 201، -215.

[2] على ابراهيم ، مرجع سابق ، ص 148.

[3] صالح القزاز ، مرجع سابق ، ص 292.

ورغم إن غازان كان مسلما منذ بداية عهده ، وقطع علاقة التبعية بالخاقان المغولي البوذي في بكين ، وانتهج عدة إصلاحات في بلاده على النمط الاسلامى إلا إن العلاقات العدائية مع المماليك لم تتوقف في عهده مثلما توقفت في عهد تكو دار احمد (1282-1284م) أول ايلخان مغولي مسلم في فارس ، بل ازدادت سوءا لدرجة إن غازان قام بغزو بلاد الشام ثلاثة مرات ، وهزم المماليك لأول مرة في سنة 1299م وأحتل الشام لعدة شهور حتى سنة 1300م ، ولا غرو إن استمرت اتصالاته ببقايا الصليبيين في الشرق وهم فرسان الداوية والاسبتارية في قبرص وملك قبرص نفسه فضلا عن أتباعه الأرمن والغرب الاوربى على حد سواء . [1]

والواقع أن اعتناق غازان للدين الإسلامي لم يقلل من كراهيته للمماليك ، و لم يكن رادعاً عن التفكير في تحقيق الهدف المغولي القديم الرامي إلي القضاء علي دولة المماليك ، و الاستيلاء علي بلاد الشام و مصر ،الذين دخل معهم في صراع رهيب وحروب طاحنة أودت بحياته في نهاية الأمر ، و قد أستقل غازان حالة الضعف التي سادت مصر في أثناء اغتصاب كل من كتبقا و حسام الدين لاجين عرش الناصر محمد عقب سلطنته الأولي ، و وصاية الأميرين بيبرس و سلار في إثناء سلطنته الثانية ، مما شجعه علي الإغارة علي بلاد الشام و فتح دمشق و عزمه علي فتح مصر و ضمها إلي أملاكه. [2]

لقد كان سلوك غازان وهو المدعى للإسلام ، كسلوك إسلافه الوثنين ، بل هو أسوا بكثير ،لان أولئك كانوا وثنين ، أما غازان فقد ادعى الإسلام واعتنقه ، واعتقده ، ومع ذلك فعل في المسلمين مالم يفعله إلا أسلافه الوثنيون وكان هذا الايلخان الذي نشأ بوذيا قد أعتنق الإسلام فبل أن يتولي عرش إيران . وقد واكبت مرحلة النصر النهائي للدين الإسلامي علي غيره من الأديان مرحلة انفصال مغول إيران عن قراقورم ، حيث كان هذا من العوامل التي أدت إلي انتشار الإسلام في المجتمع المغولي وتغلغله داخل الأسرة المغولية الحاكمة وقضائه علي وثنية المغول ، كما شكل حبل النجاة الذي تعلق به غازان كي ينقذ عرش إيران من مسيرة الوثنية المتحالفة مع أنصاره ، وتحول مغول إيران

---

[1] عادل هلال ، مرجع سابق ، ص 133.

[2] محمد سهيل طقوش ، تاريخ المماليك ، ص 212.

إلي مدافعين أقوياء عن الدين الإسلامي وأصبحت ذرية هولاكو تدفع به إلي الأمام وتعمل جاهدة لتعويضه عما لحق به من خسارة علي يد زعيمهما .[1]

ومن الأحداث السياسية الهامة في عهد غازان ،دخوله في حرب مع دولة المماليك في مصر والشام ، وكان سلطان المماليك في ذلك الوقت الناصر محمد بن قلاوون ، وقد استاء غازان من المماليك لأنهم آووا الفارين منه ، كما شن المماليك عدة حملات حربية على بلاد الأرمن وتربطه بملكها علاقة ود وصداقة ،وقد اعتقد غازان أن الخلاف بين أمراء المماليك يسر له مهمة مهاجمة الشام ، والسيطرة عليها ثم الزحف منها إلى مصر.[2]

أمضي غازان شطرا كبيرا من حياته وهو متربع علي العرش الايلخاني في محاربة المماليك حكام مصر والشام . وقد وصلت أنباء إلي السلطان غازان تفيد أنه سادت مصر حالة من ضعف والتفكك بسبب التطاحن علي العرش والسلطة بين أمراء المماليك وبخاصة في الفترة التي اغتصب فيها كل من كتبغا ولاجين العرش من الملك الناصر محمد بن قلاوون مما شجع السلطان محمود غازان علي التفكير في فتح بلاد الشام وضمها إلي مملكته علي أن تكون خطوة الوثوب على مصر وضمها إلى أملاكه .[3]

ومن العوامل الجوهرية التي ساعدت علي إغارة المغول على مهاجمة سوريا ، إكرام السلطان كتبقا عصاه المغول الذين فروا من غازان بعد انتصاره على بايدو بصحبه طرغاي أكابر أمراء المغول وطلبوا الإقامة في مصر ، و كان عددهم يزيد علي عشرة ألف ، ويعرف هؤلاء بالمغول الاويراتية ويرجع سبب هجرتهم إن قائدهم طرغاى صهر منكوتمر قد ناصر ببدو على كيخاتو بن اباقا خان ، فلما دارت الأيام دورتها واستطاع غازان إن يعتلى عرش المغول في فارس ، أراد إن يأخذ بثار عمه من منكوتمر ففر هو وجماعته يريدون مصر، واظهروا رغبتهم في اعتناق الإسلام لكي يسمح لهم بالدخول.[4]

---

[1] محمد سهيل طقوش، تاريخ المغول ، ص 265.

[2] عصام الفقى ، مرجع سابق ، ص 207.

[3] عبد العزيز عبد السلام فهمي ، مرجع سابق ، ص 198.

[4] عبد العزيز عبد السلام فهمي ، مرجع سابق ، ص 198.

كذلك مما شجع غازان هروب سيف الدين قبجق نائب دمشق مع جماعة من الأمراء في خمسمائة من الجند إلي غازان ، و إخطاره بما آلت إليه الأوضاع في مصر و بلاد الشام من التدهور في نهاية حكم لاجين ، حتى تشجع السلطان المغولي وبدا يفكر في امتلاك هذه البلاد وتحقيق أطماع المغول فيها ثم مواصلة السير إلى مصر ، ويمكننا إن نتصور أهمية ذلك الحادث وما كان له من اثر في علاقات الناصر بغازان ، أذا علمنا إن غازان لم يكن حتى ذلك الوقت يعلم حقيقة الحال في مصر وبلاد الشام وأنه كان يتهيب المماليك بعد ما رآه من شجاعتهم وحسن خططهم وانتصارهم على ملك أرمينيا ، فأدرك غازان أن أوضاع أعدائه سيئة للغاية ، وكانت رغبة غازان متجهة إلى الاعتداء على دولة المماليك ، وكان يظن إن أحوال هذه الدولة ونزاع أمرائها ستساعده على تحقيق مطامعه ، ولذا تلمس سببا لبدء مشروعه وأتيح له الوصول إلى ذلك حين أرسل الأمير يليان الطباخى نائب حلب جيشا إلى ماردين عاث فيها فسادا فاتخذ غازان ذلك حجة في غزو الشام . [1]

ومن العوامل التي ساعدت السلطان محمود غازان على مهاجمة بلاد الشام أيضا إن الملك الناصر محمد كان يحرض أمراء المسلمين على طرد المغول من إيران والعراق، وأيضا مهاجمة جيش مصري بلاد الأرمن ، وهي دولة حليفة طبيعية للدولة المغولية في إيران ، بل كانت تعد تابعة للمغول الأمر الذي اعتبره السلطان غازان اعتداء على ممتلكاته ومنها ايضا العداء التقليدى بين المماليك والايلخانيين . [2]

وإذا كان غازان قد قرر انتهاج السياسة التقليدية لأسلافه بمحاولة ضم بلاد الشام لسيطرته ، فلقد شجعه على ذلك فترة عدم الاستقرار في السلطنة المملوكية بحيث إن أربعة سلاطين اعتلوا العرش في اقل من عشرة أعوام (1290 –1299م) قتل اثنان منهم ، وطرد الثالث ونفى الرابع مؤقتا لإمارة الكرك . [3]

مما لا شك فيه أن الخلاف بين المماليك و المغول بعد اعتناق غازان للإسلام كان لا بد أن يحدث نتيجة اقتراب حدود دولة مغول إيران من الأطراف الشمالية للدولة

---

[1] الحسن بن عمر بن حبيب ، مصدر سابق ، ص185 .

[2] عبد السلام فهمى ، مرجع سابق ، ص 198.

[3] عادل هلال ، مرجع سابق ، ص 132.

المملوكة هذا من ناحية ، و من ناحية أخري فإن المغول في إيران ، كانوا يرون أنهم أحق بالمكانة في العالم الإسلامي من المكانة التي يتمتع بها سلاطين المماليك ، و أن ذلك لن يتأتي إلا بالسيطرة علي مصر و الشام ، و نقل مقر الخلافة الإسلامية من القاهرة و التمتع بحماية الحرمين الشريفين في مكة و المدينة ، و لم يكن من الميسور الوصول إلي هذه الغاية إلا بالقضاء علي دولة المماليك ، التي كان يسودها الاضطراب في تلك الفترة نتيجة النزاع علي الحكم . وفي الحقيقة كان غازان قائداً طموحاً أراد أن يجمع في قبضته كياناً إسلاميا قوياً ومستقلاً عن الخان الأعظم المغولي ، وربما دفعت به هذه الرغبة إلى توسيع حدود دولية بالسيطرة على بلاد الشام ، ثم فتح مصر ، وقد بدا بالفعل جهده في تكوين هذا الكيان المستقل لدولته . [1]

الحقيقة أن العلاقات بين الدولتين الايلخانية والمملوكية اتسمت بالعدائية ، بالرغم من اعتناق خانات المغول للدين الاسلامى ، وعندما شعر غازان أن باستطاعته تحقيق الهدف الذي كان يرمي إليه مغول إيران منذ عهد هولاكو ، وفي الوقت الذي كانت فيه الأوضاع الداخلية لدولة المماليك تمر في حالة ارتباك بفعل الصراع بين كتبغا ولاجين ، قرر غزو الشام وهذا يعني أن الايلخان المغولي نظر إلى علاقاته مع المماليك المسلمين من الناحية السياسية وليس الدينية ، بهدف تحقيق طموحات المغول السياسية بالاستيلاء على بلاد الشام ومصر ، وتحطيم الروابط بين هؤلاء وبين أعدائهم مغول القبيلة الذهبية في بلاد القفجاق ، وان كانت مواقفه الدينية من خلال تبادله الرسائل مع السلطان المملوكي تنم عن نيته في زعامة العالم الاسلامى ، واتخذ من مهاجمة سلامش المغولي بالاشتراك مع الأمير سيف الدين بليان الطباخى نائب حلب لقلعة ماردين ذريعة لتنفيذ مأربه. [2]

كانت كل هذه العوامل مشجعة على ازدياد هوة الخلاف بين المغول الايلخانيين والمماليك ، وظهر العداء سافرا ، وتوعد السلطان محمود غازان المماليك وصمم على إبادتهم والتمثيل بهم واستعد كل فريق لملاقاة الأخر ، وما إن هرب سيف الدين قبجق نائب السلطان في دمشق مع جماعة من الأمراء في خمسمائة من الجند إلى إيران لجاوا

---

[1] محمد سهيل طقوش ، تاريخ المغول العظام ، ص 274 .

[2] سهيل طقوش ، تاريخ المماليك ، ص 238.

إلى السلطان غازان وابلغ سيف الدين السلطان محمود غازان ما آلت إليه حالة سوريا في نهاية حكم لاجين ، حتى تشجع السلطان المغولي وبدا يفكر في امتلاك بلاد الشام وتحقيق أطماع المغول فيها ثم مواصلة السير إلى مصر . [1]

وحتى تأخذ حروب غازان مع سلاطين مصر والشام الصبغة الشرعية ، استفتى رجال الدين والعلماء الذين اجمعوا على الجهاد فأخذت حملته الصبغة الشرعية واظهر ذلك ما كان للمغول تجاه المماليك من أحقاد دفينة ، وشجعه على ذلك قتل المنصور واعتلاء الملك الناصر محمد العرش المملوكي للمرة الثانية ، وما تبع ذلك من خلل في الأوضاع في مصر وبلاد الشام . [2]

أرسل غازان جيشاً يبلغ خمسه وعشرين ألف مقاتل بقيادة سلامش ، وأمره بالتوجه إلى بلاد الروم السلاجقة بآسيا الصغري – رداً على غدر الجيش الذي أرسله سيف الدين بليان الطباخى نائب حلب بأهل ماردين ونهب أرضها – وان يسير بحذاء الفرات واخبره بأنه سيسير هو عاى راس جيش اخر نحو ديار بكر وقد انضمت اليهما قوات مغولية من مختلف النواحى حتى وصل تعداد الحملة المغولية ضد المماليك تسعين الف مقاتل . واتفق مع سلامش على اللقاء عند حلب ليقوما بالإغارة من هناك على بلاد الشام . ولكن سرعان ما خرج سلامش على غازان وشق عصا الطاعة ، واستولى على بلاد الروم السلاجقة ، وكتب إلى حسام الدين لاجين سلطان مصر بطلب نجدة لقتاله ، فأجابه إلى طلبه وأرسل إلى نائب دمشق يأمره بإنفاذ العساكر لمساعدته ، ولما علم غازان بخروج سلامش عليه ، ترك المسير إلى بلاد الشام ، وعاد إلى تبريز بصحبه الأمير قبجق بينما اضطر سلامش إلى المسير إلى مصر حيث رحب به . السلطان الناصر محمد بن قلاوون غير انه ما لبث أن طلب العودة إلى بلاده . وبينما كان ماراً بحلب في طريقه إليها فيض عليه بعض المغول وأرسلوه إلى غازان حيث أمر بقتله . [3]

استرد الناصر محمد سلطته في حكم مصر وبلاد الشام . ومال غازان إلى السياسة قبل الإقدام على الخطوة العسكرية وحاول التفاهم مع السلطان المملوكي ،

---

[1] المرجع نفسه ، ص199.

[2] عبد السلام فهمى ، مرجع سابق ، ص 200.

[3] تقى الدين المقريزى ، السلوك ، ج1 ، ص 877.

فأرسل إليه وفداً من الأئمه والقضاة بصحبه يعقوب الكرجى ،من اجل هذه الغاية ، ويبدو إن الناصر محمد لم يقتنع بنية غازان السلمية ، فأهان قلاوون أعضاء الوفد وسجنهم مما اغضب غازان ، وهكذا فشلت في محاوله التفاهم بين الطرفين .وكان لابد من الصدام لتقرير المصير . [1]

وبعد أن استقرت الأمور بدا غازان يخطط للاستيلاء علي مصر والشام لتحقيق غايته ، فقام غازان بثلاث حملات عسكريه ضد بلاد الشام للسيطرة عليها ، غير أنها فشلت في تحقيق الهدف المنشود ، ولم ينتج عنها سوى القتل والتخريب والتدمير ومزيد من العداء والتباعد بين الجانبين .

الحملة الأولى : معركة مجمع المروج 698هـ /1299م :-

قرر غازان ملك التتار عبور الفرات إلى حهة بلاد الشام لاسباب منها اتباعه سياسة اسلافه في مواصلة غزو بلاد الاسلام الواقعة غربا ، بالاضافة إلى تشجيع الامير سيف الدين قبجق نائب دمشق السابق واصحابه الذين دخلوا في طاعة غازان وشجعوه على غزو الشام نكاية في الامير منكو تمر والسلطان لاجين الذى قهرهم واستبد بهم ، يضاف إلى ذلك ما اتهم به نيروز وزير غازان بمكاتبة السلطان لاجين ضد التتار ، مما اغضب غازان علاوة على غضبه على الامير بليان الطباخى نائب حلب الذى ارسل جيشا إلى ماردين عاث فيها فسادا فاتخذ غازان من ذلك ذريعة لغزو الشام ، كما إن اختلاف امراء المماليك حول السلطة شجع غاوان على غزو الشام مستغلا انشغال امراء المماليك بامور الحكم فشد عزمه على فتح مصر وضمها إلى املاكه. [2]

اعد غازان جيشاً بلغ عدده مائه ألف مقاتل ، وغادر عاصمة تبريز في سنة 698هـ /1298م ، جعل على مقدمته قتلوشاه فعبر نهر الفرات وانضم إليه .الملك الارمينى هيثوم الثاني على رأس خمسه ألاف مقاتل ووصل إلى حلب . [3]

---

[1] عصام عبد الرؤوف الفقى ، مرجع سابق ، ص 222 .

[2] فايد حماد عاشور ، العلاقات السياسية ، ص 312.

[3] شهاب الدين عبد الوهاب النويرى ، مصدر سابق ، ج30 ، ص 221 .

ولما وصلت أنباء الزحف المغولي إلى مصر، عهد الناصر محمد إلى بعض الأمراء بالخروج إلى بلاد الشام للتصدي لهم ، ثم تبعهم على رأس جيش كبير بعدا أن أناب عنه في مصر الأمير ركن الدين بيبرس المنصوري . [1]

ولم يكد الجيش المملوكي يصل إلى غزة وينزل بتل العجول حتى قامت فرقة الاويراتيه المغولية بتدبير مؤامرة لاغتيال السلطان الناصر محمد ، وإعادة الملك كتبغا إلى العرش ، بوصفه مغولي الأصل والأخذ بثار إخوانه الذين قتلوا في عهد لاجين واغتيال الأمرين بيبرس وسلار ، وكان من اثر هذه المؤامرة أن تأخر زحف الجيش المملوكي وعمت الفوضى صفوف المماليك ، وفقدوا كثير من آلات الحرب . وقد اظهر قواد الجيش المملوكي نشاطا عظيما وحكمة في إحباط تلك المؤامرة ، وإعادة النظام إلى وحدات الجيش ، ولقي المتآمرون جزاءهم ، وقتل من الاويراتية نحو خمسين رجلاً . [2]

استأنف الجيش زحفه حتى وصل إلى دمشق ، ثم دخل عسقلان في سنة 698هـ / 1298م وتابع زحفه شمالاً إلى حمص وعسكر عندها وأرسل قوه لاستطلاع أخبار المغول عند سلميه – من أعمال حماه . وتواترت الإخبار بوصول المغول وادي الخذندار، فسار السلطان إليهم وحث السير فقطع ثلاث مراحل في مرحله واحده حتى اشرف على مجمع المروج في وادي الخزندار بين حمص وحماه ، حيث نصب خيول عساكر المماليك . [3]

وجاء غازان في جيوش التتار ومن انضم إليهم من الكرج والأرمن وغيرهم ، ومعه الأمير سيف الدين قبجق والأمير سيف الدين بكتمر وغيرهم. وقد رتب جيشه بحيث يكون الخيل في المقدمة وأقام من ورائهم الفرسان راجلين بقصد حماية رجال جيشه من هجمات العدو ، ولم يمتط رجال المغول خيولهم إلا بعد إن حمى وطيس القتال . [4]

التقى الجيشان عند مجمع المروج سنه 698هـ – 1299م ، وكان في جيش المماليك صفوة القواد الأكفاء ومعهم رجال الدين يخترقون صفوف الجند ليبثوا فيهم روح

---

[1] المصدر نفسه ، ص240.

[2] الحافظ العسقلاني الدرر الكامنة في السنة الثامنة الطبعة الأولي ، الجزء الثالث ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية بيروت ، 1997م ، ص127 –128.

[3] تقي الدين المقريزي ، مصدر سابق ، ص 886 .

[4] عبدا السلام عبد العزيز فهمي ، مرجع سابق ، ص201.

الحماس وحب النصر ، فقويت بذلك عزائمهم على الثبات ، وبداوا يهاجمون المغول ، وكان عدد المماليك عشرين ألفا ، وبلغ المغول خمسة أضعافهم ، وكان اللقاء رهيباً حيث دارت رحى معركة ضاربه حملت فيها ميسرة الجيوش الإسلامية علي ميمنة التتار، وأسفرت عن هزيمة المماليك وانتصار المغول على الرغم من انتصار المماليك في بداية المعركة وتفوقهم علي المغول . وقتل من التتار فيها حوالى خمسة الاف ، ولم ينقذ السلطان من الموت سوى توقف المغول من مطاردة المماليك ، خوفاً أن يكونوا قد اعدوا لهم كمينا حرباً على عادتهم في الحروب . [1]

ولما رأي غازان انهزام ميمنة التتار انعزل في نحو في نحو ثلاثين فارسا عزم علي الفرار فمنعه سيف الدين قبجق نائب دمشق ومناه بالظفر، وكان قصده في ذلك فيما قال بعد عودته القبض علي غازان عند استمرار الهزيمة بجيوشه .ومع ذلك تجمعت فلول المغول حول غازان من جديد وعاد له امره وهاجم قلب الجيش الاسلامى فتقهقر . [2]

أما السلطان الناصر محمد فأن العساكر قد تفرقت عنه وقت الهزيمة ولم يبق معه إلا بعض خواصه وحاول الملك الناصر الهرب ولكن الامير حسام الدين لاجين كان يمنعه ويقول له : (ما هى كسرة ، ولكن المسلمون قد تاخروا) ، ثم عادت ميسرة الجيشر الاسلامى المنتصرة على ميمنة التتار إلى حمص ومعهم الغنائم ولكنهم لم يلبثوا طويلا حتى علموا بانهزام قلب الجيش الاسلامى امام غازان وتبعهم التتار ، زلكن غازان خشى إن يكون اعد له كمينا للايقاع به فكف عن اتباع العسكر المنهزم ، فانسحب من ارض المعركة إلى بعلبك ومنها إلى دمشق تاركاً وراءه كميات وفيرة من العتاد والمؤن. [3]

ولما انتهت المعركة وشاهد غازان من قتل من أصحابه وكثرتهم وقله من قتل من العساكر الاسلاميه ظن أن هذه الهزيمة مكيدة ، فتوقف عند مطاردة فلول الجيش المملوكي المنهزم لأنه خشي أن يكون المماليك قد أعدوا له كميناً ، وعسكر بعد انتهاء المعركة بالقرب من حمص ، فحضر إليه حاكمها محمد بن الصارم وسلمه مفاتيحها ، وقدم إليه أهلها فروض الطاعة ، وانتشرت قواته في القرى المجاورة تنهب وتدمر وتقتل

---

[1] محمد جمال الدين سرور ، دولة بني قلاوون ، ص178 .

[2] النويري ، مصدر سابق ، الجزء 30 ، ص241.

[3] تقي الدين المقريزي ، السلوك ، ص888.

كعادتها . ثم رحل منها إلى جهة دمشق ونزل بالفوطة ، وخطب له على منابر دمشق بهذه الألقاب (مولانا السلطان الأعظم سلطان الإسلام والمسلمين مظفر الدنيا والدين محمود غازان) وكان ذلك ائذاناً بخضوع بلاد الشام لسيطرة المغول . [1]

شجع هذا الانتصار غازان علي مواصلة الزحف نحو دمشق ، فتقدم بقواته اولا إلى حمص فدخلها واستولى على ما فيها من الاموال والامتعة الخاصة بالمسلمين والجيش ، ثم سار نحو دمشق وكان مضطربة بسبب الهويمة وخوفا من التتار في تلك الاونة ، فلاذ كثير من أهلها بالفرار من مدينتهم ومغادرتها ، وخشي كبار رجال المدينة وعلمائها من تدمير المغول لمدينتهم فبعثوا إلى غازان يطلبون الأمان ، وكان من بينهم شيخ الإسلام ابن تيمية وقابلوه بالنبك – وهي قرية بين حمص وحماة فاخبرهم أنه أرسل إليهم أمانا[2] مع رسله فعادوا وقرئ .في المسجد الأموي ، يعلن فيه رغبته في تحسين أوضاعه على الشعب عن طريق إعلان إن المماليك كفرة فجرة ، وان المغول وهو بالذات قد نور الله تعالى قلوبهم بنور الأيمان والإسلام ، وأنهم هم أنصار الإسلام الحقيقيون ومنقذو تعاليمه السمحة ، مع استشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، ثم يعلن تامين الناس على أموالهم وأرواحهم وحرياتهم بشرط أن يؤدي أهل الذمة الجزية المقررة عليهم ، ووعدهم بحكومة عادلة ، تقر العدل والنظام إذا ضمت مصر إلى حوزة المغول ، وان الله سبحانه وتعالى قد أرسل المغول إلى الشام ومصر لتخليصهم مما هم فيه ومما جاء في ذلك المنشور : (بقوة الله تعالى وإقبال دولة السلطان محمود غازان ، ليعلم أمراء الألوف والمائة وعموم عساكرنا المنصورة من هو داخل تحت ربقة طاعتنا أن الله لما نور قلوبنا بنور الإسلام وهدانا إلى ملة النبي عليه أفضل الصلاة والسلام ، افمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ، فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ، أولئك في ضلال مبين ، وما أن سمعنا أن حكام مصر والشام خارجون عن طريق الدين ، غير متمسكين بأحكام الإسلام ، ناقضون لعهودهم ، حالفون بالإيمان الفاجرة ، ليس لديهم وفاء ولا ذمام، ولا لأمورهم التئام ولا انتظام ، وكان احدهم إذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ، ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد، وشاع عن شعارهم الحيف على الرعية ، حملتنا

---

[1] عبد الرحمن بن خلدون ، مصدر سابق ، ج5 ، ص490 – 491 .

[2] أنظر نص الأمان النويري ، ج 30 ، ص 244–245 .

الحمية الدينية والحفيظة الإسلامية ، على أن توجهنا إلى تلك البلاد لإزالة هذا العدوان ، وإماطة هذا الطغيان مستصحبين الجمع الغفير من العساكر ، ونذرنا على أنفسنا أن وفقنا الله تعالى بفتح تلك البلاد أزلنا العدوان والفساد ، وبسطنا العدل والإحسان فى كافة العباد، ممثلا للأمر الالهى (۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠)[1] لكن غازان نكث بالعهد،لان المغول لا يعرفون حرمة العهود ، وكانت العهود التي تضمنها المنشور الذي أصدره غازان يؤمن فيه الاهالى لم يكن إلا سرابا وخدعة ، فما ان نزل السلطان بظاهر دمشق حتى أطلق جنده في المدينة يعيثون فيها نهباً وفسادا وتخريباً . وانزل جنوده المحن والبلايا بالسكان فنهبت الأموال وغلت الأسعار واشتطوا في جمع الأموال حني عجز كثير من الناس عن دفع ما فرض عليهم ، كما تعرضوا لأنفس الآثار فخربوا بعضها واحرقوا البعض الآخر . [2]

ورغم إن دمشق خضعت تماماً لسيطرة المغول إلا أن قلعتها المنيعة ظلت نقاوم بقيادة الأمير علم الدين سنجر المنصوري المعروف بارغواش المنصوري وقد حال دون تسليمها للمغول ودافع عنها ببسالة . [3]

ولما تأكد المغول أنهم لن يتمكنوا من الاستيلاء عليها ، فوض السلطان محمود غازان الأمير قبجق وبعض الأمراء المماليك الذين التجاوا بغازان للتفاوض في استلام القلعة ، فأبى حاكمها ، وحدث حوار عنيف بين الوفد المملوكي الممثل لغازان وارجواش المنصوري ، وقالوا له: (دم المسلمين في عنقك أن لم تسلمها) فأجابهم على ذلك بقوله: (دم المسلمين في أعناقكم انتم الذين خرجتم من دمشق وتوجهتم إلى غازان وحسنتم إليه المجئ إلى دمشق وغيرها) ، ثم امتنع عن تسليمهم القلعة ، وظل متحصنا بها. [4]

جرد غازان عسكره في عشرين ألف فارس فنزلوا بالأغوار ، وشنوا الغارات ونهبوا تلك الجهات بل امتدت ايدى المغول إلى بيت المقدس والخليل والكرك لتنهب

---

[1] سورة النحل ، الآية (90).

[2]على ابراهيم على ، مرجع سابق ، ص 203.

[3] ابن كثير ، مصدر سابق ، الجزء 14 ، ص 10 .

[4] ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج 8 ، ص 125.

وتدمر وتأسر من دون رحمه حتى دخلوا غزة وقتلوا بجامعهاخمسة عشر رجلا ، وعادوا إلى دمشق وقد اسروا عددا كبيرا ، وهذا يعنى إن دولة المماليك في مصر فقدت سيطرتها على بلاد الشام . (1)

واصل المغول زحفهم إلى الشمال حتى نزلوا في سنه 698هـ –1298م بالصالحية –وهى قرية مطلة على دمشق . ونهبوها وقتلوا من أهلها نحو تسعه آلاف . وبالغوا في أعمال النهب والسلب في دمشق وغيرها من بلاد الشام . حتى أن المقريزي يقول : انه قتل في دمشق من الجند الفلاحين والعامة نحو مائة ألف . (2)

وفى سنة 699هـ /1299م قام التتار بنهاجمة قرية الصالحية واخذوا ما في جامعها ومدارسها ، وتوجه لتتار إلى قرية المزه(*) فنبهوها وسبوا أهلها ثم توجهوا إلى داريا (*) وفعلوا بها ما فعلوه بالصالحية وقتل أهلها عدد كبير من التتار . وتوجه الشيخ احمد بن تيميه إلى غازان يتل راهط ليشكو له ما ارتكبه المغول من الأحداث على الرغم من ذلك الأمان الذي أعطاه لأهل دمشق ،غير إن حاشية غازان لم تمكنه من الاجتماع به . (3)

لم يتمتع أهل دمشق بالأمن والطمأنينة فقد شدد المغول عليهم ، واشتطوا عليهم في جمع الأموال حتى عجز كثير من الناس عن أداء ما فرض عليهم ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل اشتد الغلاء في دمشق واقترنت هذه الأحداث بكثرة عدد القتلى من الجند والعامة ، وقال في ذلك احد الشعراء :

رمتنا صروف الدهر منها بسبعة فما احد منا من السبع سالم

غلاء وغازان وغزو وغارة وغدر واغبان وغم ملازم (4)

ومع ما اقترفه المغول من عبث ونهب فقد كان يقل بكثير عما فعله اجدادهم عندما اغاروا على بلاد الشام ، بل لم يسمع انهم اذوا الاهالى المسلمين ، ولم يقوموا بدك

---

(1) شهاب الدين النويري ، مصدر سابق ، ج 30 ، ص 250 .

(2) تقي الدين المقريزي ، السلوك ،ج1 ، ص 892.

(*) داريا : قرية كبيرة مشهورة من قري دمشق بالقوطه ، القلقشندى ، الجزء الرابع ، ص 283.

(*) المزه قرية كبيرة غناء في وسط بساتين دمشق ، القلقشندى ، الجزء السابع ، ص 271.

(3) تقي الدين المقريزي ، السلوك ،ج1 ، ص 892.

(4) تقي الدين المقريزى ، السلوك ،ج1 ، ص 893 – 894.

المدن وذبح الاهالى كعهد الناس بهم ، وهذا في حد ذاته يدل على إن الاسلام قد هذب نفوسهم ، وان اقامتهم في البلاد الايرانية قد صقلت حياتهم وحولتهم من البربرية المتوحشة إلى اناس مستانسين ، وان ما فعلوه في بيت المقدس يدل على تعصبهم للاسلام ليس اكثر .

يبدو إن الايلخان لم تكن لديه خطة عمل واضحة لما بعد الانتصار مما يدل على إن الهدف من حملته لم يكن الاستيلاء والاستقرار ، بل لمجرد تاديب المماليك وايقاف اعتداءتهم ، يؤيد هذا إن فترة الاحتلال المغولى لم تطل اكثر من مائة يوم ، فخرج غازان بعد ذلك من دمشق قاصداً بلاده سنه 700هـ -1300م بعد أن اطمأن على الأوضاع . وعين الأمير سيف الدين قبجق _حليف غازان والمتمرد على إخوانه المماليك في القاهرة _ والياً على بلاد الشام كما اسند إليه ولايه القضاء والخطباء ، وعين لمساعدته بقية امراء المماليك الذين لجاوا معه إلى المغول ، وأقام قطلو شاه قائداً للحاميه المغولية التي تركها وراءه والبالغة 60 ألفا ، وقد اضطر غازان للانسحاب من الشام بعد هذا النصر المؤزر ، لأسباب داخلية في بلاده ومنها هجوم مغول الجغطاى، على الحدود الشرقية لإيران من ناحية خراسان منتهزين فرصة تواجد السلطان غازان ومعظم جيشه في الشام وخلو البلاد من جنود يدافعون عنها ، فقام بمحاربتهم وتمكن من السيطرة على الموقف ، واتحد المماليك الذين كانوا موالين لغازان اثر ذلك مع أقرانهم في مصر وطردوا الحاميات المغولية من الشام بعد فترة احتلال مغولي لها قاربت ستة شهور ولم يكتف بذلك بل تعقبهم في ديارهم وبدد جموعهم . [1]

كذلك خاف غازان عاقبة طول مقامه في سوريا حتى لا تدركه الجيوش المصرية من الغرب ، وتخرج عليه حامية قلعة دمشق المنيعة في سوريا ، بينما تتعرض حدوده الشرقية للغزاة ، فتتوزع جهوده بين جبهات متعددة فيذهب ضحية أطماعه الواسعة ، لذلك نراه يؤثر تركيز قواه في الشرق وترك سوريا إلى المماليك حتى تأتيه فرصة أخرى لإعادة الكرة عليهم . [2]

---

[1] عادل هلال ، مرجع سابق ،ص 133.

[2] على ابراهيم حسن ، مرجع سابق ، ص 155.

ولم يلبث فطلوشاه أن غادر بلاد الشام بعد عشره أيام من مغادرة غازان ، فانفرد قبجق بحكومة دمشق ثم غدر المغول وطردهم من بلاد الشام ، وابلغ الناصر محمد نبا خروج السلطان غازان وقطلوشاه من دمشق ، و دخوله في طاعته فاستبشر أهل دمشق بذلك وعادت الطمانينه إلى نفوسهم . [1]

إن أحداث سوريا واحتلال المغول لها وطردهم منها ترينا ما كانت عليه أحوال كل من مصر وإيران من اضطراب ، ففي مصر كان الخلاف بين الأمراء وهم الذين شجعوا غازان على مهاجمتهم بعد أن أطلعه المنشقون منهم على نواحي الضعف وثغرات الوهن والخلل في الدولة المملوكية ، كذلك كان على غازان أن يتوجه إلى خراسان لدفع غارات المغول الجغتائيين الين هاجموا البلاد الإيرانية من الناحية الشرقية ، كذلك كان انشقاق الأمير سيف الدين قبجق نائب السلطان الناصر محمد بالشام وخيانته أولا ، وعودته ثانيا لخيانة سيده الجديد غازان من أسباب اضطراب الأمور . [2]

رحب السلطان الناصر محمد بن قلاوون برجوع الأمير سيف الدين قبجق إلى المماليك مرة أخري بعد إن خانهم وانضم إلي عدوهم ، ليكون سندا له ضد المغول ألد أعدائه في ذلك الوقت ، أما الأمير سيف الدين قبجق وتصرفاته الشاذة التي أودت بانسلاخ الشام عن مصر وهزيمة الجيش المملوكي وتدميره ، فانه من المرجح أنه قد أفاق لنفسه، وأيقن أنه الخاسر لا محالة ، خاصة بعد أن وصلته أخبار عن الاستعدادات الحربية الهائلة التي كان يقوم بها السلطان الناصر محمد ، وتوقعه انتصار المماليك علي المغول . فكان ذلك أحد العوامل الرئيسية التي أدت بالأمير سيف الدين قبجق إلي ترك المغول وانقلابه عليهم وعودته إلي المماليك مرة أخري. [3]

غير أن أمراء المماليك لم يستسلموا لهذه الهزيمة ، فتكتلوا بالقاهرة وخرجت جموعهم إلي الشام لأخذ الثار من المغول ، وترك غازان دمشق في حماية من انضم إليه من أمراء المماليك بهدف شطر المماليك حزبين يضرب كل منهما الآخر ، ولكن

---

[1] ابن كثير مصدر سابق ، ج 14 ، ص10.

[2] عبد السلام فهمى ، مرجع سابق ، ص 206.

[3] عبد السلام فهمي ، مرجع سابق ، ص204 –205.

حدث عكس ما توقعه غازان وانضم المماليك في الشام إلي إخوانهم القادمين من مصر وعادت الوحدة من جديد بين مصر والشام تحت سلطنة الناصر محمد . [1]

يبدو أن انهزام المماليك في هذه المعركة بعود إلي عدة عوامل أهمها نفوق المغول في العدد والتجهيزات ، إذ أن أفراد الجيش المملوكي بلغ بضعه وعشرين ألفا والمغول نحو مائه ألف . ولكن نحسب أن هناك عوامل أخرى وسط الجيش لان فارق العدد لا يكون سبباً في الهزيمة.[2]

لكن يبدو أن هناك سوء تدبير وافق الحملة لافتقار الجيش للإعداد النفسي وإنهاك الجيش والدواب نتجه سرعه انتقال الجيش ، فقد حث السلطان على السير لملاقاة المغول قبل وصولهم إلى دمشق فقطع ثلاث مراحل في مرحلة واحدة . كذلك تسببت المؤامرة التي دبرت للتخلص من السلطان الناصر محمد وأمرائه في إضعاف الروح المعنوية لقواته ، وربما يرجع ذلك أيضا إلى فشل ألخطه العسكرية التي وضعها قادة المماليك لحوض المعركة والقائمة على ضرب الجناحين ، وإخراجهما من ساحة القتال ثم ضرب القلب ، وفعلا تمكنت ميسرة المماليك من هزيمة ميمنة الجيش المغولي ، ومطاردتها حتى حمص ،الا إن الميمنة فشلت في زحزحة ميسرة المغول من مواقعها ، فولت هاربة تحت ضغط القتال ، وتمت هزيمتها ،وكاد غازان إن يولى الأدبار في إحدى مراحل المعركة ، إلا انه ثبت في القلب وكر على قلب الجيش المملوكي وشتته فانتشرت الفوضى في صفوف المماليك وفروا لا يلوون على شيء ، وعلى رأسهم السلطان . [3]

تعتبر مجمع المروج من اعنف وأعظم المواقع التي دارت بين المماليك والمغول ، وقد حلت الهزيمة بالمماليك وتمكن المغول من دخول دمشق ونهبها . وعلى الرغم من أن قبجق يعد من المحرضين على إغارة المغول ، فانه يرجع إليه الفضل في رد غازان بعد انتصاره عن مطاردة جيوش المماليك المنهزمة خشية أن يكونوا قد اعدوا لهم كمينا ،

---

[1] ابن تقري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج 8 ، ص 126.

[2] النويري ، مصدر سابق ، ج 30 ، ص 249.

[3] النويري ، مصدر سابق ، ص241.

ولقد كان لهذه المعركة اثر كبير على المماليك والعالم الاسلامى ، فزال سلطان المغول عن الشام ، وعادت الوحدة من جديد بين مصر والشام تحت سلطان الناصر محمد .[1]

الحملة الثانية :

لقد تركت مجمع المروج حرجاً غائراً لم تزده الأيام إلا إيلاما وحسرة ، ولاشك أن الهزيمة التي حلت بالمماليك كانت درساً وعبرة للسلطان الناصر محمد ودافعاً إلى ضرورة لقاء المغول في معركة أخرى ، ولم ينتظر السلطان طويلا حتى شرع في الاستعداد للعودة إلى بلاد الشام لغسل عار تلك الهزيمة التي اوقعها المغول بجنده ، واتخذ عدة تدابير تنفيذية لتقوية الجانب العسكري أهمها فرض ضرائب جديدة وحث الأغنياء على التبرع بالمال ، وطلب من عمال الأقاليم إن يجمعوا الخيول والرماح والسيوف من سائر الوجهين القبلي والبحري ، كما استدعى قوات الاحتياط ممن تركوا الخدمة العسكرية ، وطلب من نواب بلاد الشام التشدد في حماية ما بحوزتهم واخبرهم بأنه عازم على العودة مرة ثانية إلى هذه البلاد . كما كتب إلى قبجق وغيره من الأمراء يدعوهم إلى طاعته ، فأجابوه إلى طلبه .[2]

فوجئ غازان بوحدة المماليك .وفكر في إرسال حملة جديدة لضم مصر وبلاد الشام إلى أملاكه حتى يعيد للدولة الايلخانية هيبتها ومكانتها ، فجهز جيشا في سنه 700هـ /1300م ، وخرج من تبريز عبر الفرات متوجهاً إلى حلب عن طريق الموصل ، فخرج أهل حلب من مدينتهم وعم الذعر سائر مدن بلاد الشام .[3]

ولما سمع السلطان الناصر محمد جهز حملة عسكرية وخرج على رأسها، متجها إلى بلاد الشام ثم تبعه الجيش بقيادة الأمير سلار نائب السلطنة ، وبيبرس الجاشنكير الاستادار فتقابلا مع الأمير قبجق في منتصف الطريق بين غزة و عسقلان ، وطلبا إليهم التوجه إلى السلطان بالصالحية ولما بلغ السلطان خبر قدومهم ، ركب إلى لقائهم وبالغ في إكرامهم ثم عاد بهم إلى قلعة الجبل حيث عفا عنهم ، وعهد إلى قبجق

---

[1] على ابراهيم ، مرجع سابق ، ص 151.

[2] Sir Henry Hayle Howorth : History of Mongols from the 9 th to 19 th Century .London 1876-1927 p. 473-474.

[3] الحسن بن عمر بن حبيب، مصدر سابق ، ص 212.

بولاية الشوبك إجابة لطلبه ، وما لبث إن عاد الأميران بيبرس وسلار على رأس الجيش المصري من دمشق ورحب السلطان بمقدمهم .[1]

ولما وصل إلى غزة ورده خبر عبور غازان نهر الفرات ، فأمر جنوده بالاستعداد للتصدي له ولكن عامل المناخ أدى دوراً بارزاً في تحديد اتجاهات الطرفين ، وحال دون لقائهما في معركة فاصلة . فقد هطلت الأمطار الغزيرة والثلوج التي توالت اربعين يوما ، وكثر الوحل واشتدت البرودة فهلك كثير من جند المغول ، وهلك من خيولهم ما لايحصى . وافسدت يعض المهمات العسكرية، وكان غازان قد وصل أنطاكية فوجد نفسه عاجزاً عن الاستمرار في الزحف نحو الشام، واضطر للعودة إلى إيران في سنه 700 هـ – 1301 م بعد أن نهبت فواته إنطاكية وجبال السماق[*] وقد عقب المؤلف أبو المحاسن على هذه الحملة بقوله تعالى:(وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا .)[2][3]

كذلك رجع الناصر محمد إلى مصر بعد أن كان قد وصل إلى غزة ، وعجزت كل طائفة من المسلمين والتتار عن ملاقاة الأخرى بسبب سوء الأحوال الجوية . زلم يعلم الناصر محمد بعودة غازان إلى بلاده إلا بعد وصوله إلى القاهرة ، 700هـ /1301م ، ولما علم اهل دمشق والشام بعودة الملك الناصر محمد إلى مصر اشتد خوفهم وخرج معظمهم يريدون القاهرة ، وذلك بسبب ما عرف عن التتار من فظائع ، وكانت الشام جربت الاحتلال المغولى اكثر من مرة ، ولهذا فان القلوب كانت وجلة باستمرار من تحركات العدو .[4]

وعقب انتصاره في معركة مرج المروج أسرع الأرمن في فليقيا ، والغرب الاوربى إلى إرسال رسلهم وسفرائهم إلى تبريز مهنئين بالنصر ، وهذا تصرف سياسي طبيعي

---

[1] المقريزى ، السلوك ، ج1 ، ص 900 –902.

[*] جبال السماق : سلسلة مرتفعات عظيمة بجهات حلب الغربية تشتمل علي مدت كبيرة وقري وقلاع للاسماعلية وأكثرهم في طاعة صاحب حلب . سمي كذلك لكثرة ما ينبت فيه من أشجار تقارب اشحار الرمان وتحمل عناقيد ذات حب شديد الحموضة . ياقوت الحموي الجزء الثالث ، ص29 .

[2] سورة الأحزاب الاية 25 .

[3] ابن كثير ، مصدر سابق ، جزء 14 ، ص 16.

[4] فايد حماد عاشور ، العلاقات السياسية ، ص 161.

تجاه الدولة التي انتصرت على المماليك الذين طردوهم من بلاد الشام وثغوره وسواحله ، واعتبروا هذا الانتصار انتقاما لهزائمهم المتكررة وصمموا على مساندته في هذه المرحلة الحرجة ، آملين بإخراج بلاد الشام ومصر من دائرة نفوذ المماليك وغيرهم من أمراء المسلمين وأرسل إليه جيمس الثاني ملك ارغوانه رسالة أشاد فيها بانتصاره الكبير ، ودعاه بإمبراطور الشرق ، وأكد له إن رعاياه على استعداد بان يساندوه في حروبه ضد المسلمين. [1]

الواضح انه بالرغم من اعتناق غازان للدين الاسلامى فان نظرته السياسية إلى طبيعة الصراع مع المماليك لم تمنعه من الترحيب والتطلع إلى مساعدة الدول الأوربية والتحالف معهم للقضاء على الدولة المملوكية ، فأرسل إلى ملكي انجلترا وفرنسا عدة سفارات لكنها لم تؤد إلى نتيجة ايجابية رغم أن غازان كان يعتقد بأن جهوده في مهاجمة المماليك وإضعافهم سوف تلقى التقدير من البابا والملوك في أورباء وأنهم سيهبون لمساعدته على ذلك. وما حاول أن يغريه بأنه قد وافق على قيام الفرسان الصليبيين بإقامة قلاع لهم في الشام على أن يأتوا بسكناها وأنه أمر نائبه قتلوشاه بأن يقدم له كافة التجهيزات لبنائها ، والراجح إن الغرب الاوربى خشي من إن الخان المغولي ، وهو المسلم الصادق لم يكن بوسعه التحالف معهم ، وإذا تم ذلك فقد يلقى صعوبة في الوفاء بعهوده . [2]

ولما يئس غازان من مناصره ملوك وأمراء أوربا له ،مال إلى مهادنة المماليك خاصة وقد وصل إليه أن المماليك يتهيئون للأخذ بثأرهم . حتى يستطيع خلال هذه الهدنة من اعداد قواته فإضطر حينئذٍ إلى تبديل سياسته ، فأرسل رسالة إلى السلطان الناصر محمد تتضمن أفكارا تعبر عن وجهه نظره لتحسين العلاقات بين الدولتين ، محاولاً تثبيط عزائم المماليك بعقد صلح معهم ، غير أن أمراء المماليك فظنوا لخديعة فرفضوا الصلح وعملوا على الاستفادة من هذا التأجيل في تقويه صفوفهم وتوحيد كلمتهم. [3]

---

[1] سهيل طقوش ، تاريخ المماليك ، ص244.

[2] محمد سهيل طقوش ، تاريخ المماليك ، ص 245.

[3] المقريزي ، السلوك ، ص 908.

بين غازان في الرسالة انه سيخضع بلاد الشام ومصر لكي يصبح وحده حامي الإسلام والمسلمين بدلاً من السلطان المملوكي ، واتهم حكام مصر بالظلم والخروج على مقتضيات الدين الصحيح ، وعاب على الناصر محمد هجومه أطراف بلاده كما ردين ونواحيها من غير سبب ، ويتوعده بالانتقام إذا لم يكف عدوانه ، وناشده بالله أن يعمل على تلافى ، ما قد يقع ببلاده من الدمار، وهدده وتوعده أذا لم يمتثل لأمره ، واخبره بأن المغول مهتمون بجمع العساكر وشحذ الهمم ، ومشتغلون بصنع المجانيق وآلات الحصار، للمسير إلى بلاده عند الضرورة ، وطلب منه أن يرسل إليه الهدايا والتحف وختم رسالته بقوله : (قد اعذر من انذر وأنصف من حذر .) [1]

ومع أن رسالة السلطان غازان تحمل معنى المهادنة إلا أنها كانت تتضمن في طياتها في الوقت نفسه التهديد والوعيد ، وكان أسلوب الرسالة حاسما ، وكأنها صادرة من حاكم إلى من هو دونه قوة وقدرة ، ولم تخل رسالة السلطان محمود غازان من نشئ من الغرور والتعالي بما لا يتفق وتواضع المسلم وصفحه عما سلف ، حيث قال : (فعفونا عنكم بعد اقتدار ، ودفعنا عنكم حكم السيف البتار ، وتقدمنا إلى جيوشنا ألا يسعوا في الأرض كما سعيتم ، وان ينشروا من العفو والعفاف ما طويتم ، ولو قدرتم ما عفوتم ولم نقلدكم منه بذلك ، بل حكم الإسلام في قتال البغاة كذلك ، وما حصل في قلوب الرعية من الرعب عند معاينة جيوشنا التي هي كمطبقات السحب ، فأردنا أن نسكن تخوفهم بعودتنا من أرضهم بالنصر والتأييد ، والعلو المزيد). [2]

رد السلطان المملوكي الناصر محمد على الرسالة برسالة مماثلة ، وكان جوابه مليئاً بعبارات مسيئة ، وبرهن بالأدلة أن المغول هم الذين بدأوا بالعدوان . وبين له اسبقيه المماليك في اعتناق الإسلام من المغول وبالتالي فهم اخلص منهم في حمايته ، وانه يتبوأ مركز الصدارة في حماية الإسلام والمسلمين وهو بالتالي يرفض التبعية ، وعاب على غازان إذلاله المسلمين في دمشق وما جاورها من البلاد وتخريبه المساجد والآثار مما لا يتفق مع تعاليم الإسلام . كما ذكر له أن ما أبدوه من الاهتمام بجمع

---

[1] انظر نص الرسالة في ، النويري مصدر سابق ، ج 30 ، ص 265 –266 أو في ابن تقري بردي النجوم الزاهرة ج 8 ، ص 136 – 138 أ و القلقشندي ، مصدر سابق ، ج7 ، ص 256 – 264.

[2] ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج8 ، ص 136 – 139.

العساكر وتهيئه المجانيق إلى غير ذلك مما ذكروه من التهويل فقد ذكره بقوله تعالى : (ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ)[1] أما حديث الاغاره على ماردين فالله تعالى يقول : (وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ)[2] فانتم ما كان لكم أن تقصدوا الإسلام بالجموع الملفقة على اختلاف الأديان وتطأوا البقاع الطاهرة وتنتهكوا حرمه البيت المقدس. وأما رسلكم الذين وصلوا إلينا فقد أكرمنا وفادتهم وسمعنا خطابهم ، وما كان ينبغي أن يرسل مثل هؤلاء لمثلنا من قبلكم ، ولا ينتدب لهذا الأمر المهم إلا من يجمع على فضل خطابه وفضله . كما ذكر له انه لن يرسل له الهدايا والتحف حتى يبدأ هو بإرسالها إليه، وحينئذ يردها بأحسن منها ، وكانت عبارات رده تنم على انه لم يجبه على تلبية طلباته خشية من تهديده وخاطبه مخاطبة الند للند . وختم رسالته لغازان مؤكداً له استعداده للصلح والعروة الوثقى لا انقصام ولا انفصال إذا ابعد الكفار من حوله ، وختم رسالته بقوله : (أذا جنح الملك للسلم جنحنا لها ، إذا امتثل لما أمر الله به مجتنباً ما نهى عنه وطابق فعله قوله ، ورفض الكفار الذين لا يحل له أن يتخذهم حوله) . [3]

لم تضع هذه المراسلات حداً للتوتر القائم بين البلدين ، ولم يسفر عنها سوى التراشق بالتهم والتهديد والوعيد ، اذ نجد أن رسالة الناصر محمد كانت أكثر قوة واشد إيلاما حتى أنها أوغرت صدر غازان وبدأ أن الصلح بين الطرفين بعيد المنال . ولا بد من مواصلة الصراع ، يبدو إن طبيعة كل من المماليك والمغول النفسية حالت دون اتفاقهما، فهما يشتركان بصفات بدوية خشنة وطبائع قاسية ، وشجاعة إلى حد التهور ، وكان الصراع بينها أمرا طبيعياً بوصفهما جارين امن كل منها بفكره الحرب ومبدأ الغزو ، واتخذ هذا المبدأ محوراً لنشاطه ومجالاً لحياته . غير إن ظروفه الخاصة ألزمته بتأجيل البدء في الحرب معهم عاما بعد عام ، وقد أفاد المماليك من ذلك فسنحت لهم الفرصة

---

[1] سورة آل عمران الاية 173 .

[2] سورة الشورى الاية 40 .

[3] انظر رد الرسالة في ، النويري ، مصدر سابق ج30 ، ص 267 –271 ، ابن تقري بردي النجوم الزاهرة ، ج8 ، ص 142 –146 ، القلقشندي ، مصدر سابق ، ج7 ، ص265 – 272.

بتأديب من خرج عليهم من العرب والأرمن كما عملوا على جمع صفوفهم وتقوية مركزهم لصد اى اعتداء جديد من جانب المغول . [1]

وهكذا فشلت محاولة التفاهم بين الطرفين . واستعد الفريقان للقتال .

الحملة الثالثة : معركة عرض 702هـ /1303م :

من الواضح إن غازان لم يكن راغبا في الصلح كما ادعى ، وانما كان فى حاجة إلى هدنة يستعيد فيها قوته لعدوان جديد ، و بعد فشل إحلال السلام بين الدولتين المملوكية والمغولية قرر غازان غزو بلاد الشام للمرة الثالثة ووصل إلى علم المماليك في مصر بتحركات جيش التتار ، واستؤنفت الحرب من جديد بعد عام واحد من مغادرة الوفد المغولي للقاهرة ، فقاد سنة 702هـ/1303م جيشاً جراراً عبر به الفرات بقيادة قطلوشاه ، ونزل في الحلة حيث زار مشهد الأمام الحسين بن على في كربلاء ، ووزع الهدايا والعطايا ، وتعطف على العلماء والمشايخ ، ثم تقدم إلى عانه على شاطئ الفرات فوصل أليها وامضي فيها عدة أيام ، ثم انتقل إلى الرحبة على الشاطئ الأيمن لنهر الفرات وحاصرها واراد منازلتها بنفسه ، وكان النائب بها علم الدين سنجر فلم يجد بدا من اتباع اسلوب السياسة والمهادنة حتى تصل قوات المماليك فخرج إلى غازان ومعه الهدايا وقال له : (هذا المكان قريب الماخذ والملك يقصد المدن الكبرى فاذا ملكت البلاد التي هى امامك فنحن لا نمتنع عليك) ، فاقتنع غازان بقوله بعد إن اخذ الرهائن ، وعاد غازان إلى الشرق . [2]

حاول غازان استقطاب الأمير عز الدين أبيك الافرم نائب الشام ، فأرسل إليه كتاباً يوضح فيه انه حين هاجم الشام من قبل لم يكن معتديا ، وان السلطان اخطأ في تقدير الموقف السياسي ، وأضاف بأن بلاد الشام كانت تابعة فيما مضى للروم تارة ، للعراق تارة أخرى . ولم تكن تابعة لمصر ، وطلب منه أن تكون غزة والرملة من ثغور مصر ، وذكر بأن تصرف جنوده السيئ حدث بغير علمه وعرض عليه الدخول في طاعته . [3]

---

[1] على إبراهيم ، مرجع سابق ، ص157.

[2] ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج8 ، ص 157 0

[3] العينى ، مصدر سابق ،ج4 ، ص 210-217 .

غادر غازان الرحبة عائداً إلى إيران بعد أن ترك مهمة الاستيلاء على بلاد الشام لقائده فطلوشاه ، فعبر الفرات وسار إلى سنجار ثم عبر دجله ، وتوجه إلى مدينه كشف، التي تقع على مسيرة يومين من اردبيل ، وأقام فيها ينتظر نتيجة المعركة ، وقد أضطر إلي العودة إلي إيران بعد أن علم أن مغول التركستان الجغتائين هجموا علي بلاد حدوده الشرقية من ناحية خراسان وعاثوا في شرقي المملكة الايلخانية الفساد والخراب منتهزين فرصة تواجد السلطان غازان ومعظم جيشه في سوريا وخلو البلاد من جنود يدافعون عنها، كما انه علم بمحاولة السلطان الناصر محمد استقطاب بعض قادته المقربين إليه ، ومستشاريه الذين حذروه من حر بلاد الشام ومن المتاعب التي سيصادفها هناك . [1]

سار فطلوشاه إلى بلاد الشام على رأس جيش كبير بلغ تعداده ثمانية ألف جندي ، وقيل مائه ألف ونزل على نهر الفرات . كما استعد الناصر محمد للقاء العدو ، فاختار صفوة أمرائه لقيادة الجيش ، وأرسل في مقدمته بيبرس الجاشنكير فدخل دمشق ولما اطلع على الأوضاع العسكرية فيها ، وعلم باقتراب المغول كتب إلى السلطان يستحثه على الخروج . واقبل الناس من حلب وحماة إلى دمشق هاربين من سطوة التتار ، فاضطربت دمشق واستعد اهلها للفرار ، وكان هولاء الفارين ينشرون الرعب بين الاهالى وهم اهل دمشق بالخروج ، ولكن صدر النداء بمنع ذلك ، ومن خرج حل دمه وماله . [2]

تقدمت بعض القوات الاسلامية إلى حماة ولحق بهم جيش طرابلس وحمص ، فاجتمعوا على حماة ، فلماعلم التتار بتجمعات القوات الاسلامية عند حماة ارسلوا فرقة من التتار ، وصل قطلوشاه إلى حماه وأرسل فرقة عسكرية مؤلفة من أربعة آلاف جندي إلى القريتين بهدف القتل والنهب وفرض هيبته في قلوب السكان والعساكر ، فتصدى لهم نائب طرابلس في موضع يقال له (الكوم) بالقرب من عرض سنة 702 هـ ، ومعه ألف وخمسمائة جندي ، وأخذهم على حين غرة ، وافترقوا عليهم اربع فرق ، واستمرت المعركة وقاتلوهم قتالاً شديداً حتى أسفرت عن هزيمة المغول وأعوانهم من الكرج والأرمن، وانتصر المماليك انتصارا رائعا ، ووقع ألف وثمانمائة جندي مغولي في الأسر ، بالإضافة إلى مائه وثمانين من الأرمن ، وثم إنقاذ ستة آلاف من التركمان كانوا قد وقعوا

---

[1] محمد سهيل طقوش ، تاريخ المغول ، ص283 .

[2] ابن كثير ، مصدر سابق ، ج 14، ص 25.

في قبضة المغول . وقد ابلغ السلطان الناصر محمد نبأ هذا الانتصار الذي علق عليه المؤرخ أبو الفداء الذي حضر المعركة بعد ذلك وكان هذا النصر عنوان (النصر الثاني) ويقصد به النصر في معركة شقحب . [1]

كان لهذا الإنتصار آثار بعيدة المدى في تطور الحياة السياسية في بلاد الشام فقد استرد المماليك دمشق وسائر مدن الشام وغادر المغول هذه البلاد فعاد أهلها إلى بلادهم بعد أن شردوا وأضطهدوا كما يعد هذا لانتصار مهماً للمماليك ، إذ رفع روحهم المعنوية التي تراجعت بعد الخسارة التي لحقت بهم في مجمع المروج ، وتشجعوا على قتال العدو بعد ما دب اليأس في قلوبهم . وكانت خسائرهم في هذه المعركة قليلة بالنسبة لخسائر العدو .

معركة مرج الصفر (شقحب) 703هـ/ 1303م :-

لم تؤت المراسلات المتبادلة بين الايلخان المغولى والسلطان المملوكى ثمرتها المرجوة واستعد الفريقان للقتال ، واستؤنفت الحرب بين الناصر وغازان سنة 702هـ /1302م ، بعد عام واحد من مغادرة الوفد المغولى القاهرة ، لم يكد يتم النصر للمماليك في موقعة عرض حتى تأهب المغول للحرب ، واستأنف قطلوشاه زحفه باتجاه دمشق ولما وصلوا حماة اشتد الرعب في قلوب الناس ، وتأهب أهل دمشق للفرار ولم يمنعهم عن تنفيذ غرضهم إلا ذلك النداء الذي نودي به في المدينة وهو (من خرج حل ماله ودمه).[2]

في حين خرج الناصر محمد من القاهرة على رأس خمسين ألف مقاتل قاصداً دمشق لملاقاة المغول وقد سيق رحيله إلى ارض المعركة ببلاد الشام ، اجتماعه بالأمراء وقادة الجند وتشاوروا في الخروج اصد المغول وتعاهدوا على القتال ، وقد بلغ الحماس من الجند أشده ، واصطحب معه الخليفة العباس المستكفي بالله وكان قد سبقه أليها الأميرين ركن الدين بيبرس الجاشنكير، وحسام الدين لاجين الاستادار المنصوري ، فاطمأنت قلوب الناس . [3]

---

[1] احمد بن زيني دحلان ، الفتوحات الإسلامية ، ج2 ، ط3 ، دار صادر ، بيروت ،2009، ص 84 .

[2] ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج8 ، ص 157.

[3] عبد الرحمن بن خلدون ، مصدر سابق ، ص 418 .

وقد حدث ارتباك في حلب وحماة وحمص بعد أن تقهقرت قوات الخطوات حلب وحماة إلى حمص أمام تقدم المغول ، ونزلت هذه القوات في مرج الصغر قرب دمشق في سنة 702 هـ / 1303م ، واخذ السلطان والخليفة المستكفى بالله يحثان الجنود على القتال ، ووصل المغول في هذا الوقت إلى حمص وبعلبك وعاثوا فساداً فيهما . وانتاب الناس القلق لان جيش الشام مع القوات التي خرجت من مصر لاستطيع وحدها الوقوف في وجههم نظراً لكثرتهم . وعلى الرغم من ذلك قرر القادة والأمراء والأعيان الخروج للقاء العدو . ثم خرج شيخ الإسلام ابن تيمية إلى المرج واجتمع بالجند القادمين من حماة ، واخبرهم بما تحالف عليه الأمراء والعامة فتحالفوا معهم .[1]

وخرجت عساكر الشام وخيمت على الجسورة في الوقت الذي وصل فيه المغول إلى مشارف دمشق في مائه ألف فارس من المغول والكرج والأرمن وغيرهم ، فاضطرب الناس وسادت الفوضى ، ولم تهدا الأوضاع وتطمئن القلوب إلا بوصول السلطان حيث عقد اجتماعاً مع قادته قرر فيه لقاء العدو بشقحب تحت جبل غياغب على ارض مرج الصفر .[2]

استعد الجيشان استعدادا كاملا للمعركة ، فاتخذ السلطان موقعه في القلب ، وبجانبه الأمراء سلار وبيبرس وأيبك الخازندار وبكتمر وغيرهم ، وتمركز لاجين وسلار وغيرهم عن يمينه في حين تمركز الأمير قبجق بعساكر حماة والعربان في الجناح الأيمن، والأمير بكتاش الفخري أمير سلاح ، والأمير قراسنقر بعساكر حلب في الجناح الأيسر ، واستعرض السلطان بصحبة الخليفة الجيش ومعهما القراء يتلون القران ويحثون على الجهاد ، ويشوقون إلى الجنة والخليفة يقول : (يا مجاهدون لا تنظروا لسلطانكم ، قاتلوا عن حريمكم وعلى دين نبيكم صلى الله عليه وسلم) فتاثر الناس وضجوا في بكاء شديد ، وتواصى بيبرس وسلار على الثبات في الجهاد ، وعاد السلطان إلى موقعه ثم وقف الغلمان وراء العسكر صفا واحدا وقيل لهم من خرج من الاجناد عن المصاف فاقتلوه ولكم سلاحه وفرسه .[3]

---

[1] ابن كثير ، مصدر سابق ،ج 14 ، ص 27.

[2] محمد بن اياس ، مصدر سابق ، ص122.

[3] سهيل طقوش ، تاريخ المماليك ، ص 250.

التقى الطرفان في رحى معركة رهيبة أبلى فيها المماليك وجيوش الشام بلاء حسنا فتم لهم النصر المؤزر . وكان السيف يعمل في رقاب المغول ليلاً ونهاراً . ومزقوهم كل ممزق ، وهلك عدد كثير من المغول واسر بعضهم ، وطارد المماليك فلول المغول المنهزمين حتى الرحبة وقتلوا الكثير منهم ، وحتى الذين استطاعوا النجاة صادفهم نهر الفرات فلم يتمكنوا من عبوره وغرق أكثرهم . ومنهم من هلك جوعاً في طريقه إلى بغداد . واسر المماليك عشرة آلاف من المغول ، كما غنموا أسلحة ومؤنا لا حصر لها ، ولم يصل غازان سوى واحد من كل عشره . [1]

ومما تجدر الإشارة إليه أن أبا الفداء بنفسه حضر هذه الموقعة وكذلك النويري المؤرخ المشهور الذي إشترك في تلك المعركة ووصف ما شهده في هذه العبارة (وكنت يوم ذاك بدمشق فخرجت منها بعد أن أعددت لامة الحرب والتحقت بالعساكر ووجدت الجفال قد إذدحموا بالأبواب إزدحاماً شديداً وقد ذهلوا عن أموالهم وأولادهم ووصلت بعد المغرب إلى منزلة العسكر بميدان الحصى فوجدتهم قد توجهوا إلى مرج الصفر فلحقت بالجيوش يوم الخميس والجمعة ، فلما كان في ليلة السبت المسفرة عن ثاني شهر رمضان دارت النقباء على العساكر وأخبروهم أن العدو قرب منهم وأن يكونوا على أهبة وإستعداد في تلك الليلة وأنه متى دهمهم العدو يركبون خيولهم فبتنا في تلك الليلة وليس منا إلا من لبس لامة الحرب وأمسك عنان فرسه في يده وتساوى في ذلك الأمير والمأمور . فلم نزل على ذلك حتى طلع الفجر فصلينا وركبنا واصطفت العساكر إلى أن طلعت الشمس وإرتفع النهار ، ثم أرسل الله مطراً شديداً نحو ساعتين حتى ظهرت الشمس ولم نزل على خيولنا إلى وقت الزوال فأقبل التتر كقطع الليل المظلم وكان وصولهم ووصول السلطان بالعساكر المصرية في ساعة واحدة) [2].

وعلى اثر ما أحرزه الناصر في هذه الموقعة الحاسمة من نصر مؤزر على المغول دخل السلطان الناصر محمد بعد النصر مدينة دمشق وسط مظاهر الفرح والابتهاج يجر وراءه الأسرى من التتار مقيدون ورؤوس من قتل منهم معلقة في رقابهم ، فضلاً عن ألف

---

[1] عبد الرحمن بن خلدون ، مصدر سابق ، ص 496 .

[2] النويري ، مصدر سابق ، ج 30 ، ص 326 .

رأس معلقة على ألف رمح . وأوفد مبعوثا خاصاً إلى مصر لتبليغ البشارة. ثم غادرها عائداً إلى القاهرة متوجا بالنصر ومحاطا بالفخار . [1]

واستمر الأمراء في اثر التتار إلى القريتين[2] وقد كلت خيول التتار وضعفت نفوسهم والقوا أسلحتهم واستسلموا للقتل ، والعساكر تقتلهم بغير مدافعة حتى أن العامة والغلمان قتلوا منهم عدداً كبيراً. [3]

كانت نتائج المعركة حاسمة حيث ظهر التفوق العسكري للمماليك المصرين وعرف المغول أنهم لن يستطيعوا منازلة المصرين ، ولما وصل خبر الهزيمة إلى غازان اغتم وغضب وازداد غضبه حين وصل إليه كتاب من السلطان الناصر محمد بعد انتصاره العظيم على جيوشه وتحطيمها وتحرير الشام منها ، يحقر من شأنه ، ويطلب منه الجلاء عن العراق ويتوعده بانه سياتى بجيوشه ليقصيه عن تلك البلاد ، ويتهكم عليه في سخرية ويذكره ببغيه وخداعه وادعائه ما ليس به ، فهو يرسل الرسل من اجل تقرير قواعد الصلح ، وفي نفس الوقت يحشد الجنود للحرب والهجوم . وبعد أن يذكر له سير المعركة يخاطبه بقوله : فلو رأيت أيها الملك عساكرك إما ذليلا أسيرا ، أو جريحا وكان يوما علي الكافرين عسيرا ، وعاد أصحابك طعاما للذئاب لعضضت علي يديك وقلت ياليتني كنت ترابا . فبادر أيها الملك لحمد الله الذي لم ير عينك هذه المحافل ومرورها علي سمعك أهون من العيان . ثم يقول له إن جنوده دخلوا الديار المصرية ولكن علي غير حالة مرضية . أما الخيول فعلي أيد عساكرنا مجنوبة ، والطبول في أعناقهم مقلوبة، وأما الرجال ففي أعناقهم الحبال والسلاسل والأغلال فعادت مغولك كالكلاب في أيدي اسود الغاب . ويطلب منه الجلاء فوراً عن العراق وتركها للخليفة العباسي مما جدد عليه الحسرة وملا قلبه رعباً ، وهدده قائلاً : (وان سولت لك نفسك بخلاف ذلك ، فأنت لا

---

[1] الحافظ بن كثير ،مصدر سابق ،ج 14 ، ص 25 ، تقى تادين المقريزى ، مصدر سابق ،ج1 ، ص 936.

[2] القريتان بلدة كبيرة من عمال حلب وتدعى حوارين ، ياقوت الحموي ، مصدر سابق ، ج 7 ، ص 40.

[3] بدر الدين العينى ، مصدر سابق ،ج4 ، ص 247 –251.

محالة هالك وعما قليل يخلو منك العراق والعجم وتندم حيث لا ينفع الندم .) ثم ختم رسالته[*] بهذين البيتين من الشعر :

وان كان أعجبكم عامكم *** فعودوا إلى الشام في قابل

فان السيوف التي ورخت *** مواقعها في يد القاتل . [1]

أما عامة المغول فقد اضطربوا اضطراباً شديداً اذ فقد التتار الافا منهم بين قتيل واسير ، ولم يعبر قطلوشاه مقدم التتار نهر الفرات إلا في القليل من اصحابه ، وخرج أهل تبريز للقاء المنهزمين أسوأ استقبال ليطلعوا منهم على أسباب الهزيمة وليعرفوا من فقد منهم ، حتى إذا وفقوا على الحقيقة القاسية علت الصرخات وعم الحزن وقامت النياحة على القتلى مدة شهرين كاملين . [2]

ودفع الحزن بغازان أن ينزل عقوبات صارمة بقادته المقصرين ، ولم ينج قطلوشاه من سخطه وأمر بقتله ، ثم تراجع عن ذلك بعد تدخل الأمراء فعفا عنه ، ولكنه طرده من مجلسه ونفاه إلى جيلان . [3]

كانت معركة شقحب إيذاناً بأفول نجم غازان . فبالاضافة إلى الخسارة الجسيمة التي منيّ بها ، فقد كثرت الدسائس والمؤامرات من قبل الأمراء المغول لخلعه عن العرش ، فكان من الطبيعي أن يكون لهذه الأحداث تأثير كبير عليه . ولم يتحمل غازان هذا الموقف فقد اعتلت صحته ومرض ومات كمداً وهو في عنفوان شبابه 703هـ / 1304 م وعمره اثنين وثلاثين سنه بعد أن ظل في الحكم الايلخاني تسع سنوات. [4]

حزن المسلمون من المغول لموت غازان حزنا عميقا لأنه أعاد الإسلام إلى المكانة التي كان يتبوأها في بلادهم قبل غزوات جنكيزخان ، كما كبح جماح الوثنية وقضى على الفوضى التي كانت منتشرة في وإمبراطوريتهم وقضى على الفوضى في

---

[*] انظر نص الرسالة في ابو بكر بن أيبك الدواداری ،كنز الدرر وجامع الغرر وهو الدر الفاخر في سيرة الملك الظاهر ،تحقيق هانس روبرت ،القاهرة 1960 ، ص 119 –122 او العيني ، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ،ج 4 ،ص 247 –251 او جمال الدين محمد سرور ، دولة بنى قلاون ،ص 201 –203.

[1] ماهر محمد حماده ، مرجع سابق ، ص87.

[2] ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج8 ، ص 164.

[3] تقى الدين المقريزي ، السلوك ، ج1 ، ص 938.

[4] ابن حجر العسقلاني ، مصدر سابق ، ص 126.

البلاد ، وعلي الرغم من قسوته فقد كان رحيما إذا ما قورن بإسلافه ، كما اشتهر بكراهيته لسفك الدماء إلا إذا اعتبر ذلك ضروريا لإقرار الأمن في ربوع دولته الواسعة ، وكان يحرص كل الحرص على نشر العدل وبسط الأمن بين رعاياه ويعمل على توفير أسباب السعادة لهم .[1]

كانت معركة شقحب المرة الرابعة التي استطاع فيها المماليك الانتصار على اشد واخطر عدو عرفوه من الفتح الاسلامى ، ومما تجدر الإشارة إليه إن هذا الانتصار الأخير على المغول يعتبر الحلقة الأخيرة من سلسلة الوقائع الكبرى التي دارت بين الدولتين المملوكية والايلخانية المغولية ، وذلك أن العلاقات أخذت تتحسن بعد ذلك ، ويمكن القول بان الخطر المغولي بعد موقعة شقحب قد زال نهائيا عن مصر وبلاد الشام حتى أوائل القرن الخامس عشر الميلادي عندما عاد إلى الظهور من جديد على يد القائد المغولي تيمور لنك .[2]

ورغم أن غازان قد اعتنق الإسلام إلا انه كان يبحث عن حليف للقضاء على القوات المملوكية ، ولم يكن هنالك سوى دول أوربا التي سبق لها أن توسلت كثيراً إلى خانات المغول للتحالف ضد المماليك ، ولكن الخانات كانوا يطلبون الخضوع لا التحالف ، ولذلك ضاعت فرصة التحالف الاوربى لضرب العالم الإسلامي .[3]

هنالك تساؤل عن الأسباب التي دفعت غازان بعد اعتناقه الإسلام إلى مهاجمة بلاد الشام ومعاداة سلاطين المماليك .

الحقيقة أن أقوال المؤرخين قد تضاربت عند ذكر تلك الأسباب ، فقد قيل أن الفتنة التي دبت بين الجانبين نشأت على اثر هروب أعداد من المغول الاويراتية بزعامة (طرغاى) إلى مصر سنة 695 هـ بعد أن أعلنوا عصيانهم في وجه غازان ووجدوا ترحيباً بالغاً من السلطان المملوكي الناصر محمد صاحب مصر .

وقيل أيضا أن سلاطين المماليك كانوا يحاولون أخراج بغداد من قبضة المغول بعد أن استولوا بالتدريج على جميع الشام وسواحل البحر المتوسط من الصليبيين وبلغوا

---

[1] على إبراهيم حسن ، مرجع سابق ، ص159.

[2] محمد سعيد مرسى ،كبرى المعارك والفتوحات الإسلامية ،مؤسسة اقرأ مصر ،2003 ، ص 146.

[3] محمود سعيد عمران،المغول والأوربيون والصليبيون وقضية القدس ،دار المعرفة الجامعية ،2009، ص 121.

شاطئ الفرات الأعلى ، وكانوا يرغبون في إحياء الخلافة العباسية في بغداد ، فقام غازان مدافعاً عن أملاك مغول إيران . [1]

كما قيل أن الايلخانين بعد اعتناقهم الإسلام أرادوا السيطرة على دار الإسلام عن طريق مهاجمة النظام المملوكي بالشام ومصر وإسقاطه ، وكانوا يحاولون في صورتهم الجديدة أن يكونوا البديل الأفضل عن حكام مصر والشام الذين يجب أن يدينوا للايلخانين بالطاعة والولاء ، لأنهم ليسوا من بيت ملك وإنما مجرد مماليك أرقاء . [2]

ومن ما لا شك فيه أن الخلاف بين المماليك ومغول إيران بعد اعتناق غازان للإسلام كان لابد أن يحدث نتيجة اقتراب حدود دولة مغول إيران من الإطراف الشمالية للدولة المملوكية هذا من ناحية ، ومن ناحية أخري فأن المغول في إيران كانوا يرون أنهم أحق بالمكانة في العالم الإسلامي من المكانة التي يتمتع بها سلاطين المماليك ، وأن ذلك لن يتأت إلا بالسيطرة علي مصر والشام ونقل مقر الخلافة الإسلامية من القاهرة والتمتع بحماية الحرمين الشريفين في مكة والمدينة ، ولم يكن من الميسور الوصول إلي هذه الغاية إلا بالقضاء علي دولة المماليك التي كان يسودها الاضطراب في تلك الفترة نتيجة النزاع علي الحكم . [3]

ومهما يكن من أسباب غزو غازان للشام فانه بعد دخوله إلى بلاد الشام وقبل التحامه مع المماليك ،كان قد أرسل رسالة إلى ملك قبرص ومقدمي الاسبتارية والداوية هناك يطلب منهم الانضمام له في طلبه وفي سنة 1299 م عقد هؤلاء اجتماعا لاتخاذ قرار بهذا الشأن ولكنهم رفضوا التحالف مع غازان رغم انه أرسل لهم رسالة ثانية ومن ثم اضطر الخان المغولي للاعتماد على قواته ،بالإضافة إلى الأرمن الحليف الطبيعي للمغول وأستطاع هزيمة المماليك وطردهم من الشام نهائيا وإنابة قبجق – حليف غازان والتمرد علي إخوانه المماليك في القاهرة وأتباعه وبعضا من قواد المغول علي المدن ألشامية ولكن غازان اضطر للانسحاب من الشام لأسباب داخلية في بلاده ومنها هجوم مغول الجغطاى على الجدود الشرقية لإيران ، واتخذ المماليك الذين كانوا موالين لغازان

---

[1] فايد حماد عاشور ، الجهاد الإسلامي ، ص 145 .

[2] صبحي عبد المنعم ، مرجع سابق، ص 34 –35 .

[3] ابن تقري بردي ، النجوم الزاهية ، ج8 ، ص16–17 .

اثر ذلك مع أقرانهم في مصر وطردوا الحاميات المغولية من الشام بعد فترة احتلال مغولي لها قاربت ستة شهور .[1]

وفى الحقيقة كان غازان قائدا طموحا أراد أن يكون في قبضته كيانا إسلاميا قويا ومستقلا عن الخان الأعظم المغولي وربما دفعت به هذه الرغبة إلى توسيع حدود دولته بالسيطرة على بلاد الشام ثم مصر، وقد بدا بالفعل جهده في تكوين هذا الكيان المستقل لدولته حينما رفض نقش اسمه على العملة في إيران واصدر عملة أسلامية نقش عليها عبارة لا اله إلا الله محمد رسول الله ، وأمر بنقش اسمه على العملة وذكره في الخطبة دون الخان الأعظم وطرد نائب الخان من بلاده ، والغي لقب ايلخان اى نائب الخان الأعظم واتخذ لنفسه لقب خان ،كما وضع التاريخ الخانى الذي نسب إليه منذ اعتلائه العرش .[2]

على كل لقد ظن غازان أن الشام طاب له فتحه ولكنه كان واهماً فقد رفض كثير من حكام المماليك في سورية التعاون معه ، ثم أتته الضربة القاضية على جيش المماليك الذي حارب جيشه المغولي وانتصر عليه في معركتين من اكبر المعارك التي خاضها المماليك ضد المغول ، الأولى معركة مجمع المروج أو سنة 702 هـ والثانية معركة شقحب سنة 703هـ .

وقد صارت مصر مأمنا لكل راغب في الخروج على سلطان المغول في إيران مما جعل غازان يتخذ موقفاً عدائياً تجاه المماليك ، ويستقبل هو الأخر الخارجين عن طاعة المماليك ،فاستقبل الأمير سيف الدين قبجق نائب دمشق السابقة وأصحابه الذين خرجوا على السلطان المملوكي حسام الدين لاجين .[3]

ورغم ما اقترفه المغول من عبث ونهب فقد كان يقل بكثير عما فعله أجدادهم عندما أغاروا على بلاد الشام بل لم نسمع أنهم أذوا الاهالى المسلمين ولم يقوموا بدك المدن ، وهذا في حد ذاته يدل أن الإسلام قد هذب نفوسهم وأن إقامتهم في بلاد الشام قد صقلت

---

[1] عادل إسماعيل محمد هلال العلاقات بين المغول واروبا وأثرها علي العالم الإسلامي الطبعة الأولي ، عين للدراسات والبحوث القاهرة 1997م ، ص 132.

[2] ابن حجر العسقلاني ، مصدر سابق ، ج 3 ، ص 212.

[3] فايد حماد عاشور ، الجهاد الإسلامي ، ص145.

حياتهم وحولتهم من البربرية المتوحشة إلي أناس مستأنسين وأن ما فعلوه في بيت المقدس يدل علي تعصبهم للإسلام ليس أكثر . [1]

وحقيقة لم يكن موضوع النزاع في هذه الغزوات والخلافات الدينية بين المغول والمسلمين في مصر والشام كما كان في أيام هولاكو واباقا ، لان غازان غدا مسلما ، وإنما آدت المنافع والمصالح السياسية إلى ظهور الصراع بين الطرفين فقد قصد مماليك مصر إخراج بغداد من يد المغول بعد إن استولوا بالتدريج على جميع الشام وسواحل البحر المتوسط من الصليبيين ، وبلغوا شاطئ الفرات الأعلى ، وكانوا يريدون إحياء الخلافة العباسية بها فقام غازان مدافعا عن أملاك الايلخانات واسترداد البلاد التي استحوذ عليها هولاكو وقواده من قبل . [2]

---

[1] عبد السلام فهمي ، مرجع سابق ، ص 204.

[2] عباس إقبال ، تاريخ ايران بعد الاسلام ،دار الثقافة والنشر ،القاهرة 1989م ، ص 464.

المبحث الثالث

العلاقات بين الناصر محمد والايلخان اولجايتو 703 -716 هـ، /1304 -1316 م

تولى اولجايتو ابن أرغون حكم الدولة الايلخانية بعد وفاة غازان ، وهى في أوج عزها ومجدها ، وحين تم تتويجه اقترح عليه الأمراء إن يتخذ لقب اولجايتو ، ومعناها بالمغولية المبارك ،اعتنق الإسلام على المذهب الحنفي ولقب ب (خدا بنده)(*)، وتبين النفوذ التي ضربها إن اسمه المنقوش عليها هو (غياث الدنيا والدين اولجايتو سلطان محمد) وكان أخوه السلطان محمود غازان قد اختاره وليا لعهده أثناء حياته واقطعه حكومة خراسان فعاش فيها يدير شئونها حتى تولى العرش الايلخانى في سنة 703هـ /1304م ، ولم يكن عمره قد تجاوز الرابعة والعشرين . [1]

وعندما بدا يزاول نشاطه كان أول قرار أصدره هو التزام كافة المغول باعتناق الدين الاسلامى الحنيف وأنه دين الدولة الرسمي ورعاية القوانين والنظم التي شنها غازان، كما كان قراره الثاني هو الإبقاء على خواجة رشيد الدين فضل الله الهمذانى في منصب الوزارة وتفويضه بإدارة كافة أمور الدولة ، ويعاونه في عمله خواجة سعد الدين محمد الساوجى ، ونتج عن ذلك أن زاد رخاء البلاد . [2]

اعتلى اولجايتو العرش المغولي والمملكة في عزها ورخائها ، وسار على نهج أخيه غازان في حسن معاملته لرعاياه والنهوض بهم والوقوف بجانب الفقراء والمظلومين ، فقد أحسن معاملة رعاياه ومنع تعدى الأمراء المغول على الاهالى ، فنال بذلك منزلة كبيرة لديهم، وأما ما يتعلق بسياسته الخارجية ، فانه حافظ على الصلات الودية مع دول أوربا سعيا وراء القضاء على سلطان المماليك في مصر والشام ، واولجايتو بوجه عام من ايلخانات إيران الأخيار ، وعاش الناس في عهده في رفاهية ولم يقدم على ظلم أو قسوة ، وازدهر العلم والأدب . [3]

وسار على نهج إسلافه من حيث العداء مع المماليك . وقد تأثرت علاقاته بهم تأثرا كبيرا اعتناقه للمذهب الشيعي إلا انه حرص في بداية عهده على تخفيف حدة

(*) خدابنده ، كلمة فارسية مركبة من كلمتين ،خدا بمعنى الله ، وبنده بمعنى عبد ،وتعنى الكلمة عبد الله .

[1] عصام الفقى ، مرجع سابق ، ص 58.

[2] عبد السلام فهمي ، مرجع سابق ، ص 215.

[3] محمد علاء الدين منصور ، مرجع سابق ، ص485.

العداء الذي استحكم بين المماليك والمغول وتوثيق عرى الصداقة مع السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، فعمل على إطلاق سراح رسل السلطان الناصر محمد المعتقلين في بلاده ، ورغب في وضع حد للعلاقات العدائية بينهما ، فأرسل إليه رسالة تتضمن تهديداً وترغيباً على عادة خانات المغول أكد له حرصه على صداقته ، وطلب منه إخماد الفتن والإقلاع عن الحرب ، والدخول في صلح بينها لمدة خمسين عاما ، ويخبره بأنه لا يرضى بأقل من عشر سنوات لكي تعمر البلاد ، وفتح الطرق والمعابر أمام الرسل والتجار بين الدولتين ، .كما بعث إليه بهدية ، لكنه لم يتورع عن اللجوء إلى أسلوب التهديد والوعيد بكلمات قاسية قال في نهايتها : (فان لم تلق هذه الكلمات أذنا مصغية ، قدوتهم السيف) . وكان ذلك في أواخر سنة 703 هـ / 1303 م . [1]

وقد استقبل الناصر محمد رسل اولجايتو وأكرم وفادتهم وأعادهم إلى تبريز برفقة سفيرين من قبله يحملان رده وهديته ، وبالرغم من أن اولجايتو أرسل السفراء إلى مصر لإظهار صداقته للناصر محمد وتأكيد حسن نيته نحوه ، وخاطبه بالأخوة ، وقال في آخر خطاب له : (عفا الله عما سلف ، ومن عاد فينتقم الله منه) ، إلا انه لم يكن مخلصا في ذلك لأنه كان قد أحس باتفاق خان مغول القفجاق غياث الدين توقتا والناصر محمد بن قلاوون على قتاله واقتسام مملكته ، فارا د أن يكفى نفسه مئونة مواجهة القوتين في وقت واحد ، فحاول الصلح مع الناصر عقب توليه الحكم مباشرة ، وانتقد سياسة أخيه العدائية تجاه مصر والشام لأنها تسببت فى خراب البلاد ، وان ذلك لم يكن برضاه ولا برضاء أمراء المغول . [2]

ولكن ظهرت بعض الخلافات التي عكرت صفو هذا السلام بين الطرفين ، فتوترت العلاقات بين مغول روسيا –أصدقاء المماليك الدائمين – وبين مغول فارس ، وطلب طقطاى بن منكوتمر ملك القفجاق (1291 – 1312م) عن طريق سفارته للناصر محمد سنة 1305م التحالف معه ضد مغول فارس فقد بذر الأشواك في طريق السلام ، وتضمنت رسالة هؤلاء الرسل طلب ملك الشمال التعاون والتحالف ضد اولجايتو وان يسير لمحاربته في وقت واحد وقال للناصر : وحيث ما وصلت خيلنا من البلاد فهو

---

[1] CokeRichard Baghdad City of Pease London 1927- P162.

[2] صبحى عبد المنعم ، مرجع سابق ، ص 38.

لنا وحيث ما وصلت خيلكم من البلاد فهو لكم ، فضلا عن إن اولجايتو كان شيعيا متطرفا ضد أنصار المذهب السني ، وعمل على نشره في المناطق القريبة من دولته ، وأمر بحذف أسماء الخلفاء الثلاثة في السكة والخطبة وإحلال أسماء أمير المؤمنين علي بن أبى طالب وولديه محلهم في الخطبة ، والاقتصار على اسم على بن أبى طالب وقد أساء هذا للمماليك باعتبارهم حماة الخلافة العباسية السنية بالقاهرة ، فكان ذلك سبباً في اشتداد العداء بينه وبين المماليك السنيين ، كما انه طمع في الاستيلاء على الشام وهى السياسة التقليدية لمغول إيران منذ عهد هولاكو . [1]

ومن الأسباب التي جعلت العلاقات بين اولجايتو والسلطان الناصر محمد تسير سيراً غير طبيعياً إغارة المماليك على أرمينيا الصغرى قد أغضبت الخان المغولي في فارس ، فضلا عن إيواء المماليك للهاربين من اولجايتو والمتمردين عليه في مصر ، كتب السلطان الناصر محمد إلى نوابه بالشام لاستقبال الوافدين حتى وصلوا إلى القاهرة في سنة 704 هـ /1204 م فرتب لهم الرواتب واقطعوا الإقطاعيات . [2]

ثم بدأت بوادر الشقاق والنزاع تظهر حينما خرجت حملة من الجيش المملوكي بقيادة قشتمر الشمسي احد مقدمي حلب لتأديب صاحب سيس لامتناعه عن دفع الضريبة السنوية للمماليك وخروجه عن طاعتهم ،فعلم المغول بإخبار غزو الجيش المماوكى بلاد سيس ، وساروا لنجدة صاحبها ، وتمكنوا من هزيمة الجيش المملوكي ، وقتلوا عددا كبيرا منهم واسروا عددا أخر وذهبوا بالأسرى إلى السلطان اولجايتو . [3]

وقد ساءت العلاقات بين المماليك والمغول أكثر من ذلك عقب اعتناق الايلخان اولجايتو المذهب الشيعي سنة 709 هـ /1310 م ومحاولته فرض مذهب التشيع على الشعب الايرانى ، وقد اغضب هذا الموقف المماليك الذين كانوا يعتنقون المذهب السني ويعتبرون أنفسهم حماة له . [4]

---

[1] سهيل طقوش ، تاريخ المغول ، ص 308 .

[2] صبحي عبد المنعم ، مرجع سابق ، ص 38 .

[3] المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

[4] فايد حماد عاشور ، العلاقات السياسية ، ص 175.

ونال المسيحيون تعاطفا كبيرا من قبل اولجايتو بعد أن تعرضوا للاضطهاد من فبل ايلخانات المغول الذين اسلموا وأحسن اولجايتو إليهم كثيرا ، وان كان هذا الاضطهاد لم يصيب المسيحيين وحدهم فقد أقدم غازان على أفعال كثيرة من قتل ونهب وتخريب عند مهاجمة بلاد الشام فهذا عنف جبل عليه حكام المغول أكثر من كونه اضطهادا . [1]

كذلك أرسل اولجايتو السفراء إلى ملوك الغرب الاوربى العدو التقليدي للمماليك، للتحالف معهم ، والحصول على مساعدة عسكرية للقضاء على المماليك ، وكان المسيحيون بجزيرة قبرص وارمنية يحرضونه علي هذا الهجوم . فأرسل إلى البابا كليمنت الخامس ، وادوارد الأول ملك انجلترا ، وفليب الرابع ملك فرنسا . يطلب منهم التحالف معه لاحتلال الشام ومصر ، ولكن هذه الرسائل لم تأت بنتائج ايجابية ، ولم تتعد حدود التعارف ولم تنته بإرسال مدد عسكري . فالأحوال الداخلية لملوك أوربا لم تكن تسمح لهم بخوض غمار الحرب ضد المسلمين ، خاصة بعد سقوط الإمارات الصليبية في فلسطين والتي كانت تعد بمثابة ثغور لهم . [2] .

والجدير بالذكر في هذا الصدد أن السلطان الناصر محمد كان قد ارتبط بعلاقات سياسية مع معظم دول الشرق والغرب آنذاك ، وظهرت في بلاطه بعوث وسفارات من الملوك المعاصرين له ، ومن بينهم فيليب الرابع ملك فرنسا ، وعلى ذلك فانه من المحتمل أن فيليب هذا رفض التعاون مع اولجايتو واعتذر لارتباطه بمعاهدة صلح وصداقة مع السلطان المملوكي ، ولأنه فتح بلاده لأمراء المماليك الفارين من بلاد الشام سنة 712 هـ /1312م خوفا على أنفسهم من سطوة الملك الناصر محمد . [3]

كان المماليك من أهم عوامل فشل التحالف المغولي الصليبي . قد استطاعوا هزيمة مغول فارس أربعة مرات ، في عين جالوت 1260 م ، وابلستين في الأناضول 1276، وفي مرج الصفر 1302م واستطاعوا توجيه الضربات المتلاحقة بمملكة أرمنية الصغرى ، وأهم من ذلك أنهم تمكنوا من إنهاء الوجود الصليبي في بلاد الشام ، كما أنهم صمدوا

---

[1] أحمد مختار العبادي وإبراهيم مرجونه مرجع سابق، ص 163.

[2] وليم موير ، تاريخ دولة المماليك في مصر ، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن ، الطبعة الأولي مطبعة المعارف مصر 1924م ، ص 82.

[3] فايد عاشور ، العلاقات السياسية ، ص 175.

للحصار الاقتصادي الذي فرضته عليهم البابوية في النصف الأول للقرن الرابع عشر ، بل ونجحوا في تكوين علاقات سياسية واقتصادية مع كثير من القوي الاوربيه وهكذا كان التخويف المستمر لبقايا الصليبيين زمن بيبرس وقلاوون ثم إنهاء الوجود الصليبي زمن الاشرف خليل خصماً من قوة احد طرفي التحالف لحساب عدو التحالف ، كما أن محاولات التحالف جرت في وقت كانت فيه دولة سلاطين المماليك في طور صعودها عسكريا واقتصاديا وسياسيا ، فهي تقود العالم الاسلامى وتشهد رواجا اقتصاديا ونموا سكانيا وصحوة ثقافية ، وتوجه السياسة في المنطقة وهكذا لم يكن الأمر وفقا على قدرات الغرب والمغول وإرادتهم فقط ، وإنما كان مرهونا أيضا بالسبب التاريخي لوجود دولة سلاطين المماليك نفسها وهو التصدي للمغول وتصفية الوجود الصليبي وهكذا لم يخرج مشروع التحالف المغولي . الصليبى ضد المماليك لحيز التنفيذ بالصورة التي أرادها المغول والأرمن واللاتين على حد سواء. [1]

حصار الرحبة :-

حدث في سنة 712 هـ/ 1312م شق الأمير قراسنقر نائب دمشق عصا الطاعة على الناصر محمد ،واخذ يؤلب عليه نواب الشام ، فانضم إليه جمال الدين اقوش نائب طرابلس والأمير عز الدين الزركاش وبعض الجنود ، وساروا إلى ماردين حيث استقبلهم نائبها واكرمهم ثم والتجأوا إلى إيران حيث الايلخان اولجايتو وشرحا له حالة البلاد ، وشجعاه على استغلال التفكك السياسى لهم ووعدوه بالنصر، فرحب بهم واقطعهم الإقطاعيات . وقد حسنا له عبور الشام وهونا عليه أمره ، إلا أنهما حذراه من قوة السلطان وكثرة عساكره . [2]

وقد كافا اولجايتو الأمراء على المعلومات التي أدلو بها عن حالة دولة المماليك ، فمنح قراسنقر ولاية مراغة من عراق العجم ، واقطع همذان الأمير جمال الدين الافرم ، كما أعطى مهنأ بن عيسى امير العرب العراق ، واستمروا هناك ، ولما علم الملك الناصر محمد بمسير امراء الشام إلى بلاد التتار اتهم باقى امراء الشام الذين بقوا في

---

[1] عادل هلال ، مرجع سابق ، ص 147.

[2] سعيد عبد الفتاح عاشور ، العصر المماليكي ، ص 217.

الشام بالتامر مع قراسنقر واصحابه فاستدعاهم وعسكرهم إلى مصر وقبض على الامراء واستناب اخرين مكانهم .[1]

حث هؤلاء اللاجئون اولجايتو على مهاجمة بلاد الشام بهدف الانتقام من السلطان المملوكي ورحب الايلخان بهذه الفكرة ووجدها فرصة سانحة لتحقيق أطماعه بالاستيلاء على بلاد الشام ، واعد جيشاً جراراً توجه به إلى الموصل ، واصطحب معه أشهر قادته ، بالإضافة إلى أمراء الشام الذين التجأوا إليه ، وانضم إلى هذا الجيش جنود من الكرج والأرمن . وكان يعرض كل يوم أميرين من مقدمي الألوف بمن معهم من الجند ، ثم رحل إلى بلاد الشام بعد أن عهد لسيف الدين ايتمش المحمدي المحافظة على القلعة .[2]

تابع الجيش زحفه إلى شاطئ الفرات حتى وصل إلى مدينة الرحبة وكانت تعد أولى القلاع المملوكية على الحدود الشامية فحاصرها في سنة 712 هـ/ 1312 م . وكان الأمير الافرم قد تعهد للايلخان بإقناع صديقة بدر الدين قائد حامية القلعة بعدم المقاومة والمبادرة إلى التسليم ، ولكن بدر الدين موسى الازدكشى رفض التسليم وقرر المقاومة لمنع اولجايتو من الاستيلاء على الرحبة ، وأرسل نائب حلب إلى السلطان الناصر محمد يخبره بزحف المغول على بلاد الشام ، فزحف الناصر بجيوشه إلى سوريا لدرء الخطر المغولي عنها .[3]

حاصر التتار الرحبة ثلاثة وعشرين يوما ، واقاموا حولها سبع حلقات من القوات لاحكام حصارها ونصبوا عليها المجانيق ، وقاتلهم نائبها الامير بدر الدين موسى خمسة ايام قتالا عظيما ، صمد سكان الرحبة إمام ضغط المغول ، ولكن عندما اشتد الحصار وحمي وطيس المعركة لم يجد قاضي المدينة مفراً من التسليم ، فأرسل يستعطف اولجايتو لعله يستجيب لندائه فيأمر بوقف القتال واصدر الايلخان أوامره بفلك الحصار عنها وعاد مسرعاً إلى إيران .[4]

---

[1] فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية ، ص 182.

[2] أحمد مختار العبادي وإبراهيم مرجونه ، مرجع سابق ، ص164 .

[3] الحافظ بن كثير ، مصدر سابق ، جزء 14، ص73.

[4] عبد الرحمن بن خلدون ، مصدر سابق، ص495.

الواقع أن هناك عدة عوامل دفعت اولجاتيو إلى فك الحصار من الرحبة ،منها المقاومة الضارية التي واجهته من جانب حامية الرحبة وفشله في الاستيلاء عليها بالقوة . كما انه علم بان السلطان المملوكي الناصر محمد قد اعد جيشاً كبيراٍ حتى لم يبق في مصر احد من العسكر وخرج على رأسه من القاهرة قاصداً الشام بهدف الاصطدام به في 712هـ /1312 م . ويبدو أن اولجاتيو خشي من قوة المماليك ، خاصة وانه فشل في الحصول على مساعدات من أوربا الغربية .

ومن العوامل التي دفعت اولجاتيو إلى فك الحصار عن الرحبة ، تعرضه لضغط شديد على حدود بلاده الشرقية من جانب الجغتانيين حكام بلاد ما وراء النهر ، وان الهزيمة قد حلت بجيشه الذي يعسكر هناك . كما تعرضت حدود بلاده الشمالية لضغط من القبيلة الذهبية بزعامة اوزبك خان ، لذلك حرص على فك الحصار عن الرحبة ، هذا بالإضافة إلى عامل المناخ الذي اثر تأثيراً واضحاً على اتجاهات الحملة ، فقد كان الفصل شتاءً والطرقات موحلة ففقد الجيش المغولي عنصر حرية الحركة الضروري لخوض المعركة وتحقيق الانتصار .[1]

وهكذا فشل اولجاتيو في الاستيلاء على أول قلاع الشام عند ناحية العراق في أول هجوم عسكري له ، فعاد إلى إيران وقد تخلى عن فكرة غزو الشام . وكان لابد للمماليك من الرد على ما فعله اولجاتيو ، فقرر السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون تجريد حملة عسكرية سنة 715 هـ / 1315 م إلى ملطية للاستيلاء عليها ، وتخلصها من نائب اولجانيو (جوبان) الذي أناب بها رجلاً كردياً لتعدى على أهلها واسأء إليهم وظلمهم .[2]

ووصل الجيش المملوكي إلى ملطية بقيادة الأمير سيف الدين تنكز نائب الشام ، وتبعه عسكر صفد وحمص وحماة وطرابلس ، وحاصرها لمدة ثلاثة أيام حتى خرج إليه نائب ملطية وأعيانها ، واتفقوا مع تنكز على تسليمها وأمنهم وألبسهم التشاريف السلطانية

---

[1]على إبراهيم حسن ، مرجع سابق ، ص 160.

[2] صبحي عبد المنعم ، مرجع سابق ، ص42.

المجهزة من القاهرة وأعطى نائب ملطية سنجقا سلطانيا ، ثم عاد راجعا إلى الشام بعد إن ترك خلفه نائب حلب ليقوم بهدم أسوار المدينة . [1]

معركة ماردين 715 هـ /1315 م :-

ترتب على الولاء المزدوج لأمراء الاراتقة[*] لكل من المماليك والمغول أن تأرجحت علاقتهم بالمماليك بين العداء والإخاء ،لاسيما بعد أن بلغوا درجة عالية من القوة ، وصاروا بتلكأون في إجابة المماليك حول بعض القضايا التي تم الاتفاق بشأنها، لذلك أرسل الناصر محمد في سنة 715 هـ / 1315 م قوة عسكرية من حلب قوامها ستمائة فارس بقيادة الأمير شهاب الدين قراطاي ، لإخضاع والي ماردين الارتقي الذي خالف أوامره . [3]

شن الأمير شهاب الدين قراطاي غارة على ماردين مدة يومين ، وصادف أن قدمت إلى المنطقة آنذاك قوة من المغول قوامها ألف فارس لتحصيل الأموال السنوية المفروضة على الاراتقة كعادتهم كل عام ، فهاجمهم قراطاي وقتل منهم ستمائة رجل ، واسر ما يزيد على مائتين ، وقدم بالرؤوس والأسرى والغنائم إلى حلب . فلما علم السلطان سر سروراً زايداً وانعم على نائب حلب وعلى قراطاي بالخلع والهدايا . [4]

اشتد غضب السلطان اولجاتيو فقرر أن يضرب المماليك ضربة شديدة في اتجاه أخر وهو السيطرة على الحرمين الشريفين ، واخذ يسعى لاستمالة الأشراف العلويين ببلاد الحجاز إلى جانبه واتته الفرصة حين حضر إليه الأمير حمضية بن أبى نمى بعد اختلافه مع أخيه رميثة على أمرة مكة سنة (716 هـ / 1316م) فتلقاه اولجايتو وأكرمه، وأقام حمضية مع اولجايتو لمدة شهر ، ثم اقترح على اولجايتو إن يمده بجيش من المغول ليسير إلى الحجاز فيملكها ويخطب له على منابرها . [5]

---

[1] صبحي عبد المنعم ، مرجع سابق ، ص 42.

[*] الأراتقة أسرة تركية تنسب إلى جدهم أرتق بن اكسك أحد القادة في دولة السلاجقة العظام ، أقام له دولة توارثها أبنائه من بعده في بلاد الجزيرة والشام وإنقسمت إلى عدة إمارات وفروع ، كحصن كيفا وأمد وماردين.(رحمة بنت حمود ، مرجع سابق ، ص 238.)

[3] محمد جمال الدين سرور ، دولة بني قلاوون ، ص205.

[4] صبحي عبد المنعم ، مرجع سابق ، ص43 .

[5] صبحي عبد المنعم ، مرجع سابق ، ص 43 .

وكانت هذه الفكرة تراود خيال اولجايتو فعزم على تنفيذها ، وجهز جيشا كبيرا جعل على قيادته الأمير طالب الدلقني نائب السلطنة بالبصرة ،وتحرك الجيش المملوكي حتى أذا بلغ ظاهر القطيف وصل الخبر بوفاة اولجايتو ، وأرسل الوزير رشيد الدين فضل الله الهمذانى إلى قادة الجند وأمرهم بعدم طاعة الأمير طالب الدلقندى ومخالفته لعداوة كانت بين الوزير وهذا الأمير فال الأمر إن هرب عسكر المغول عن حمضية واستمر العلاقات متوترة بين المماليك والمغول حتى توفى أبو سعيد [1]

ولكن جند اولجاتيو تعرضوا للقتل في بلاد الحجاز فأرسل اولجاتيو جنداً إلى الحجاز لاحتلالها ، وإقامة الخطبة له على منابرها ، فهزم جند الناصر المغول _ وكانت الحجاز تتبع للناصر محمد _ وقتل من المغول أربعمائة رجل وغنم أهل الحجاز أموالهم وخيولهم . [2]

وظلت العلاقة بين المماليك والايلخانين زمن اولجاتيو تتأرجح بين الشقاق والمهادنة حتى أواخر عهده ، بل ساءت إلى حد كبير قبل مماته . [3]

وكان مغول إيران على علاقة مع البابوية وملوك أوربا أيضا ، هذه العلاقة التي يمكننا أن نحكم عليها أنها علاقة مصالح خاصة ، فبالنسبة للبابوية وملوك أوربا كانت مصلحتهم تتمثل في ناحيتين : الناحية الأولى هي التبشير بالمسيحية الكاثوليكية بين المغول ، والناحية الثانية هي محاولة التحالف مع المغول ضد دولة الإسلام في مصر وبلاد الشام في عهد بني أيوب وفى عهد سلاطين المماليك وكان الأيوبيون والمماليك قد أذاقوا الصليبيين في بلاد السام هزائم مريرة وانتزعوا منهم بعض الإمارات الصليبية وأعادوا لها طابعها الاسلامى ، أما بالنسبة لمغول إيران فيعود السبب للمواجهة العنيفة التي وقف بها المماليك في وجه المغول والهزيمة التي ألحقوها بهم في موقعة عين جالوت ومن هنا جاء التحالف بين المغول والصليبيين في بلاد الشام وفى بلاد أوربا امرأ متوقعا . [4]

---

[1] المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

[2] عصام عبد الرءوف الفقي ، مرجع سابق ، ص326 .

[3] المرجع نفسه، ص 327.

[4] عصام الفقى ، مرجع سابق ، ص 212.

وسار اولجايتو على نهج نفس سياسة إسلافه ، وهى التقرب من ملوك الغرب وربط علاقات ودية معهم ، ويبدو أن هدف ايلخانات إيران من تلك المحاولات كان مجرد إرهاب المماليك بعد أن ثبت عدم رغبة القوى الأوربية بسبب مشاغلها الداخلية في التورط في مشاريع صليبية جديدة في بلاد الشام . [1]

وكان اولجايتو حريصا على نشر العدل بين الناس ، وإنصاف المظلومين ، ومنع تعدى المغول على الاهالى ، واحي قوانين غازان ونظم إدارة البلاد ، وازدهرت إيران في عهده وعمها الرخاء ، ويرجع الفضل في ذلك إلى وزيره رشيد الدين فضل الله الهمذانى توفي اولجايتو سنة 716 هـ /1316 م .

---

[1] فايد حماد عاشور ، العلاقات السياسية ، ص 187.

المبحث الرابع

العلاقات بين الناصر محمد والايلخان أبو سعيد :716- 735 هـ / 1316 – 1335 م

اشتد الصراع بين المغول والمماليك أثناء حكم الايلخان اولجايتو ، ولم يعد هناك أمل في أن يسود الوئام بين الجانبين حتى توفاه الله سنة 716 هـ / 1316 م، وخلفه ابنه أبو سعيد في حكم الدولة الايلخانية وكان في الثالثة عشره من عمره ، والنزاع لايزال مستمراً بين الطرفين ولم تتحسن العلاقات إلا بعد فترة من جلوسه على العرش ويمكنه من السيطرة على مقاليد الأمور ، وقد تولى الوصاية عليه الأمير جوبان أمير الأمراء ، وظل رشيد الدين فضل الله وعلى شاه في الوزارة. [1]

هو أبو سعيد بن اولجايتو بن أرغون بن اباقا بن هولاكو بن تولوى بن جنكيزخان أعقب والده على عرش الايلخانية في إيران فقد أوصى والده قبل وفاته إن يخلفه على العرش ابنه أبو سعيد ، وكان اختيار السلطان اولجايتو لابنه أبى سعيد يعد مخالفة صريحة لأحكام الياسا الجنكيزية التي كان المغول يطبقونهم بدقة متناهية ، مما يدل على تركهم التقاليد المغولية وانصرافهم عن عاداتهم ورسومهم القديمة التي توارثوها عن أجدادهم وإتباعهم أسلوب الحياة الإسلامية عامة. [2]

استأثر جوبان بالسلطة والنفوذ في فارس ، فاختص بإمرة الأمراء وقيادة الجيوش الايلخانية ، وأطلق يده في شئون الحكم وإصدار القوانين وتعيين الحكام ، وتعاون مع خواجة رشيد الدين فضل الله الهمذانى على النهوض بالشعب وتأمينه ضد الفقر والجوع ، ونشر الأمن والأمان حتى عادت البلاد إلى سابق عهدها من الازدهار والتقدم ، وسيطر على الحكم حتى لم يعد لأبى سعيد من السلطة إلا اسمها ، وأناب جوبان ابنه دمشق خواجا يشئون الجيش ، وعهد بحكم آسيا الصغرى إلى ابنه تمرتاش ، فصارت بأيديهم شئون الدولة يديرونها بمعرفتهم ، وكان أهم اينائه تمورتاش الذي اختص بحكومة بلاد الروم ، فتغلغل النفوذ المغولي في آسيا الصغرى حتى زاحم نفوذ اليونان والترك وأدار حكومتها بجد وصدق حتى امن الناس على حياتهم وزاد في رفاهيتهم ، على أن أبا سعيد

---

[1] عباس العزاوي ، تاريخ العراق بين الاحتلالين ، حكومة المغول ، الجزء الأول 656 – 738هـ / 1258 – 1338م مطبعة بغداد ، 1935م ، ص447.

[2] عبد السلام عبد العزيز فهمى ،تاريخ الدولة المغولية في ايران ،دار المعارف القاهرة ،1981م ، ص220.

استرد سلطانه لما بلغ الحادية والعشرين من عمره ، وقد مهد لذلك بالتخلص من دمشق خواجا ، ودبر مؤامرة لاغتيال جوبان ، حتى أن جوبان سار على رأس جيش كبير لمحاربة أبو سعيد ، ولكن جوبان قتل ، وقتل السلطان ا بو سعيد أبناءه وأقاربه وأحفاده، وكل من له صلة بالأسرة . [1]

اختلفت مكانة الإسلام في عهد أبى سعيد عما كانت عليه في عهد من سبقوه من الايلخانات المسلمين ، فقد نشا أبو سعيد في الإسلام وأحيط منذ صغره بحاشية مسلمة تولت الإشراف على تربيته وتعليمه ، لذا خلا إيمانه بالإسلام وإحساسه من ترسيبات وثنية أو مسيحيه. [2]

أهم ما تميزت به سياسة أبو سعيد الإسلامية هو سعيه الشديد لتحقيق غرضين أولهما محاولة إعادة موكب الحج إلى سابق عهدها مثلما كان عليه زمن الخلافة ، وثانيهما تحقيق الصلح مع المماليك على أساس من الأخوة الإسلامية ، وهو الأمر الذي سعى إليه احمد تكو دار من قبل.

وتطورت مساعيه لإنجاح الغرض الأول من اختياره أمراء الحج الذين عرفوا بالشجاعة والشهامة محاولة الاتفاق مع العربان المنتشرين على طريق الحج في محاولة الاستظلال بالحماية الناصرية وتغيير الطريق وجعله على الشام ، حتى تحقق الصلح مع المماليك وجنحت القبائل العربية إلى الطاعة ، فعاد الحجيج إلى سلوك الطريق القديم.[3]

ونظرا لصغر سنه كان الأمير سونق يقوم بالوصاية عليه ، وكان مخلصا له وكان جوبان في منصب أمير الأمراء ،وظلت الوزارة بين على شاه ورشيد الدين الهمذانى، وال الأمر في نهايته إلى اتفاق عقد بين على شاه والأمير جوبان يقضى بان يتخلصا من رشيد الدين ، وبالفعل نجحت حيلتهم وأوهموا الايلخان أبا سعيد إن رشيد الدين وولده كانا سبب موت أبيه فقضى أبو سعيد بإعدامهما وكان ذلك في سنة 718 هـ/1317 م . [4]

---

[1] عصام الفقى ، مرجع سابق ، ص 214.

[2] صالح القزاز ، مرجع سابق ، ص 305.

[3] المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

[4] استيفن راسمان ، مرجع سابق، ص328.

دب الضعف في الدولة الايلخانية نتيجة اختلاف الأمراء ونشوب الحروب الداخلية وسوء الإدارة وزيادة نفوذ الأمير جوبان واستغلاله لمنصبه في توطيد نفوذه ورغم ذلك اظهر أبو سعيد شجاعة ومقدرة حربية فائقة في حروبه ضد خصومه وكان يرمى بنفسه في المعركة ،فكان بذلك قدوة حسنة لقواده وجنوده ، ودعاهم ذلك إلى إن يطلقوا عليه لقب بهادر اى المبارز الشجاع الجريء . [1]

وفى ألسنه الأولى من ولاية أبو سعيد أغار المغول في حملة عسكرية قوامها إلف فارس على أطراف حلب وتهبوا الاهالى فخرج إليهم التركمان وقتلوا كثيراً منهم وغنموا ما كان معهم ، وأرسلوا الأسرى إلى القاهرة . [2]

وأراد أن يضع حدا لهذا الصراع وأن ينتهج سياسة مخالفة لسياسة أبيه حني يضمن الاستقرار والأمن لدولته ويوطد إقدامه في حكمها . ويرجع السبب في ذلك إلي الأخطار التي كانت تحيط به من كل جانب عند توليه أمور الحكم فقد أعلن الأمير يساور التمرد والعصيان سنة (716 هـ / 1316 م) وسيطر علي خراسان وبدأ يزحف بجنوده علي اقليم مازندران . [3]

كما تعرضت بلاد الايلخان من الناحية الشمالية الغربية أي من جانب معابر بلاد القوقاز لغارات اوزبك ملك صحراء القيجاق إذ قدم إلي إيران بجيش جرار عن طريق الدربند . [4]

مال أبو سعيد إلى التفاهم مع المماليك وسعى إلى الدخول في مفاوضات مع السلطان الناصر محمد بهدف عقد صلح بينهما ،لأنه لم يكن على استعداد للدخول في صراع مسلح معه ، وذلك لاضطراب الأوضاع الداخلية للايلخانية ،نتيجة الصراع بين الأمراء من اجل تحقيق مصالح شخصية . وللتهديد المستمر لا يلخانية إيران من قبل أبناء عمه في بلاد ماوراء النهر والقيجاق الذين يطمعون في الاستيلاء على مناطق نفوذه، والخسائر المادية المتكرر نتيجة الاصطدام بالمماليك . [5]

---

[1] فؤاد عبد المعطى الصياد ، المشرق الإسلامي ، ص 444.

[2] استيفن راسمان ، مرجع سابق ، ص 737.

[3] صبحي عبد المنعم ، مرجع سابق ، ص46.

[4] فواد عبد المعطي الصياد ، المشرق الإسلامي ، ص433 .

[5]عصام عبد الرءوف الفقى ، مرجع سابق ، ص .328

رأى أبو سعيد وأعوانه أنهم عاجزون عن السير في السياسة التقليدية المعادية للمماليك في مصر وبلاد الشام الذين صمدوا في وجههم ، وتقلبوا على إسلافهم في عدة معارك حاسمة .وقد تعجل المغول لعقد الصلح لخوفهم من إعمال الفدائيين الذين كان السلطان يرسلهم باستمرار لاغتيال خصومه من أمراء المماليك إذ اعتقد أبو سعيد وغيره من زعماء المغول أنهم المقصود ون بذلك ،لذلك كان جملة مااشترطوه من الشروط إيقاف رسلهم . [1]

وكان الناصر محمد مستمراً في عدائه للمغول ويستقبل المنشقين من أمرائهم على الرغم من المفاوضات السلمية التي ابتدأت بين الطرفين منذ عام 718 هـ /1318 م ، فأنفذ في عام 720 هـ / 1320م ثلاثين رجلاً من طائفة الاسماعيلية الحشاشين إلى إيران لاغتيال قراسنقر _ حاكم مراغة من قبل المغول _ الذي كان متهماً بالاشتراك في قتل أخيه الملك الاشرف . [2]

وعلى الرغم من فشل هذه المؤامرة ألا أنها أخافت المغول إلى حد كبير ، وجعلتهم يلتزمون جانب الحذر من المماليك ، وأحدثت تأثيراً سيئاً في نفوسهم ، وان كان السلطان الناصر محمد لم يقصد من وراء هذه المحاولة قتل احد المغول ، وإنما كان الهدف هو قتل قراسنقر فحسب ولكن خبر هذه المؤامرة انتشر في العاصمة تبريز وتضخم الأمر ، قد انتشرت الإشاعات أن هولاء الإسماعيلية حضروا لاغتيال الايلخان أبو سعيد نفسه ونائبه الأمير جوبان وقرا سنقر وكبار أمراء المغول ، فاحتجب الايلخان احد عشر يوماً في خيمته خشية على نفسه . [3]

على أن الفريقين المتخاصمين المغولي والمملوكي سرعان ما جنحا للصلح ، فرأى أبو سعيد انه من الحكمة وبعد النظر أن يخطب ود المماليك ، فآثر مهادنة المماليك بعد أن أدرك أن من مصلحته إخماد نار الحرب معهم ، بالإضافة إلى أن الحرب لن تزيد من مجده وقد بلغ قمته ، إذ كان مسيطرا هو وأولاده في ذلك الوقت على جميع مرافق الدولة ، وقد فرض الصلح نفسه على الحانبين في عهد أبي سعيد الذي كان صغيرا

---

[1] صالح القزاز ، مرجع سابق ، ص 416.

[2] سهيل طقوش ، تاريخ المغول ، ص 329.

[3] سهيل طقوش ، تاريخ المماليك ، ص 273.

عند توليه العرش ، فناب عنه في الحكم وصيه جوبان متعاونا مع الوزير على شاه ، ولذلك فقد تغيرت كليا سياسة المغول نحو المماليك ، فبالرغم من ا ن ابا سعيد لم يكن يفقه في أمور السياسة ، فانه أيضا ، نشا منذ ولادته في بيئة إسلامية فلم يرث في تكوينه العقلي من أخلاق المغول عقدة السيطرة والأنفة التي كانت قوية في عمه غازان ، والتي كانت تجد في إشعال الحرب والاستهانة بأرواح الخلق سبيلا للتعبيرعن سلطانها. [1]

وكان جوبان مغوليا ، ولكنه كان مسلما حسن الاسلام ، فضلا عن انه سبق إن قاسى الكثير من الحروب مع المماليك حتى انه ضرب بالعصا من قبل غازان بسبب ذلك، فلم يكن له مصلحة فى ايقاد نار الحرب معهم ، بالاضافة إلى إن الحرب لن تزيد من مجده وقد بلغ قمته .

واهم من ذلك كله أن الحكم الايلخانى الجديد ، كان في حالة من التفكك والانقسام بين أمرائه بحيث لا يستطيع مواجهة المماليك عسكريا ، فضلا عن أن أطماع مغول ما وراء النهر ومغول القفجاق في أملاك الدولة الايلخانية ، كانت قد عادت من جديد بسبب صغر الايلخان الجديد ، لذلك كان جوبان اول من سعى لعقد الصلح ، كما كانت هناك دواع لتحسين العلاقات بين التتار والمماليك ، ذلك انه نزل باسيا الصغرى في عامي 1318 و1319 م قحط شديد ومجاعة مخيفة ، ثم تلا ذلك في سنة 1320م أعاصير مدمرة وزوابع مخربة ، و راع هذا أبا سعيد فاستشار علماء الدين عن سبب تلك المحن ، فعزوها إلى انتشار الموبقات فعمل أبو سعيد على الحد منها ، واصلاح احوال البلاد ، واظهر الدين الاسلامى والمذهب السنى على وجه الخصوص ، مما كان له كبير الاثر في تحسين العلاقات بين الدولة المغولية ودولة المماليك ، هذا بالاضافة إلى ضعف دولة ابى سعيد واضطرابها ووقوع الفتنة بين المغول وذلك بسبب تحكم جوبان في ابى سعيد وعجز ابى سعيد عن القبض عليه ، وقتل بسبب الفتنة كثيرا من امراء المغول والاتباع ، وانتصرابو سعيد على خصمه فسر السلطان الناصر بذلك لما فيه من انقسام صفوف المغول وانشغالهم بمشاكلهم ، ومن اسباب ذلك الصلح إن جويان مدبر دولة ابي سعيد

---

[1] صالح القزاز ، مرجع سابق ، ص 415.

كان مسلماً وأن الناصر يرغب في منع الخارجين عليه من الدخول في خدمة المغول وتحريضهم على غزو الشام وقتال المسلمين .[1]

وقد بدأت مساعي الصلح بعد جلوس أبى سعيد مباشرة ، فأرسل إلى سلطانهم الناصر محمد وفداً يغرض الصلح واحلال السلام (722 هـ /1322 م) ، وبعد ثلاثة أعوام من المفاوضات المستمرة جنح السلطان الناصر محمد إلى الصلح ، بعد إن عبر له أبو سعيد عن نواياه الطيبة ورغبته الصادقة في قيام علاقات بينهما على أسس من المحبة والاحترام وأوفد الايلخان أبو سعيد المجد الاسلامى مبعوثاً إلى القاهرة لإجراء مفاوضات الصلح بشروط محدودة بين الدولتين ، كان أهم بنودها :-

1 . الايكلف سلطان مصر الفدائيين الاسماعيليين بأية مهام في الممالك الايلخانية .

2 .كل من يلجا إلى ارض مصر أو إيران فهو من رعايا صاحب الدولة ولا يجوز إرجاعه أو التعرض إليه بأي أذى .

3 . الا يحرض السلطان الناصر محمد الإعراب من البدو ولا التركمان بالإغارة على دولة المغول . وتتضمن الصلح تأمين طرق التجارة بين الدولتين .

4 . وان يسير المحمل كل عام من العراق إلى الحجاز رافعا علمين احدهما باسم سلطان مصر والأخر باسم ايلخان المغول .

5 . ترسخ علاقات الود وتبادل التجارة بين الدولتين وصدق الناصر محمد بن قلاوون على هذه المعاهدة سنة 721 هـ /1320 م .[2]

6 . وقف مساعي السلطان محمد في القبض على قراسنقر حاكم مراغة أو محاولة التخلص منه .

وقد جمع السلطان محمد بن قلاوون القادة والأمراء واستشارهم في عقد هذه الاتفاقية، فاتفق الرأي علي توقيع الصلح بهذه الشروط وجهزت الهدايا للايلخان أبي سعيد فرحا بهذه المناسبة ، وكان من بينها فرس وسيف وقرقل[*] ، وأوفد الرسل وهم يحملون

---

[1] صالح القزاز ، مرجع سابق ، ص416 .

[2] عبد الرحمن بن خلدون ،مصدر سابق ،ص 32 . القلقشندى ، صبح الاعشى ، ج 4 ، ض 11-12 .

[*] قرقل: نوع من الدروع المزردة ، ومنها الفرفلات المتخذة من صفائح الحديد المحشاة بالديباج الاحمر والاصفر، وتلبس فى الحروب .

موافقة السلطان محمد بن قلاوون وسبقهم المجد ألسلامي حتى يبشر الايلخانيين بقدومهم، ومعهم هدية السلطان الناصر ورسالة إلى ابى سعيد ، وكتب لصاحب مكة باكرام حجاج العراق والدعاء لابى سعيد بعد الناصر محمد في منابر مكة . [1]

تعجل المغول لعقد الصلح لخوفهم من أعمال الفدائيين الذين كان السلطان يرسلهم باستمرار لاغتيال خصومه من أمراء المماليك اذ اعتقد أبو سعيد وغيره من زعماء المغول اتهم المقصود ون بذلك ، وكان من جملة ما اشترطوه من الشروط إيقاف رسلهم ، كما تدل رغبة الايلخانيين في الصلح ، على مدى ما وصلت إليه دولة المماليك من مكانة كبيرة في نفوس الايلخانيين وبأنهم قوة عظيمة يرجى وصلها ويخشى بأسها ، لا يستهان بها ولا بقدرتها العسكرية أبدا ، وان السلطان المملوكي أصبح مرهوب الجانب عند بقية الحكام. [2]

ومن أثار هذا الصلح إن بدا السماح للأقارب في الدولتين بالعودة إلى بلادهم ، ومن لا يرغب يسمح له بزيارة ذويه،والبقاء معهم كيفما يريد وفد كان للسلطان محمد بن قلاوون أقارب يعيشون في بلاد المغول .

ويشير ابن حبيب إلي الفرحة التي عمت البلاد بهذا الصلح فيقول : في هذا العام انتظمت عقود الصلح بين السلطان المملوكي وبين أبي سعيد . وقبل كل منهما هدية الأخر واستقرت الخواطر وتارجت الأرجاء بنسمات هذا الخبر العاطر . [3]

ورغم الفرح الذي عم أرجاء البلدين فان الايلخان أبا سعيد كان يخشي أن ينقض المماليك هذا الصلح ، فأرسل رسله كي يستوثق من إتمام هذا الصلح ، فقدم الرسل سنة 722 هـ /1322 م فاستقبلهم السلطان المملوكي وأنزلهم بقلعة الجبل ثم عادوا إلي بلادهم. [4]

وكان لهذا الصلح أثره في تحسين العلاقات بين المماليك والايلخانيين المغول فقد توطدت عري الصداقة والعلاقات الطيبة بين الطرفين بهذا الصلح الذي يعد نقطة تحول

---

[1] فؤاد الصياد ، المشرق الإسلامي ، ص 479.

[2] صالح القزاز ، مرجع سابق ، ص 416.

[3] ابن حبيب ، مصدر سابق ، ص 115 –116 .

[4] صبحي عبد المنعم ، مرجع سابق ، ص56 .

في تاريخ العلاقات بين الدولتين حيث حل الوئام محل الخصام وهدأت الأحوال في المنطقة وسادها جو السلام والأمن وبدا تبادل الرسل بين الايلخانيين والمماليك عقب توقيع معاهدة الصلح.

أما بالنسبة للمماليك فقد كان الصلح مفيدا لهم ، فبالإضافة إلى تأمين الاستقرار للبلاد الذي بدوره يوفر الرخاء الاقتصادي ويؤدى إلى إعمار البلاد ، فان الصلح قد يفيد في تحقيق بعض الأغراض السياسية والشخصية للسلطنة في السيطرة على العشائر التي كانت تجد في اختلاف السياستين رحمة لها ، فعلا بعد إن تقرر توحيد سياسة البلدين نحوها ، اضطر شيوخها بعد ذلك إلى الدخول في طاعة السلطان المملوكي الناصر محمد ، وكانت هذه العشائر لا تدين لأحد بالولاء ، وإنما كانت تتبع مصالحها الشخصية، وقد استغلت خلافات حكام الدولتين مرات كثيرة ، فتميل بولائها إلى الجانب الأقوى ، ثم لا تلبث إن تنقلب عليه وقت ضعفه ، إلى جانب أن مناطق سكنى هذه العشائر تنتشر على جانبي الحدود المشتركة بين الدولتين ، وتملك السيطرة الحقيقية على طرق المواصلات مع الشام والحجاز . [1]

ويذكر أبو الفداء في حوادث 724 هـ /1324 م قدوم رسل أبي سعيد علي رأسهم الأمير طوقان والطواشي – وكان خازندار أبي سعيد ، ووصول الأمير حمزة رسولا من قبل نائب السلطنة الأمير جوبان وكان أبو الفداء حاضرا أثناء استقبال السلطان لهم وشاهدهم وهم يقدمون الهدايا ويصفها بقوله : (واحضر المذكرون وأنا حاضر ثلاثة اكاديش[*] بثلاثة سروج ذهب مرصعة بأنواع الجواهر ، وثلاثة حوائص[*] ذهب مجوهرة، وسيف غلافه ملبس ذهبا ومرصع جواهر وعدة أقبيه[*] من نسيج وغيره مستنجية

---

[1] صالح القزاز ، مرجع سابق ، ص 416.

[*] جمع مفرد اقديش وهو الحصان الهجين الأعجمي كانت تجلب من بلاد الرزم والترك غالبا ما كانت مشقوقة الأنف وهي صبور علي السير سريعة المشي . صبحي عبد المنعم ، مرجع سابق ، ص59 .

[*] الحوائص : جمع مفردة الحاصة وهي الحزام الذي يوضع في وسط جسم الدابة أو علي فخذيها تحت ذيلها لتثبيت السرج للركوب .نفسه .

[*] الأقبية : نوع من القماش يغطي الرأس مصنوع من الحرير للصيف وهي تميز الاقبية التترية التي كانت بمثابة معاطف من الصوف لأو القطن .نفسه .

وجميعها بطرز زركش ذهب وشاش(*) فيه فيضات عدة مزركش ذهب ، واحد عشر بختيا(*) مزينة أحمالها صناديق مملوءة قماش من معمول تلك البلاد وعدتها سبعمائة شقة(*) قد نقش عليها ألقاب السلطان) فقبل السلطان منهم هذه الهدايا وغمر الرسل بالهدايا والأموال وحضروا معه احتفال البلاد بعيد الاضحي المبارك وأمرهم بالعودة إلي بلادهم .

وقد تحققت أهداف الصلح الرئيسية في تامين الاستقرار والسلام بين البلدين ، فلم تتعرض حدود السلطنة المملوكية لاعتداءات المغول لمدة تزيد على السبعين سنة ، ولم تشهد حروباً طاحنة من نوع الحروب التي شهدها القرن الثالث عشر الميلادي . وظل الصفاء سائداً حتى توفي أبو سعيد سنة 736 هـ / 1335م . وظلت مصر بمأمن من غارات المغول حتى أوائل القرن الخامس عشر الميلادي عندما عاود الظهور من جديد على يد القائد المغولي تيمورلنك. [1]

ومن اثأر هذا الصلح إن اتفق الطرفان على التعاون سويا من اجل التصدي للخصوم والقضاء عليهم أذا لزم الأمر وفد وضح ذلك عندما اختلف مهنا بن عيسى شيخ إعراب آل فضل مع السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وذهب إلى الايلخان أبى سعيد ليقيم عنده ، وكان أبو سعيد يعلم ما حدث بينه وبين السلطان المملوكي ، لكنه استقبله لان هناك بندا في المعاهدة يسمح لاى شخص من البلدين باللجوء إلى البلد الآخر دون معارضة ولقد أقام مهنا بن عيسى شهرا في إيران ، لكن كبار رجال الدولة عند أبى سعيد كانوا يخشون غضب السلطان الناصر محمد ويريدون لمعاهدة الصلح إن تستمر بين الطرفين دون عقبات أو عوائق.

كما استفاد أبو سعيد من هذا الصلح فتخلص من بعض خصومه الذين احتموا بالسلطان خلافا لما حصل الاتفاق عليه ، إذ قبل الناصر محمد على الغدر بضيفه تيمورتاش بن جوبان سنة 728هـ / 1328م ارضاءا منه لابى سعيد ، كما قام السلطان

(*) الشاش قماش يوضع علي العمائم زخرفة بالذهب واللؤلو .

(*) التختي الواحد من الابل الخراسانية هي جمال ضخمة ذات سنامين ووبر اسود تستعمل في إسفار الشتاء . صبحي عبد المنعم ، ص 60.

(*) قماش من الصوف مبطن بشعر دقيق ناعم.

[1] حمدي عبد المنعم حسين ، مرجع سابق ، ص 221.

سنة 734 هـ بالتدبير على احد أمراء المغول وهو (يساور) خلال موسم الحج في مكة لخشية أبى سعيد من منافسته له على العرش ، ثم قبل الناصر بعد ذلك أيضا شفاعة أبى سعيد وأمراء المغول في صاحب أرمينيا الصغرى الذي كان قد تعرض لبعض رسله ، فعفا عنه وأوقف سير الجيوش إلى بلاده . [1]

وتجلى تأثير هذا الصلح على الدولتين في الدعاء لأبي سعيد في مكة بعد الدعاء للناصر محمد ، كما أصبح يدعى الناصر محمد في بلاد الايلخانية بعد الدعاء لأبى سعيد ، كذلك صرف الايلخانين النظر عن التحالف مع الغرب الأوربي على الرغم من إلحاح البابا يوحنا الثاني والعشرين (716 هـ . 735 هـ / 1316 . 1334 م) للتعاون المستمر بين الطرفين ضد المماليك ولعل لذلك علاقة بمدى ، ما كانت تتعرض له ارمينا الصغرى من هجمات المماليك ، فقد أرسل هذا البابا رسالتين إلى أبي سعيد ، يدعوه في الأولي إلى اعتناق النصرانية ، وركز في الثانية على القضية الارمنية ، ويحثه على تقديم المساعدة العاجلة لهم ضد المماليك الذين خربوا بلادهم . [2]

لم يرد أبى سعيد على سفارة البابا لأنه لم يعد بحاجه له أو لغيره بعد عقد الصلح مع المماليك . واتبع سياسة مزدوجة مع المماليك فيما يتعلق بالقضية الارمنية ، فقد استجاب لنداء البابا بحماية الأرمن من اعتداء المماليك ، خاصة بعد أن تلق طلباً بالمساعدة من قبل الملك الارمينى ليون ، فأرسل جيشاً تعداده عشرين ألف جندي من اجل هذه الغاية ، متبعاً في ذلك سياسة أسلافه على الرغم من وجود معاهده سلام مع المماليك ، كما حث سلطان مصر على عقد صلح مع ملك ارمينا ، ولكن قيل أن يصل الجنود المغول إلى ارمينا ، كانت العساكر المملوكية قد اجتاحتها ، واضطر الملك ليون إلى عقد الصلح . [3]

تواتر تبادل الرسل بين ابى سعيد والملك الناصر لتوطيد اواصر الصداقة والعلاقات الودية إلا انه بعد وفاة ابى سعيد اضطربت بلاد المغول وسادتها الفوضى

---

[1] صالح القزاز ، مرجع سابق ، ص 419 .

[2] Sir Henry Hayle Howorth, History of Monglos from the 9th to the 19th century, London 1927 .pp602-603

[3] استيفن راسمان ، مرجع سابق ، ج 3 ، ص 737 .

مماجعل الملك الناصر يفكر قى غزو فارس والاستيلاءعليها ، ومن ثم بدا يظهر التاييد لحسن الاكبر ضد اخيه حسن الاصغر الذى ينافسه على العرش ، وهما ولدى تيمورتاش بن شوبان حاكم اسيا الصغرى فارسل الناصر إلى حسن الاكبر كتابا يعده بالمساعدة ، مقابل اعترافه بالسيادة للملك الناصر محمد في بغداد [1].

والخلاصة إن السياسة العدائية بين مغول فارس والمماليك انتهت منذ عهد خدابنده حيث كانت العلاقت قد تحسنت منذ وفاة غازان وسارت العلاقات الودية والسلمية وحلت محل العلاقات العدوانية ، وظلت الامور هكذا حتى نهاية الدولة المملوكية الاولى . [2]

تجدر الإشارة إلى أن هذا الصلح الذي ابرم بين دوله مغول فارس والمماليك لم يؤثر على الصداقة التقليدية القديمة التي تربط دولة المماليك بدولة مغول القبجاق أو القبيلة الذهبية في شمال البحر الأسود ، وكان زعيمها في ذلك الوقت يدعى اوزبك خان. ومن المعروف أن هذه الدولة المغولية الشمالية كانت على عداء مستحكم مع مغول فارس، وكثيراً ما قامت بينها حروب طاحنة ، ولكن لما انتهى العداء بين المماليك ومغول فارس لم يستطع الناصر محمد مناصره صديقه اوزبك خان زعيم القبيلة الذهبية ضد ايلخان فارس أبي سعيد ، وأوضح له موقفه الجديد من هذه الدولة وعمل في نفس الوقت على عقد صلح بين أبى سعيد واو زبك خان . [3]

لقد شكلت العلاقة بين المماليك والمغول الايلخانيين في عهد الايلخان أبى سعيد بعداً حضارياً جديداً في حياة الشعوب الإسلامية بصفه عامة ، والعناصر المغولية في الشرق الاسلامى بصفه خاصة . ويتضح ذلك فيما نلمسه من دراسة أحوال هذه العناصر في مرحلتين زمنيتين مختلفتين ، وغير متماثلتين من حيث الظروف التاريخية وأحداثها السياسية والعقائدية والاجتماعية .

---

[1] فايد حمتد عاشور ، العلاقات السياسية ، ص 190.

[2] المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

[3] أحمد مختار العبادي ، في التاريخ الأيوبي والمملوكي ، ص 255.

في المرحلة الزمنية الأولى تجد المغول يهاجمون العالم الإسلامي ، ويدمرون مراكز الحضارة الإسلامية ويقيمون لهم دولة في إيران والعراق ، فأصبحت أملاك المغول الايلخانيين تجاور أملاك الدولة المملوكية في مصر والشام . [1]

ونجد السياسة قد تغيرت في المرحلة الزمنية الثانية التي تبدأ بتولي الايلخان أبى سعيد عرش إيران ، وإتباعه سياسة المصالحة والمصادقة مع المماليك المسلمين ، والتخلي عن السياسة القديمة التي كانت تقوم على التحالف مع المسحيين الأوربيين ضد المماليك المسلمين . [2]

وخلاصة القول أن العلاقات بين الايلخانية والمماليك قد شهدت فترة زاهرة لم تحدث من قبل ، وبدأت بينهما مظاهر الود والوئام واضحة للعيان نتيجة الوفاق السياسي والمذهبي بينهما . ومما لاشك فيه أن ذلك الوفاق يعود إلى الظروف السياسية التي نشأت آنذاك والتي جعلت كلاً منها بحاجه إلى الارتباط بالآخر ، وقوى هذا الارتباط العقيدة الإسلامية الصحيحة التي وجدت طريقاً ميسوراً بين الايلجانيين بصوره جعلتها عقيدة ثابتة ومتينة يزداد أفرادها كل يوم .

وظل الصفاء سائداً بين دولتي المماليك والمغول حتى توفى أبو سعيد في سنة 736هـ / 1336 م . وبوفاته انتهي عهد الايلخانيين ودار صراع مرير بين الأمراء حول السلطة خاصة أن أبا سعيد لم يترك ذرية ذكور ونتج عن هذا الصراع أن انقسمت إيران إلي اسر مغولية ، وبعضها اسر محلية ، وتفككت ايلخانية إيران إلي دويلات وممالك وطوائف ، وسادتها الفوضى مما جعل الملك الناصر يفكر في غزو فارس والاستيلاء عليها ، ومن ثم بدا يظهر التاييد لحسن الاكير ضد اخيه حسن الاصغر الذى ينافسه على العرش ، فارسل الناصر إلى حسن الاكبر كتابا يعده بالمساعدة ، مقابل اعترافه بالسيادة للملك الناصر محمد في بغداد. وأرسل الناصر محمد بعض قواته إلى حدود المغول لتكون على أهبة الإستعداد ، ولكن إشتدت العلة بالناصر محمد حتى توفاه الله في سنة 741هـ – 1341م وله من العمر سبع وخمسون سنة.[3]

---

[1] صبحي عبد المنعم ، مرجع سابق ، ص 77.

[2] أحمد مختار العبادي وإبراهيم مرجونه ، مرجع سابق ، ص 168.

[3]ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج9 ، ص 164 – 165.

أما بالنسبة للعراق فقد تمكن الجلائريون من حكمها بصورة مستقلة وباتت الأمور تسير من سئ إلي أسوأ ، ولم يكن هناك بعد وفاة أبي سعيد من يستطيع أن يمسك بزمام الأمور ويعيد توحيد المغول تحت سلطانه فانفرط عقد الدولة الايلخانية وانقسمت مملكتها بين الأسر الحاكمة التي قامت على أعقابها .

والخلاصة إن السياسة العدائية بين مغول فارس والمماليك انتهت منذ عهد خدابنده حيث كانت العلاقات قد تحسنت منذ وفاة غازان وسارت العلاقات الودية والسلمية وحلت محل العلاقات العدوانية ، وظلت الامور هكذا حتى يمكن القول أن أساليب المواجهة بين المغول والمماليك قد تنوعت ، واختلفت حدة الصراع الذي قام بينهما قوة أو ضعفا ، تبعا للظروف المحيطة بكل ايلخان أو سلطان ، وكانت تتوفر في الحدود الطويلة بينهما دائما أسباب الخلاف وعوامل إذكاء نار الحرب حتى في الفترات التي كان فيها دعاة السلام يتنقلون بين العاصمتين يحملون معهم أمنيات السلام .

وعلى ضوء تطورات الأحداث التي نسجت العلاقة بين المماليك والمغول يمكننا القول أن هناك نوعين من الأساليب السياسية اتبعتا جنبا إلى جنب من قبل الطرفين خلال هذا الصراع ، وهما الأسلوب السلمي ، والأسلوب العسكري .

الأسلوب السلمي :

ويقصد به كل الوسائل والحيل التي لجا إليها الفريقان لإلحاق الضرر بعضهم ببعض وتلمح من خلال هذا الصراع أن كفة المماليك كانت أرجح فيه ، ذلك أن الحكم الايلخانى الذي ساد في العراق خاصة ، لم يكن قائما على أساس من رضي الناس الذين كانت مشاعرهم متعلقة بالحكم المملوكي الذي كان يمثل في نظرهم المدافع عن الإسلام أمام وثنية المغول ، لذلك كان أعوان المماليك أو رسلهم يجدون الحماية والعون من أبناء البلاد الذين أصبحوا في موقفهم هذا يمثلون أشبه ما نسميه اليوم بالطابور الخامس ، وعلى العكس من ذلك لاتجد هذه الميزات متوفرة للمغول في بلاد الشام ومصر إلا نادرا.[1]

ولم تكن العلاقات السلمية هذه مقتصرة على أسلوب واحد في العمل ، وإنما كانت تتشبث بكل وسيلة تساعدها على تحقيق أهداف النصر ، ولذلك فإننا نستطيع تمييز عدة

---

(1) رحمة بنت حمود ، مرجع سابق ، ص 224.

وسائل أو أساليب مثلت هذا الجانب من العلاقات ومن ذلك محاولة الاتصال بأمراء البلاد وإغرائهم بالتعاون معهم ، وكان هذا المجال واسعاً أمام سلاطين المماليك الذين بدأوا في العمل بجد من أجل وقف التقدم المغولي بسبب روح العطف والتأييد التي كانت لهم في قلوب الكثير من أمراء البلاد وأغلبية أبناء المسلميين الذين كانوا مكرهين على طاعة ايلخانات مغول فارس. أما مهمة المغول فى هذا المجال كانت صعبة جدا ، لان أعمالهم الوحشية في الشام لم تترك لهم محبة في قلوب أهلها ، لكي يستطيعوا استغلالها فيما بعد، لذلك تعذر عليهم الحصول على أعوان أو عملاء لهم فيها ، فاضطروا إلى طرق أبواب عملائهم القدامى من الأمراء الأيوبيين الذين فقدوا الكثير من امتيازاتهم في ظل الحكم المملوكي الجديد الذي تفضل عليهم بما أبقاه في أيديهم من سلطان على أن يخلصوا الطاعة والولاء له . [1]

وكان من هذه الأساليب السلمية أيضا التشجيع على اللجوء السياسي والهروب إلى البلاد الأخرى لإضعاف الجبهة الداخلية ، فضلا عن كشف كثير من الخفايا السياسية أو الأسرار العسكرية ، وكانت الدولتان تبذلان الكثير من الأموال ووسائل الإغراء لتشجيع هروب أمراء الدولة الأخرى إليها .

وعند المقارنة في هذا المجال بين نشاط الدولتين ، نجد أن المماليك كان لهم النصيب الأوفر ، إذ في الوقت الذي لا يزيد عدد الهاربين من أمرائهم إلى الايلخانية ، لا يزيد على عدد أصابع اليدين ، يمكن القول أن أمراء المغول الذين هربوا من الحكم المغولي لا يحصى عددهم لكثرتهم ، بالإضافة إلى العديد من أبناء البلاد الإسلامية الرازحة تحت حكمهم . [2]

على أن إنتشار الإسلام بين طوائف المغول وهدوء العلاقات بين الجانبين قد أضعف من حركة اللجوء بين المغول طيلة مدة حكم أولجايتو وخلفه أبي سعيد ، كما كان لقيام الصلح بين الدولتين بعد ذلك 723هـ / 1323م أثره الكبير في تعزيز الاستقرار السياسي بينهما[3]

---

[1]صالح القزاز ، مرجع سابق ، ص 377.

[2] المرجع نفسه ، ص 386.

[3]رحمة بنت حمود ، مرجع سابق ، ص 293 .

ومن الأساليب أيضا التهديد بالزحف والدعوة إلى استرجاع البلاد ، حيث لجا الفريقان في كثير من الأحيان إلى ممارسة الحرب الكلامية وإطلاق التصريحات وإرسال الرسائل التي تحمل النذير بالحرب وإظهار العزم على استرجاع أو تحرير البلاد ، ولم يكن الهدف من كل ذلك سوى إرهاب الفريق الآخر ليرضى بما تحت يده من البلاد ، ويكف عن التحرش ومحاولة التوسع على حساب أملاكه .

وكانت الشام هي البلاد التي ساوم المغول عليها وهددوا باسترجاعها ، بينما كانت بغداد هي الأمل الذي تاجر به المماليك ، فكانوا يهددون المغول بتحريره من سيطرتهم ، ويثيرون عليهم مشاعر المسلمين فيه للخلاص من حكمهم .

ويمكن القول على ضوء الأحداث أن المغول في هذا المجال كانوا فعالين أكثر منهم قوالين ، على العكس من المماليك الذين لم يحاولوا سوى إطلاق الكلام ، فقد كانوا في هذا المجال أكثر ممارسة لهذا الأسلوب من العمل السياسي ، إن لم يكن لإرهاب المغول وإضعاف عزائمهم ، فلا اقل من تثبيت سلطانهم على الناس بترديده واشتغالهم به عن التفكير والتطلع إلى شؤون الحكم. [1]

الأسلوب العسكري :

لم يقتصر الصراع السياسي على هذه الأساليب السلمية لتحقيق أهدافه ، وإنما كان يتصاعد خلال ذلك ، وفى كثير من الأحيان إلى مرحلة المواجهة واستخدام السلاح ، ولكن ذلك لم يكن فجائيا ، وإنما كان يتدرج حسب الظروف والعوامل التي تحيط بالفريقين المتنازعين ، ونلمس كذلك من خلال دراستنا لمراحل هذه المواجهة ، إتباع المعسكرين عدة وسائل لتحقيق أهدافهم حسب درجة تصاعد الحرب .

أولا : من هذه الوسائل الاغتيالات السياسية باستخدام الفدائية لتحقيق بعض الأغراض السريعة التي لا تحتاج إلى سوق الجيش ، ويمكن القول أن أتباع هذه الوسيلة كان مقصورا على المماليك فقط ، إذ استغلوا طائفة الإسماعيلية وعداوتها للمغول فساوموا أتباعهم في القلاع الشامية على التعاون معهم في هذا المجال مقابل احتفاظهم ببعض قلاعهم . [2]

---

[1] صالح القزاز ، مرجع سابق ، ص 396

[2] المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

ثانيا : ومن هذه الوسائل أيضا إرسال الحملات الصغيرة للقيام بالغارات المحلية على بعض الثغور أو القلاع لإرهاب العدو أو منعه من إجراء التحصينات فيها لأهميتها العسكرية .

ثالثا : وكان من هذه الوسائل أيضا الحملات العسكرية الكبيرة وقيادة الايلخانات لها أملاً في تحقيق انتصارات كاملة ، وذلك كلما انسوا من المماليك ضعفا وانقساما ، ويمكن القول أن جميع هذه الحملات التي قادها الايلخانات على المماليك كانت بتشجيع من أمراء المماليك أنفسهم الذين انقسموا على أنفسهم فدعوا المغول ، أو لجاوا إليهم وشجعوهم على غزو بلادهم .

وكانت كفة المماليك راجحة في هذه العمليات العسكرية بالرغم من إيقاع المغول الخراب في المدن والأطراف الشامية التى وصلوا إليها ، ذلك أن المماليك كانوا يستندون في عملياتهم العسكرية على جهاز من الاستخبارات المنتشرة في جميع البلاد الإسلامية التي تخضع للحكم المغولي ، وخاصة المجاورة منها لحدودهم ، بحكم تعاطف الرأي العام الاسلامى مع المماليك ، وحتى عواصم الايلخانيين لم تكن تخلو من عيونهم ، يشير إلى ذلك ما ورد في جواب الناصر محمد على رسالة غازان فوله : (ولم يعلم انه لو تقلب في مضجعه من جانب إلى جانب ، أو خرج من منزله راجلا أو راكبا ، كان عندنا علم من ذلك في الوقت القريب) .[1]

لذلك كان المماليك على بينة من اكثر تحركات الجيوش المغولية المتوجهة نحو بلادهم ، فكانوا يستعدون لها قبل وصولها ويلحقون بها الخسلئر الكبيرة ، وكانوا من ناحيتهم يوالون الإطراف المغولية بالهجمات المستمرة ويتوغلون في اعماق البلاد ، لكن المماليك لم يكونوا قادرين على فعل ما يفعله المغول ببلادهم من تخريب وقتل بالجملة ، بل كانوا يتلقطون المغول فقط ومن يشابههم من اهل البلاد وخاصة النصارى.

ولا يجب إن نغفل في هذا المجال اخيرا اهمية موالاة العشائر للسياسة المملوكية ، ودورهم في نقل الاخبار ومهاجمة مؤخرة العدو مما كان له اكبر الاثر في نجاح سياستهم وترجيح كفتهم مما دفع المغول التكرار عرضهم الصلح على المماليك للاحتفاظ بما في ايديهم من البلاد .

---

[1] محمد جمال الدين سرور ، دولة بني قلاوون ، ص 201-203.

المبحث الخامس

أثر العلاقات بين المماليك والمغول على مصر وبلاد الشام

تعرضت بلاد الشام لعدة حملات عسكرية مغولية أدت إلى نتائج خطيرة على الأصعدة السياسية والإقتصادية والدينية والاجتماعية.

الأثر السياسي :

اثر المغول بطريق غير مباشر في هجرة بعض الأقوام الآسيوية إلى غرب آسيا ، فكانوا سببا في هجرة تلك القبيلة التركية إلى آسيا الصغرى فكونت نواة الدولة العثمانية فيما بعد ، كذلك نرى أن غزوا ت المغول كانت السبب في هجرة كثير من الخوارزميين إلى البلاد الشامية والى مصر ، وقد شجعهم الصالح أيوب واستمالهم إلى البلاد لمصرية جريا على سياسته التي كانت ترمى إلى اجتذاب المماليك إلى بلاده ، كذلك نرى الصالح ايوب يشترى عددا كبيرا من اسرى المغول الذين اسروا في حروبهم في بلاد المشرق وفى بلاد القفجاق وغيرها، ويضمهم إلى مماليكه الذين كانوا يعرفون بالمماليك البحرية . [1]

وقد قدم إلى مصر عدد كبير من المغول في اوائل عهد الملك الظاهر بيبرس، واتخذوا الاسلام دينا لهم ، وكان هؤلاء المغول موضع عناية السلطان بيبرس فمنحهم بعض الاقطاعات . [2]

كما باءت جهود المغول بالفشل في التحالف مع الغربيين ضد المماليك رغم العديد من السفارات المتبادلة بين الطرفين ، فالمماليك استطاعوا تقويض الكيانات الصليبية نهائيا من بلاد الشام في عام 1291م ، ووجهوا ضربات متلاحقة لمملكة أرمينيا الصغرى وجعلوا حكامها يدينون بالولاء للقاهرة ، واستطاع المماليك أيضا هزيمة جيوش المغول في أعوام 1276م (في ابلستين بالأناضول) ، 1281م (موقعة حمص الأولى) ، 1303م (في موقعة مرج الصفر) ، مما أوقف المد المغولي شرقي نهر الفرات ، ولا شك أن الانتصارات الإسلامية على الصليبيين

---

[1] نادية محمود ، مرجع سابق ، ص 20.

[2] محمد جمال الدين سرور ، الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عهده ، القاهرة ، 1938م ، ص 166.

ومملكة أرمينيا الصغرى ومغول فارس كان لها اكبر الأثر في فشل مشروع التحالف اللاتيني . المغولي ضد المسلمين . [1]

الأثر الديني :

لقد أدى الغزو المغولي إلى سقوط معظم القوى السياسية بالمشرق الإسلامي وخضوعها لسلطة وثنية هي سلطة الايلخانيين التي كانت تمثل كياناً عربياً في الشرق من الوجهتين السياسية والحضارية. فنشأ من ذلك تحولات عميقة على الصعيدين الديني والفكري.

لم نكن الديانة الإسلامية بالديانة الجديدة على اهالى شرق آسيا يوجه عام ، وعلى المغول بوحه خاص ، فقد وصل المسلمون إلى أقصى أقاليم آسيا الشرقية للتجارة مع أهلها ، ونجحوا في تأسيس جاليات عربية إسلامية لهم هناك ، وقد زاد عددهم في البلاد الصينية بعد تأسيس الدولة العباسية ، على أن عدد المسلمين قد زاد في شرق آسيا على اثر غزوات المغول وحملاتهم على غرب هذه القارة ، فقد صحب جنكيزخان معه إلى بلاد المشرق الأقصى بعد إخضاع الدولة الخوارزمية عددا كبيرا من أصحاب الحرف والمهن للاستعانة بهم وبخبرتهم في بلاده ، وادي ذلك بطبيعة الحال إلى تقوية الجاليات الإسلامية في بلاد المشرق الأقصى وبالتالي إلى ازدياد انتشار الإسلام فيها عما كان عليه الحال قبل الغزو . [2]

ومما ساعد على تفوق الديانة الإسلامية على المسيحية في شرق آسيا ، تفوق المسلمين في ميدان المنافسة التجارية ، وليس هناك من شك في أن انتشار العقائد الدينية يرتبط ارتباطا وثيقا بالعلاقات التجارية ، فان التجار المسلمين كانوا يعملون على نشر الإسلام أينما حلوا ، وبذلك انتشر الإسلام في الشرق في مدة وجيزة ، ووصل إلى البلاد التي كان ينشر فيها البوذيون دياناتهم. [3]

أما في غرب آسيا فقد قاسى المسلمون في أثناء الغزو صنوفا مختلفة من العذاب ، وقد رأينا كيف أن مدنهم خربت وكرامتهم الدينية أهينت بعد أن هدم المغول

---

[1] عادل هلال ، مرجع سابق ، ص 266.

[2] حافظ احمد حمدى ، مرجع سابق ، ص 288.

[3] المرجع نفسه ، ص 289.

مساجدهم وإنتهكوا حرمتها وعطلوا الصلوات فيها وعطلوا مواسم الحج لسنوات وقتلوا أكابر علمائهم وفقهائهم ، واسروا من نجا منهم من القتل ، ولم يخص المغول المسلمين بهذا العذاب بل أن ذلك كان من نصيب جميع سكان غربي آسيا التي غزاها المغول ، الذين لم يميزوا بين أصحاب دين وآخر في المعاملة. [1]

ومع أن المسلمين لاقوا صنوفا مختلفة من العذاب في عهود المغول الأولى إلا أنهم صبروا وصابروا مؤمنين بنصر يأتيهم في النهاية على هؤلاء المتبربرين، على أن المسلمين لم يعدموا وسط هذا الاضطهاد أناسا يعطفون على ديانتهم ويؤمنون بها ، فكان أول نصر حقيقي للمسلمين قد تحقق باعتناق بركة خان القبيلة الذهبية (654-666هـ /1256 -1267م) الديانة الإسلامية وخاصة بعد أن تبعه السواد الأعظم من رعيته ، بل يمكن القول أن كل رجال جيوشه كانوا من المسلمين ، وكان من اثر ذلك أن توطدت العلاقات بين بركة خان والظاهر بيبرس في مصر ، بل تحالف الفريقان ضد عدوهما المشترك الذي يتمثل في أسرة هولاكو في فارس. [2]

ومن المؤكد انه من أسوا الآثار التي أحدثها المغول في غرب آسيا . بعد القتل والدمار الذي أحدثوه في كل مكان نزلوا به . هو إشعال الفتنة بين المسلمين والمسيحيين بتحريضهم للأخيرين ضد المسلمين ، لان المسلمين لم ينسوا ما فعله المسيحيون بهم فترة الغزو المغولي ، ولهذا فبمجرد علم أهل دمشق بهزيمة المغول في عين جالوت فأنهم بادروا إلى دور النصارى فنهبوها وخربوها ، وهدموا الكنائس واحرقوها وقتلوا عددا من النصارى . [3]

وبقدر ما كان يصيب المسيحيين في بلاد المشرق من تدهور تدريجي ، نرى نفوذ المسلمين يقوى على مر الزمن حتى أن تكو دار احمد . كما رأينا . اعتنق الديانة الإسلامية وسعى إلى جذب رعاياه إلى هذا الدين الجديد ، وقد لجا إلى طريقة الترغيب في الدين دون الإكراه على الدخول قيه ، وخاصة عندما وجد كثيرا من

---

[1] المرجع نفسه ، ص 289.

[2] إكتمال إسماعيل ، الآثار الإجتماعية والاقتصادية للحملات المغولية على بلاد الشام ، 1400/1250م ، دار رسلان للطباعة والنشر ، 2017م ، الأردن ، ص 182.

[3] عادل هلال ، مرجع سابق ، ص 172.

المغول يتمسكون بدينهم ، ولكن بعد مقتله عاد المسيحيون إلى سابق عهدهم ، فاضطهدوا المسلمين وعذبوهم حتى أنهم أقصوهم عن مناصب الدولة . [1]

وظل المغول ينعمون بوثنيتهم ، كما استمر المسيحيون في اضطهادهم للمسلمين حتى تولى غازان محمود الحكم (694 –703 هـ /1295 –1304 م) فاعتنق الدين الاسلامى ، ولم يقف غازان موقفا سلبيا إزاء رعاياه كما فعل تكو دار احمد من قبل ، بل انه . كما رأينا . فرض هذه الديانة فرضا على جميع سكان بلاده وجعلها دين الدولة الرسمي ، ومنذ ذلك الوقت اخذ الإسلام ينتشر انتشارا سريعا في دولة ايلخانات المغول في فارس ، وضاع ما كان يؤمله المسيحيون من انتصار على الدين الاسلامي . [2]

الأثر الثقافي :

بعد أن حطم المغول الذين أتوا إلى غرب آسيا تلك القوى السياسية المختلفة التي حالت قبل الغزو دون اتصال طرفي القارة بعضها ببعض ، وكانوا . كما رأينا . قبل ان يتجهوا بجيوشهم نحو الغرب ، قد غزوا بلاد الصين واقتبسوا من حضارتها ما غير من طبيعتهم البدائية ثم حملوا ذلك كله إلى غرب آسيا بل إلى أوربا بعد أن حطموا تلك الحواجز التي حالت دون اتصال القارتين من قبل ، حقيقة كانت فترة الغزو المغولي على يد جنكيزخان وخلفائه بلاد غربي آسيا فترة عانى فيها المسلمون الام القتل والتعذيب والتخريب ، ولكن بعد أن هدأت الأحوال وانتهى الدور الحربي من تاريخ المغول ، جاءت فترة بدا المسلمون فيها يصلحون ما أفسده المغول ، كما بدا المغول يكفرون عن سيئاتهم فحاولوا إصلاح ما أفسدته أيديهم ، ثم استغل المسلمون هذه الروح الطيبة من جانب المغول لإصلاح ما تخرب من ديارهم في أثناء هذه الغزوات. [3]

وكما حمل المغول كنوز الصينيين إلى غرب آسيا ، كذلك نرى أن حضارة المسلمين وثقافتهم لا بد أن تكون قد انعكست على المغول أنفسهم ، فقد كانت

---

[1] Sir Percy Sykes: A History of Persia. London , 1963, P.61

[2] حافظ احمد حمدى ، مرجع سابق ، ص 291.

[3] المرجع نفسه ، ص 304

معلومات المغول عن البلاد الإسلامية محدودة ، فلم يعرفوا عنها إلا ما وصل إليهم عن طريق بعض التجار من المسلمين الذين لا بد أن يكونوا قد ذكروا الكثير عن خيراتها كما عرف جنكيزخان أن المسلمين يعيشون في مدن أقدم من حاضرته قراقورم ، ورأى بعينه ما جلبه التجار المسلمون إلى بلاده من أسلحة معدنية وملابس وعاج ومطاط ، فلا عجب أن يتطلع المغول إلى غزو مدن المسلمين العامرة ، فلما غزوها حملوا إلى بلادهم ما وجدوه من الكنوز .

وإذا انتقلنا إلى الحيز الذي كانت الدولة العباسية تسيطر علبه ، وجدنا أن هذا الحيز قد تأثر تأثرا كبيرا بعد الغزو المغولي ، إذ قضى المغول على الآثار الإسلامية التي تفنن الفنانون المسلمون في إقامتها ، كما افني المغول زهرة شباب المسلمين وخيرة عقول شيوخهم ، وذهب بذهاب هؤلاء خيرة علمائهم وفقهائهم ، اما العلماء الذين نجوا من القتل فقد فروا إلى بلاد الهند واسيا الصغرى وغيرها، فحرموا بلاد فارس والعراق من انتاجهم العلمى ، وقد اضمحل العالم الاسلامى الشرقي اضمحلالا لم يره المسلمون من قبل ، وازدادت حالته سوءا بعد سقوط حاضرة الخلافة العباسية في سنة 656 هـ /1258 م ، فانتقل النشاط الثقافي والسياسي إلى مصر التي أصبحت قبلة أنظار المسلمين ، خاصة بعد أن أحيا فيها الظاهر بيبرس الخلافة العباسية من جديد .[1]

على أن اختلاط المغول بالمسلمين في الشرق قد أدى بطبيعة الحال إلى خلق جيل جديد من العرب والمغول ، ونتج عن هذا الخليط تجديد في الحياة العقلية ، فظهرت طائفة من العلماء الذين يختلفون في تفكيرهم عن تلك الطائفة التي عرفها العالم الاسلامى قبل تلك الغزوات ، وقد نتج عن هذا تغيير في الحياة الثقافية الإسلامية بوجه عام ، وخاصة بعد أن طبع المغول المسلمين في هذه البلاد بطابعهم الخاص وثقافتهم الخاصة التي حملوها معهم من موطنهم الاصلى ، ويمكن الفول أن الغزو المغولي قد اضعف المكانة الأدبية التي امتازت بها بلاد ما وراء النهر ، كما وضع حدا للحياة العقلية في تلك البلاد بوجه خاص وفى أواسط آسيا بوجه عام، ويرجع السبب في ذلك إلى أن المغول قتلوا أهل البلاد الأصليين الذين كانوا نواة

---

[1] حافظ احمد حمدى ، مرجع سابق ، ص 307.

الحضارة الإسلامية ثم تركوا البلاد في يد شرذمة من الأتراك لا يعرفون طعما للحضارة لقد كان للهجرات أسواء الأثر في مسيرة التقدم الحضاري للمجتمع فخلو أي منطقة من علمائها ومفكريها يجعل الجهل والتخلف يسودها. [1]

كذلك نرى أن اللغة العربية قد فقدت تلك المكانة التي تمتعت بها قبل الغزو في ميادين الثقافة العلمية والأدبية وخاصة بعد سقوط بغداد ، وكاد أن يصيبها من الضياع والنسيان ما أصاب مؤلفاتها ، لولا أن حفظت مدارس الشام والقاهرة ما تبقى منها ، وما يقال عن اللغة العربية يقال أيضا عن اللغة الفارسية . [2]

بمكن أن نميز بين اتجاهين أساسين ، اتجاه لا يرى اثر المغول إلا أثرا مدمرا لقوة دفع الحضارة الإسلامية ، حيث انهي الحضارة الإسلامية العظمى للقرون الأولى، أما الاتجاه الآخر فهو يعترف بأوجه عديدة في هذا التأثير ، ولقد قال بالاتجاه الأول الذي يبالغ في تقدير إضرار المغول المستشرقين الأوربيين، ولقد نقل عنهم عدد من المؤرخين من دول الشرق الأوسط ، وذلك لتفسير عصرهم الذهبي بالمقارنة بتخلفهم الحالي ومن نماذج مقولات هذا الاتجاه ما يلي : من ناحية ان المغول وان لم يعتنقوا الديانة المسيحية إلا أنهم ساعدوا الغرب المسيحي ولو بطريقة غير مباشرة ، لان غزوهم للعالم الاسلامى لم يجعل حضارة الشرق تضئ العالم كما كان وضعها من قبل ، ومن ناحية أخرى أن الإسلام لم ينهض أبدا من هذه المأساة النى دمرت كل ما بناه المسلمين في وسط وغرب آسيا خلال ستة قرون ، ومن ثم فان غزو المغول هو المسئول عن التدهور النسبي للحضارة الإسلامية ، بالمقارنة بحضارة أوربا المسيحية ، وذلك بسبب انهيار الرخاء الاقتصادي وبسبب الجمود وشلل الجهد الفكري حيث أن الجهود الفكرية للمسلمين بعده تركزت على إعادة الاستكشاف والحفاظ على ما تبقى ومن ثم تقيد الإبداع. [3]

ومن اثر العلاقات بين المماليك والمغول الايلخانين في المجال الثقافي حيث كانت بلاد الشام ميدان الحرب ضد المغول الذين كانوا يخربون معالم الحضارة في

---

[1] إكتمال إسماعيل ، مرجع سابق ، ص 128.

[2] صالح القزاز ، مرجع سابق ، ص 114.

[3] نادية محمود ، مرجع سابق ، ص 21.

كل هجمة من هجماتهم ، فقد حمل علماء الشام مؤلفاتهم وكتبهم القيمة واتجهوا إلي مصر فغدت مؤئل العلم ومحط طلابه ومقصد الأدباء والمفكرين ، كما عني المماليك لبناء المدارس وإنشاء المكتبات ورعاية طلاب العلم . فكان لذلك أثرا كبيرا من الناحية الثقافية.[1]

على أن الغزو المغولي لم يكن كله غرما على المسلمين ، فانه فضلا عما سبق ذكره من اتصال الشرق والغرب وما ترتب عليه من أثار أدبية ومادية ، نرى أن المسلمين بوجه خاص قد تأثروا بهؤلاء الغزاة وأفادوا مما جاءهم به المغول من بلاد المشرق الأقصى ، كنظم الحكم الصينية التي اقتبسها المغول وطبقوها في البلاد الإسلامية ، كذلك نجد كتب التاريخ الخاصة التي سردت أحداث هذا القصر أو تناولت بعض جوانبه قد أثرت المكتبة العربية بما قدمته من معلومات كما يتجلى أثر ذلك أيضاً في النصوص الأدبية الكثيرة التي واكبت الغزو المغولي وصورت أحداثه والعلاقات السياسية والإجتماعية بين المغول والمسلميين ، كذلك نرى أن بلاد الشرق الاسلامى قد اكتظت بالموظفين والمترجمين وغيرهم من رجال الشرق الأقصى الذين صحبوا المغول إلى ملكهم الجديد ، ولا بد أن يكونوا قد اثروا ، بطريق مباشر أو غير مباشر في الحياة العقلية في البلاد التي نزحوا إليها وأقاموا بها .[2]

وقد كان للغزو المغولي إنعكاسات سيئة على المجتمعات حيث سادت الفوضى والنزاعات بين أعيان السلطة وأهالي المناطق المغزوة.

وإذا كان الغزو المغولي قد نتج عنه ذلك الركود العلمي والادبى ، فقد كان ذلك ركودا مؤقتا ، إذ أن النشاط في هذين الميدانين لم يلبث أن عاد بعد أن بدا المغول يستقرون في البلاد التي فتحوها ، ثم أن المغول بعد أن استقروا في البلاد الإسلامية ، اخذوا يتقبلون أراء المسلمين وأفكارهم ورغبوا تدريجيا في اعتناق المدنية الإسلامية والفارسية ، فبرز الكثيرون من العلماء والأدباء يفضل تشجيع المغول لهم ، ومن أشهر هؤلاء في عهد هولاكو نصير الدين الطوسي الذي امتاز بأبحاثه في علم الفلك ، فشجعه المغول وأسسوا له مرصدا كبيرا في مدينة مراغة سمى باسم (المرصد

---

[1] صبحى عبد المنعم ، مرجع سابق ، ص 83.

[2] حافظ احمد حمدى ، مرجع سابق ، ص 308.

الايلخانى). وجعل هناك خزانة ملأها من الكتب التي نهبت من بغداد والشام والجزيرة وقد تجمع فيها ما يزيد على أربعمائة ألف كتاب.[1]

ومن الآثار الهامة التي نتجت عن العلاقات بين المماليك والمغول في البلاد الإسلامية ، انتشار اللغة الفارسية خارج بلاد فارس ، ويرجع ذلك إلى تشتيت المغول العلماء والأدباء والشعراء وإحراق المكتبات وتخريب المدارس والقضاء على الأثار الإسلامية ، مما أدى إلى هجرتهم إلى بلاد الهند واسيا الصغرى فنشروا بهذه الوسيلة اللغة الفارسية في هذه البلاد ، وكان من نتائج الغزو المغولي أيضا دخول كثير من الألفاظ المغولية في اللغة الفارسية ، فقد بقى بعضها في هذه اللغة إلى الآن ، كما أن هناك ألفاظ كثيرة مبثوثة في كتب التاريخ والآداب والتراجم وهي ذات أصول مغولية أو فارسية أو تركية. وبذلك تمت الخطوة النهائية في سبيل تفوق اللغة الفارسية عن اللغة العربية. [2]

وكان تأثير المغول في الفنون الإسلامية عظيما ، فتأثر الفن الاسلامى بالفن الصيني ، وظهر ذلك واضحا جليا في غالبية الفنون الإسلامية على أن العلاقة الفنية بين الصين وبلاد الشرق الأدنى لم تنشا بعد الغزو المغولي ، وإنما ازدادت زيادة محسوسة بعد الغزو المغولي ، ولم يكن المغول في بداية أمرهم بالقوم الذين يستطيعون احترام المدنية بوجه عام والفنون بوجه خاص ، ولذلك حدث مارايناه من تخريب في العمائر الإسلامية وتحطيم التحف الأثرية التي لا تقدر بثمن ، فلما استقروا في البلاد الإسلامية استطاعوا أن يفهموا تدريجيا كنه الحضارات والمدنيات التي وجدوها هناك ، فكان ذلك مدعاة لان يولوا الفنون والآداب عنايتهم ورعايتهم ، وقد ظهر اثر ذلك واضحا بعد أن استقروا في البلاد الإسلامية ، وأسسوا تلك الأسرة التي عرفت باسم ايلخانات المغول في فارس التي تطبع أفرادها بالطابع الاسلامي. [3]

كذلك ظهر اثر المغول في النقوش على الصناعات الخزفية ، على الرغم من أن الغزو المغولي قضى على اكبر مراكز الصناعة الخزفية في إيران بتدمير مدينتي

---

[1] إكتمال إسماعيل ، مرجع سابق ، ص 154.

[2] المرجع نفسه ، ص 311.

[3] حافظ أحمد حمدي ، مرجع سابق ، ص 312 .

الري سنة 617هـ/1220م ، وقاشان سنة 621هـ /1224م ، ولكن يرجح أن صناعة الخزف لم تتأثر بذلك إلى حد كبير إلا في كمية الإنتاج ، وخير دليل على ذلك أن بعض التحف الخزفية الجميلة عليها تواريخ تثبت أنها صنعت بعد الغزو المغولي بزمن غير طويل . [1]

الأثر الاجتماعي :

ومن اثأر الغزو المغولي علي المشرق الإسلامي أن هذه الغزوات لها وقعا تناول العالم علي سعته ، فبالإضافة إلي القتل المباشر كانت هناك أمراض ومجاعات، دائما ما كانت تحدث في أعقاب غزوات الجيوش المغولية ، ولقد تسببت حملات المغول في وجود عامل مميت بصورة اكبر في الساحة ، فالأمراض الوبائية التي مكثت طويلا في منطقة واحدة حملتها الجيوش المغولية في تحركها السريع إلي أماكن لا تتوفر لساكنيها مقاومة تلك الأوبئة.

أن الغزوات المغولية وما ترتب عليها من قواعد صارمة في الاراضى الإسلامية تركت تراثا من المدن المبعثرة وتناقصا في عدد السكان وتكنولوجيا رأسا على عقب الأمر الذي قطع أساس الازدهار والنجاح الذي دام في الشرق الاسلامى لخمسة ألاف سنة ، وكان من أثر العلاقات بين المماليك والمغول أن عم الرعب والخوف في أرجاء بلاد الشام فهرب الناس بإتجاه الأراضي المصرية وكانت المماليك بمصر يستقبلون موجات من النازحين عن حدوث الهجوم المغولي أو حتى عند سماع أخبار أقترابه منها. [2]

وقد كان للغزو المغولي اثر ايجابي في الثقافة العربية الإسلامية ويتمثل ذلك في كتب التاريخ الخاصة التي سردت أحداث هذا الغزو ، أو تناولت بعض جوانبه ، وأثرت المكتبة العربية بما قدمته من معلومات ، هذا فضلا عما خصصته كتب التاريخ العام والتراجم للحديث عن ذلك الغزو وقادته ومجرياته ، ويتجلى الأثر الايجابي في النصوص الأدبية الكثيرة التي واكبت الغزو المغولي وصورت أحداثه ، والعلاقات السياسية والاجتماعية بين المغول والمسلمين ، اضف إلى ذلك أن الغزو

---

[1] المرجع نفسه، ص 313.

[2] أكتمال إسماعيل ، مرجع سابق ، ص 115.

المغولي اثري اللغة العربية بألفاظ كثيرة مبثوثة في كتب التاريخ والأدب والتراجم ، وهى ذات أصول مغولية أو فارسية أو تركية ، والجامع بينها أن المغول كانوا ينطقون بها ودخلت اللغة العربية جراء غزوهم .

الأثر الاقتصادي :

إذا كانت كارثة الغزو المغولي قد أدت في المشرق الإسلامي إلى مزيد من التشتت والإنقسام على صعيد البنى السياسية فإن أثارها الدينية والثقافية ربما كانت أكبر فداحة وأعظم خطراً.

أصيبت الحياة الاقتصادية على اختلاف فروعها بالشلل التام ، بحكم حالة القلق التي كان يعانى منها الناس طيلة فترة الغزو المغولي ، الذي نجمت منه مجاعة شملت وادي الرافدين وسوريا وبلاد الروم ، ولم يصب المغول الجوع ، لأنهم كانوا يعمدون إلى إحراق الحبوب والغلال التي تزيد عن حاجتهم ، وكان حدوث هذه المجاعة امراً طبيعيا في العراق ، إذا تذكرنا الظروف التي سبقت سقوط بغداد ، من هجرة الناس.

أدى سوء العلاقات بين المغول والمماليك إلى إنعدام الأمن وبالتالي قطع الطرق التجارية وتدهور التجارة بين الدولتين ولا ننسى أن الأمر إزداد سواءاً عندما قام المماليك بتخريب ميناء إياس أحد منافذ طريق الحرير إلى أوربا في خليج الإسكندرونة في سنة 1321م لكونه يخدم تجارة المغول. وقد كانت هذه العلاقات سبباً في إضعاف التجارة مع مصر والشام والحجاز بسبب ضياع الأمن وقطع الطريق على التجار الذين ينقلون البضائع الشرقية الواصلة إلى البصرة مع قوافل الحج إلى الحجاز. فأدى ذلك إلى إزدهار مناطق أخرى على حساب مدن الشام وإنقطاع ورود السلع الضرورية والكمالية إلى البلاد إلى جانب التأثير على الصادرات ولم يستطع التجار نقلها إلى خارج البلاد. [1]

من الثابت أن حركة التجارة في القارة الأسيوية تأثرت إلى حد كبير بعد غزوات جنكيزخان ، ويمكن أن يقال أنها نشطت عما كانت عليه من قبل ، كذلك يمكن القول ان غزو المغول غرب آسيا قرب القارة الأوربية من القارة الأسيوية ،

---

[1] إكتمال إسماعيل ، مرجع سابق ، ص 351.

وسهل بذلك اتصال الشرق بالغرب ، وإذا علمنا أن الحملات الحربية يتبعها عادة فترة هدوء تمتزج فيها حضارة كل من الغالب والمغلوب ، وتؤثر أحداهما في الأخرى وتتأثر بها ، أدركنا مدى ما حمله المغول الذين تأثروا من قبل بحضارة الصينيين ، إلى البلاد الإسلامية من حضارة الشرق الأقصى ، كما نستطيع أن نتصور مدى ما حمله هؤلاء المغول من حضارة المسلمين إلى بلادهم ، وخاصة يعد أن صحبوا معهم ذلك العدد الكبير من مهرة الصناع والفنانين المسلمين ، الذين أسروهم في البلاد الإسلامية. [1]

وقد ظهر المغول على المسرح السياسي . كما ذكرنا . ظهورا بينا في مستهل القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ، بعد أن توحدت القبائل المغولية تحت قيادة زعيم واحد وأصبحوا يسيطرون على شرق آسيا ، واهم من ذلك اتجهوا نحو الغرب واكتسحوا أواسط آسيا ، وقد صحب هذا الهجوم الحربي العنيف من ناحية المغول اضطراب وفوضى اجتماعية مؤقتة في الأقاليم الأسيوية بلا استثناء ، وتأثرت النواحي الاقتصادية في هذه القارة كما نخربت مبانيها وتفشت الأمراض والأوبئة نتيجة لقتل تلك الأعداد البشرية الغفيرة التي تركها المغول وراءهم بعد الغزو ، حتى إذا ما حلت أواخر القرن السابع من الهجرة / الثالث عشر الميلادي ترى الحياة تعود تدريجيا إلى سابق عهدها ، والمغول يحكمون الأقاليم الممتدة من شرق آسيا إلى أواسط أوربا، ومن جنوب روسيا حتى الخليج الفارسي ، وكان طبيعيا أن تضمحل الطرق التجارية البرية في زمن الغزو وفى الفترة التي تلت الغزو مباشرة ، وكان من اثر ذلك أن عظمت أهمية الطريق البحري بين غرب آسيا وشرقها بعد أن انعدمت المواصلات البرية. [2]

أفقد الغزو المغولي على بلاد الشام الكثير من عائداتها التجارية نتيجة لتحول طرق التجارة عنها ، إضافة إلى التقليل من أهمية محطاتها التجارية وحتى تخريبها في معظم الأحيان وكان ذلك على حساب تضخم ونمو مواني أخرى خارج البلاد كهرمز التي إحتكرت التجارة في الخليج العربي وأصبحت تنقل البضائع إلى تبريز

---

[1] حافظ احمد حمدى ، مرجع سابق ، ص 291.

[2] محمد صالح القزاز ، مرجع سابق ، ص 115.

بدلاً عن العراق إلى جانب التدهور الذي أصاب الطريق التجاري الذي كان يصل العراق بشمال سوريا إلى حدٍ كبير ، وأدى الغزو إلى تحويل التجار نحو البحر الأحمر ونشطت التجارة عبر هذا البحر ومصر بعد أن إنعدم الأمن بسبب حروب المغول بطرق وسط آسيا وغربها. [1]

والمهم أن الغزو المغولي قد أدى إلى إيجاد طريقين أساسيين للتجارة : الطريق الأول يسير من البحر الأسود ويخترق شمال تركستان إلى أواسط آسيا ثم إلى الصين ، إما عن طريق السهول الشمالية المعروفة باسم سهول زنجاريا ، وإما عن طريق حوض نهر التاريم جنوبي جبال نيان شان ، وإما عن الطريق الذي يمر بمدينة خوتان في الجنوب ، أما الطريق الثاني فهو طريق بحري في نفس الوقت يسير إما من طرابيزون أو خليج الاسكندرونة إلى تبريز ثم إلى هرمز على الخليج الفارسي ، ثم عن طريق المحيط الهندي إلى بلاد الهند والشرق الأقصى . [2]

وهكذا نرى إن الغزو المغولى قد ادى بعد إن هدات العاصفة الحربية إلى اتساع نشاط التجارة بين القارتين الاوربية والاسيوية ، واصبح اهالى جنوة والبندقية حلقة اتصال بين المغول المتعطشين للتجارة مع اوربا وبين الاوربيين الذين تنفسوا الصعداء بعد إن زالت العوامل السياسية التي عطلت سير التجارة قبل إن يسيطر المغول على القارة الاسيوية .

وكان من اثر الغزو المغولي أن بدا اهالى غرب آسيا يكثرون من ترددهم على شرقها ، ونجحوا في تكوين جاليات وعصبيات لهم فيها ، وشجعهم ذلك على استيطان هذه الجهات ، وقد زادت الهجرة من فارس إلى بلاد الصين منذ حكم هولاكو وأسرته في غرب آسيا . [3]

ومن الآثار التي ترتبت على العلاقات بين المماليك والمغول على العالم الاسلامى انقطاع وادي الفرات عن خطوط المواصلات عبر الاراضى المتوسطية وذلك بسبب النزاع المملوكي المغولي ، فلم تعد أراضى هذا الوادي نمثل ممرا

---

[1] إكتمال إسماعيل ، مرجع سابق ، ص 353.

[2] المرجع نفسه ، ص 298–299.

[3] حافظ أحمد حمدي ، مرجع سابق ، ص 299.

للتجارة بين الشرق والغرب حيث تحولت هذه التجارة إلى طريقين آخرين هي الطريق الشمالي عبر الأناضول وفارس ، وقد سيطر عليه المغول ، والجنوبى عبر مصر والبحر الأحمر وقد سيطر عليه المماليك ، وبذا وقع العراق ولمدة قرون فريسة الإهمال والجمود بعد أن كان مركز وحاضرة الخلافة العباسية فهو لم يعد إلا مجرد تابع في فارس الجديدة تحت نفوذ المغول. (1)

وحقيقة أن الآثار المباشرة للعلاقات بين المماليك والمغول على المشرق العربي الاسلامى قد تركزت في العراق الذي فقد دوره المركزي ، ولم يعد ألا تابع للدولة الايلخانية التي كان مركزها فارس في حين الدمار الذي أحاط الاراضى المغزوة كان مبالغا فيه وانتهى بعد عمليات الغزو حيث بدأت فترة جديدة من التطور الاقتصادي والثقافى.

هذا وتجدر الإشارة إلى انه إذا كان الاتجاه الذي يبالغ في الأضرار السلبية قد سيطر لفترة ، إلا أن تحليل المستشرق الروسي ، بارتولد في كتاب تاريخ الحضارة الإسلامية ، كان البداية لظهور وتطور أسانيد الاتجاه الثاني ، فيرى بار تولد انه ولعديد من الاعتبارات من الخطأ القول بان (الغزو المغولي) للبلاد الإسلامية كان أهم أسباب تدهورها ، أو أن نتائجه كانت شديدة السوء ، ومن أهم هذه الاعتبارات الجهود التي بذلها المغول بعد إسلامهم واستقرارهم لإنهاض حياة المدن وترقية الصناعة والتجارة وإنشاء مدن جديدة وجمعها تحت سلطان أسرة واحدة مما ساعد على ازدهار لتجارة بين الصين والشرق الأدنى . (2)

وحقيقة أن المغول وثنيين كانوا أم مسلمين فهم أعداء الداء للمسلمين ويطربون للدماء ويهشون للدمار ويستخفهم أن يقتلوا وان يسلبوا وان ينتهكوا الحرمات لا يعرفون للحرب قانون ولكن رغم ذلك نعتقد أنهم لم يكونوا خطرا حقيقيا على العالم الاسلامى في المدى الطويل بسبب وثنيتهم وبداوتهم التي لم تكد لتصمد أمام الدين الاسلامى والحضارة العربية الاسلامية.

---

(1) نادية محمود مصطفى، خبرة العصر المملوكى من تصفية الوجود الصليبى الى بداية الهجمة الاوربية الثانية ، المعهد العلمى للفكر الاسلامى ، القاهرة 1996م ، ص 22.

(2) نادية محمود مصطفى ، مرجع سابق ، ص22.

وإذا اعتبرنا سقوط الخلافة العباسية ضررا من الإضرار التي لحقت بالعالم الاسلامى من جراء الغزو المغولي ، فان سقوط بغداد لم يكن إلا تحصيل حاصل وذلك لان التدهور كان قد أصابها قبل فترة كافية من الهجمة المغولية ، وعندما اعتنق المغول الإسلام أدى ذلك إلى اتساع رقعة الاراضى الإسلامية ، ومن ثم أصبح المغول باعتبارهم ثاني أضخم هجرة بعد الأتراك عنصر تقوية وليس عنصر إضعاف للقوة السياسية و العسكرية للإسلام ، ومن أهم الأسانيد التي تسوقها هذه الآراء للدلالة على صحة مبرراتها مقولة المؤرخ بن خلدون بان دور الأتراك في الإسلام كان برهانا على عناية الله بالمسلمين في وقت ضعفت فيه الخلافة وعجزت عن رد هجمات الأعداء . [1]

ومنذ بدء تحرك المغول من شرق آسيا وحتى بعد سقوط بغداد أضحى العامل المغولي من أهم المؤثرات الخارجية على مصير العالم الاسلامى لفترة ممتدة حتى بعد دخول المغول الإسلام ، ولقد تعرض الإسلام والحضارة الإسلامية لهجمات اقوي من الهجمة المغولية وها هي الحضارة الإسلامية محتفظة بعزتها وقوتها ، وربما كان ذلك من عناية الله بالمسلمين في وقت ضعفت فيه الخلافة العباسية وعجزت عن رد هجمات الأعداء حتى يفوقوا من الغفوة وينهضوا من ذلك السبات ليقووا صفوفهم ويوحدوا كلمتهم.

ومن الآثار على المشرق الاسلامى أن استقرت الحدود الفاصلة بين مغول إيران وبين المماليك وأضحت منطقة العراق منطقة معزولة أصابها الدمار وظلت آسيا الصغرى منطقة نفوذ مغولي ، وأضحت إيران وما يتبعها تؤلف نطاقا متميزا عن الدولة المملوكية في مصر والشام ، وبذا تم استقطاب العالم الاسلامى في الشرق حول مصر وسوريا في ظل المماليك الذين هيمنوا أيضا على الحجاز وحول المغول في إيران وغرب الأناضول وشرق أوربا ووسط آسيا . [2]

---

[1] المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

[2] كلود كاهان ، تاريخ العرب والشعوب الاسلامية منذ ظهور الاسلام وحتى بداية الامبراطورية العثمانية ، دار الحقيقة ، بيروت ، 1983م ، ص 263.

وبعبارة أخرى فانه في حين أضحى المماليك يمثلون القوة العسكرية الإسلامية الأساسية في هذه الفترة والعدو الاساسى لايلخانات فارس ، فقد العراق مركزه السابق في قيادة الإسلام عسكريا واقتصاديا ، وهو المركز الذي انتقل إلى القاهرة ثم إلى استانبول بعد ذلك . [1]

وبعبارة أخرى فان هذه الآثار تقترن بقوة بالاتجاه الذي يرى أن الآثار المباشرة للغزو المغولي على العالم الاسلامى قد تركزت في العراق الذي فقد دوره المركزي ولم يعد إلا تابع للدولة الايلخانية التي كان مركزها فارس ، في حين أن الدمار الذي أحاط بالا راضى المغزوة كان مبالغا فيه ، وانتهى بعد عمليات الغزو حيث بدأت فترة جديدة من التطور الاقتصادي والثقافي. [2]

أما النتائج العامة لغزوات المغول في فارس والعراق والشام فكانت سيئة جدا على العالم الاسلامى ، وتوقعوا نهاية اجل الدولة الإسلامية بعد ما أحسوا أنهم في بلاد الشام أقلية مغلوبة على أمرها .

لقد خلقت العلاقات بين المماليك والمغول وتلك الهجمة المغولية فجوة في تاريخ الشرق الاسلامى الذي استسلم للغزاة الجدد باستثناء مصر حيث تحقق على المماليك اجل وأعظم انجازات ذلك العصر من طرد الصليبيين تماما من الشرق وصد الاجتياح المغولي الذي لم يقف طريقه اى حاكم في اى بقعة من اقاصى الشرق وحتى حدود مصر ، وفى داخل أوربا إلى القارة الآسيوية بكاملها على وجه التقريب ، وأجزاء من شرق أوربا واستحقوا بذلك جميل الأمة الإسلامية والعربية وعرفانها بل و الأمة الأوربية ، لقد أنقذ المماليك الحضارة الإسلامية والعربية من الدمار ، بلاد الشام من المغول والصليبيين جميعا استقرت الأمور نسبيا للمماليك في بلاد الشام ، كما أن تلك البلاد دخلت دورا جديدا في تاريخها يتناسب وأهميتها الجغرافية والسياسية والاقتصادية من ناحية ، فضلا عن أهميتها بوصفها إقليما هاما من الإقليمين الكبيرين اللذين تألفت منهما دولة المماليك من ناحية أخرى .

---

[1] المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

[2] المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

وعلى كل حال فالمسلمون لم ينصاعوا للحكم المغولي بسهولة ولم يرضوا عنه بسبب وثنية المغول التي لا تتيح لهم موالاتهم ، فضلا عن التفاوت الحضاري بين الطرفين وانعكاس ذلك على سلوك كل منهما ، وكثيرا ما كانت الانقاقيات والرسائل بين المماليك والمغول وان كانت تحقق هدفا استراتيجيا وهو إحكام الحصار حول المغول حتى يمكن أبعاد خطرهم ، هو هدف يكمن في صميم حماية الإسلام ، ومن ثم فان هذه الاتفاقيات وتلك المسائل تخدم أهداف الجهاد والدفاع عن الإسلام بالأساليب التي تتفق ومقتضيات الفترة التي عقدت في ظلها ، كما أنها كانت سبيلا مباشرا لتدعيم عناصر القوة العسكرية المملوكية اللازمة لدرء الخطر المغولي الوثني.

ولا يفوتني أن اذكر ما أورده صالح القزاز ، حيث قال : أرى من الواجب التعليق على ما رواه براون من تأثير الغزو المغولي فهو يرى : (انه مهما قيل من غارة المغول ، وأنها كانت كارثة كبرى أصابت صميم الحياة ، وأنها جنت على العلوم والمعارف ، وخاصة الحضارة العربية التي استطاعت أن تحتفظ بكيانها سليما في إيران طيلة القرون الستة التي تلت الفتح العربي لهذه البلاد ، فان هذه الغارة كانت مجلية لبعض عناصر الخير ، برغم ماعرف عنها من شدة وغلظة، وربما كان من بعض فضائلها أنها كانت سببا في المزج بين الشعوب المختلفة المتباعدة ، مما نتج عنه فيما بعد تجديد العقليات التي طال ركودها وخمولها). [1]

يرى القزاز أن الدراسة الهادئة الواعية لا تقودنا إلى هذا التجديد الحضاري ، وقد يكون رائه هذا مستمدا من واقع أوربا التي كانت تعيش في حالة جهل ، فبزغت حضارتها على أنقاض حضارتنا ، فيكون ذلك صحيحا .

أما بالنسبة للحضارة العربية الإسلامية فلا أرى رأيه في ذلك للأسباب التالية :

أولا : إن هذا التجديد المزعوم قام على إبادة أكثر من تسعة أعشار سكان البلاد ولم يبق إلا اقل من العشر وارى أن القتل لا يمكن أن يكون أساسا للإصلاح بكل أنواعه.

---

[1] أدوارد براون ، تاريخ الادب فى ايران من الفردوس إلى سعدي ، تعريب إبراهيم أمين ، الطبعة الأولى ، مكتبة الثقافة ، القاهرة ، 1424هـ / 2004م ، ج 2 ، ص 563.

ثانيا : إن المغول لم يكن لديهم حضارة لتكون بديلا للحضارة العربية الإسلامية ، بل أنهم اعتمدوا عليها وهبطوا بمفاهيمها وقيمها ، الأمر الذي فرض عليها حالة من الركود والجمود لم تتخلص منه حتى مطلع هذا القرن .

ثالثا : إن مراكز الحضارة العربية الإسلامية كانت في حالة حيوية ونشاط ولم تكن جامدة ، وقد فقدت حيويتها بهد هذا الغزو.

رابعا : لم يكن الشعب العربي ، أو شعوب العالم الاسلامى ، يعيشون في عزلة عن العالم الخارجي لكي يصبح من فضائل المغول المزج بين الشعوب المتباعدة كما يقول، فقد كان العالم الاسلامى يضم شعوبا عديدة جمعتهم وحدة الإيمان ، منهم الترك الذين يمثلون متحضرو المغول بحكم وحدة الأصل ، ولم تكن هذه الشعوب منعزلة عن بعضها ، فقد فرض عليها طلب العلم التنقل من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، كما دفعتهم التجارة إلى النتقل حتى داخل الصين والأقاليم النائية الأخرى .

خامسا : لم يضف المغول إلى الحضارة شيئا، القول في مدرسة مراغة للرصد، فإنها تمثل امتدادا للوعي الحضاري الاسلامى ، وفضل هولاكو انه سهل أو شجع النصر الطوسي للعمل عل ازدهارها لما يعتقدنه من علم النجوم .

سادسا : كانت هذه الحرب سببا لوقوع البلاد الإسلامية وخاصة العربية تحت الحكم الاجنبى مما افقدها حيويتها وقدرتها على العمل واستمر ذلك حتى مطلع القرن العشرين حيث بدأت تتخلف من وطأته . [1]

---

[1] محمد صالح القزاز ، مرجع سابق ، ص 263

الخاتمة

تناولت الدراسة موضوعاً مهماً يعد من الموضوعات المهمة التي تجذب الأنظار وهو العلاقات بين المماليك والمغول الايلخانين ولاشك أن حملات المغول الذين انطلقوا من منغوليا على مراكز الحضارة في آسيا الصغرى وبلاد الشام ، تمثل مرحلة هامة في تاريخ البشرية، ذلك إن هذا الشعب ومض في تاريخ العالم مثل شرارة حارقة مذهلة تنشر الرعب والفزع والذهول بين الشعوب التي قهرها ودمر بلادها. وشغلت حملاته على تلك المناطق حيزاً هاما في تاريخ القرنين السابع والثامن الهجريين / الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين.

والمعروف أن غارات البدو علي مراكز الحضارة هو أمر مألوف، إلا أن سرعة تنفيذ هذه الغارات ضد تلك الأقطار التي بلغت درجة عالية في السلم الحضاري تعد ظاهرة ملفتة.

إن سيطرة المغول على تلك الأراضي الواسعة وما تبع ذلك من ضروب القسوة البالغة التي أدت إلى حدوث كوارث متنوعة مثل انقراض دول، وقتل آلاف عديدة من السكان، وتخريب أمهات المدن بما يشبه الأساطير، أنما جرت وفق خطة موضوعة، كما يثير هذا الشعب من الخوف والرعب ما شل حركة الذين يفكرون في التعرض لهجومه، ورأي أن ما يحدث بالمدن من خراب ودمار يكفل لجيوشه الأمن والسلامة، ويجنبه تمرد الذين ينجون من القتل. وكلما حاز نجاحاً اشتد تعطشه لسفك الدماء ولم يظهر شيئاً من الرحمة بالبلاد والعباد الذين خضعوا له وهو أمر سهل يسير من وجهة نظره ذلك أن الحرب عنده أنما تستبيح كل شيء في سبيل النصر.

اكتسح المغول آسيا الصغرى بجيوشهم لأنها كانت متحدة متآخية يجمع بينهم شعور واحد بخطورة ما تحمل من تبعات، وما بها من مسئوليات. وعلى الرغم من تخلفها وتأخرها إلا أنها صرعت شعوباً ذات حضارة قديمة، وأذعن لبطشها أهل هذه الحضارات، ما استطاعت تلك القبائل المتخلفة أن تنال من هذه الشعوب المتحضرة إلا بفضل وحدتهم، وانقسام هؤلاء انقساماً جرهم إليه الترف الضال والخلاف القاتل. فكان ذلك لهجوم أشرس هجوم حضاري تتعرض له أمة من الأمم. ولقد كان الهدف من هذا الهجوم القضاء على الإسلام كدين وحضارة، ولاستئصال الدين الإسلامي من

جذوره، وتدمير الحضارة الإسلامية المزدهرة، وتدمير بلاد المسلمين والقضاء على المسلمين كمجتمعات وأفراد.

يعود عجز المسلمين في شرقي البلاد الإسلامية عن التصدي للمغول ، لعنف الهجوم المغولي وقسوته وتفرق المسلمين وتخاذلهم وعدم وجود قيادة موحدة تضم شملهم، فأصبحت بلادهم خراباً يبابا، وقتل وشرد أهلها ودمرت معالم حضاراتهم ولم تعد الحياة إلى تلك المناطق إلا تدريجيا وبعد فترة طويلة نسبية من الزمن . ولما عادت الحياة ثانية إلى تلك البقاع كانت ضعيفة رخوة ، وفقدت تلك الحيوية والإبداع السابقين الذين أنتجا الحضارة الإسلامية.

وقد أثبت المغول سواء أن كانوا وثنين كهولاكو وجنكيز خان أو مسلمين كغازان أنهم أعداء الداء للحضارة الإسلامية والعمران الجنس البشري ، وان أفعال غازان – كما رأينا – في بلاد الشام شبيهه بأعمال هولاكو بل تفوقها وحشية ، لذلك لم يؤثر تحول المغول إلي الإسلام تأثيرا يذكر في تغيير نفسية الفاتحين أو عقليتهم وظلوا علي عدائهم القديم في الحضارة والإنسانية . ولم يكن للدين الإسلامي وهذه الحضارة إلا أثر سلبي في نفوس هؤلاء الهمج من المغول بل اثبتوا أنهم أعداء لكل القيم الإنسانية.

ومما تقدم نجد أن أول من اهتدى من ايلخانات المغول إلى الإسلام وأعلن ذلك هو السلطان احمد بن هولاكو الذي أعلن ذلك في منشور أصدره في سنة 680م ووجهه إلى أهل بغداد خاصة ، ولكن ذلك لم يبدل نفسية ولا سلوك من أتى بعده من سلاطين المغول بل ظلوا يتطاولون على بلاد الشام ومصر ويحاولون التوسع في تلك البلاد وكيف أن أرغون بن اباقا قد اتبع سياسة الضغط والظلم والنيل من المسلمين نسبيا لتعود سياسة العداء إلى سابق عهدها وان كانت الجبهات العسكرية هادئة . وقد أرسل المغولي اولجايتو إلي السلطان الاشرف خليل رسالة يطلب منه أن يعيد له حلب لأنها مما فتحه هولاكو وهو يريد الإقامة بها .

وكذلك غازان فقد أعلن إسلامه ومع ذلك فعل بالمسلمين في بلادهم ما لم يفعله إلا إسلافه الوثنيون فقد هاجم – كما مر علينا بلاد الشام واجتاحها ووصل دمشق . وتلك المعارك التي خاضها مع المماليك في مجمع المروج وعرض وشقحب.

فكان لكل ذلك أثاره علي العالم الإسلامي . وكذلك اولجايتو فقد سار على نهج أسلافه من حيث العداء للمماليك فكان بينهما حصار الرحبة ومعركة ماردين .

وأوضحت الدراسة ان أبا سعيد قد انتهج سياسة مخالفة لسياسة أبيه حتى يضمن الاستقرار والأمن لدولته وحتى يوطد أقدامه في حكم البلاد ، كما أوضحت أن معاهدة الصلح في زمن أبى سعيد كان لها أثرها الواضح في اجتذاب أعداد كبيرة من مغول إيران إلى مصر والإقامة بها ، وقد شهدت العلاقات بين المماليك والمغول في عهد أبى سعيد فترة زاهرة لم تحدث من قبل بدأت فيها مظاهر الود والوئام واضحة للعيان نتيجة الوفاق السياسي والمذهبي بينهما .

وكما رأينا إن العلاقات بين مغول القفجاق دولة المماليك كانت قائمة على اسس متينة وصلات وثيقة بين الدولتين وفى مقدمتها العقيدة الدينية ، وظلت العلاقات المملوكية المغولية قائمة على الود والمسالمة بعد الصلح الذى عقد بين المماليك والمغول في الشرق ، ليكونوا عونا لبعض على اعدائهم من بنى هولاكو في فارس ، اضف إلى هذا انه كان لا بد من قيام علاقات سلمية مع المغول في تلك الفترة ، اذ كان على المماليك مواجهة الخطر الصليبى الذى عاد إلى الظهور من جديد .

إتسمت العلاقة بين المماليك ومغول فارس بالطابع العدوانى ولعل ذلك يرجع إلى الخلاف الذى كان بين مغول فارس ومغول القفجاق حول الاراضى وحق كل منهما في تزعم العالم المغولى ، ومن ثم كان لا بد من حدوث الشقاق والخلاف بين دولتى المغول في الشرق والشمال وبحث كل منهما عن حليف ، فكان الصليبيين في تحالف مع مغول الشرق والمماليك حلفاء لمغول الشمال .

أوضحت الدراسة أن الصراع بين الدولتين الايلخانية في بلاد فارس وتوابعها والمملوكية في مصر وبلاد الشام أدى إلى دخول أطراف أخرى في هذا النزاع حتى أصبح صراعاً عالمياً بين حلفين كبيرين ، تكون الحلف الأول من المماليك ومغول القبيلة الذهبية بعد إسلام زعمائها ، والحلف الآخر ضم كل من دولة إيلخانات فارس ومملكة أرمينيا الصغرى وبقايا الصليبيين في سواحل الشام الشمالية وتم الإتصال

إيضاً والتنسيق مع إمبراطور الدولة البيزنطية ميخائيل الثامن وملوك إنجلترا وفرنسا والبابوات في روما.

النتائج

من خلال دراستي للعلاقات بين المماليك والمغول الإيلخانيين وأثرها على العالم الإسلامي توصلت إلى النتائج الآتية:

أولاً: إن الإنتصار الذي حققه المماليك في عين جالوت وما أعقبه من طرد المغول نهائياً من بلاد الشام يعتبر من الحوادث الحاسمة ليس في تاريخ الشام ومصر فحسب ولا في تاريخ الأمم الإسلامية وإنما في تاريخ العالم بأثره.

ثانياً: إتبع المماليك في جهادهم أساليب متنوعة دلت على خبرتهم ودرايتهم بفنون القتال مع مراعاتهم إلى أختيار الزمان والمكان المناسبين للإشتباك مع عدوهم ، وتحصين بعض المناطق الهامة التي كانوا يخشون تعرضها لهجوم مغولي أو صليبي مفاجئ.

ثالثاً: إن إنتشار الإسلام بين ايلخانات المغول لم يوقف الصراع مع المماليك وساءت العلاقات المغولية المملوكية وإزدادت حدة العداء بين الطرفين.

رابعاً: لم يغير اعتناق النخانات المغول للإسلام من طبيعة الصراع بين المغول والمماليك إلا في حالات نادرة جداً.

خامساً: الصراعات الداخلية في الدولة المملوكية كانت عاملاً محفزاً للمغول للاستمرار في محاولاتهم للقضاء على دولة المماليك من بعد اسلامهم.

سادساً: العقيدة والأصل العرقي لم تؤثران في طبيعة الصراع بين المغول والمماليك حيث أن إسلام المغول لم يحد من إندفاعهم للسيطرة على مصر والشام ولا إنتماء بعض سلاطين المماليك للأصل المغولي خفف من عزيمة المماليك في مقاومة الغزو المغولي.

سابعاً: صور البحث جهود ملوك الأرمن والكرج في الكيد للإسلام والمسلميين وعلاقتهم بالايلخانيين بعد أن دخلوا في طاعة المغول لتنفيذ أوامرهم وإثبات إخلاصهم وأصبحوا أعواناً على أتم الإستعداد للمشاركة في كل زحف مغولي نحو بلاد الشام.

التوصيات

1. أوصي بالمزيد من الدراسات في مجال الإسلام وإنتشاره ونتائجه بجنوب شرق آسيا.
2. تعتبر حقبة تاريخ المغول والمماليك من أهم الحقب التاريخية والتي يجب أن تجد عناية الباحثين والمهتمين.
3. إثراء المكتبة التاريخية والعامة بالتنوع من الدراسات والبحوث التاريخية في مجال تاريخ الشرق الإسلامي.
4. الشروع في ترجمة مصادر التاريخ الإسلامي ولا سيما هذه الحقبة من اللغات التركية والفارسية والصينية إلى اللغة العربية حتى تتاح الفرصة للباحثين وتوجيه عنايتهم نحو هذه الموضوعات.
5. دراسة الأساليب الحربية والتطورات التي لحقت بها في العالم الإسلامي من خلال العلاقات بين الجانبين.
6. دراسة وضع الأقليات العرقية والدينية في الشام وتأثرها بالصراع.

وختاماً فإن الكمال لله وحده وأرجو أن أكون قد وفقت في تحقيق الأهداف التي قصدتها من هذا البحث. وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

قائمة المصادر والمراجع

القران الكريم

أولا: المصادر

1. أبو الحسن بن علي بن الأثير الكامل في التاريخ الجزء الثاني عشر دار صادر بيروت ، 1402 هـ / 1982م
2. أبو الفداء الحافظ بن كثير :البداية والنهاية – دار الحديث القاهرة الطبعة الخامسة تحقيق أحمد عبد الوهاب فتيح 1418هـ – 1998
3. أبو بكر عبد الله بن أبيك الدواداري كنز الدرر وجامع الغرر وهو الدر الفاخر في سيرة الملك الزاهر تحقيق هانس روبرت القاهرة 1960م
4. أحمد بن علي القلقشندى :صبح الاعشي في صناعة الإنشاء تحقق محمد حسن شمس الدين دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولي 1987م
5. أدوارد براون ، تاريخ الادب فى ايران من الفردوس إلى سعدي ، تعريب إبراهيم أمين ، الطبعة الأولى ، مكتبة الثقافة ، القاهرة ، 1424هـ / 2004م، ج 2 ، ص 563.
6. الإمام أبي محمد عبد الله بن اسعد بن علي بن سليمان اليافعي : مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان منشورات محمد علي بيضون دار الكتب العلمية بيروت الجزء الرابع الطبعة الأولي 1997م
7. اين اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق عباس إقبال ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1984م.
8. بدر الدين محمد العيني :عقد الجمال في تاريخ أهل الزمان ،تحقيق محمد أمين النهضة المصرية للكتاب القاهرة الجزء الأول 1985 – 1991م
9. بيبرس الدوا دار : التحفه المملوكية في الدولة التركية نشر عبد الحميد صالح حمدان ، الدار المصرية للكتب 1987 م

10. تقي الدين أحمد بن علي المقريزي : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك نشر محمد مصطفي زيادة الطبعة الثانية لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة 1970م
11. جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تقري بردي : النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة – دار الكتب المصرية القاهرة 1963م
12. المنهل الصافي المستوفي بعد الكافي الجزء الأول تقديم سعيد عبد الفتاح عاشور الهيئة المصرية العامة للكتاب 1984م
13. جمال الدين محمد بن سالم بن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب الجزء الثالث تحقيق جمال الشيال دار العلم القاهرة 1376هـ 1957م
14. الحافظ شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة منشورات محمد علي بيضون دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولي 1997م
15. الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر بن حبيب : تذكرة النبيه في ايام المنصور وبنيه مطبعة دار الكتب القاهرة 1976 م
16. رشيد فضل الله الهمذاني :جوامع التواريخ – تاريخ حلفاء جنكيزخان – تعريب فؤاد عبد المعطي الصياد دار النهضة العربية بيروت الطبعة الأول 1983م.
17. جوامع التواريخ . تاريخ المغول الايلخانيون ، تاريخ هولاكو ، تعريب فؤاد عبد المعطى ومحمد صادق، دار إحياء الكتب العربية ، مصر
18. ركن الدين بيبرس المنصوري الدوا دار : زبده الفكرة في تاريخ الهجرة ، تحقيق دونالدس ، ريتشاردز بيروت الشركة المتحدة للتوزيع 1419 هـ / 1998 م
19. شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي :معجم البلدان دار أحياء التراث العربي بيروت لبنان الطبعة الأولي 1429هـ 2008م

20. شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري :نهاية الإرب في فنون الأدب تحقيق نجيب مصطفي فواز وحكمت كتلي فواز منشورات محمد علي بيضون دار الكتب العلمية لبنان الطبعة الأولي 2004م
21. عبد الرحمن محمد بن خلدون :تاريخ ابن خلدون المسمي كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، الطبعة الثالثة، دار الكتب العلمية ، 1427هـ / 2006م
22. عز الدين أبي الحسن علي بن علي أبي الكرم المعروف بابن الأثير :الكامل في التاريخ دار صادر بيروت 1402هـ 1982م
23. عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد : تاريخ الملك الظاهر 684هـ /1258م الهيئة العامة لعصور الثقافة القاهرة 2009م
24. عماد الدين إسماعيل أبي الفداء : المختصر في أخبار البشر الجزء الثالث (بدون تاريخ)
25. غريقرويوس الملطي المعروف بابن العبري : تاريخ مختصر الدول – دار الأفاق العربية الطبعة الأولي 1427هـ – 2001م
26. محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي المعروف بابن بطوطة :رحلة ابن بطوطة ألمسماه تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار الشركة العلمية للكتاب الطبعة الأولي 1991م
27. محمود بن أحمد المعروف بالبدر العيني : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر تحقيق هانس ارنست دار أحياء الكتب العربية المصرية ، 1962 م
28. محمود بن أحمد المعروف بالبدر العيني : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر تحقيق هانس ارنست دار إحياء الكتب العربية مصر 1962م
29. محي الدين بن عبد الظاهر :تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور تحقيق مراد كامل وزارة الثقافة والإرشاد القومي مصر 1969م الروض الزاهر قي سيرة الملك الظاهر الطبعة الثانية تحقيق عبد العزيز الخويطر 1976 م

30. يوسف بن تغرى بردى الاتابكى جمال الدين أبو المحاسن المنهل الصافي والمستوفى بعد الكافي الجزء الأول ، تقديم سعيد عبد الفتاح عاشور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1984م

ثانيا المراجع العربية :

1. إبراهيم احمد العدوى : التاريخ الاسلامى آفاقه السياسية وأبعاده الحضارية مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة (دون تاريخ)
2. احمد بن زيني دحلان الفتوحات الإسلامية ، الجزء الثاني ، دار صادر بيروت،2009 م
3. أحمد شلبي موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية مكتبة النهضة المصرية الطبعة الثانية 1982م .
4. أحمد عبد الرازق :مصر الإسلامية منذ الفتح العربي وحتى الفتح العثماني مكتبة سعيد رأفت عين شمس 1984م
5. احمد عودات وجميل يبيضون وشحادة الناطور تاريخ المغول والمماليك من القرن السابع الهجري حتى الفرن الثالث عشر الهجري دار الكندي ، اربد 1990م
6. أحمد مختار العبادى وإبراهيم محمد على مرجونة :المغول والحضارة الإسلامية رحلة المغول من الاستكبار إلى الانصهار مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية ، 2010م
7. أحمد مختار العبادي : في التاريخ الأيوبي والمملوكي دار المعرفة الجامعية 1998م
8. أحمد مختار العبادي : قيام دولة المماليك الأولي في مصر والشام ، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية 2006م
9. إيناس حسنى البهجى دولة المماليك البداية والنهاية دار التعليم الجامعي الإسكندرية ، 2015م

10. ثروت عكاشة : إعصار من الشرق جنكيزخان ، دار الشروق بيروت الطبعة الخامسة 1992م
11. ثروت عكاشة : جنكيز خان الإمبراطور الدموي ، دار الفكر العربي ، القاهرة، 1951م.
12. جلال الدين السيوطي : تاريخ الخلفاء الطبعة الأولي مكتبة الإيمان المنصورة 1423 هـ /2003 م
13. حافظ أحمد حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول غزو جنكيز خان للعالم الإسلامي وأثاره السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية . دار الفكر العربي القاهرة 1949م
14. حامد زقان غانم :محاضرات في تاريخ الأيوبيين والممالك دار الثقافة العربية بدون تاريخ
15. حسن أحمد محمود وأحمد إبراهيم الشريف :العالم الإسلامي في العصر العباسي دار الفكر العربي الإسلامي القاهرة 1995م
16. حسن خليفة : الدولة العباسية قيامها وسقوطها الطبعة الأولي المكتبة الحديثة القاهرة (دون تاريخ)
17. حمدي عبد المنعم حسين : دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك – دار المعرفة الجامعية 1998م
18. هـ.ج . ويلز : موجز تاريخ العالم ترجمة عبد العزيز توفيق مكتبة النهضة المصرية (بدون تاريخ)
19. راغب السرجاني : قصة التتار من البداية إلي عين جالوت مؤسسة أقرا للنشر القاهرة 1427هـ- 2006م
20. رجب محمد عبد الحليم : انتشار الإسلام بين المغول دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت 1986م
21. سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر ألمماليكي في مصر والشام – النهضة العربية القاهرة الطبعة الأولي 1905م .

22. سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الاسلامى في العصور الوسطى ، الجزء الثاني ، الطبعة الأولى ، مكتبة الانجلو المصرية 1963
23. سعيد عبد الفتاح عاشور : تاريخ أوربا في العصور الوسطى ، الجزء الأول ، التاريخ السياسي ، الطبعة الرابعة ، مكتبة الانجلو المصرية ، 1966م .
24. السيد الباز العريني : المغول ، دار النهضة العربية بيروت 1406هـ 1986م.
25. السيد الباز العريني :المماليك ، دار النهضة العربية 1967م
26. السيد طه أبو سديرة : تاريخ الإسلام في شبهة القارة الهندية من الفتح العربي إلي الغزو التيموري المغولي 93 – 814هـ الهيئة المصرية العامة للكتاب2009م
27. السيد عبد العزيز سالم وسحر عبد العزيز سالم تاريخ الأيوبيين والمماليك مؤسسة شباب الجامعة ،الإسكندرية ،2001م
28. الشيخ محمد الخضري : محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية الدولة العباسية ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العالمية ، بيروت، ط1 ، 1998م.
29. اكتمال إسماعيل ، الُار الإجتماعية والاقتصادية للحملات المغولية على بلاد الشام ، 1400/1250م ، دار رسلان للطباعة والنشر والتوزيع ، الأردن ، 2017م.
30. صبحي عبد المنعم : المغول السياسة والصراع سياسة المغول الايلخانين تجاه دولة المماليك في مصر والشام زمن الايلخان أبي سعيد ابن خدا بند 716– 736هـ / 1316 – 1335م ، العربي للنشر والتوزيع القاهرة 2001م

31. عادل إسماعيل محمد هلال : العلاقات بين المغول واروبا وأثرها علي العالم الإسلامي الطبعة الأولي عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية 1997م
32. عباس العزاوي : تاريخ العراق بين الاحتلالين حكومة المغول الجزء الأول 656- 738هـ 1258 – 1338م مطبعة بغداد 1935م .
33. عبد الحميد ألعبادي إبراهيم أحمد العدوى ومحمد مصطفي زيادة : الدولة الإسلامية تاريخها وحضارتها دار مصر للطبع والنشر (دون تاريخ)
34. عبد السلام عبد العزيز فهمي : تاريخ الدولة المغولية في إيران دار المعارف القاهرة 1981 م
35. عصام شبارو : تاريخ المشرق العربي الإسلامي منذ دخول السلاجقة بغداد حني دخول العثمانيون القاهرة 447 – 923هـ 1055 – 1517م دار الفكر اللبناني
36. عصام عبد الرؤوف الفقي : الدولة الإسلامية المستقلة في الشرق – دار الفكر العربي القاهرة 1987م
37. علي إبراهيم حسن : تاريخ دولة المماليك البحرية الجزء الثالث مكتبة النهضة المصرية 1976م
38. فايد حماد محمد عاشور : الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والمغول في العصر المملوكي ، الطبعة الأولي جروس برس لبنان 1995م
39. فؤاد عبد المعطى الصياد المغول في التاريخ الجزء الأول ، دار النهضة العربية للنشر ، بيروت ، 1980م.
40. فؤاد عبد المعطي الصياد ، الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين ، مركز الوثائق والدراسات الإنسانية ، قطر ، 1987م.
41. قاسم عبده قاسم : عصر سلاطين المماليك دار الشروق الطبعة الأولي القاهرة 1994م.

42. قاسم عبده قاسم : السلطان المظفر سيف الدين قطز ،بطل موقعة عين جالوت الطبعة الأولى 0دار العلم دمشق ،1419 ھ / 1998م
43. قاسم عبده قاسم وعلي السيد علي : الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري ع للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية القاهرة 1996م
44. محمد السيد الفتوحات الإسلامية مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية 2007م.
45. محمد جمال الدين سرور : الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عهده القاهرة 1938م
46. محمد جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيبرس في مصر دار الفكر الغربي القاهرة 1960م.
47. محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون في مصر الحياة السياسية والاقتصادية في عهدها بوجه خاص دار الفكر العربي 1947 م
48. محمد سعيد مرسي : كبرى المعارك والفتوحات الإسلامية مؤسسة أقرأ مصر 1423ھ /2003 م
49. محمد سهيل طقوس : تاريخ المغول العظام والايلخانين دار النفايس بيروت – الطبعة الاولي 1428ھ / 2007م
50. محمد سهيل طقوش : تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام دار النفايس بيروت الطبعة الثانية 1989م
51. محمد صالح داؤود القزاز : الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية مطبعة القضاء النجف 1390ھ /1970م
52. محمد عبد العزيز مرزوق : الناصر محمد بن قلاوون المؤسسة المصرية العامة 1964م
53. عباس إقبال ، : تاريخ إيران بعد الإسلام ، تعريب محمد علاء الدين منصور دار الثقافة والنشر القاهرة 1989م

54. محمد علي الصلابي : الأيوبيون بعد صلاح الدين موسسة أقرا للنشر الطبعة الأولي 1429 -2008م.
55. محمد علي الصلابي : المغول التتار بين الانتشار والانكسار الأندلس الجديدة القاهرة الطبعة الأولي 2009م
56. محمد علي كرد : الإسلام والحضارة العربية الجزء الأول الطبعة الثانية لجنة التأليف والنشر والترجمة القاهرة 1950م
57. محمد ماهر حمادة : وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي 489 – 1206هـ 1096- 1404م مؤسسة الرسالة بيروت 1403 – 1983م هـ .
58. محمود سعيد عمران : المغول والاروبيون والصليبيون وقضية القدس دار المعرفة الجامعية 1430هـ /2009م.
59. محمود سعيد عمران : المغول واروبا دار المعرفة الجامعية الإسكندرية 1994م
60. محمود نديم أحمد فهيم : الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري 648هـ -783 هـ / 1250 -1383م الهيئة المصرية العامة للكتاب 1983م
61. مصطفي طه بدر : محنة الإسلام ألكبري أو زوال الخلافة العباسية من بغداد علي أيدي المغول الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة الثانية 1999م .
62. مفيد الزيدي : موسوعة التاريخ الإسلامي العصر المملوكي 648هـ – 923هـ -1258-1517 م ، دار أسامة لنشر والتوزيع الأردن 2009م
63. نادية محمود مصطفي : العصر المملوكي من تصفية الوجود الصليبي الي بداية الهجمة الأوربية الثانية 642 – 923هـ 1258- 1517م المعهد العالي للفكر الإسلامي القاهرة 1996 م

64. ناصر الأنصاري : المجمل في تاريخ مصر النظم السياسية والإدارية دار الشروق الطبعة الأولي 1413 – 1993م موسوعة حكام مصر الطبعة الرابعة القاهرة 1990 م
65. نعمان الطيب سليمان : جهود المماليك في تصفية الوجود الصليبي والمغولي مطبعة الأمانة القاهرة 1984م
66. نور الدين خليل : سيف الدين قطز قاهر المغول مؤسسة حورس الدولية الإسكندرية الطبعة الأولي 2005م.
ثالثاً المراجع العربية المعربة:
1. ادم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري تعريب محمد عبد الهادي أبو ريدة الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة 2008م
2. كلود كأمان : تاريخ العرب والشعوب الإسلامية منذ ظهور الإسلام وحتى بداية الامبرطورية العثمانية دار الحقيقة بيروت الطبعة الثانية 1983م .
3. هارولد لام : جنكيز خان وجحافل المغول ترجمة منزي أمين تقديم ذكي نجيب محمود مكتبة الانجلو المصرية القاهرة 1962 م
4. ادورد براون : تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي الي سعدي تعريب إبراهيم أمين الشواربي الطبعة الأولي مكتبة الثقافة الدينية القاهرة 1424هـ /2004م منشورات محمد علي بيضون دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولي 1419هـ – 1998م
5. بارتولد شيولر : العالم الإسلامي في العصر المغولي تعريب خالد اسعد عيسي دار حسان دمشق الطبعة الأولي 1986م
6. رينيه غروسيه : جنكيز خان قاهر العالم تعريب خالد أسعد عيسي دار حسان دمشق 1982م
7. ستيفن رانسمان تاريخ الحروب الصليبية الجزء الثالث القسم الثاني ، نقله إلى العربية السيد الباز العرينى ، دار الثقافة بيروت ، لبنان ، 1417هـ /1997م

8. سيد أمير علي : مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي ترجمة رياض رأفت الطبعة الأولي دار الأفاق العربية 1421 هـ / 2001 م
9. سير توماس . و . ارنولد الدعوة إلي الإسلام . ترجمه إلي العربية حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين مكتبة النهضة المصرية 1971م
10. غوستاف لويون حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، الهيئة العامة للكتاب القاهرة 2001م .
11. فاسيلي فلاد يميرو فرتش بارتولد : تركستان من الفتح العربي إلي الغزو المغولي تعريب صلاح الدين عثمان هاشم الكويت 1981م
12. فايد حماد محمد عاشور : العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية ، ترجمة وتحقيق جوزيف نسيم مصر دار المعارف 1974م .
13. وليم موير : تاريخ دولة المماليك في مصر ترجمة محمود عابدين وسليم حسن مطبعة المعارف الطبعة الأولي 1342هـ – 1924 م

رابعاً : أ/الرسائل الجامعية المنشورة:

1. رحمة بنت حمود بن فطيس : العلاقات السياسية لدولة ايلخانات المغول 658 –756 هـ /1260 –1255 م رسالة منشورة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الاسلامى، مكة 1434هـ /1013م
2. عبد الله سعيد محمد الغامدى : جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين رسالة دكتوراه منشورة في التاريخ الاسلامى ، جامعة أم القرى 1407هـ /1986م.

ب/الرسائل الجامعية غير المنشورة:

1. إيمان خليفة أحمد محمد ، السمات الحضارية لدولة المماليك في مصر ، 1250–1517م ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة الخرطوم ، 2013م
2. جليلة حسن محمد أحمد ، الصراع الأيوبي الصليبي وأثره في سقوط الدولة الأيوبية ، 1193–1252م ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة شندي ، 2010م.

خامساً: الدوريات :

1 . إبراهيم سليمان عيسى : رمضان شهر المعارك الظافرة مجلة منار الإسلام العدد التاسع السنة الحادية والعشرون يناير 1996م

2 . عباس عبد الستار عبد القادر الزهاوى التحالف الصليبي المغولي ضد العالم الاسلامى 651 – 722هـ / 1253 –1322م ، مجلة التراث العلمي العربي ، العدد الأول 2014م

سادساً: المصادر الأجنبية:-

1 . B. E . G. Brown: Aliterary History of Persia, Cambridge University Press, 1951.

2 . Sir Henry Hayle Howorth, History of Mongols from the 9th to the 19th century, London 1927.

3 .J. I. Saunder: The History of Mongol Conquest – London, 1971.

4 . A. A. Vasiliev: History of the Byzantine Empire, Madison, 1928 – 1937.

5 . Sir Percy Sykes: A History of Persia. London , 1963.

6 . Philip. K. Hitte: History of Arab, Co-Limited street, London, 1940.

7 . P. M. Holt: The Cambridge History of Islam and A M N R. S. Lambton, Volume 1, Cambridge at the University Press, 1970.

8 . Norman F. Contor, Med History, (2nd Macmillan, New York, 1969)

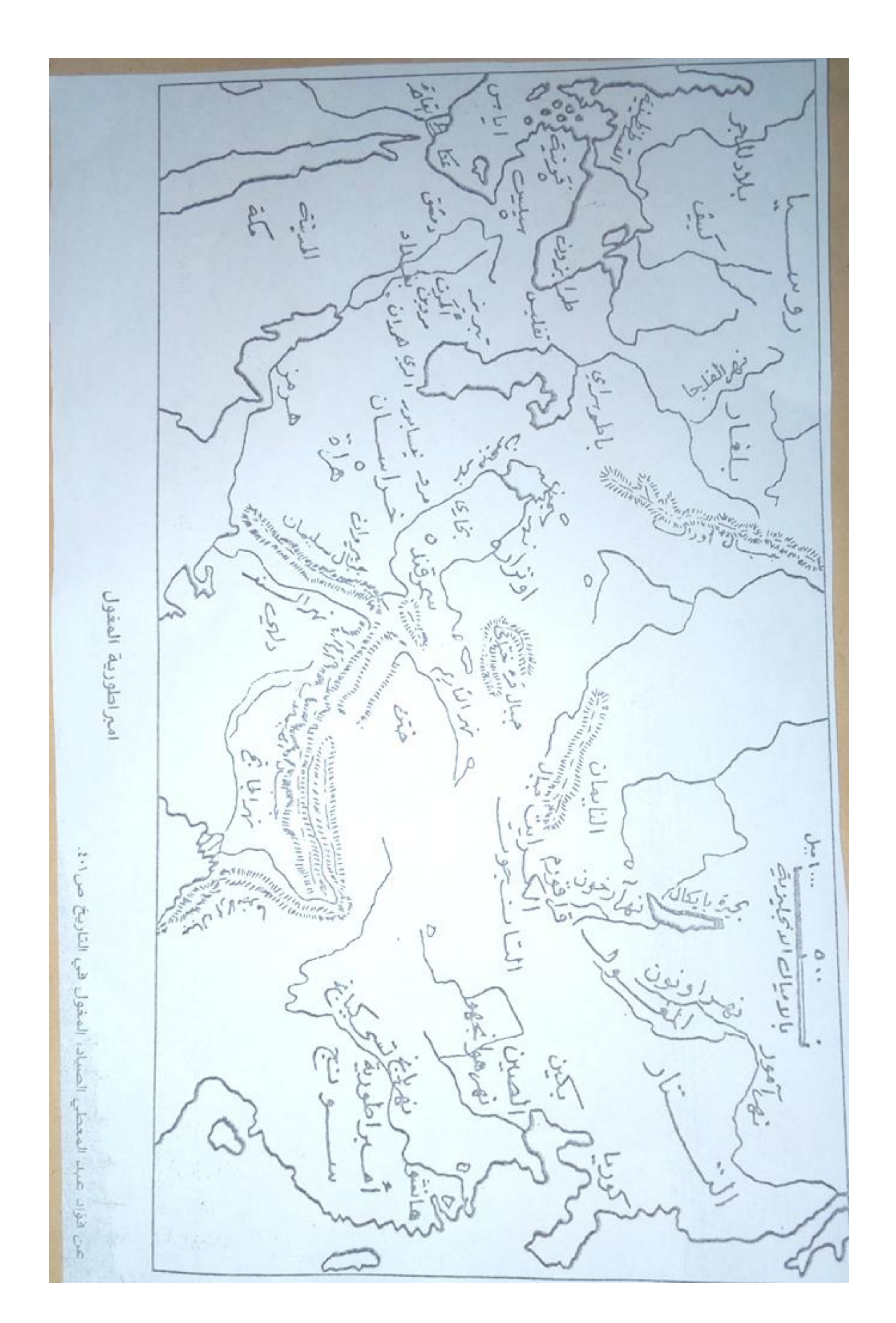
9 . Richard Coke, Baghdad the city of Peace, London 1927.

10. T.W.Arnold: The Preaching of Islam, London, 1935.

11. Runciman Steven, A History of the crusads , New York Conbridge University, Press, 1952.

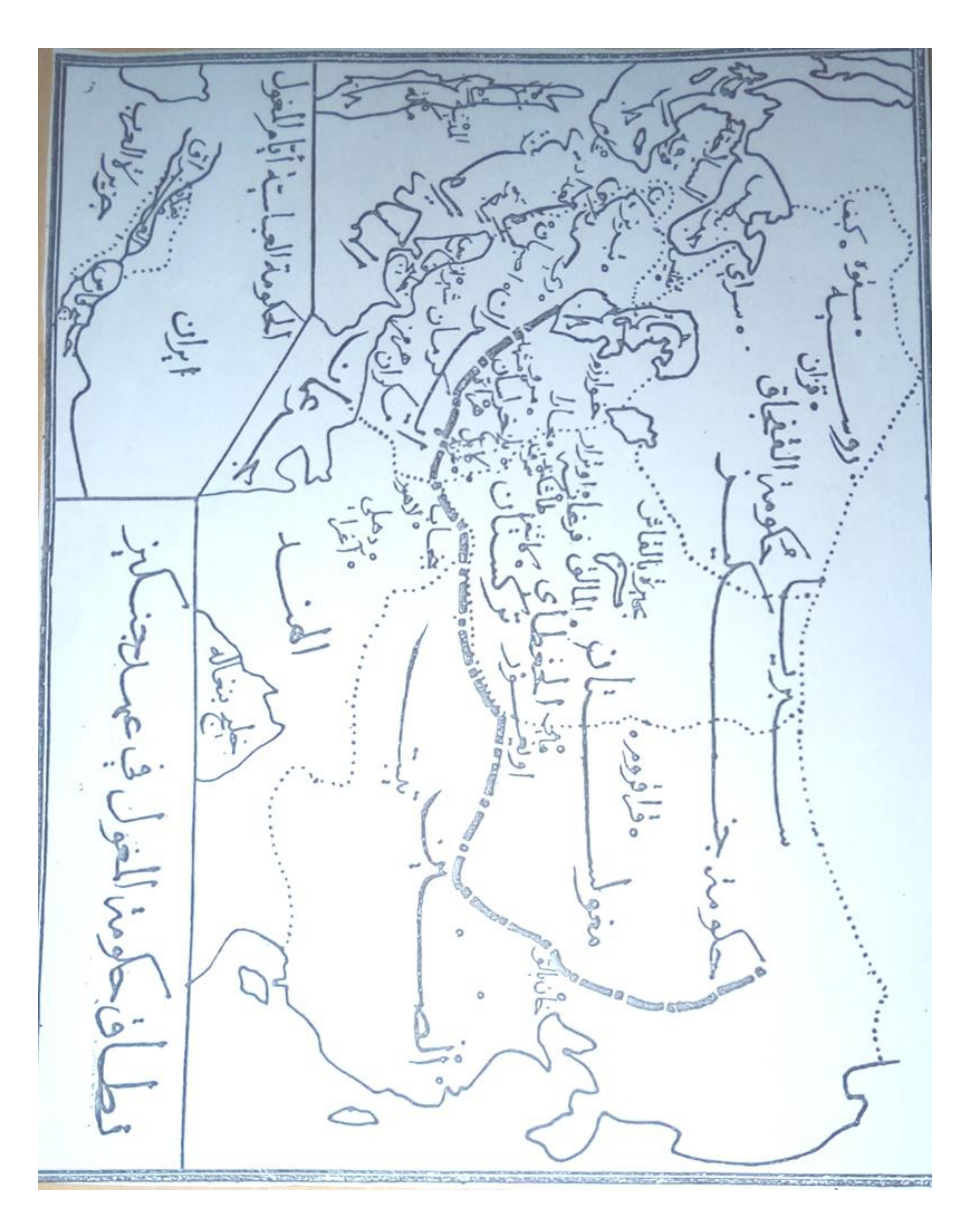
الملاحـــــــــق

ملحق رقم (1) إمبراطورية المغول (*)



محمد سهيل طقوس : تاريخ المغول العظام والايلخانين دار النفايس بيروت – الطبعة الاولي 1428هـ / 2007م ، ص172

ملحق رقم (2) نطاق حكومة المغول في عهد جنكز خان(*)



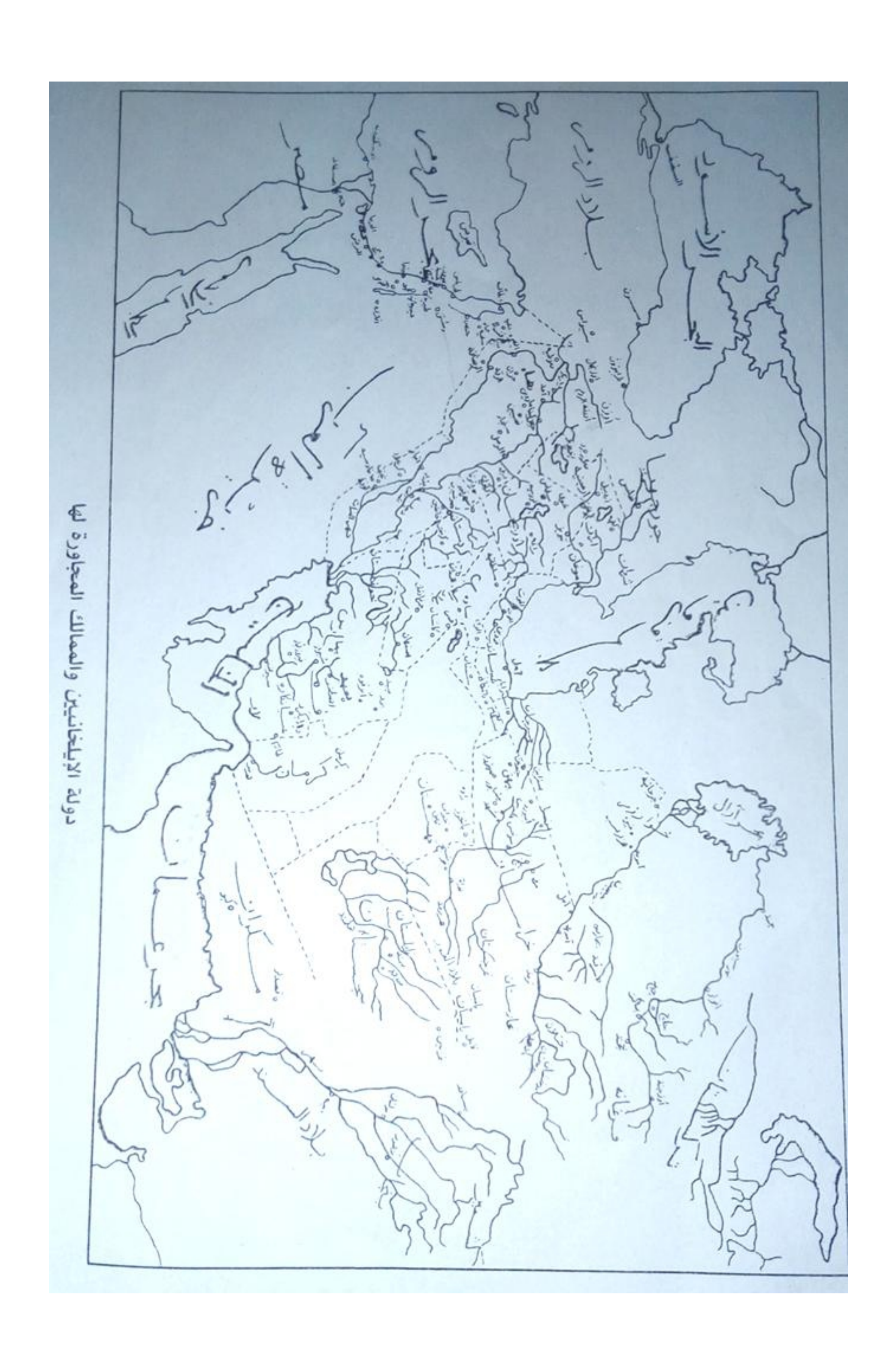
عباس العزاوي : تاريخ العراق بين الاحتلالين حكومة المغول الجزء الأول 656- 738هـ 1258 – 1338م مطبعة بغداد 1935م ، ص 465

ملحق رقم (3) الحكومة الايلخانية في العراق (*)



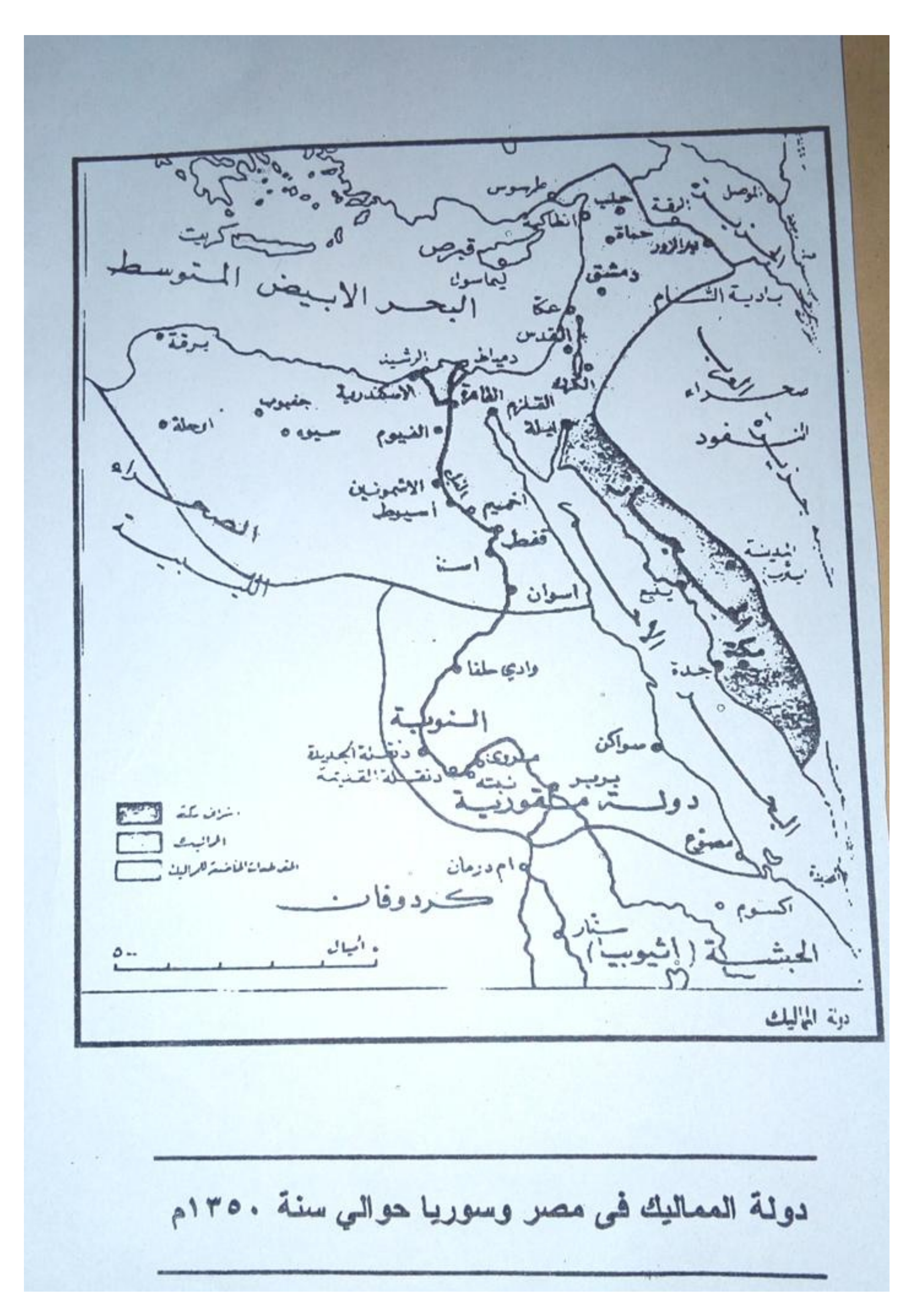
عباس العزاوي : تاريخ العراق بين الاحتلالين حكومة المغول الجزء الأول 656- 738هـ 1258 – 1338م مطبعة بغداد 1935م ، ص 441

ملحق رقم (4) دولة الايلخانيين (*)



محمد سهيل طقوس : تاريخ المغول العظام والايلخانين دار النفايس بيروت – الطبعة الاولي 1428هـ / 2007م ، ص229

ملحق رقم (5) دولة المماليك (*)



دولة المماليك فى مصر وسوريا حوالي سنة ١٣٥٠م

نور الدين خليل ، سيف الدين قطز ، قاهر المغول، الطبعة الاولي، مؤسسة حورس الدولية ، الإسكندرية ، 2005 ، ص28

ملحق رقم (6) حاخانات المغول الايلخانيين حتى أبوسعيد بهادور ومدة حكم كل منهم (*)

هولاكو	١٢٥٣ – ١٢٦٥م
اباقا بن هولاكو	١٢٦٥ – ١٢٨٣م
أحمد توكو داربن هولاكو	١٢٨٣ – ١٢٨٤م
ارغوت بن اباقا	١٢٨٤ – ١٢٩١م
كيقانو بن اباقا	١٢٩١ – ١٢٩٥م
بايدو بن طرغاي	1295-1295م
غازان بن ارغون	١٢٩٥ – ١٣٠٤م
اوليجايتو بن خدابنده	١٣٠٤ – ١٣١٧م
ابو سعيد بهادور	١٣١٧ – ١٣٣٥م

ثم انقسمت البلاد وقام في حكمها المتقلبون من المغول والامراء المحليون حتي قام تيمورلنك بالاستيبلاء عليها سنة ٧٨٦هـ – ١٣٨٤م .[١]

١ . رجب محمد عبد الحليم انتشار الاسلام بين المغول دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت ١٩٨٦ ص ٢٧٤

رجب محمد عبد الحليم ، إنتشار الإسلام بين المغول ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، 1986م ، ص 274

ملحق رقم (7) سلاطين دولة المماليك البحرية648-784 هـ /1250 - 1382م ([1])

المعز عز الدين ايبك الجاشنكير التركمانى	649هـ - 1250 م
المنصور نور الدين على بن المعز ايبك	655هـ - 1257م
المظفر سيف الدين قطز	657 هـ -1259م
الظاهر ركن الدين ابو الفتح بيبرس البندقدارى الصالحى	658 هـ -1260م
السعيد ناصر الدين ابو المعالى محمد بركة خان	676هـ -1277م
العادل بدر الدين سلامش	678هـ -1279م
المنصور سيف الدين قلاوون الالفى	679هـ -1279م
الاشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون	689هـ -1290م
الناصر محمد بن قلاوون (سلطنته الاولى)	693 هـ -1292 م
العادل زين الدين كتبغا المنصورى	694 هـ -1294م
المنصور حسام الدين لاجين النتصورى	696هـ -1296م
الناصر محمد بن قلاوون (سلطنته الثانية)	698هـ -1298م
المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير	708 هـ -1308م
الناصر محمد بن قلاوون (سلطنته الثالثة)	709 هـ -1309م